موسوعة تاريخ الحروب الصليبية (3)

صلاح الدين الأيوبي

وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس

د. علي محمد محمد الصَّلاَّبي

الإهداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله ونصرته، أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى، عز وجل، بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يكون خاصاً لوجهه الكريم.

قال تعلى: "فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً" (الكهف: 110).

2

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

"يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون"(آل عمران، 102).

"يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً، ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً" (النساء، آية:1).

"يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً"(الأحزاب، آية: 71،70).

أما بعد : يارب لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة وعهد الدولة الأموية، وعهد السلاجقة، وعصر الدولة الزنكية، ودولة المرابطين والموحدين، وعهد الدولة العثمانية وقد صدر منها: السيرة النبوية، وأبو بكر وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والحسن بن علي، ومعاوية بن أبي سفيان وعمر بن العزيز، وفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، والثمار الزكية للحركة السنوسية والسلطان محمد الفاتح، والشيخ عبد القادر الجيلاني، والإمام الغزالي، وحقيقة الخلاف بين الصحابة، وفكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة والوسطية في القرآن الكريم وعقيدت المسلمين في صفات رب العالمين. وقد سميت هذا الكتاب : صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس ويعتبر حلقه مهمه في سلسلة الحروب الصليبية والتي خرج منها السلاجقة والزنكيون والتي نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى

وصفاته العلى أن تكون لوجهه خالصة ولعباده نافعة ويطرح فيها القبول والبركة ويرزقنا حسن القصد وإخلاص النية لوجهه العلي الكبير ويوفقنا لإكمال الموسوعة التاريخية التي نسعى لإخراجها.

وهذا الكتاب يتحدث عن صراع المشاريع، بين المشروع الصليبي والفاطمي الشيعي، والمشروع الإسلامي السني، فقد لخص الفصل الأول؛ الحملات الصليبية التي سبقت قيام الدولة الأيوبية، فتكلم عن الجذور التاريخية للحروب الصليبية، كالصراع البيزنطي الإسلامي في صدر الدولة الإسلامية، والأسباني الإسلامي بالأندلس، وطبيعة الحركة الصليبية التي قادها أوربان الثاني، وحركة الألتفاف على العالم الإسلامي التي تصدى لها العثمانيون وحركة الاستعمار الحديث، وأشرت إلى أهم أسباب ودوافع الغزو الصليبي، كالدافع الديني والسياسي والاجتماعي، والاقتصادي، وتبدل ميزان القوى في حوض البحر المتوسط في صقيلة والأندلس، وإفريقية، واستنجاد أمبراطور بيزنطة بالبابا وشخصية أوربان الثاني ومشروعه الشامل للغزو الصليبي وحملته الدعاية، وعقليته التنظيمية وشرحت بدء الحرب الصليبية الأولى واستراتجيتهم بعد الاحتلال، وظهور حركة المقاومة في العهد السلجوقي، والمشاركة الفعلية للفقهاء والقضاة في ساحات الجهاد، وتحريضهم على القتال في ساحات المعارك، ودور الشعراء في حركة المقاومة، وترجمت لقادة الجهاد من السلاجقة الذين سبقوا عماد الدين زنكي، وجهودهم في التصدي للغزاة كقوام الدولة كربوقا صاحب الموصل، وجكرمش أمير الموصل، وسقمان بن اتق حاكم ماردين وديار بكر وقلج أرسلان أمير سلاجقة الروم وشرف الدولة مودود بن التونتكين حاكم الموصل والذي تعتبر حملاته الجهادية مقدمة لحملات عماد الدين زنكي، وأشرت لمعوقات حركة الجهاد في عهد أمراء السلاجقة والتي كان من أهمها الباطنية، التي أثبتت عداءهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، وكأن خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقاً نحو تثبيت أقدامهم في بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين، وهكذا أثبتت وقائع التاريخ كيف التقى قادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر في بعض الأحيان في الشهادة — فمن قبل اغتيل شرف الدين مودود، والآن نجد آق سنقر البرسقي يلقى نفس المصير وقد عكس ذلك كله: أن مسلك الإسماعيلية النزارية في ذلك الحين كان من أخطر معوقات حركة الجهاد ضد الغزاة نظراً لوجود عدوين في وقت واحد أمام القيادات المسلمة السنية على نحو عكس المشاق البالغة التي واجهت أولئك القادة في الدفاع عن عقيدة الأمة ودينها وأبرزت جهود عماد الدين التي استطاع من خلالها أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكون لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارع وعسكري متمكن ومسلم واعٍ أدرك الخطر الذي أحاط بالعالم الإسلامي من قِبل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية لصالح المسلمين وذلك بتجميعه القوى الإسلامية بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة استطاع

بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج من تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين ويعتبر فتح الرها عام 539هـ من أهم إنجازات عماد الدين وكان لسقوطها في أيدي المسلمين ردة فعل عنيفة في الغرب الأوروبي وباعثاً على السرعة في إرسال حملة صليبية جديدة بعد أن أثار سقوطها الرعب في النفوس، فقد جاء سقوطها إيذاناً بتزعزع البناء في الشرق الأدنى وقد تصدى نور الدين وسيف الدين غازي أبناء عماد الدين للحملة الصليبية الثانية على دمشق، وحققوا انتصاراً مع أهالي دمشق كبيراً على الحملة الصليبية الثانية ولقد نجح نور الدين في استغلال الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية في توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق، ثم استأنف جهاد الصليبيين بنجاح مما شجع القوى الإسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والآراتقة والتركمان على التقدم لمواجهة الصليبيين خاصة في الرها وأنطاكية بل وتحالفوا أيضاً في جهودهم حتى استطاع نور الدين زنكي أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قياداته من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً فقامت دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التي امتدت من الفرات إلى النيل والتي تصدت بحق لهذا الخطر الصليبي، وقد تحدثت عن فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية وعن جذور الشيعة الإسماعيلية والدولة الفاطمية وعن جرائمهم البشعة في الشمال الأفريقي، كغلو بعض دعاتهم في عبيد الله المهدي، والتسلط والجور، وتحريم الإفتاء على مذهب الإمام مالك، وإبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة" ومنع التجمعات وإتلاف مصنفات أهل السنة، ومنع علماء أهل السنة من التدريس وعطلوا الشرائع وأسقطوا الفرائض، وإجبار الناس على الفطر قبل رؤية الهلال، وإزالة آثار خلفاء السنة، دخول خيولهم المساجد وتكلمت عن أساليب المغاربة في مواجهة الدولة الفاطمية، كالمقاومة السلبية والجدلية، والمقاومة عبر التأليف، ودور شعراء أهل السنة، وبينت كيف زالت الدولة الفاطمية من شمال إفريقيا وكيف انتقلت إلى مصر، وذكرت جهود المدارس النظامية في حركة الإحياء السني والتصدي للفكر الشيعي، وجهود الإمام الغزالي في دحر الشيعة، والحملات النورية العسكرية على مصر، كالحملة الأولى، والحملة النورية الثانية، والحملة النورية الثالثة على مصر، وتحدثت عن إلغاء الخلافة الفاطمية، والتدرج في إلغاء الخطبة للخليفة الفاطمي، والاعتبار والاتعاظ من زوال الفاطميين من مصر والوسائل التي اتخذها صلاح الدين للقضاء على المذهب والتراث الفاطمي، كإذلال الخليفة الفاطمي العاضد، ووضعه من مكانة قصر الخلافة الفاطمي وقطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية وألغى جميع الأعياد المذهبية الفاطمية، ومحو رسوم الفاطمية وعملاتهم، والحفاظ على أفراد البيت الفاطمي، وإضعاف العاصمة الفاطمية، وأحياء الأيوبيين لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي، الاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن، وذكرت فتوحات صلاح الدين في عهد نور الدين زنكي، جهاد الصليبيين

وإخراجهم من بلاد المسلمين، وحقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين وفي الفصل الثاني كان حديثي عن قيام الدولة الأيوبية، فذكرت أصول أسرته ونشأته وولادته ومتى بدأت الدولة الأيوبية والرصيد الخلقي لصلاح الدين، كتقواه وعبادته، وعدله، وشجاعته، وكرمه، واهتمامه وحلمه، ومحافظة على أسباب المروءة، وصبره واحتسابه، الوفاء، وعقيدة الدولة وتوسع الأيوبيين في إنشاء المدارس السنية، كالمدرسة الصلاحية، ومدرسة المشهد الحسيني، والمدرسة الفاضلية، ودار الحديث الكمالية، والمدرسة الصالحية وجهودهم العلمية في الشام والجزيرة، وعناصر الثقافة السنية في العهد الأيوبي، كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وأصول العقيدة السنية والدراسات الفقهية، واهتمام الأيوبيين بحماية طريق الحج والحرمين الشريفين، ومحاربة الأيوبيين للتشيع في مصر والشام واليمن وتكلمت عن مكانة العلماء والفقهاء عند صلاح الدين، كالقاضي الفاضل، الذي كانت له مساهمات في ديوان الإنشاء، وتطوير جيش صلاح الدين، والقضاء على المعارضة الفاطمية وإعادة التنظيم الإداري في مصر وجهوده في الأحياء السني في مصر وجهاده ضد الصليبيين وعن توظيف الأدب في خدمة الإسلام وحرصه على وحدة العالم الإسلامي، فقد كان القاضي الفاضل المتحدث الرسمي بلسان السلطان صلاح الدين في الداخل والخارج، وكان على قول ابن كثير أعز عليه من أهله وولده وكان السلطان يشيد بفضله فيقول: لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل، وقد بلغ القاضي الفاضل مكانة سامية في الدولة، فكان الساعد الأيمن لصلاح الدين إذ جعله وزيره ومشيره بحيث كان لا يصدر أمراً إلا عن مشورته ولا ينفذ شيئاً إلا عن رأيه ولا يحكم في قضية إلا بتدبيره. وهذا العالم من فقهاء النهوض والأمة في أشد الحاجة لمثل سيرته فتعلمنا سيرته، أهمية عدم الانعزال في الشأن العام والعمل الاجتماعي والحكومي والحرص على كسب الخبرات، وأهمية التميز في أداء العمل والتمسك بمنهج أهل السنة والتعاون مع إخوانه في العقيدة الصحيحة، وتوظيف القدرات والأمكانات لخدمة المشروع السني، فقد قدّم لصلاح الدين النماذج السنية القيادية والخطط العملية، ولم يبخل على صلاح الدين برأي ولا مشورة ولا تجربة، كما أن حياة هذا الرجل مدرسة في فهم مقاصد الشريعة وفقه المصالح والمفاسد وبناء الدول وزوالها وترك لنا منهجاً في التعامل مع الشيعة وأهمية معاملة عامتهم بقوانين العدل ومحبة الخير لهم وعدم سفك دمائهم والحرص على تعليمهم وإنما يكون استخدام القوة ضد المؤامرات والتكتلات العسكرية ومع من لا يجدي معهم إلا استخدام القوة، كالدولة الفاطمية في مصر فقد ساهم في وضع الخطط والأساليب والوسائل للقضاء عليها سياسياً وعسكرياً وفكرياً، وبينت جهود أبي الطاهر السَّلفي وأبي الطاهر بن عوف المالكي في خدمة الإسلام في الإسكندرية وحرص صلاح الدين على زيارتهم والأخذ من علومهم، وتحدثت عن الفقيه عيسى الهكاري واسناده لصلاح الدين في وزارته، وإصلاحه بين نور الدين وصلاح الدين ومساهمته في الصلح مع أهل الموصل، ونجاحه في تنفيذ المهمات الخاصة الموكلة إليه وشجاعته في الحروب وقيادته الميدانية

في المعارك، وترجمت للعماد الأصفهاني القاضي الإمام العلاّمة المفتي، الوزير، وبينت جهوده في خدمة المشروع الإسلامي السني، وخلاصة القول أن العلماء والفقهاء كانوا يحتلون مكانه عظيمة وحظوة كبيرة عند صلاح الدين ونالوا منه كل عطف ورعاية واحترام وتقدير من الناحيتين المادية، والمعنوية، وبينت الإصلاح الاقتصادي واهتمامه بالزراعة والتجارة والصناعات، وإلغاء المكوس والاكتفاء بالموارد الشرعية وبناؤه للمستشفيات، والخوانق "بيوت الصوفية" والخانات في الأماكن المنقطعة البعيدة عن العمران، وفي الطرق الموصلة بين المدن وذلك لخدمة أبناء السبيل والمسافرين، واهتمامه بالإصلاح الاجتماعي ومحاربته للعوائد والتقاليد المنحرفة والأخلاق الرديئة، وأشرت للإصلاحات العمرانية والإدارية ورجال الإدارة في عهده، وشرحت النظم العسكرية في عهده، كتطور الإقطاع الحربي، وديوان الجيش وزي الأجناد، والتموين والتعبئة العسكرية، والفرق الملحقة بالجيش، كالهندسية، والطبية وتنظيم البريد والاستخبارات، وإدارة شؤون القتال والسلم، والأسرى، ومجلس الحرب، وخطط وأساليب القتال، كأسلوب الحرب الخاطفة، وخطة القتال بالتناوب، وتخريب المدن، وتأمين الطرق، وتحصين الثغور والقلاع والحصون، والاستفادة من مواسم القتال، ومعاملة الأسرى والمعاهدات بين صلاح الدين والصليبيين، وأسلحة الجيش الأيوبي والبحرية الإسلامية، ودور المغاربة في الأسطول الصلاحي، وبينت جهوده في توحيد الجبهة الإسلامية ومحاولات الشيعة الإسماعيلية للقضاء عليه، عن طريق الاغتيالات ولكنّها فشلت بحمد الله وتوفيقه وأسلوب صلاح الدين لتأديبهم وعلاقته مع الخلافة العباسية والدولة البيزنطية والصليبيين قبل حطين، وترتيبه للأمور الإدارية والعسكرية قبل المعركة الفاصلة وفي الفصل الثالث من الكتاب كان الحديث عن معركة حطين، وفتح بيت المقدس والحملة الصليبية الثالثة، وشرعت في بيان أحداث معركة حطين وبداية الهجوم الإسلامي، والحرب الصليبية عند صلاح الدين، وخسائر الصليبيين وأسباب الانتصار في معركة حطين، من التعامل مع السنن، كسنة الأعداد والأخذ بالأسباب، وسنة التدرج، وبعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية، وإخلاصه العظيم لله عز وجل، وتطبيق شرع الله في دولته وبركات ذلك، كالاستخلاف والتمكين، والأمن والاستقرار والعز والشرف، والنصر والفتح، وأثر العدل في تحقيق الانتصارات، وإعداد جيل مقاتل فيه صفات جيل التمكين، وحسن الصلة بالله واللجوء إليه بعد الأعداد، ونجاح العمل الاستخباراتي، وردود أفعال العالم الإسلامي والصليبي من معركة حطين، وفتوحات الساحل قبل فتح القدس ونتائج معركة حطين، ككونها معركة فاصلة وحاسمة وأهمية الوعي الجغرافي في فقه الصراع وإدارته، والجهود التراكمية في تحقيق الانتصارات الكبرى للأمم، وتحدثت عن خطة صلاح الدين العسكرية لتحرير بيت المقدس، كالبعد الإعلامي، وتحشيد الجنود والتعبئة الشاملة والحصار والقتال والهجوم الحاسم والمفاوضات ثم تسليم بيت المقدس وتحرير القدس ووفاء صلاح الدين بوعده ورحمته بالأسرى والشيوخ والنساء، وزوجات القتلى وبناتهم واحترامه مشاعر المسيحيين، وتنفيذ الوعود ابتغاء مرضات الله

وبشعور إنساني فيَّاض وبروح فروسية عالية، واقتداء رشيد بالخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما فتح القدس في خلافته، فقد ظهرت للغربيين روعة الإسلام في ممارسات صلاح الدين في السلم والحرب واحترام حرية الرأي والمعتقد، والحفاظ على القيم الإنسانية الرفيعة والتعاليم الإسلامية السامية قال الشاعر:

ملكنـــــا فكـــــان العفـــــو منـــــا ســـــجية
فلّمـــــا ملكـــــتم ســـــال بالـــــدم أبطـــــح
وحَلَّلـــــــتُمُ قتـــــــل الأســـــــارى وطالمـــــــا
عـــــدونا علـــــى الأســـــرى نَمُـــــنُّ ونصـــــفح
وحســـــــبكم هـــــــذا التفـــــــاوت بيننـــــــا
وكـــــل وعـــــاء بالـــــذي فيـــــه ينضـــــح

وذكرت إصلاحات صلاح الدين في بيت المقدس وإرساله البشائر والوفود إلى أنحاء العالم الإسلامي، واختلاف صلاح الدين مع الخليفة العباسي، وحضور العلماء في فتوحات القدس وغيرها ودوّنت بعض القصائد في مدح صلاح الدين وفتح البيت المقدس كقول أبو علي الحسن بن علي الجويني في فتح القدس:

جُنْـــــدُ الســـــماء لهـــــذا الملـــــك أعـــــوان
مـــــن شـــــك فـــــيهم فهـــــذا الفـــــتح برهـــــان
مـــــتى رأى النـــــاس مـــــا نحكيـــــه في زمـــــن
وقـــــد مضـــــت قبـــــل أزمـــــان وأزمـــــان
هـــــذي الفتـــــوح فتـــــوح الأنبيـــــاء ومـــــا
لهـــــا ســـــوى الشُـــــكرِ بالأفعـــــال أثمـــــان
أضـــــحت ملـــــوك الفـــــرنج الصَّـــــيد في يـــــده
صـــــيداً ومـــــا ضـــــعفوا يومـــــاً ومـــــا هـــــانُوا

إلى أن قال:

وقول أسامة بن منقذ في مدح صلاح الدين:

والناصـــــر الملـــــك المتّـــــوج ناصـــــري
وعـــــلاه قـــــد خطـــــت كتـــــاب أمـــــاني

قـــد كنـــت أرهـــب صـــرق دهـــري قبلـــه
فأعـــــاد صـــــرف الـــــدهر مـــــن أعـــــواني

أنا جـــــاره ويـــــدُ الخطـــــوبِ قصـــــيرة
عـــــن أن تنـــــال مجـــــاورَ الســـــلطان

إلى أن قال:

فلأهـــــدينَّ إلى عـــــلاه مـــــدائحاً
تبقـــــى علـــــى الأحقـــــاب والأزمـــــان

مـــــدحاً أفـــــوق بـــــه زهـــــيراً مثلمـــــا
فـــــاق المليـــــك الناصـــــر ابـــــن ســـــنان

يا ناصـــــر الإســـــلام حـــــين تخاذلـــــت
عنـــــه الملـــــوك ومظهـــــر الإيمـــــان

بـــــك قـــــد أعـــــزّ الله حـــــزب جنـــــوده
وأذل حـــــزب الكفـــــر والطغيـــــان

لمـــــا رأيـــــت النـــــاس قـــــد أغـــــواهم
الشـــــيطان بالإلحـــــاد والعصـــــيان

جـــــرّدت ســـــيفك في العـــــداء لا رغبـــــة
في الملـــــك، بـــــل في طاعـــــة الـــــرحمن

فضـــــربتهم ضـــــرب الغرائـــــب واضـــــعاً
بالســـــيف مـــــا دفعـــــوا مـــــن الصـــــلبان

وغضـــــــــبت لله الــــــــذي أعطـــــــاك

فصـــــل الحكـــم غضـــبة ثائـــر حـّــران

وذكرت أهم الدروس والعبر والفوائد في تحرير بيت المقدس، كأهمية العلماء الربانيين في إيقاظ الأمة، وتربية الجيل على عقيدة الإسلام الصحيحة، وتحرير الولاء لله ورسوله والمؤمنين، ووحدة الأمة، ووضوح الرآية الإسلامية للمعركة ووجود استراتيجية بعيدة المدى، وكوادر علمية تحيط بالواقع علماً وأهمية توبة الأمة وعودتها إلى الله عز وجل وبعدها عن المعاصي، ولا طريق لتحرير فلسطين وأراضي المسلمين المحتلة إلا بالجهاد في سبيل الله بمعناه الواسع الشامل، الجهاد السياسي، والإعلامي والروحي والعلمي والتخطيطي والقتالي ... إلخ.

وتعرضت للحملة الصليبية الثالثة وردت فعل الغرب الأوروبي من تحرير بيت المقدس والتعبئة الشاملة التي حدثت وما ترتب عليها من حملة صليبية ثالثة، كان فيها الملوك والأمراء ورجال الدين المسيحي وقد شارك في تلك الحملة امبراطور المانيا، وملك انجلتر، وملك فرنسا إلا أنها لم تحقق هدفها بفضل الله ثم جهود صلاح الدين والأمة المسلمة الملتفه حوله من بلاد الشام ومصر والعراق والمغاربة وغيرهم، وتكلمت عن طبيعة المفاوضات بين الملك العادل أخ صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا التي استمرت خمسة عشر شهراً واقتضت 42 وفداً توجت بصلح الرمّلة وقد تميزت هذه الحملة الصليبية بحدوث تفاهم كبير مع المسلمين فكان الطرفان شديدي الصلة ببعضهما وتعّدى ذلك إلى طرح مشروع المعاهدة وإرسال الفواكه والثلج لريتشارد قلب الأسد أثناء مرضه وحضور طبيب صلاح الدين لمعالجته وكان من آثار هذا الاختلاط في حياة الفرنج ما يأتي: –

- نقلوا عن المسلمين كثيراً من العلوم والمعارف التي كانت سائدة بينهم في تلك الفترة وقد ألفوا فيها كتباً احتوت كثيراً من التجديد والابتكار ووضع القوانين في هذه العلوم.
- نقلوا عن المسلمين كثيراً من الصناعات والفنون مثل صناعة النسيج والصباغة والمعادث والزجاج كما نقلوا عنهم فن العمارة وكان لهذا النقل تأثير عميق في حياة أوروبا الصناعية والتجارية والفنية.
- تأثرت الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية تأثراً أدى إلى نمو الحضارة الغربية وإزدهارها وساعدته الحضارة الإسلامية على الخروج من بحر الهمجية الظلامية في تلك العصور وهذا باعتراف المستشرقين قبل مؤرخي المسلمين.

وذكرت مرض صلاح الدين وأيامه الأخيرة وملازمة أحد الشيوخ له وقراءة القرآن عليه ولما بلغ القارئ قول الله تعالى " لا إله إلا هو عليه توكلت" تبسّم وتهلّلَ وجهه وسلَّم روحه إلى خالقها سبحانه ولم يترك في خزانته من الذهب سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً وقيل سبع وأربعين درهماً ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستاناً ولا شيئاً من أنواع الأملاك وختمت الكتاب بقصيدة العماد الأصفهاني في رثاء صلاح الدين والتي قال فيها:

شَمْـــــلُ الهُــــدى والمِلــــكِ عَــــمَّ شَــــتاتُهُ
والــــدَّهرُ ســــاء وأقلعــــت حســــناته

أيــــن الــــذي مُــــذْ لم يــــزل مخشــــية
مرجــــــوّة هبَّاتُــــــهُ وَهِبَاتــــــه

أيــــن الــــذي كانــــت لــــه طاعاتنــــا
مبذولــــــة ولربِّــــــهِ طاعاتــــــه

بالله أيــــن النّاصــــر الملــــك الــــذي
لله خالصــــــة صــــــفت نيّاتُــــــهُ

أيــــن الــــذي مــــا زال سُــــلطانا لنــــا
يُرجــــى نَــــدَاه وتُتَّقــــى سَــــطَواته

إلى أن قال:

في نصــــرة الإســــلام يســــهر دائمــــاً
ليطــــول في روض الجنــــان سُــــبَاتُهُ

لا تحســــبوه مــــات شــــخص واحــــدٌ
فممــــات كــــل العــــالمين مماتــــه

لقد تأثر الناس بوفاة صلاح الدين حتى المؤرخون الأوروبيون ترحموا عليه وأشادوا بعدله وبقوته وتسامحه واعتبروه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية قاطبة، وستظل بإذن الله تعالى سيرة صلاح الدين تمد

أبناء المسلمين بالعزائم الصلاحية التي تعيد إلى الحياة روعة الأيام الجميلة الماضية وبهجتها وبهاءها وترشد الأجيال إلى أهمية استيعاب المشروع الإسلامي الحضاري الكبير تحت راية أهل السنة والجماعة وقد طويت بوفاة صلاح الدين صفحة من أنصع صفحات التاريخ، وأنقاها، فقد عرف فيه التاريخ رجلاً فذاً من طراز نور الدين محمود الشهيد، لم يكن همُّه جمع المال، ولم تستهوه زخرفةٌ، السلطان ولم تمل به عن جادة الحقَّ سطوة الحكم، فقد كان همّه انتصار الإسلام وأعظم أمانيه سيادة الشريعة، وأقصى غايته تطهير بلاد المسلمين من الصليبيين، وأرغامهم على الهزيمة والرجوع من حيث ما أتوا.

إن من الدروس المهمة من هذا الكتاب معرفة المشاريع المتصارعة في عهد صلاح الدين، فقد كانت ثلاثة تتطاحن على قدم وساق، وهي المشروع الصليبي والذي تتزعمه الكنيسة من عهد أوربان الثاني والمشروع الشيعي الرافضي بقيادة الدولة الفاطمية بمصر والمشروع الإسلامي الصحيح وحامل لوائه بعد نور الدين صلاح الدين، فكانت المحاور التي سار عليها أهل السنة دولة وشعباً، تعميق الهوية العقائدية السنية والإحياء الإسلامي الصحيح في نفوس الأمة والتصدي لشبهات المذهب الشيعي وإعداد الأمة لمقاومة الصليبيين، وكانت المحاور متداخله من حيث السير إلا أن تحرير بيت المقدس والقضاء على الصليبيين في معركة حطين لم يتم إلا بعد القضاء على الدولة الفاطمية سياسياً وعسكرياً، وقد سبقها الانتصارات العقائدية والفكرية والثقافية والتاريخية والحضارية للمذهب السني.
إن الذين استطاعوا تحرير بيت المقدس وانتزاع المدن والقلاع والحصون من الصليبيين هم الذين تميزوا بمشروعهم الإسلامي الصحيح وعرفوا خطر المشاريع الباطنية الدخيلة فتصدوا لها بكل حزم وعزم إن أية أمة تريد أن تنهض من كبوتها لابد أن تحرك ذاكرتها التاريخية لتستخلص منها الدروس والعبر والسنن في حاضرها وتستشرف مستقبلها.

إن قراءة التاريخ تضيف للباحث والقائد والزعيم والملك والرئيس أعمار السابقين وأما الوعي بالتاريخ فإنه يوظف ثمرات هذه القراءة في تغيير الواقع، واستشراف المستقبل ولذلك يستحيل التقدم وينعدم النهوض عند الذين لا يفقهون ولا يتعرفون على سنن الله وقوانينه وعبره وعظاته من خلال التاريخ.

إن النهوض بوجه عام يحتاج إلى سلاح القلم، واللسان ولم ينجح مشروع نهضوي عبر التاريخ من غير أقلام قوية أو ألسنة تعبر عن قلوب صادقة تدعوا إليه وتنشر مبادئه بين الناس وإيجاد الكتب النافعة في هذا المجال من الضرورات في عالم الصراع والحوار والجدال وهذا يدخل ضمن سنة التدافع في الأفكار والعقائد والثقافات

والمناهج، وهي تسبق التدافع السياسي والعسكري، فأي برنامج سياسي توسعي طموح يحتاج لعقائد وأفكار وثقافة تدفعه، فالحرف هو الذي يلد السيف واللسان هو الذي يلد السنان، والكتب هي التي تلد الكتائب.

إن موسوعة الحروب الصليبية والتي صدر منها كتاب السلاجقة وعصر الدولة الزنكية وهذا الكتاب قد أجابت عن الكثير من الأسئلة المطروحة على الساحة القطرية، والإقليمية والعالمية وهذه الحقبة من تاريخ الأمة تأتي شاهداً تاريخياً مقنعاً على إن الإسلام قادر في أية لحظة تتوافر فيها النية المخلصة والإيمان الصادق والالتزام المسؤول، والذكاء الواعي واستيعاب فقه السنن والنهوض وقوانين الحضارات وبناء الدول على إعادة دوره الحضاري والقيادي وإخراج الناس من ضيق الدنيا إلى عدل الإسلام.
هذا وقد انتهيت من هذه المقدمة في 15 شعبان 1428هـ - 28 أغسطس/2007م الساعة الرابعة بعد صلاة العصر. والفضل لله من قبل ومن بعد وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل ويشرح صدور العباد للانتفاع به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده قال تعالى : "ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم" (فاطر، آية:2). ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرئاً من حولي وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فلله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم، هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي وتركني للقلم الذي بين أصابعي لتبلد مني العقل، ولغابت الذاكرة وليبست الأصابع ولجفت العواطف ولتحجرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان إلهي: إنك لتعلم أن لي مع كل واحد ممن تحدثت عنهم في كتبي وقفة لها قصة أو خبر وإنك لتعلم حرصي على إحياء سيرهم كوسيلة لنصرة دينك وأن أنال بذلك كريم مرضاتك يا أكرم الأكرمين، اللهم بصّرني بما يرضيك وأشرح له صدري وجنبني اللهم مالا يرضيك واصرفه عن قلب وتفكيري وأسلك بأسماءك الحسنى وصفاتك العلى أن تجعل عملي لوجهك خالصاً ولعباده نافعاً وأن تثيبني على كل حرف كتبته وتجعله في ميزان حسناتي وأن تثيب إخواني الذين أعانوني على اتمام هذا الجهد الذي لولاك ما كان له وجود ولا انتشار بين الناس ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه قال تعالى : "رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين" (النمل، آية: 19).

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: "ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم "(الحشر، آية : 10).

وبقول الشاعر:

ومــــــن عَجَـــــبٍ أني أحـــــنَّ إلـــــيهمُ
وأســـأل عـــنهم مـــن لقيُـــت وهـــم معـــي
وتطلُـــــبُهم عيــــني وهُـــــم في ســــوادِها
ويشـــتاقهم قلـــبي وهـــم بـــين أضـــلعي

"سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك"

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الإخوة الكرام يسرني أن تصل ملاحظتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

Mail: abumohamad2@maktoob.com

الفصل الأول

الحملات الصليبية التي سبقت قيام الدولة الأيوبية

المبحث الأول: الجذور التاريخية للحروب الصليبية:-

إن مما يجدر ذكره أن الحرب الصليبية بين المسلمين والنصارى الغربيين وغيرهم، لم تبدأ في نهاية القرن الخامس الهجري، ولم تنته في القرن السابع الهجري، بل هذه الحملات هي سلسلة في هذا الصراع الطويل، الذي بدا بظهور الإسلام (1)، واستمر بصيغ دورية متعاقبة كادت تغطي المدى الزمني ظهور الإسلام والعصر الحديث، ويمكن تقسيمه على ستة من المحاور التي استمر عليها هذا الصراع، ولم يكن أدوار الصراع على كل واحد من هذه المحاور يفتر قليل حتى يشب ثانية في محور جديد لا يقل عنه ضراوة وعنفاً واستنزافاً للطاقات الإسلامية في مساحات واسعة من الأرض (2) وهذه المحاور هي:

---

[1] دروس وتأملات في الحروب الصليبية لأبي فارس ص 30.

[2] هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي د.عماد الدين ص 26.

أولاً: البيزنطيون: ترجع بدايات التحرك البيزنطي المضاد للإسلام إلى عصر الرسالة نفسه، فمنذ العام الخامس للهجرة وعبر معارك دومة الجندل، وذات السلاسل، ومؤتة، وتبوك، وانتهاء بحملة أسامة بن زيد رضي الله عن الصحابة أجمعين، كان المعسكر البيزنطي يتحسس الخطر الإسلامي الجديد القادم من الجنوب لاسيما بعدما تمكنت الدولة الناشئة من فك ارتباط العديد من القبائل العربية شمالي الجزيرة من سادتهم القدماء الروم، وسواء كان البيزنطيون يتحركون ضد القوات الإسلامية بفعلهم ابتداء أو كرد فعل لتحرك إسلامي، فإن المحصلة الأخيرة هي أن هذا المعسكر بدأ يدرك أكثر فأكثر حجم التحدي الجديد ويعد العدة لوقفه، صحيح أن هذه العدة لم تكن – أحياناً – بالحجم المطلوب، ربما بسبب عدم دقة المعلومات التي كانت القيادة البيزنطية تبني عليها مواقفها إلا أن النتيجة هي أن النار اشتعلت عبر هذا المحور وازدادت اشتعالاً بُعيد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتدفق القوات الإسلامية في البلاد التي يسيطر عليها البيزنطيون [3]، وبعد إخراج البيزنطيين من ممتلكاتهم في آسيا وأجزاء من إفريقيا على يدي القيادة الراشدة، التي شهدت المراحل التالية من العصر الراشدي، محاولات التفاف، ردود أفعال عديدة وهجمات مضادة نفذها هذا المعسكر في البرّ والبحر، ولكنها آلت في معظمها إلى الخسران، ثم مالبث البيزنطيون أن انحسروا عبر العقود التالية، وبفضل الملاحقة الدؤوبة التي قام بها الأمويون [4]– ابتداء من معاوية رضي الله عنه مؤسس الدولة الأموية وعهد عبد الملك بن مروان وبنيه خصوصاً الوليد وسليمان – وقد تم شرح ذلك وتفصيله في كتابي الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الإنهيار – واستمرت الملاحقة النشطة للبيزنطيين بعد الأمويين في الشام ومصر وشمال إفريقيا، وانحسروا بالكلية عن الشمال الإفريقي ومساحات واسعة من البحر المتوسط، وانزووا هناك في شبة جزيرة الأناضول، فضلاً عن ممتلكاتهم في أوروبا نفسها، وهكذا وبمرور الوقت، أصبح خطر هجماتهم المضادة محدوداً لأنها تركزت عند خط الثغور في الأناضول والجزيرة الفراتية دون أن تتعداه إلى العمق إلا نادراً بسبب يقظة القيادات الإسلامية، وتحصينها خط الحدود من جهة، وقيامها بهجمات مستمرة ضد الدولة البيزنطية، وتوغلها بعمق باتجاه القسطنطينية نفسها من جهة أخرى، الأمر الذي لم يدع الإمبراطور البيزنطي – في معظم الأحيان – أن يأخذ زمام المبادرة وأن يوسع نطاق هجومه المضاد اللهم إلا عند مطلع القرن الرابع الهجري حيث كانت الدولة العباسية قد ضعفت إلا أن ظهور السلاجقة أعطى دفعة قوية لحركة الجهاد الإسلامي، وقد استطاعوا في عهد السلطان السلجوقي ألب أرسلان أن يحققوا نجاحاً ساحقاً ضد العمود الفقري للقوات البيزنطية في معركة ملاذكرد عام 463هـ وكان

---

[3] المصدر نفسه ص 26.

[4] هجمات مضادة ص 56 ، 27.

هذا الانتصار بمثابة نهاية لتحديات الدولة البيزنطية وهجومها المضاد، واستمر على تلك الحال حتى سقوطها بعد عدة قرون على يد العثمانيين [5]، وقد فصلت ذلك في كتابي الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط [6] .

ثانياً : الأسبان : شهدت الساحة الأندلسية، منذ بدايات مبكرة هجمات مضادة متواصلة قادمة من الشمال حيث يتحصن الأسبان في المناطق الأشد وعورة، ولقد تمخضت هذه الهجمات عن صراع مرير قدرت القيادة الأموية عبره أن تجابه الهجوم المضاد لمدى ما يقرب من القرون الثلاثة، وأن تحتويه وترغمه على الانحسار في الجيوب الشمالية لشبه الجزيرة الإيبرية، ثم جاءت دفقة الحيوية الإسلامية الجديدة مرتين إحداهما على يد المرابطين القادمين من المغرب [7]، الذين سجلوا لنا في صفحات المجد انتصارهم العظيم في معركة الزلاقة على النصارى الإسبان في عام 479هـ، والأخرى على أيدي الموحدين الذين جاءوا من بعدهم الذين حققوا انتصاراً ساحقاً على النصارى في معركة الأرَك عام 591هـ التي سجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي [8] ، وبذلك تمكن الإسلام في الأندلس من الصمود بمواجهة التحدي ومقارعة الهجوم الإسباني المضاد سلاح شبه متكافئ لمدى يقرب من القرون الأربعة [9] . لكن المسلمين هناك ما لبثوا أخيراً أن استنزفوا، وزادهم ضعفاً إنقسامهم على أنفسهم وصراعهم الدموي الطاحن فيما بينهم، الأمر الذي حول ميزان القوى لصالح القيادة النصرانية التي تمكنت في نهاية المطاق من إسقاط آخر كيان إسلامي هناك، مملكة غرناطة 897هـ لكي ما تلبث – تحت زعامة فرديناند وايزابيلا – أن تنفذ أبشع مجزرة رهيبة في التاريخ البشري، اشتركت فيها السلطة والكنيسة ومحاكم التفتيش واستطاعت بأساليبها التي تجاوزت القيم الإنسانية فضلاً عن الدينية على تدمير الوجود الإسلامي في الأندلس وإزالته من الخارطة الإسبانية، ودمج الجماعات الإسلامية قسراً بالمجتمع النصراني دينا وثقافة وسلوكاً [10].

---

[5] المصدر نفسه ص 37.

[6] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ص 125 – 140.

[7] هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي ص 28.

[8] المصدر نفسه ص 383 ، 384.

[9] هجمات مصادة ص 28.

[10] المصدر نفسه ص 28.

ثالثاً : الحركة الصليبية : إن الحركة الصليبية هي رد الفعل المسيحي تجاه الإسلام، تمتد جذورها إلى بداية ظهوره، وخروج المسلمين من جزيرتهم العربية واصطدامهم بالدولة البيزنطية، وأن هذه الحركة تطورت كالكائن الحي على مدى القرون ما تكاد تخرج من طور إلا لتدخل في طور جديد وما كانت الفترة الزمنية الممتدة بين سنتي (488هـ - 690هـ/1095م – 1291م) إلا أحد أطوارها، فقط، وأن بروز هذا الطور بهذا الشكل الذي كان يطغى على باقي أطوارها يعود إلى عوامل عديدة معقدة ومتشابكة يستطيع الباحث أن يتلمسها في الدوافع والأسباب التي أدت إلى إطلاق الموجة الصليبية العاتبة من عقالها في هذه الفترة [11]، وقد تصالح المؤرخون على إطلاق الحروب الصليبية على الحركة الاستعمارية الصليبية التي ولدت في غرب أوروبا واتخذت شكل هجوم مسلح على بلاد المسلمين في الشام والعراق والأناضول، ومصر وتونس لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين والقضاء عليهم واسترجاع بيت المقدس وجذور هذه الحركة نابع من الأوضاع الدينية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية التي سرت في غرب أوروبا في القرن الحادي عشر، واتخذت من الدين وقوداً لتحقيق أهدافها [12]، فالغزو الصليبي ليس أمراً جديداً ولا ظاهرة غريبة أو استثنائية وإنما هو القاعدة وغيره الاستثناء [13]، ولذلك نقول : إن التحديد الزمني للحركة الصليبية بين سنتي 588هـ - 690هـ هو تحديد خاطئ كما يقول الأستاذ الدكتور سعيد عاشور : لا يقوم على أساس سليم ولا يعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة، وإنما يكتفي بعلاج مبتور يشمل جزءاً من تلك الحركة ولا يعبر عن جذورها وأصولها من ناحية، ولا عن ذيولها وبقاياها من ناحية أخرى [14] لقد كانت المقاومة الإسلامية لهذا الغزو تعبيراً فذا عن استمرار تيار العقيدة في نفوس المسلمين، على مستوى القمة حينا، وعلى مستوى القواعد معظم الأحيان، لقد صنعت الحقبة مجاهدين على درجة كبيرة من الفاعلية والقدرة، وقد انتشر هؤلاء المجاهدين في كل الجبهات وقاموا بمقاومة الغزاة في كل الفترات، وعلى مدى قرنين من الزمن لم يتخلوا عن المقاومة ولم يستكينوا أو يضعوا السلاح، كانوا على استعداد في كل لحظة لركوب خيولهم والإنطلاق سراعاً إلى الأهداف، والجهاد لا تضعه النظريات والأماني، والمجاهد لا يتحرك في الفراغ، ولكنها التحديات التاريخية الكبيرة هي التي تضع الجهاد وتبعث المجاهدين، وتنفخ في المقاتل المسلم روح البطولة والتضحية والاستشهاد [15].

---

[11] الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري ص 10.

[12] تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد عمران ص 15.

[13] هجمات مضادة ص 32.

[14] الحركة الصليبية، سعيد عاشور (26/1).

[15] هجمات مضادة ص 3.

رابعاً : حركة التفاف الصليبيين: مالبثت أوروبا بعد سحق الوجود الإسلامي في إسبانيا أن بدأت بقيادة إسبانيا والبرتغال، ومن بعدهما بريطانيا وهولندا وفرنسا، عملية الالتفاف التاريخية المعروفة على عالم الإسلام عبر خطوطه الخلفية في إفريقيا وآسيا، والتي كانت بمثابة حركة الاستعمار القديم التي ابتلي بها العالم الإسلامي فيما بعد، والتي استمرت حتى العقود التي أعقبت سقوط الخلافة العثمانية، كان المماليك في مصر والشام قد بلغوا مرحلة الإعياء، وكان اكتشاف الطريق البحري الجديد حول رأس الرجاء الصالح قد وجّه لتجارتهم – التي هي بمثابة العمود الفقري لمقدرتهم المادية — ضربة قاصمة، أما العثمانيون فكان جهدهم منصباً على اختراق أوروبا من الشرق، ولم تكن لديهم الجسور الجغرافية التي تمكنهم من وقف محاولة الالتفاف تلك في بداياتها الأولى، ولكنهم ما لبثوا بعد عدة عقود أن تحركوا لمجابهة الموقف، الموقفن ومع ذلك فقد دافعت الشعوب والقيادات الإسلامية المحلية في المناطق التي ابتليت بالغزو دفاعاً مستميتاً، وضربت مثلاً صلباً في مقاومتها المتطاولة للعدوان، وألحقت بالغزاة خسائر فادحة على طول الجهات والمواقع الساحلية التي سعى هؤلاء إلى أن يجدوا فيها موطئ قدم [16]، وقد استطاع العثمانيون إنقاذ العالم الإسلامي من الغزو البرتغالي الإسباني الذي استهدف خنق التجارة الإسلامية، وحين حاولوا السيطرة على ساحل المغرب الإسلامي للإغارة عليه وضربهن سارع العثمانيون بالسيطرة على المغرب كله ماعدا مراكش واستطاعوا مواجهة الإسبان في حوض المتوسط وجزائره وسواحله، وأدالوا منهم، وبذلك استطاعت القوة البحرية العثمانية أن تحفظ شاطئ البحر المتوسط للإسلام والمسلمين، واستطاع العثمانيون أن يسيطروا على ساحل شرق إفريقيا وشمال المحيط الهندي في مطلع القرن الثامن عشر فأرهب ذلك الأوربيين، واستطاع أحمد بن سعيد 1740م أن يقف في وجههم في عمان حيث فقد البرتغاليون الأمل في استرداد هذه المنطقة، وقد كانت عمان بعد سقوط الأندلس أكبر قوة عربية ودامت نهضتها من عام 1000هـ إلى 1250هـ وقد استولت على ثغور البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج، فإفريقيا الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح، وفي بضعة أجيال صار أهل عمان سادة هذه البحار العظمى الثلاثة وصار لهم أسطول ضخم هاجم الأسطول البرتغالي وأجلاه عن جميع الثغور الهندية والفارسية والإفريقية .. ولم يصبر الإنجليز على هذه الدولة البحرية التي كانت تهددهم في أملاكهم في آسيا وإفريقيا، فعملوا على مدى ثمانين عاماً على إضعافها والقضاء عليها وضرب الأسطول البريطاني مدنها بالقنابل [17].

---

[16] المصدر نفسه ص 37.

[17] الإسلام وحركة التاريخ، أنور الجندي ص 394 - 393.

خامساً : الاستعمار: وجاءت الموجه الأوروبية المضادة التالية على يد القوات الاستعمارية التي دفعتها الثورة الصناعية إلى البحث عن مجالاتها الحيوية في القارات القديمة لتعريف بضائعها والحصول على الخامات الضرورية، وتسخير الطاقات البشرية (الرخيصة) المستعبدة في إفريقيا عن طريق نقلها بالقوة فيما يعرف بحركة تهجير العبيد التي كانت بمثابة إحدى العلامات السوداء في تاريخ الصراع بين أوروبا والشرق، والتي ذهب ضحيتها عدد كبير من أبناء الشعوب الإسلامية في إفريقيا، واستمرت هذه الموجة التي قادتها بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وإيطاليا وألمانيا إلى حد ماء، حتى العقود الأولى من القرن العشرين وكان العالم الإسلامي فريستها الأولى، بل إنه كان فريستها الوحيدة، إذا استثنينا مساحات محدودة قطنتها أكثرية غير إسلامية، وكانت أهدافها الاقتصادية تتحرك على خلفية صليبية عبّرت عن نفسها في أكثر من واقعة، وقدمت عبر التاريخ أكثر من دليل، إن "غلاد ستون " رئيس الوزراء البريطاني يقولها بصراحة أمام مجلس العموم البريطاني وهو يمسك بالمصحف الشريف: ما دام هذا في عقول المصريين وقلوبهم فلن نقدر عليهم أبداً [18] ، وعندما دخل القائد البريطاني الصليبي القدس بعد الحرب العالمية منتشياً وحلفاء بريطانيا يستقبلونه بحفاوة وتكريم إلا أنه لم يخف حقده الصليبي على الإسلام والمسلمين، وأظهر سروره وحبوره كقائد صليبي منتصر فتح القدس وفلسطين وجعلها تحت الانتداب البريطاني الصليبي فقال : الآن انتهت الحروب الصليبية [19] يزغم بهذه العبارة أن هدف الحروب الصليبية باحتلال القدس وفرض السيادة الصليبية عليها وعلى فلسطين قد تحقق، وهو بهذا يشير إلى أن الحروب الصليبية التي استمرت قرنين من الزمان واحتلت القدس وفلسيطن سنة 492هـ وحررها المسلمون في عام 583هـ لم تحقق هدفها، أما الحرب العالمية الأولى فقد حققت فيها الصليبية هدفها واستولت على فلسطين والقدس وكانت السيادة لها. وأما القائد الصليبي الفرنسي فقد ذهب إلى قبر صلاح الدين في دمشق وقال عند القّبر : ها نحن عدنا يا صلاح الدين [20] . واستمرت الحرب الصليبية فلم تتوقف فقامت بريطانيا بإعطاء وطن لليهود على أرض فلسطين وإقامة دولة يهودية، واتخذت من القرارات والإجراءات الإدارية والعسكرية ما تقيم هذه الدولة، بتدريب اليهود على السلاح وفنون القتال وتوفير السلاح لهم، بل إعطاء بعض أسلحة الجيش البريطاني لهم، وبخاصة عندما أعلنت بريطانيا انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في 1948/05/15م بل سلمت كثيراً من المدن والقرى الفلسطينية إلى

---

[18] هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي ص 40.

[19] دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 35.

[20] المصدر نفسه ص 434.

اليهود ليعلنوا إقامة دولة يهودية عليها، وفي الوقت ذاته قد حرمت على الفلسطينيين المسلمين التدريب على السلاح واقتناء السلاح، وشنت عقوبات ظالمة على كل فلسطيني يقتني السلاح أو العتاد، فكانت عقوبة الإعدام هي الشائعة، ولقد علق من المجاهدين المسلمين على أعواد مشانق الصليبيين الإنجليز في تلك الفترة آلاف الشهداء، وزج في غياهب السجون عشرات الألوف (21). هذا وقد تزامنت الحركة الاستعمارية وارتبطت عضوياً بحركة التبشير النصرانية، بجانبيها الكاثوليكي والبروتستانتي، والتي انتشرت مراكزها في طول بلاد الإسلام وعرضها تمهد للاستعمار بأنشطتها المختلفة، وتفتح أمامه الطريق وتحظى تحت سلطانه بالكثير من المساعدات والميزات (22) ، إلا أن هذا الهجوم الاستعماري الصليبي المضاد لم يمضي بسلام ولم تركع الشعوب الإسلامية أمام إرادة القوة التي اعتمدها الغزاة، بل شمروا عن ساعد الجد واستجاشوا قدرات الإيمان الدافقة ووازنوا بتضحياتهم وعشقهم الموت، وركضهم إلى الشهادة، رغم نقص إمكانياتهم العسكرية والمادية وصنعوا بذلك الأعاجيب التي أذهلت الغربيين وعرقلة استمرارية حركتهم، ألحقت بهم الهزائم والويلات ووضعت في طريقهم الأسلاك الشائكة والألغام، ليس هذا فحسب، بل إن الاستجابة للتحدي الاستعماري النصراني بعث حركات إسلامية أصيلة تخلّقت في مناخ جهادي قاس، واستهدفت مقارعة العدوان وتحرير الأرض والعقيدة والإنسان، وقدمت نماذج من أعمال المقاومة تحدث بها الغربيون قبل الشرقيين وملأت صفحات ناصعة بيضاء في معطيات التاريخ (23)، ونحن نذكر على سبيل المثال لا الحصر مقاومة كل من، محمد عبد الكريم الخطابي بالمغرب وعبد القادر الجزائري وجمعية علماء المسلمين بالجزائر التي قادها عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، وعمر المختار بليبيا، وغير ذلك من حركات التحرر التي تحتاج إلا أقلام صادقة لبحثها وكتابتها والأمة في أشد الحاجة إلى مثل هذه الدراسات الجادة. إن الحرب الصليبية لم تنته ولن تنتهي، وما يحدث في أفغانستان والعراق وفلسطين دليل على ما نقول.

المبحث الثاني : أهم أسباب ودوافع الغزو الصليبي:

كان المجتمع الأوروبي الغربي في هذه الفترة تسوده المنازعات والحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين مما ساعد على ازدياد سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي (24)، كما كان للصراعات القائمة بين رأسي العالم المسيحي الغربي حينذاك، وهما البابا والأمبراطور أثر كبير في مجريات الأحداث الأوروبية، فلقد

---

[21] هجمات مضادة في التاريخ ص 41.

[22] هجمات مضادة في التاريخ ص 41.

[23] هجمات مضادة في التاريخ ص 41.

[24] الحروب الصليبية ص 21 ، 24 أرنست باكر.

بلغت البابوية درجة عظيمة من القوة واتساع النفوذ في هذه الفترة، مما فتح أمامهما المجال لكي تصبح القوة العالمية بمعنى أن يكون البابا هو الزعيم الروحي لجميع المسيحيين في الشرق والغرب على حد سواء [25]، بجانب الخلافات المستمرة الموجودة بين الكنيستين الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية، إذ أصرت كل منهما على أن تسود وجهة نظرها وأن تكون لها الأولوية على الأخرى ولهذا السبب عندما عرضت فكرة الحرب المقدسة على البابا أوربان الثاني (471 - 491هـ) (1078 – 1097م) وجد في تنفيذها فرصة كبيرة لإنهاء الخلاف بين الكنيستين والسيطرة على الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية وإدماجها في الكنيسة الغربية تحت زعامته، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضي المقدسة في فلسطين [26] هذا بالإضافة إلى أغراض أخرى عديدة كانت البابوية ترغب في تحقيقها من وراء تمسكها بفكرة الحرب المقدسة، منها التخلص من نفوذ كبار رجال الإقطاع في الغرب، وإنهاء الحروب المستمرة عن طريق توجيه هذه الطاقات واستغلالها في الحرب المقدسة، عليها تفتح لهم بذلك منفذاً لحياة أفضل في الشرق بدون منازعات [27] وقد اختلفت الآراء في تفسير طبيعة الحركة الصليبية والدوافع الكامنة وراءها فمنها ما هو مادي والبعض يرى أنها وليدة الحماس أو التعصب الديني التي عرفت بها أوروبا في العصور الوسطى، وأن الباعث الحقيقي لتلك الحروب كان في الواقع هو الهوس الديني الممزوج بأغراض أخرى كالميل إلى تأسيس ممالك جديدة والحصول على الثروات الطائلة، وقد اعتبر غالبية المؤرخين القدامى والحديثين تلك الحروب أنها حروب دينية، وأن العامل الديني كان الدافع الأساسي وراءها من أجل استعادة قبر المسيح على حد زعمهم والأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وهناك والأخرون يعتبروها أحد مظاهر التوسع الاقتصادي الاستعماري في العصور الوسطى وحقيقة الأمر، أن الحروب الصليبية كانت نتيجة لتفاعل هذه العوامل مجتمعة، لأنها قامت لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، وأتخذت الدين وقوداً أو وسيلة لاخفاء أغراضها المذكورة [28]، ولا يمكن التقليل من الدافع الديني في تلك الحروب بأي وجه من الوجوه وإليك تفصيل تلك الدوافع والأسباب:

أولاً : الدافع الديني: كان الدافع الديني من الأسباب الرئيسية التي دفعت بالجموع الصليبية إلى قلب المعركة، فقد كان شعار الحروب الصليبية ومما يظهر أهمية الجانب الديني أنهم قد وضعوا إشارة الصليب على

---

25 الحروب الصليبية (32/1) سعيد عاشور.

26 دور الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين في آسيا نقلي ص 32.

27 مملكة بيت المقدس الصليبية، عمر كمال توفيق ص 18 – 19 ، 32 - 33.

28 العدوان الصليبي على العالم الإسلامي صلاح الدين نوار ص 22.

أسلحتهم والأمتعة الخاصة بهم وقصدوا فلسطين بالذات [29]، وقد كانت حركة الإحياء الديني قد ظهرت في غرب أوروبا في القرن العاشر الميلادي، وبلغت أشدها في القرن الحادي عشر، قد أدت إلى تقوية مركز البابوية، وإثارة الحماسة الدينية في نفوس الناس، هذه الحماسة استغلتها الكنيسية في متنفس خارجي وعندما ما ظهرت فكرة الحرب الصليبية اتخذت الكنائس الغرب الأوروبي ميداناً واسعاً لاستغلال نشاطه المكبوت وحماسته المنطلقة [30]، وكان ذلك باسم تخليص القدس من أيدي المسلمين [31] ، ومن أشهر من تبنى الدعوة إلى الحروب الصليبية هو البابا "أوربان الثاني" والذي يعتبر المسؤول الأول عن الترويج لحرب المسلمين والتحريض على إرسال الحملة الأولى إلى بلاد الشام وكانت الظروف مهيأة، فسارع إلى عقد اجتماع في مدينة (كليرمنت) في فرنسا واستمر المؤتمر عشرة أيام حضره أكثر من ثلاثمائة من رجال الكنيسة [32] كما حضره أمراء من مختلف أنحاء أوروبا، ومندوبون عن الإمبراطور البيزنطي، وممثلون عن المدن الإيطالية.. واستطاع البابا أن يثير حماس السامعين في "خطابه" فتجاوب في أرجاء المجتمع هتاف بترديد عبارة " هكذا أراد الله " وبادر الحاضرون إلى اتخاذ الصليب شارة لهم [33]، كما أن البابا أشار إلى ما أسماه بالخطر الإسلامي المحدق بأوروبا من جهة القسطنطينية، وأعلن أن النصارى في المشرق يعانون من ظلم المسلمين، وأن الكنائس والأديرة، قد أصابها الدمار، وحث الحاضرين على الانتقام من المسلمين [34] . والحقيقة إن ما أثاره البابا من تعرض نصارى المشرق إلى اضطهاد هو إدعاء باطل، لا يتفق وروح الإسلام وطبيعة الدعوة إليه، وما أحاط النصارى به، من رعاية وعناية [35]. وكان من الشعارات التي رفعت في هذه الحرب أن الحجاج من النصارى كانوا يتعرضون للاضطهاد والعدوان وهم في طريقهم إلى بيت المقدس – قبيل الحروب الصليبية وهذا إدعاء باطل كذلك [36] ، يقول أحد كبار المؤرخين الأوروبيين : إن حالات الاضطهاد الفردية التي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى بالذات لا يصح أن تتخذ بأي حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنما سمح لهم أيضاً بتشييد كنائس

---

[29] الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاكر أحد أبو زيد ص 17.

[30] الحركة الصليبية (20/1) سعيد عاشور الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري محمد حامد الناصر ص 80.

[31] الجهاد والتجديد، محمد حامد ص 80.

[32] أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية ص 81.

[33] الشرق الأدنى : السيد الباز العريني ص 13 – 14.

[34] قصة الحضارة (16/4).

[35] الجهاد والتجديد ص 81.

[36] الغزو الصليبي والعالم الإسلامي د. علي عبد الحليم محمود ص 108.

وأديرة جديدة جمعوا في مكتباتها كتبا دينية متنوعة في الاهوت [37]. كما أن الإدعاء بتخريب الكنائس وهدم الأديرة أو مصادرتها لم يقم عليه دليل : وإنما هي شائعات دور الدعاية الباطلة بفتح جبهة على المسلمين وأهمية إعطاء دور الإعلامي عنه ربما أدى إليه تصرف بعينه في قرية بعينها، لا يمكن بحال من الأحوال أن يعتبر هو الأصل في معاملة المسلمين للمسيحيين وكنائسهم في البلاد الإسلامية [38]. ويقرر أكثر من مؤرخ منصف أن النصارى الذين خضعوا لحكم السلاجقة، كانوا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها، وما وجد أي دليل على اضطهاد السلاجقة للنصارى في المشرق [39]. إلا أن صيحات البابا كانت محمومة حاقدة لا تعقل ولا تفكر في العواقب الوخيمة لتصريحاته الرعناء، وإلا ماذا يعنى قوله لأتباعه : اذهبوا وأزعجوا البرابرة، وخلصوا البلاد المقدسة من الكفار، وامتلكوها لأنفسكم، فإنها كما تقول التوراة، تفيض لبناً وعسلاً [40] . وقد وعد الباب الجموع المشاركين بالحرب، برفع العقوبات عن المذنبين منهم، وبإعفائهم من الضرائب، كما وعدهم برعاية الكنسية لأسرهم مدة غيابهم [41] ، ولعل ما يدخل ضمن الدافع الديني أيضاً أنه ذاعت في الغرب أخبار الكرامات والمعجزات التي بثتها الكنيسة، وساد الاعتقاد بأن نزول المسيح ثانية إلى الأرض أصبح وشيكاً ولابد من المضي في الاستغفار وعمل الخير، قبل هبوطه، كما ساد تصور مفاده أنه ينبغي استرداد الأرض قبل عودة المسيح [42]، وقد أدرك البابا أن فورة الحماس الديني لن تستمر طويلاً، فدعاً إلى القسم بأن تؤدى الصلاة في كنيسة القيامة، وأشاع أن اللعنة (سيف النقمة) ستحل على كل من يستولي عليه الجبن والضعف أو نكص على عقبيه، وهدد بأن يتعرض كل من لا يلبي نداء الكنيسة بالتوجه صوب الديار الإسلامية بالحرمان من الكنيسة [43] . وهذا من دهائه وقدرته على توظيف العواطف والمشاعر لخدمة مشروعه لقد أثرت الكنيسة لما لها من سلطان على قلوب الناس في غرب أوروبا في تلك العصور على الدعوة لهذه الغزوة، وترتب على دعوة الكنيسة خروج الناس أفواجاً في حملات صليبية ضخمة متلاحقة إلى المشرق الإسلامي [44]، ولا ننسى الحقد الصليبي على الإسلام وأهله، فقد انتزع من أيديهم أرضاً كانت تحت سلطتهم وحرر منهم عبيداً كان يرزحون تحت وطأتهم

---

[37]الحركة الصليبية سعيد عاشور (30/1).

[38]الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ص 109.

[39]الحركة الصليبية (26،28/1).

[40]التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية د. أحمد شلبي (438/5).

[41]أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي ص 26.

[42]الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط ص 152.

[43]المصدر نفسه ص 152.

[44]تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ص 22.

واستلب منهم ملكاً كان في قبضتهم، فغلت مراجل الحقد في صدورهم، وتأججت نار العداوة في قلوبهم، وأخذوا يتحينون الفرص ليستردوا ما فقدوا وينتقموا لأنفسهم ممن نكبوهم، ومزقوا مملكتهم (45) ، وهذا المستشرق المشهور الأميرليون كايتاني (1869م إلى 1926م) الذي بذل معظم أمواله ليؤرخ لحركة الفتح الإسلامي في كتابه المعروف؛ حوليات الإسلام يوضح لنا سر الحقد على الإسلام والمسلمين في مقدمة كتابه حيث يقول: إنه إنما يريد أن يفهم من عمله ذاك سر المصيبة الإسلامية (كانا ستروفيكا إسلاميكا) التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض ما يزالون يدينون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ويؤمنون به نبياً ورسولاً (46)، قال تعالى " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءَهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير " (البقرة، آية : 120) وقال تعالى " ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " (البقرة، آية : 217).

ثانياً : الدافع السياسي: كان الملوك والأمراء الذين أسهموا في الحركة الصليبية يسعون وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها سواء قبل وصولهم إلى الشام وفلسطين أو بعد استقرارهم فيهما والمعروف أن النظام الإقطاعي ارتبط دائماً بالأرض وبقدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة، بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التي يمكن أن تواجه الأمير والفارس هي عدم وجود أقطاع أو أرض له، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ، وأدى هذا إلى بقاء عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض، لأن من القواعد الأساسية في هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الإقطاع، فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه (47) ، وهذا يعني بقاء بقية الأبناء دون أرض، وهو وضع ممقوت في المجتمع الإقطاعي، الأمر الذي جعل الفرسان والأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع، أو الإلتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع وكان إن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان، فلبوا نداء البابوية، وأسرعوا إلى الإسهام في تلك الحركة لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات

---

45 أسباب الضعف في الأمة الإسلامية ص 157 للوكيل.

46 الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ص 110.

47 أوروبا في العصور الوسطى (49/2) سعيد عبدالفتاح عاشور الوسيط في تاريخ فلسطين ص 154.

لأنفسهم في الشرق، تعوضهم ما فاتهم في الغرب. أما الأمراء والفرسان الذين كانوا يمتلكون إقطاعات فقد وجدوا في المشاركة في الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم وبدراستنا لمراجع الحروب الصليبية نرى أن أطماع أمراء الحملة الأولى تجلت في عدة مظاهر سياسية، فقد أخذوا يقسمون الغنيمة وهم في الطريق أي قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلاً، وسوف نرى بإذن الله تعالى كيف أستحكم النزاع فيما بينهم أمام أنطاكية لرغبة كل واحد منهم في الفوز بها، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسبا في الطريق قنع به وتخلى عن مشاركة بقية الصليبيين في الزحف على البيت المقدس، وهو الهدف الأساسي للحملة وكثيراً ما دب الخلاف بينهم — بعد استقرارهم — حول حكم إمارة أو الفوز بمدينة، وعبثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض المنازعات بين الأمراء وتحذرهم بأن المسلمين يحيطون لهم، وأن الواجب الصليبي يستدعي تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم ولكن تلك الصيحات ذهبت أدراج الرياح، لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسياً، ولم يكن يهمهم كثيراً رضا البابا أو سخطه، بل إن بعض الأمراء لم يحجموا عن مخالطة القوى الإسلامية المجاورة ضد إخوانهم الصليبيين مما يدل على أن الوازع الديني كثيراً ما ضعف عند أولئك الأمراء أمام مصالحهم السياسية [48] ، أما بالنسية للأمبراطور البيزنطي (الكسيوس) فإنه لم يعترض على أهداف أمراء الحملة، لأنه إذا تسنى للدولة البيزنطية استرداد ما كان لها من أملاك قبل غارات الأتراك عليها، جاز أن تقوم في تخومها إمارات مسيحية حاجزة، لها حق السيادة عليها، ولضمان الحصول على ذلك حرص الإمبراطور على الحصول على يمين الولاء من أمراء الغرب، وبذلك توافقت المصالح كلا الجانبين المسيحيين في القيام بالحرب والعدوان على الأرض الإسلامية والواقع أنه من العسير الفصل بين العوامل المادية والعوامل المعنوية التي دفعت المسيحيين إلى الحروب الصليبية، فالفقر والرغبة في الكسب، وروح المغامرة كانت عوامل هيأت الجو المناسب للحروب، غير أن هذه العوامل لم تظهر إلا بما نجم عن فكرة للحرب "المقدسة" وتخليص الأرض، من حماس ديني، والواضح أن فكرة الحرب نبعت من السياسة البابوية، وسياسة الدولة البيزنطية والحروب الأسبانية الإسلامية، فمما سهل أمر إعلان الحرب على المشرق الإسلامي، مادرج عليه الأسبان والفرنسيون في قتال المسلمين في بلاد الأندلس، حيث اتخذ هذا القتال صفة الحرب المقدسة، سواء من جهة المسلمين، حيث أثار "المرابطون" في المغرب الإسلامي الجهاد الديني، أو من جهة المسيحيين في الحالة النفسية التي اقترنت بتوجيه الحرب الصليبية إلى الشرق، حتى أن المؤرخ الكبير "ابن الأثير" نظر إلى الخطر الخارجي نظرة شمولية، واعتبر أي عدوان على طرف من أطراف العالم الإسلامي — سواء في الشرق والغرب — رافد يصيب في النهر الأكبر، وهو الغزو الأجنبي المنظم على أكبر قوة حضارية في العصور

---

[48] الوسيط في تاريخ فلسطين ص 155.

الوسطى، وهو الدولة الإسلامية (49) . هذا من جهة، ومن جهة أخرى كشف المؤرخ المذكور بوضوح عن أسباب نجاح هذا الغزو، ذي الشعب (الأندلس، صقلية، الشام – فلسطين) والتي تكمن في الفرقة، والأطماع الذاتية، وفقدان الروح الوثابة التي تميز بها الحكام والمسلمون الأوائل بناة الدولة الإسلامية (50) ، وقد كان واضح للعيان أن الكنيسة الغربية كانت محمومة لتوسيع رقعتها الإقطاعية، والسيطرة على الكنائس الشرقية، إضافة إلى رغبتها في حرب المسلمين، ومن حقائق التعصب الديني، وجود الجماعات الدينية التي كانت ترتبط بالكنيسة مباشرة وكانت ذات أثر فعال في تلك الحروب، منها فرسان الإسبتارية الذين كانوا ملتزمين بالدفاع عن ممتلكات الصليبيين في المشرق، وحماية الأماكن المقدسة وكانوا يرتبطون بالبابا مباشرة، وكانت كنائس بيت المقدس قد خصصت عشر دخلها لمساعدتهم في أداء رسالتهم الدينية المزعومة، وهناك هيئة الفرسان الداوية التي اتخذت مقرها في جزء من هيكل سليمان عليه السلام في المسجد الأقصى، وسميت باسم : فرسان المعبد، ثم حرفت إلى اسم الداوية (51) هذا وقد كانت للبابوية ورجال الكنيسة القدرة على التأثير والضغط والتهديد بالنسبة لمن لاينفذ رغبة الكنيسة بإصدار قرارات الحرمان التي تقضي بالحرمان من النعيم في الآخرة ونبذ طاعته في الدنيا (52) على حد زعمهم.

ثالثاً : الدافع الاجتماعي: ساد المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، تمايز طبقي كبير، فقد سادت فيه طبقة رجال الدين وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان (53)، وكانت طبقة الفلاحين تمثل الأكثرية المغلوبة على أمرها، والتي كان أفرادها يكدحون، ليسدوا حاجة الطبقتين الأوليين. كان الفرح الأوروبي مغلوباً على أمره، وكان مطالباً بالتزامات عديدة لأصحاب الإقطاع، وكان البابا على دراية أحوال الفلاحين الكادحين، فوعدهم بإلغاء التزاماتهم نحو أسيادهم وأغراهم بخيرات الشرق الإسلامي، كان آلاف الفلاحين يعيشون عيشة منحطة في نظام الإقطاع، حيث شيدوا لأنفسهم أكواخاً من جذوع الأشجار وفروعها وغطيت سقوفها بالطين والقش، دون أن يكون لها نوافذ، ولايوجد داخلها أثاث بل كان ما يجمعه الفلاح، يعتبر ملكاً خاصاً للسيد الإقطاعي، كما يعتبر محروم من الملكية الشخصية (54) . وكانوا مثقلين بالالتزامات الخدمية لاسيادهم

---

[49]الكامل في التاريخ نقلاً عن الوسيط في تاريخ فلسطين ص 156.

[50]الوسيط في تاريخ فلسطين ص 156.

[51]جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د. فايد حماد عاشور ص 86.

[52]تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ص 24.

[53]الجهاد والتجديد ص 84.

[54]المصدر نفسه.

الإقطاعيين في شتى المجالات إلى جانب حرمانهم من منتجاتهم وبذلك تظهر مدى التعاسة والبؤس الذي كان يعيشه غالبية شعب أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي وهكذا لما ظهرت الدعوة للغزو الصليبي، وجدت هذه الغالبية العظمى فرصتها للخلاص من حياتها الشاقة المليئة بالذل والهوان، ونظروا إلى أخطار الاشتراك في هذا الغزو. نظرة هينة أمام ما كانوا يعيشون فيه فإن ماتوا في هذه الحرب كان لهم الخلاص وإن نجوا، كانت لهم حياة جديدة افضل مما كانوا عليه [55] ، ولقد عرفت الكنيسة كيف تلعب بعقول هؤلاء، وتوغر صدورهم ضد الإسلام وأهله، وخدعتهم بأنهم سيحررون بيت المقدس والقبر المقدس، يباركهم الرب، والبابا، لذلك لهم يردعهم رادع عن الذبح والقتل، بل كان قتل المسلم مرضاة ينال عليها الصليبي ثواباً يوم الدنيونة [56].

رابعاً: الدافع الاقتصادي : يعتبر التطلع إلى خيرات المشرق الإسلامي، من أقوى دوافع الحروب الصليبية بعد الدوافع الدينية وقد عبر البابا (أوربان) نفسه في خطابه عن أهمية العامل الاقتصادي بالنسبة لواقع أوروبا آنذاك فقال : لا تدعوا شيئاً يقعد بكم ... ذلك أن الأرض التي تسكنونها الآن، والتي تحيط بها البحار وقلل الجبال ضيقة على سكانها الكثيرين، وتكاد تعجز عن كفايتهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، ويلتهم بعضكم بعضا... إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها بل هي فردوس المباهج [57] وإن جميع الوثائق تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوروبا في أواخر القرن الحادي عشر، وكانت فرنسا بالذات تعاني من مجاعة شاملة قبيل الحملة الصليبية الأولى، ولذلك كانت نسبة المشاركين منها تفوق نسبة الآخرين، فقد كانت الأزمة طاحنة حيث الجأت الناس إلى أكل الحشائش والأعشاب، وبذلك جاءت هذه الحرب لتفتح أمام أولئك الجائعين بابا جديدة للخلاص من أوضاعهم الصعبة وهذا ما يفسر أعمال السلب والنهب للحملة الأولى ضد الشعوب النصرانية التي مروا في أراضيها [58] ، كذلك اشترك عدد كبير من تجار المدن الإيطالية والفرنسية والإسبانية في الحروب الصليبية بغرض استغلالي بحت من أجل السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التي أصبحت مصدر ثراء للمشتغلين بها، لذلك قامت أساطيلهم بدور فعال في الاستيلاء على المراكز الرئيسية في الشام، فساعد الجنوية الفرنج في الاستيلاء على الأنطاكيه سنة 490هـ - 1097م، وأسهم البنادقة بعد ذلك بعامين في استيلاء اللاتين على بيت المقدس، وكان هدف هذه الجاليات الأول والأخير هو الربح والكسب المادي ولم يكن بعينها الباعث الديني إلا بالقدر الذي يحقق

---

[55] تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ص 24.

[56] أثر الشرق الإسلامي د. عبدالله الربيعي ص 138.

[57] المصدر نفسه ص 34.

[58] الحركة الصليبية د. سعيد عاشور (32/1-30).

مصالحها، ويكفي أن نعرف أن شعار البنادقة الذين عرفوا به وقتذاك كان: لنكن أولاً بنادقة ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين (59) ، ولذلك قامت جمهوريات إيطاليا (جنوا – بيزا – البندقية) بعقد معاهدات مع أمراء الصليبيين بالمشرق حصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية هامة (60).

خامساً : تبدل ميزان القوى في حوض البحر المتوسط: منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) لصالح الغرب الأوروبي مركز الحركة الصليبية، فضعف الدولة البيزنطية وترنحها تحت ضربات السلاجقة القوية جعلها تسارع إلى الاستنجاد بأوروبا الغربية من ناحية، ثم اختلال أوضاع المسلمين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي خاصة في الأندلس وصقلية، وما قابل ذلك من تيسير أسباب القوة والظهور لدى أعدائهم، مما جعل الغرب الأوروبي يرفد النصارى الإسبان بشتى صنوف الدعم والمساندة في صراعهم مع مسلمي الأندلس على الاستنجاد بالمرابطين، ومسلمي صقلية على الاستنجاد بإفريقية من ناحية ثانية كل ذلك أدى إلى دخول الحركة الصليبية في طورها الجديد الذي اتخذ صفة العالمية (61) وكانت البابوية تدعم هذه الحرب بالموافقة والتوجيه والدعاية والدعم المعنوي، فهذه حروب صليبية متقدمة على إعلان البابا أوربان الثاني بدء الزحف الصليبي إلى المشرق سنة 488هـ – 1095م (62). وتعتبر إفريقية بمدلولها التاريخي أحد هذه الميادين في الصراع الصليبي، فقد كانت الجبهة الإفريقية ميدانا نشطت فيه قوى العدوان الصليبي لعدة قرون، يتمثل ذلك في حملات عديدة وجهت إليها الواحدة تلو الأخرى، ولم تفتر للصليبيين في ذلك همة ولم يوهن الفشل لهم عزيمة، فكما أن بلدان المغرب الإسلامي كانت أول من أكتوى من البلاد الإسلامية بنار الاستعمار الأوروبي الحديث، كانت بلدان الجناح الغربي من العالم الإسلامي ومن ضمنها إفريقية هي التي تلقت الضربات الأولى للصليبيين، والسبب في ذلك يعود إلى عدة اعتبارات جغرافية وتاريخية من أهمها قربها الشديد من غرب أوروبا مركز الحركة الصليبية ومعرفة الأوروبيين الواسعة نسبياً لأوضاع المسلمين في هذه المنطقة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لسهولة الاتصال بين الطرفين، ثم الحقد الشديد الذي كان يكنه الأوروبيون للمسلمين المغاربة (63) ، وبالذات لكونهم هم الذين تولوا عبء الجهاد في أوروبا أكثر من غيرهم

---

[59] الحروب الصليبية المقدمات السياسية د. علية الجنزوري ص 249.

[60] الجهاد والتجديد، محمد حامد الناصر ص 83.

[61] الحروب الصّليبية في شمال إفريقية ص 11،12،13.

[62] الحروب الصّليبية في شمال إفريقية ص 12.

[63] كلمة المغاربة كانت تطلق على سكان المغرب الإسلامي بأسره والذي كان يضم الأندلس والجزر الإسلامية غرب المتوسط إلى جانب أقطار المغرب العربي، وليس كما درج في العصر الحديث يقصرها على أهل المغرب الأقصى.

من المسلمين، وما كان يشعر به الأوروبيون من خطر هؤلاء إذ تهيأت لهم الوحدة والقيادة المخلصة، لكل ذلك كانت أوروبا تتربص بمسلمي هذه المنطقة الدوائر وتتحفز للوثوب عليهم منتظرة الفرصة المناسبة، وأخذت هذه الفرصة التي طالما انتظرها محركو قوى العدوان الصليبي تتهيأ منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، إذ أصاب الجناح الغربي من العالم الإسلامي من التمزق ما جعله يسير بخطى حثيثة نحو التردي إلى الهاوية، ولم يكن وضع إخوانهم في المشرق بأحسن حال منهم، فكان هذا التمزق وافتراق الكلمة هو السبب الأهم في البلاء الذي نزل بالمسلمين في المشرق والمغرب على حد سواء وما أشبه اليوم بالأمس، لقد كان ولا يزال تفرق العرب والمسلمين هو الباب الواسع الذي يدخل إليهم أعداؤهم منه لضربهم في عقر ديارهم، فكان أن انطلقت القوى الصليبية في موجة عاتية تضرب المسلمين في ثلاث جبهات في آن واحد في الأندلس وصقلية وإفريقية [64].

1- **الأندلس:** فقد شهدت الجبهة الأندلسية منذ أواسط ذلك القرن نشاطاً ملحوظاً تمثل في شن هجوم قوي مستمر من قِبل النصارى الإسبان بزعامة مملكة قشتالة على مسلمي الأندلس، حيث أخذت المدن والمعاقل الإسلامية تسقط في أيديهم تباعاً، وأحرزوا النصر على المسلمين في معارك عديدة وتوجت تلك الانتصارات بسقوط مدينة طليطلة سنة 478هـ في يد الفونسو السادس ملك قشتالة تلك الكارثة التي روعت العالم الإسلامي بأسره وحيال هذا الضغط المتواصل من النصارى الإسبان مسلموا الأندلس إلى الاستنجاد بالمرابطين من العدوة المغربية، فكانوا يرسلون الاستغاثة تلو الأخرى لهذه القوة الفتية، حتى إذا ما قضى أميرها يوسف بن تاشفين على جيوب المقاومة لدولته في المغرب عبر البحر إلى الأندلس لجموع غفيرة حيث التقى بألفونسو السادس في معركة الزلاقة سنة 479هـ التي سيطر المرابطون ومن ساعدهم من الأندلسيين بانتصارهم الرائع فيها صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي، وبانتصار المسلمين في تلك المعركة أوقف المد المسيحي الإسباني حتى تهيأت له ظروف أخرى فيما بعد.

2- **صقلية:** وأما الجبهة الصقلية فقد أدى ظهور النورمان كقوة جديدة في ميدان السياسة الدولية إلى تغير ميزان القوى في غرب المتوسط لصالح القوى النصرانية، إذ ما كاد هؤلاء القادمون الجدد موطئ قدم لهم في جنوب إيطاليا ويحصل جيسكارد أكبر زعمائهم على اعتراف البابا نقولا الثاني به في مؤتمر ملفى سنة 1059م وأعلن عن مشروعه في توجيه قواه ضد مسلمي صقلية

---

64 الحروب الصليبية في شمال إفريقيا ص 13.

إرضاء للبابوية التي كانت ترى في ذلك تحقيقاً لأهدافها الصليبية من ناحية وإبعاداً للخطر النورماني عن ممتلكاتها من ناحية أخرى، فشجعت هذا المشروع، وكدليل على موافقتها وتشجيعها أرسل البابا إلى جيسكارد راية مقدسة لينال هو وجنده ببركتها النصر على المسلمين وأصر على أن الفتوحات المرتقبة من أجل المسيح عليه السلام هي أكثر أهمية من إرسال الهدايا إلى روما [65] ، وتّم الاستيلاء على الجزيرة في سنة 484هـ في عهد رجار الأول ثم وثبت قواته على مالطة في العام التالي واحتلتها وأخذ يتحين الفرصة للانقضاض على إفريقية [66].

3- **إفريقيـة:** وأما الجبهة الإفريقية، فقد نالت حظها هي الأخرى من العدوان الصليبي في تلك الآونة بفعل قوة ناشئة هي المدن البحرية الإيطالية، فقد استغلت هذه المدن غياب القوى البحرية القديمة المتمثلة في الأسطولين الإسلامي والبيزنطي عن مياه البحر الأبيض المتوسط منذ أوائل ذلك القرن لإنشغال كلا الطرفين بمشاكله الداخليه، وأخذت أساطيلها تمخر مياه ذلك البحر القريبة من الشواطئ الأوروبية أولاً خوفاً من أسطول مجاهد العامري صاحب دانية الذي استطاع تجميد نشاطها لفترة من الوقت حتى إذا ما تمكنت من إزالة ذلك الخطر بدأت منذ أواسط القرن المذكور تجوب مياه البحر الأبيض المتوسط شرقاً وغرباً، وقد وضعت هذه المدن قوتها البحرية في خدمة الأهداف الصليبية منذ البداية لتحقيق مكاسب خاصة بها فبتشجيع الباب لاون التاسع استولى تحالف من جنوة وبيزا على جزيرة سردينيا الإسلامية سنة 442هـ /1063م حيث خرب أرباضها وميناءها وغنم غنائم كبيرة، وكما اشتركت هذه الأساطيل في حروب الجبهة الصقلية اشتركت في حروب الجبهة الأندلسية، فأسهمت في مطاردات المسلمين الأندلسيين عن طريق البحر وأخذت نصيبها من الغنيمة، وفرضت حصاراً بحرياً على المرية حتى دفعت تلك المدينة فدية ضخمة تقدر بمبلغ 113ألف دينار ذهبي، كما أجبرت بلنسية على دفع أتاوة مماثلة تقدر بمبلغ 20 ألف دينار ذهبي لتفتدي نفسها بذلك من النهب والسلب[67] ، وهاجمت الجزائر الشرقية (جزر البليار) عدة مرات. ونتيجة لتلك، أصبحت القوة البحرية الإيطالية هي المتحكمة في مياه البحر الأبيض المتوسط مما دفعها إلى مزيد من المغامرة، فوجهت نشاطها إلى إفريقية التي كانت لا تزال تحتفظ بقوة بحّرية بمّد يد المساعدة لإخوانهم في صقلية أو

---

[65] الحروب الصليبية في شمال إفريقية ص 14.

[66] المصدر نفسه ص 15.

[67] القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط أرشيبالد لويس ص 372.

غيرها من ناحية ثانية، ثم لتحقيق أهداف الحركة الصليبية في إفريقية من ناحية ثالثة، فقامت قوة بحرية ضخمة مكونة من أسطولي جنوة وبيزا مدعومة بفريق من مدينة أمالفي وقوة عسكرية أخرى أمدهما بها البابا بمهاجمة مدينة المهدية سنة 480هـ/1087م أي بعد الاستيلاء على طليطلة بعامين وقبيل الاستيلاء الكامل على صقلية واستولت عليها باستثناء قلعتها، وطلت في يدها إلى أن دفع صاحبها تميم بن المعز للقوى المتحالفة فدية مالية ضخمة وعقد مع الغزاة معاهدة نصّ أحد بنودها على تعهّد تميم بعدم التعرض للسفن الإيطالية في المياه الإفريقية، ومنحهم امتيازات تجارية في بلاده كما سيذكر في موضعه ومما تقدم يتضح أن هذا الهجوم الصليبي على القسم الغربي من العالم الإسلامي منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) والذي كانت تدير دفته البابوية قد احتدم في ثلاث جبهات كانت إفريقية إحداها ولا شك أن هذا الهجوم كان وجها من أوجه الحركة الصليبية، وهذا يؤكد أن الحروب الصليبية بدأت في إفريقية قبل الزحف الصليبي إلى المشرق، ويؤكد هذه الحقيقة ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة 491هـ [68] إذ يفهم من النص الذي أورده أن تلك الحوادث كانت مترابطة يحركها محرك واحد وأنها كانت بداية لموجة الحروب الصليبية في ذلك الطور من أطوار الحركة الصليبية إذ يقول : كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس .. ثم قصدوا سنة أربعة وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها .. وتطرقوا إلى إفريقية فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم — ثم ملكوا غيره غيره على ما تراه – فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام[69]، وعلى الرغم من اتجاه معظم قوى الحركة الصليبية إلى المشرق، إلا ان ذلك لم يمنع من بقاء فكرة احتلال إفريقية ماثلة في أذهان ذوي الأفكار الصليبية وبقي تطلع النورمان للاستيلاء عليها قائماً حتى تم لهم ذلك في عهد رجار الثاني حيث استولى على معظم سواحلها من طرابلس شرقاً إلى مدينة تونس غرباً في سنة 543هـ/1148م، فكانت الحرب الصليبية مشتعلة في الجبهة الإفريقية أثناء احتدامها في جبهة المشرق، وبقي الوجود النورماني ماثلاً فيها حتى قام عبدالمؤمن بن علي زعيم دولة الموحدين بطردهم من المهدية آخر معاقلهم فيها سنة 555هـ/1160م [70] ، وعندما حدث نوع من تبدل ميزان القوى في

---

[68] الحروب الصليبية في شمال إفريقية ص 16.

[69] الكامل في التاريخ نقلاً عن الحروب الصليبية في شمال إفريقيا ص 17.

[70] الحروب الصليبية في شمال إفريقيا ص 18.

المغرب الإسلامي نجد ذلك ساهم في جبهة المقاومة الإسلامية في المشرق في عهد نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الأيوبي، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

سادساً : استنجاد أمبراطور بيزنطة بالبابا أوربان الثاني: استنجاد الإمبراطور الكسيوس كومنين (1081-1118م) بالبابا أوربان الثاني ضد السلاجقة، لم يكن هذا الاستنجاد في الحقيقة الأول من نوعه بل سبقه استنجاد الإمبراطور (ميخائيل السابع) بالبابا (جريجورى السابع) عقب موقعة ملازكرد 463هـ السالفة الذكر، فالمعروف أن شن الحرب على الترك كان من الأغراض التي تنطوى عليها الدعوى البيزنطية، فالأناضول يعتبر أكثر أهمية من بيت المقدس عند الدولة البيزنطية [71]، ولذلك لما أصبحت عاصمة البيزنطيين مهددة من قِبل السلاجقة كان لزاما على الإمبراطور أن يستنجد بالغرب في مقابل اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية، وقد أرسل البابا جريجورى السابع إلى الإمبراطور ميخائيل السابع رداً مرضياً بدافع العاطفة المسيحية من جهة، وبدافع سياسي من جهة أخرى، فما يحشده من جيش سوف يقضي على الانشقاق بين الكنيستين ويزيد من نفوذ البابوية في الشرق مثلما زاد في الغرب. غير أن الحرب التي نشبت بين جريجورى السابع والإمبراطور (هنري الرابع) منعته من المضي في مشروعه ولما خلف الإمبراطور (الكسيوس كومنين) الإمبراطور ميخائيل السابع: بعث برسالة إلى البابا أربان الثاني وإلى كبار رجال الإقطاع سنة 478هـ يدعوهم لإرسال المساعدات لنجدة إخوانهم في الشرق وحماية القسطنطينية ضد الخطر السلجوقي [72] ، ولقد كان (الكسيوس) يرغب في ان يبعث له الغرب ببعض الجند المرتزقة ولكن البابا أوربان لم يشأ أن يجعل نفسه في خدمة الدولة البيزنطية، بل أراد أن تتولى البابوية تقديم المساعدة للمسيحيين في الشرق، وهذا التغيير في الفكرة يؤدي إلى أن يحشد العالم المسيحي اللاتيني جيشاً ضخماً، لا أن يبعث بجنود مرتزقة تخضع لأهواء الأمراء في تصرف البابا مقابل الإمبراطور ميخائيل السابع يبرز أهمية إبداع والتفكير وإقتناص الفرص وتسخير الوسائل في خدمة مشروعهم وعلينا أن نستفيد في هذا الدروس الكثيرة لخدمة المشروع الإسلامي، وأشار هذا الاختلاف في التفكير من المتاعب منذ البداية ما أساء العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين والثابت تاريخياً أن المسئول الأول عن قيام الحركة الصليبية هو البابا أوربان الثاني، فهو

---

[71] الحروب الصليبية د. علية الجنزوي ص 253.

[72] الحرب والروم اللاتين (150/1).

الذي أنذر بقيام تلك الحروب [73] يؤيده في دعواه الجهاز الكنسي في الغرب، وينسب إليه جميع المؤرخين اللاتين المعاصرين له، الدور الرئيسي في تحقيق هذه الفكرة [74].

سابعاً: شخصية البابا أوربان الثاني ومشروعه الشامل للغزو الصليبي:

ولد أوربان الثاني عام 427هـ/1035م في شاتيون سير مارن واسمه أودو، وقد درس على يدي القديس برنو الذي أسس نظام الكارسوسيين وفي عام 461هـ/1068م أصبح راهباً في دير كلوني بالقرب من ماكون، وقد التحق بخدمة البابا المتسلط المؤمن إيماناً راسخاً بتفوق البابوية على الإمبراطورية ونعني به جريجورى السابع وتم تعيينه كاردينالا أسقفاً لاوستياً في عام 473هـ/1080م، وخدم الكنيسة في ألمانيا خلال المرحلة من 477هـ/1084م إلى 478هـ/1085م، وقد ساند على نحو شرعي البابا جريجوري السابع في خلال صراعه مع الإمبراطور هنري الرابع، وقد ارتبط أربان الثاني بسينودس (مجمع كنس) في ساكسوني الذي عقد عام (478هـ/1085م) وعند وفاة البابا فيكتور الثالث في 16ديسمبر 1087م في مونت كاسينو تم السيطرة على روما عن طريق كايمنت الثالث، وتم انتخاب أوربان الثاني بعد تأخير طويل في تراكينا إلى الجنوب من روما بالقرب من جايتا وحمل اسم أوربان الثاني (481- 493هـ/1088- 1099م) [75] .
ونلاحظ من خلال سيرة هذا الرجل أنه اتسم بالنشاط الوافر، وإحكام سيطرته على كافة مناطق نفوذ الكنيسة الأم، ولعل موقفه من أسبانيا يمثل لنا بعد مهماً، فقد أيد ذلك البابا الحرب ضد المسلمين وعندما أمكن للأسبان إخضاع بعض المناطق التي كانت من قِبل تحت سيادة أعدائهم سارع البابا بجعلها ضمن نفوذ كنيسة روما ولاشك أن أوربان الثاني في دعمه الحرب ضد المسلمين هناك كان يسير على خطى وهدى البابا الكسندر الثاني، وهكذا يؤكد لنا على حقيقة محورية وهي وجود استراتيجية عليا للبابوية في روما تتجه نحوها وتنفذها بحرص في القرن الحادي عشر الميلادي/الخامس الهجري على نحو خاص بغض النظر عن تغير وتقلب البابوات، وأهم ملامح هذه الاستراتيجية هي توسيع نفوذ كنيسة روما، وتوحيد الكنائس، ومحاربة الإسلام أينما وجد باعتباره العدو اللدود الذي لامناص من مواجهته ومحاولة الانتصار عليه بأي ثمن [76] ، ومن الملاحظ أن من خلال الاستغاثات البيزنطية المتعددة، وإنشغال من سبق أوربان الثاني بأمور متعددة، جاءت السانحة لهذا البابا، وفي مجمع بباكنزا بإيطاليا في مارس 1095م،488هـ اتجه إلى الاستجابة لدعوة

---

[73] الحروب الصليبية د. علية الجنزوي ص 254.

[74] المصدر نفسه ص 254 العرب والروم اللاتين (56/1).

[75] الحرب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، د.محمد مؤنس ص 63.

[76] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب د. محمد مؤنس ص 65.

الإمبراطور الكسيوس الأول كومنينوس (474-512هـ)(1081-1118م) غير أن مجمع بياكنزا أخلق فيه البابا في الدعوة لشن حرب صليبية ضد المسلمين في الشرق [77].

1- أوربان الثاني يعقد مجمعاً كنسياً في جنوب فرنسا :
إن إخفاق مجمع بياكنزا لم يثن ذلك البابا العنيد الطموح عن تحقيق هدفه بكل الوسائل الممكنة، وقد اتجه إلى بلاده الأصلية فرنسا من أجل معاونته على نجاح مشروعه المرتقب، وقد دل ذلك الاختيار على ذكائه خاصة أن جنوب فرنسا التقليدي المحافظ كان بمثابة منطقة تماس مع الحرب التي شنها الإسبان ضد المسلمين في أسبانيا، بالإضافة إلى أن مجرد طرح الفكرة على الأرض الفرنسية كان من الممكن أن يحقق نجاحاً فورياً من خلال أنها الموطن الأصلي للبابا، وهو أدرى بشعابها، خاصة أنها - في نفس الحين - ذات تاريخ خاص مع الإسلام خلال معركة بواتيه المعروفة لدى المسلمين بمعركة "بلاط الشهداء" عام (114هـ/732م) والتي فيها هزم المسلمون وتم وقف المد الإسلامي وإعاقته عن الامتداد فيما وراء جبال البرانس، وسوف ندرك من خلال تحليل خطاب البابا في مجمع كليرمنت أن كافة تلك الزوايا، لم تغب عن ذهن ذلك الرجل الحاد الذكاء، القوي الإرادة منذ أن تربى في أحضان حركة الكارسوسيان الرهبانية الصارمة، مهما يكن من أمر، فإن البابا اتجه إلى كليرمنت فران بجنوب فرنسا وعقد مجمعاً كنسياً هناك وفي اليوم العاشر عقد المجمع الذي تناول فيه العديد من القضايا التي تهم الكنسية : ألقى البابا على مستمعيه خطاباً بالغ الأهمية والخطورة وذلك في يوم 27نوفمبر 1095م[78].

2- الخطبة التي ألقاها البابا أوربان الثاني : كان للخطبة التي ألقها البابا أوربان الثاني في المجمع الديني انعقد في كليرمونت عام 488هـ/1095م أثرها البالغ في نفوس المسيحيين المجتمعين في هذا المجتمع فقد الهبت حماسهم وأصابتهم بحالة عبر عنها المؤرخ جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) : بأنها نوبة حادة من الجنون [79]، إذ قال البابا : يا شعب الفرنجة، يا شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى في تلك البلاد، بلاد المسيحيين في الشرق، وقلب موائد القرابين المقدسة، ونهب الكنائس وخربها وأحرقها،

---

[77] المصدر نفسه ص 65.

[78] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 66.

[79] حضارة العرب نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 237.

وساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب، ودنسوا الأماكن المقدسة برجسهم، وقطعوا أوصال الإمبراطورية البيزنطية، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لايستطيع اجتيازها في شهرين كاملين على من أذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع إذا لم تقع عليكم أنتم. أنتم يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد في القتال، وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم – أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم، فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا – الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة، وغيره من الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست – لاتدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم، ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار، وتلك الجبال، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بمن يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية. طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، وأقضوا على ما بينكم 0من نزاع واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم، إن أورشليم أرض لانظير لها في ثمارها. هي فردوس المباهج إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقادها. فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى في ملكوت السموات [80]، وهكذا كان لهذه الكلمات الحماسية التي ألقاها البابا أوربان الثاني أثرها البالغ في نفوس المسيحيين المجتمعين فبعد أن أنهى البابا خطبته مباشرة صاح المجتمعون صيحة رجل واحد قائلين هكذا أراد الله [81] ولم يكد البابا أوربان الثاني ينتهي من خطابه هذا، حتى نهض إليه الأسقف أدهمير دي مونتيلن وركع أمام قدمي البابا، والتمس منه الإذن بأن يلحقه بالحملة المقدسة، وأمام هذا الموقف المؤثر تحركت مشاعر المجتمعين وتدافعوا بالمئات يركعون أمام البابا مثل أدهمير في حماس منقطع النظير وحملوا الصلبان وحلفوا جميعاً على تخليص المدينة المقدسة، ويعقب المؤرخ المعاصر للأحداث وهو – روبرت الراهب – فيقول: يا له من عدد كبير من الناس، من كل الأعمار ومن مختلف المستويات الذين تقلدوا الصلبان خلال مجمع كليرمونت، وقد حلقوا على تخليص المدينة المقدسة وقد وصل عددهم إلى 300ألف [82] وإزاء هذا الموقف المتحمس لا

---

[80] قصة الحضارة (15،16/15) وثائق الحروب الصليبية ص 99 - 100.

[81] دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 237.

[82] المصدر نفسه ص 237.

دهمير – عينه البابا أوربان الثاني ممثلاً شخصياً ونائباً عنه ليوضح للجميع أن الحملة تحت إشراف الكنيسة، بل تحت إشرافه هو مباشرةً [83].

3- ما يستنتج من خطاب البابا أوربان الثاني ؟

قام الدكتور محمد مؤنس عوض بدراسة واعية للحروب الصليبية واستفاد من مراجعهم وقام بتحليل لخطاب البابا من خلال أربعة نصوص لأربعة من المؤرخين المعاصرين، هم فوشيه الشارترى، وروبير الراهب، وجويرت النوجتي ويودريك الدولى، وهناك تصور بأن فوشيه الشارترى كان من بين الذين حضروا مجمع كليرمنت، وبصفة عامة، من الممكن عقد مقارنة بين النصوص الواردة في مؤلفات المؤرخين الأربعة من أجل التوصل إلى حقيقة ما أعلنه البابا في خطبته الشهيرة، وعند مقارنة تلك النصوص يمكن استنتاج الآتي :-

أ- وجه البابا حديثه إلى جنس الفرنجة : من أجل التركيز على البعد الأثني أو العرقي، وأوضح أن الله قد ميزهم بموقع بلادهم، وبعقيدتهم الكاثوليكية، وعمل على تذكيرهم بالبعد التاريخي من خلال أمجاد شارل مارتل وشارلمان وما قدماه للمسيحية من خدمات جليلة، على نحو عكس أهمية حافز "الذاكرة التاريخية" في تشكيل تلك الظاهرة التاريخية الكبرى [84]

ب- أشار البابا إلى أن هناك أخباراً مؤسفة ومزعجة قدمت من الشرق مفادها أن جنساً ملعوناً وهم عرق ملعون، عرق غريب تماماً عن الله وهم حقاً جيل لم يتوجه بقلبه أو يعهد بروحه إلى الله [85] ، (ويقصد بذلك الأتراك السلاجقة) ذبحوا المسيحيين الشرقيين، وحولوا الكنائس إلى اسطبلات لخيولهم وأن دماء أولئك المسيحيين تنادي مسيحيين الغرب من أجل إنقاذهم من براثن أعدائهم الكفار.

ج- عمل البابا على إثارة مطامع سامعيه في ثروات الشرق فأوضح أن الأرض في الغرب الأوروبي ولاسيما في فرنسا ضاقت بسكانها، وطلب من الناس الذهاب إلى الشرق حيث أرض كنعان التي تفيض لبناً

---

[83] الحرب الصليبية ص 51 حسن حبشي دور الفقهاء ص 238.

[84] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 67.

[85] الحرب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم كارين أرمسترونغ ص 35.

وعسلاً وفي ذلك الدليل الجلي الذي لا يقبل ارتياب مرتاب على أن البعد الاقتصادي للحركة الصليبية كان موجوداً، وقد تم الإعلان عنه بصراحة كاملة منذ اللحظات الأولى لميلادها.

س- وعد البابا كل من يحمل السلاح ويتجه إلى الشرق بأن تغفر ذنوبه وآثامه وبمعنى آخر قدم لهم الغفران الكنسي، أما إذا استشهد المرء في سبيل تحقيق هدفه فإنه يعد شهيداً من شهداء المسيحية الأبرار وجميعها مغريات مهمة في عصر سادته ظاهرة الهوس الديني العاطفي في العالم المسيحي الأوروبي.

ش- اتجه البابا إلى الإشارة إلى بيت المقدس، وهي الجنة الأرضية قلب العالم، التي شهدت ميلاد السيد المسيح وطهرها بموته وذكر لمستمعيه أنها تناديكم من أجل تخليصها من براثن محتليها من الكفار، وأود أن أقرر هنا أن تلك المدينة مثلت محوراً على قدر عظيم من الأهمية: من أجل إثارة الشعور الديني لدى مستمعي البابا وفي أغلب النصوص التي وردت إلينا بشأن الخطاب المذكور نجد أن بيت المقدس تحتل مكاناً بارزاً ومحورياً، وهو أمر منطقي تماماً من خلال مكانتها وقداستها الدينية، كذلك أنها مثلت الحلم الجماعي الخاص بالحج المسيحي في ذلك العصر.

ر- حرص البابا على تدعيم خطابه بعدد من النصوص الواردة في الكتاب المقدس من أجل إثارة الشعور الديني لمستمعيه، أو ربما من أجل أن يعطى لخطابه قداسة خاصة مثل عبارات ذلك الكتاب في العقل الجمعي الأوروبي في ذلك العصر، ومن أمثلة ذلك العبارة الواردة في إنجيل متى وهي: من أحب أباً وأمَّاً أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب إبناً أو إبنة أكثر مني فلا يستحقني [86]. كذلك العبارة القائلة : من لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني [87] . والتي وردت في نفس الإنجيل المذكور.

ز- ترتيب الأولويات عند البابا أوربان الثاني : كان البابا أوربان الثاني بارعاً في عرض أفكاره وكذلك في إخفاء بعضها، وقد ركز على أمر بيت المقدس حتى يقدم طريق واحداً على الغرب الأوروبي السير فيه دون تردد ويخلق لمعاصريه (وحدة الهدف) من خلال وحدة المؤسسة الدينية الداعية له في صورة البابوية، وعلى هذا الأساس، لم يرد في الخطاب المذكور أية عبارات عن رغبته العارمة في توحيد الكنائس وإخضاع

---

[86] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 68.

[87] الكتاب المقدس العهد الجديد، متى، الإصحاح(10،27،28).

كنيسة القسطنطينية لسيطرة الكنيسة الأم في روما كذلك لم يرد فيه ما يدل على الهدف التنصيري وهو هدف محوري للبابوية من خلال المشروع المرتقب، وتعليل ذلك الإخفاء، يكمن في أن البابوية أدركت أن هناك أولويات في طرح المشروع ينبغي عدم تخطيها، وأن وحدة العالم المسيحي تتطلب عدم تشعيب الأهداف وطرحها حتى لا يغيب الأمر منذ اللحظات الأول لميلاد المشروع، ويلاحظ هنا أن لغة البابوية في الخطاب ذات طابع متكتم في عرض الأهداف الأخرى لها، أما فيما بعد نجاح المشروع والإستيلاء على الرمز الديني المسيحي في صورة بيت المقدس، وجدنا – والأمثلة هنا أكثر من أن تحصى – الإفصاح عن الأهداف الأخرى بوضوح وصراحة كاملتين وفي هذا دليل واضح على أن تلك المؤسسة الدينية ذات التأثير الفعال رأت تحقيق أهدافها جزءاً وليس دفعة واحدة، وهو أخطر ما في المشروع برمته، وفي تقديري [88] ، أن البابا أوربان الثاني لم يغيب عن تفكيره ذلك الجانب بحكم أنه المهندس الأول للمشروع والراعي الأصلي لفكرته، وفي واقع الأمر: أن الخطاب الذي ألقاه البابا في مجمع كليرمنت يعد على جانب كبير من الأهمية التاريخية، فلم نسمع من قبل في تاريخ أوروبا القرون الوسطى أن خطاباً كان معبراً عن عصره بمثل هذه الصورة كما لم نسمع عن خطاب حرك الجماهير الأوروبية الغفيرة عن مواطنها الأصلية إلى الشرق بمثل تلك الدرجة التي تحدثنا بها المصادر التاريخية المعاصرة، ولذلك لا ننظر إليه على أنه مجرد خطاب عادي، بل أنه إعلان ما يشبه "الحرب العالمية" في العصور الوسطى من جانب الغرب الأوروبي ضد الشرق الإسلامي، وذلك دونما مبالغة أو قولية أو اعتساف في الأحكام، بل من خلال شواهد التاريخ التي وقعت في أعقابه. ويلاحظ أنه في أعقاب إلقاء البابا لخطابه صاح الحاضرون صيحة واحدة وهي الله يريد ذلك، وكانت صيحة المسيحية لمحاربة الإسلام وأهله، وأتخذو الصليب شعاراً ومن هنا كانت تسميتهم بالصليبيين [89].

ل– قدرة البابا أوربان الثاني على تقديم مشروع عام : استطاع أوربان الثاني أن يوحّد شعوب الغرب في مشروع عام، على الرغم من أن لغات هذه الشعوب وعاداتها المحلية، واهتمامات أبنائها كانت تختلف اختلافاً بيناً. ولكن الفكرة الصليبية التي جمعت جماهير الغرب الأوروبي لم تكن لتنجح لو لم تكن متوافقة مع حركة المجتمع، هذا التوافق بين الفكر والواقع، بين التبرير الأخلاقي للحرب، وحركة المجتمع هو الذي خلق الإيديولوجية التي تحركت الجماهير الأوروبية في أطارها، فعلى المستوى الشعبي كان تفكير الناس في أوروبا الغربية في القرن الحادي عشر يتوازى مع السياسة البابوية وفكرة الحرب المقدسة إلى حد ما، إذ أن

[88] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 68.

[89] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 69.

أوروبا كانت قد بدأت حركة إحياء دينية مع مشرق شمس القرن الحادى عشر. ومع اقتراب الألف الأولى بعد المسيح من إكتمالها سرت موجة بالإحساس بالذنب والرغبة في التوبة في غرب أوروبا، فقد تعمق لدى الإنسان الغربي الشعور بالخطيئة والإحساس بالذنب، والحقيقة أن من يقرأ مصادر تاريخ القرن الحادي عشر في غرب أوروبا لا يمكن أن يغفل إصرار الناس في ذلك الزمان على أن يضمنوا لأنفسهم غفران خطاياهم وكان هذا نتاجاً للمشاعر الألفية والأخروية التي ملكت على الناس وجدانهم وعقولهم مع توقعاتهم لمجيء الدينونة، وانتشر الوعاظ الجوالون في كل أنحاء الغرب الأوروبي يحثون الناس على الزهد والتوبة والتشبه بحياة الفقر التي عاشها الحواريون وفي غمرة هذا التدين العاطفي الذي حكم تصرفات المجتمعات الغربية سادت مشاعر الكراهية والتعصب ضد أتباع الديانات الأخرى، بل، وضد من يعتنقون مذهباً غير المذهب الكاثوليكي. وثمة دليل قوى على هذا في طيات الملحمة الصليبية المعروفة باسم "أنشودة أنطاكية" التي تعكس، بشكل أمين، روح الانتقام التي سرت في المجتمع الكاثوليكي ضد "الوثنيين المخذولين" — على حد زعمهم — كما أن القصيدة لا تعتبر أن الأمة المعادية للمسيح هم المسلمون فقط، وإنما يصدق هذا الوصف أيضاً على كافة من لا يعترفون بعقيدة الكنيسة الكاثوليكية، وهي بهذا تجسد التفكير الشعبي في أوروبا القرن الحادي عشر، هذا التفكير الشعبي كان هو الآخر واحداً من ملامح الإيديولوجية العامة التي أفرزت الحركة الصليبية، لقد تمثل نجاح أوربان الثاني في أن خطبته التي دعا فيها إلى الحملة الصليبية كانت بمثابة بؤرة تجمعت فيها كل الأفكار التي مثلت الإطار الإيديولوجي لحركة المجتمع الغربي آنذاك على الرغم من الاختلافات اللغوية والعادات والتقاليد وهكذا لم تكن استجابة جماهير المستمعين إلى البابا في كليرمون مجرد رد فعل لبلاغة كلماته، وإنما كانت هذه الاستجابة تعبيراً عن فرحة أؤلئك المستمعين بالمشروع الذي مس أوتار الآمال التي كانت تداعب كلماتهم تقريباً، وجاءت الحرب المقدسة ستاراً مدهشاً يمكن للجميع أن يتحركوا من خلاله لضمان تحقيق أحلامهم الدنيوية وخلاصهم الأخروي وبوسعنا أن نورد عشرات التعبيرات الواردة في المصادر التاريخية والحوليات المعاصرة تصف الصليبيين بأنهم "فرسان المسيح" و "رجال المسيح" "أولئك الذين يكونون جيش المسيح و"الشعب المقدس"و"شعب الرب" وهي كلها تعبيرات تشير بأن فكرة الحرب الصليبية كانت قد رسخت في الأذان بحيث كان الناس على اقتناع كامل بأنهم حين يشاركون في هذه الحملة لا يفعلون ذلك استجابة لأوامر أي مخلوق، ولا حتى البابا نفسه، وإنما هم يطيعون الرب (90).

[90] الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، د.قاسم عبدالله ص 24 ، 25.

4- الاجتماع الاستشاري للبابا بعد خطابه : كان البابا أوربان الثاني يجتمع مع رجال الدين النصراني ويستشيرهم في حشد الطاقات الرسمية والشعبية لغزو المسلمين، فقد اجتمع مع أساقفته وبعد هذا الاجتماع الاستشاري خرجوا بالقرارات الآتية :

- كل من ارتكب جرماً يعاقب عليه، يصبح في حل من العقوبة إذا اشترك في هذه الحرب المقدسة.
- كل مال من عقار أو متاع يتركه المحارب الذاهب إلى الأرض المقدسة يكون تحت حماية الكنيسة أثناء غيابه .. وترده كاملاً حين يعود المحارب إلى وطنه.
- ينبغي لكل مشترك في الحملة أن يحمل علامة الصليب.
- على كل من اتخذ الصليب أن يفي بالوعد بالمسير إلى بيت المقدس فإذا رجع عن عزمه طرد من الكنيسة.
- كل بلد يخلص من أيدي الكفار "المسلمين" يجب أن يرد للكنيسة.
- ينبغي أن يكون كل فرد جاهزاً لمغادرة وطنه في عيد العذراء.
- ينبغي أن تلتقي الجيوش في القسطنطينية. ولقد قام البابا هذا فأرسل أسا قفته بهذه القرارات لتبليغها لملوك العالم المسيحي وأمرائه في الغرب [91].

5- حملة الدعاية الصليبية : افتتح خطاب البابا أوربان الثاني مرحلة على جانب كبير من الأهمية في صورة الدعاية الصليبية وهي دعاية قامت على أساس الانتقال الشخصي للعديد من المواقع، ومخاطبة قطاعات مختلفة من البشر، وقد كان لها دورها الفعال من أجل إنجاح ذلك المشروع، ومن الممكن ملاحظة أن الحملة الصليبية الأولى – على نحو خاص – تم الإعداد الدعائي لها بمنتهى البراعة والاتقان منذ الخطاب المذكور وفي هذا الصدد تم حشد جيش من الدعاة توسيع صوت دائرة الفكر من أجل مخاطبة كافة قطاعات المجتمع الأوروبي كل على قدر تصوره، وقد قام البابا أوربان الثاني بعد عقد مجمع كليرمنت بالانتقال إلى مدن تور، وبوردو، ونيميز ومكث تسعة أشهر داعياً لمشروعه الجديد [92] ، كذلك فإنه قام بإرسال العديد من الخطابات، من أجل الدعوة لمشروعه الصليبي، ومن ذلك الرسائل التي أرسلها إلى كافة المؤمنين – بالمسيحية – في القلاندروز، وكذلك إلى بولونا وقالو مبروز وكذلك إلى كونتات سردانيا وروسيللون، وبيسالون

---

[91] دروس وتأملات في الحروب الصليبية ص 18.

[92] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 69.

وامبورياس، ويلاحظ أن الخطابات المذكورة لايمكن فصلها عن دور البابا في مجمع كليرمنت فهي تكملة ومواصلة حقيقية لدوره الدعائي للحروب الصليبية [93].

6- العقلية التنظيمية لأوربان الثاني : ويلاحظ أن الخطابات التي أرسلها البابا من أجل مشروعه الصليبي، تقدم لنا عدداً من التفصيلات التي لم ترد في خطاب كليرمونت ومن بينها تقريره بدور المندوب البابوي أدهيمار أسقف بوى، ويذكر ضرورة طاعة أوامره كأنهما صادرة من البابا شخصياً، كذلك قرر أنه لا يسمح للرهبان أو القساوسة بالاتجاه إلى الشرق إلا بعد الحصول على إذن من أساقفتهم، وكذلك مقدمي الأديرة تجنباً للتمرد والفوضى وينبغي أن ندرك : أن تلك المصادر الوثائقية التي بين أيدينا تكشف لنا عن العقلية التنظيمية الدقيقة لأوربان الثانين ولذلك نراه أمتلك رؤية شاملة للمشروع الصليبي – في تلك المرحلة المبكرة على الأقل – وقد حرص الحرص أجمعه على نصيحة من سيشاركون في الرحلة إلى الشرق بضرورة الطاعة العمياء لأوامره، وكذلك أوامر رؤسائهم المباشرين، كما نستشعر أن البابا ألح على فكرة وحدة العالم المسيحي، وكأن ما حدث في الشرق للمسيحيين – في زعم الدعاية الأوروبية المغرضة – هو أمر يدخل في صلب اهتمامات قاطني الغرب الأوروبي، وأن مساعدة الفرنجة وغيرهم للمسيحيين الشرقيين هو جزء رئيسي من واجباتهم كمسيحيين [94] ، على أية حالة، فإن الثمرة الطبيعية للدور التنظيمي والتخطيطي والدعائي الذي قام به البابا وكبار رجال الكنيسة الذين معه قيام الحرب الصليبية ومما ساعدهم على ذلك اختيار التوقيت المناسب للحرب.

7- بطرس الناسك : تأثر بطرس الناسك بخطاب البابا أوربان الثاني وكان له تأثير شديد على الناس وكان يركب حماراً – ينتقل به من بلد إلى آخر، وكان يسير حافي القدمين ويرتدي ملابس رثة، ويتحدث المؤرخ روبرت الراهب عنه فيقول: إن بطرس هذا هو رائد الحرب الصليبية، وأنه كان يفوق في ورعه القسيسين والأساقفة، وكان ممتنعاً عن تناول الخبز واللحم بل جعل غذاءه السمك، وكان لايسمح لنفسه إلا بقليل من النبيذ وبعض الطعام الغليظ [95]. وعلى الرغم من مظهر بطرس الناسك وحالته الرثة إلا أنه كانت له قوة غريبة تثير حماس الرجال والنساء وتجذب الجماهير إليه، فاستطاع أن يجذب وراءه حوالي خمسة عشر ألف

---

[93] المصدر نفسه ص 70.

[94] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 70.

[95] دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية ص 239.

شخص من الفقراء الذين كانوا يتبعونه من بلد إلى بلد آخر بحماس شديد على الرغم من أن غالبيتهم كانوا لا يدرون شيئاً عن استعمال السلاح أو الفروسيةن بل لم يشتركوا في أي حرب من قبل إلا أن تأثرهم بكلمات بطرس الناسك الحماسية ومظهره جعلهم يندفعون في حماس جارف وراءه دون التفكير في أي احتمالات أخرى، فلقد كانت خطبه نارية ممزوجة بالبكاء والعويل وصب اللعنات على الكافرين، وبوعد الرب للذين يزحفون لإنقاذ قبر المسيح بالمغفرة، وتؤثر فصاحته التمثيلية الخيالية في قلوب الجموع [96]. ومما نحب الإشارة إليه أن الوعاظ الذين قاموا بدور مماثل لبطرس الناسك في التبشير بالحروب الصليبية والدعاية لها إنما كانوا يعدون بالمئات والآلاف [97] وقد تأثر الناس بهؤلاء الوعاظ ويصف المؤرخ بودري بوصفه معاصراً لأحداث هذه الفترة الزمنية أن بعض العامة من المسيحيين كانوا يرسمون على صدورهم علامة الصليب بواسطة الحديد المحمي على النار ليتباهوا بإظهار حماسهم وليوهموا الآخرين بأن هذه العلامات إنما جاءتهم عن طريق معجزة [98] وهكذا انطلق الجميع يتجهزون للذهاب للأراضي المقدسة بالشام بعد تلك الكلمات التي سمعوها، وكان معظمهم يبيعون ما يملكون ليجهزوا أنفسهم للرحيل طمعاً في محو ذنوبهم ورضاء الله عنهم وكان الآباء سعداء برؤية أولادهم وهم يرحلون، كما كانت الزوجات في غاية الفرح لدى رؤيتهن لأزواجهن وهم يتأهبون للرحيل، فحماس الجميع كان منقطع النظير، واقتناعهم بهذا العمل كان شديداً [99] ، وعلى قدر الفرحة الكبيرة التي شعر بها أولئك الذين غادروا بلادهم للالتحاق بالحملة الصليبية الأولى كان الأسى والحزن يخيم على أولئك الذين لم يخرجوا في تلك الحملة [100].

8- غفلة المسلمين عما يدبر لهم : كانت الدولة الإسلامية في العهد الأموي مثلاً لها جهاز استخبارات اخترقت به خصومها المحلليين والدوليين، وكانت عيون معاوية اخترقت البلاط البيزنطي وقد بينت ذلك في كتابي عن الدولة الأموية وأما بالنسبة في عهد الدولة العباسية فإننا لم نعثر في المصادر الإسلامية على أية خطبة حماسية لأي من الخليفتين العباسي أو الفاطمي كرد فعل على خطبة البابا أوربان الثاني أو على الأقل نشعر من أن المسلمين علموا بما جرى في مؤتمر كليرمونت وما بعده. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى إنشغال كل من الدولتين العباسية والفاطمية بالتنازع فيما بينهما ومحاولة كل منهما التغلب على الأخرى

---

[96] حضارة العرب نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص 239.

[97] دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص 21.

[98] دور الفقهاء والعلماء ص 240.

[99] المصدر نفسه ص 240.

[100] المصدر نفسه ص 240.

لتكون لها السيادة، فظلوا في سبات عميق حتى وصلت الحملة الصليبية الأولى بالفعل إلى بلاد الشام [101] ، ولعل ما يؤكد هذا ما جاء في كتابات ابن القلانسي من أن أخبار الصليبيين لم تصل للمسلمين في بلاد الشام إلا في سنة 490هـ/1097م، فيقول في ذلك وتواصلت الأخبار بهذه النوبة المستبشعة في حق الإسلام فعظم القلق وزاد الخوف والفرق [102] ، ومع ذلك فإن رد الفعل الإسلامي الوحيد الذي ظهر قبيل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، كان من جهة السلاجقة في آسيا الصغرى عندما استطاعوا القضاء بكل سهولة على القسم الأول من القوات الصليبية المعروفة باسم "حملة العامة" فضلاً عما قاموا به من عمليات دفاعية عن ممتلكاتهم في آسيا الصغرى [103]، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى كان الصليبيون يتحركون من خلال قيادة مؤهلة، ووضوح هدف، وحيوية ونشاط وطول نفس، موظفين القدرات الخطابية في التأثير على الناس، ومستخدمين عوامل متعددة، كالاقتصادي والسياسي والاجتماعي والديني لتحريك شعوب غرب أوروبا، كما كان للمكانة الروحية للبابا. تأثير على تحرك الجيوش نحو المشرق، فقد تحرك البابا من خلال مشروع وظف فيه كافة الإمكانات والطاقات المتاحة.

المبحث الثالث : بدء الحرب الصليبية الأولى :

بعد خطبة البابا أوربان الثاني في كليرمونت بفرنسا التي دعا فيها إلى الحرب الصليبية، طلب إلى رجال الكنيسة أن يعودوا إلى بلادهم، كيما يبشروا بالحروب واجتهد رجال الكنيسة في ذلك وكانت الثمرة الطبيعية للدور الدعائي الكبير في ذلك وكانت الثمرة الطبيعية للدور الدعائي الكبير الذي قام به البابا ومن وثق فيهم، قيام الحرب الصليبية الأولى والتي انقسمت إلى قسمين، حملة العامة، والثانية حملة الأمراء، واحتلت الحملة الصليبية الأولى بشقيها اهتماماً كبيراً لا نظير له من جانب المؤرخين المعاصرين لها سواءاً الاتين أو البيزنطيين أو المسلمين وكذلك من جانب المؤرخين المحدثين الذين تخصصوا في دراسة الحروب الصليبية ولعل مرجع ذلك يكمن في النتائج الخطيرة التي نتجت عن تلك الحملة على نحو خاص، حيث أدت إلى تأسيس إمارات صليبية في الشرق طال عمر بعضها إلى قرنين من الزمان [104] . وقد نجحت الحملة الصليبية إلى حد كبير في تثبيت وتأسيس أربع إمارات لآتينية : الأولى في أعالي الفرات وهي الرها، والثانية في أعالي الشام وهي أنطاكية، والثالثة على الساحل الشامي وهي طرابلس، أما الرابعة، فكانت في قلب فلسطين، وهي بيت

---

[101] المصدر نفسه ص 241.

[102] دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 241.

[103] المصدر نفسه ص 241.

[104] الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص 71.

المقدس [105]، إضافة إلى أربع بارونيات كبرى: هي صيدا ويافا وعسقلان والجليل، وأثني عشر إقطاعاً تسلمها أصحابها من الملك الصليبي مقابل تقديم فروض الولاء والطاعة له وتتمثل في : أرسوف، حبرون، الداروم، قيسرية، نابلس، بيسان حيفا، تبنين بانياس، كيفا، اللد، وبيروت[106]، وجدير بالذكر إن هذا النجاح الذي حققته يرجع إلى عدة عوامل وأسباب ساهمت فيه منها.

- انعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي.
- الصراع على السلطة داخل البيت السلجوقي.
- وجود الدولة الفاطمية الشيعية الرافضية.
- سقوط الخلافة الأموية بالأندلس.
- دور النصارى الذين كانوا يعيشون في بلاد الشام.
- موقف بعض الإمارات العربية من الغزو الصليبي.
- دور الباطنية الإسماعيلية الرافضية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين.
- انتشار الفكر الشيعي الرافضي والباطني.
- تدهور الحياة الاقتصادية قبل الغزو الصليبي.
- ضعف الدولة البيزنطية.
- تمرس فرسان الإفرنج على الحرب.
- الإمدادات الأوروبية المتواصلة للحملة الصليبية.
- الاستبداد السياسي وأثره على الدين والحياة.
- انشغال بعض فقهاء الأمة في معارك في فقه الفروع وقد تحدثت عن كل سبب من هذه الأسباب بالتفصيل في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي [107]

أولاً: استراتيجية الحملة الصليبية بعد الاحتلال : يهمنا هنا أن نشير إلى أن القوى الفرنجية المحتلة والتي قُدر وخطط لها أن تعيش في بيئة غريبة كان لابد لها من اتباع مجموعة من الاستراتيجيات القابلة للتطوير تهدف في مجملها إلى الإبقاء على صيغة احتلالها لأمد طويل ومن هذه الاستراتيجيات.

---

[105] دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى ص 37.

[106] المصدر نفسه ص 27.

[107] دولة السلاجقة ص 500 إلى 525.

- المحافظة بقدر الإمكان وبمختلف الوسائل على أهم سبب من أسباب نجاحها ألا وهو العمل على إبقاء المحيط الإسلامي مشتتاً بقدر الإمكان، لأن ذلك يلغى إمكانية مواجهتها بقوة واحدة مقتدرة، وفي سبيل ذلك عملت بدءاً وباستمرار على احتلال مناطق ذات أهمية استراتيجية تخدم غرض عزل مناطق القوة الإسلامية عن إمكانية التلاقي والتوحد، وكان سبيلها في ذلك احتلال الرُها لتمنع أو تعيق الإتصال بين العراق وبلاد الشام، كما هو الحال لاحقاً بالسيطرة على مناطق جنوبي بلاد الشام مثل الكرك والشوبك بهدف إعاقة أو تعطيل الإتصال ما بين مصر وبلاد الشام، هذا على صعيد الجغرافيا الطبيعية أما على صعيد الجغرافيا البشرية، فقد حرصت القوى الصليبية على إدامة الصراع العرقي والمذهبي بين أطراف المحيط الإسلامي وقد اتبعت في ذلك وسائل ترغيب وترهيب، وسياسة تحالف مع قوى ضد أخرى، وقد ساعدها في ذلك إلى حدود معينة العداء ما بين طرفي الصراع الإسلامي الشيعة والسنة، كما ساعدها وجود أقلية مسيحية أمكن لها استغلال بعض قواها للتحالف معها، والتآمر على محيطها الإسلامي.
- ركزت القوى الصليبية في احتلالها على مناطق تؤمن لها الانفال بمركز إنطلاقها في الغرب الأوروبي، ولذلك ركزت على احتلال سواحل بلاد الشام ضماناً لذلك، وابتعدت قدر الإمكان عن السيطرة على المناطق الداخلية خشية فقدانها لهذه الميزة، وحتى لا تكون محصورة بين قوى إسلامية على افتراض الخوف من توحيد هذه القوى لاحقاً بما يلحق بها ضرراً يؤدي إلى زوالها.
- عملت القوى الصليبية على إيجاد تحالفات مع قوى يمكن أن تمدها بالمساعدة في مراحل مختلفة، إما لعداء هذه القوى للمحيط الإسلامي، أو رغبة في تحقيق امتيازات اقتصادية، وفي هذا الصدد يمكن ملاحظة تحالفها بدءاً مع بيزنطة ثم مع المدن الإيطالية أو بعضها، وأخيراً إمكانية التحالف مع القوى المغولية [108] التي كانت فيما بعد أخطر قوة تهدد كيانات المنطقة الإسلامية.
- حرصت القوى الصليبية منذ بداية تأسيس كياناتها في الشرق الإسلامي على معالجة المشكلة السكانية التي عانت منها نقصاً مقابل الكثافة الإسلامية، وقد تعاملت القوى الصليبية مع هذه المشكلة على صُعد مختلفة وبوسائل متعددة كانت قابلة للتطوير بحسب مقتضبات الأحوال وتطوراتها، ومن ذلك أنها اتبعت سياسة التقتيل والتهجير للمسلمين من مناطق احتلالها، ثم عدلت ذلك في فترات لاحقة ضمن إطار إبقاء العناصر السكانية إذا كان ذلك يخدم مصالحها، كما

[108] دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 27.

عملت في نفس السياق على استقطاب مهاجرين إلى مناطق السيطرة الصليبية سواء أكان ذلك من الغرب الأوروبي أو من مناطق أرمينيا أو من نصارى المنطقة الإسلامية، كما أنها لجأت إلى عسكرة المجتمع الصليبي ليكون المجتمع بكافة فئاته وطبقاته قادراً على أداء الخدمة العسكرية لعلاج مشكلة النقص السكاني، ولا أدل على ذلك من أن الجماعات الدينية في المجتمع الصليبي كانت في مراحل من التواجد الصليبي أكثر الفئات تطرفاً في المجال العسكري مثل جماعات الداوية، والاسبتارية [109]

.

- ركزت القوى الصليبية على بناء تحصينات عسكرية بخبراتها الذاتية أو تقليداً للخبرات التي وجدتها في المنطقة الإسلامية، وروعي في هذه التحصينات أن تكون أشبه بمحطات إنذار مبكر تكون قادرة على رصد التحركات الإسلامية، ولذا روعي في اختيار مواقعها في أن تكون في مقابلة التجمعات الإسلامية الهامة أو على مناطق تهدد مصالح إسلامية كتلك التي أقيمت على مقربة من الطرق التجارية.
- اعتمدت القوى الصليبية وبناء على تجارب حروبها مع الطرف الإسلامي أسلوب الحرب السريعة الخاطفة، هذه الحرب التي لا تحتاج إلى قوات كبيرة وبنفس القدر يُخطط لها أن تختار أهدافاً منتقاة ضمن معايير زمنية محسوبة، كاعتماد أسلوب الإغارة على المناطق الزراعية في مواسم نضج المحاصيل مما لا يكلفها قوة عسكرية كبيرة ولكنها بنفس الوقت تكون قادرة وفق هذا الأسلوب على إلحاق أذى كبير بالطرف الإسلامي.
- لجأت القوى الصليبية إلى سياسة عقد الهدن وتقديم بعض التنازلات لبعض الأطراف الإسلامية في سبيل التفرغ لقوى إسلامية أخرى، وكانت هذه الإستراتيجية ناجحة في فترة التفكك الإسلامي بل وقادها ذلك إلى حد التدخل إلى جانب طرف ضد آخر إما بعرض صليبي على هذا الطرف أو باستدعاء وطلب من بعض الأطراف الإسلامية.
- عملت القوى الصليبية وبمختلف الوسائل على إبقاء روح الحروب الصليبية قوية في الغرب الأوروبي لضمان استمرار الحملات الصليبية واستمرار تقديم المساعدات للكيانات الصليبية في الشرق فقد حرصت على التواصل الدائم مع أوروبا مما كفل لها الإمدادات البشرية والمادية وقد شعر ملوك أوروبا بالمسئولية الكبيرة تجاه الإمارات الصليبية في المشرق، والتزموا بدعمها والدفاع عنها.

---

[109] دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 28.

- ركزت القوى الصليبية مع مرور الزمن على تبني استراتيجية مفادها، أن ضمان وجودها في بلاد الشام يقتضي السيطرة على مصر أو إخراجها من ساحة الصراع بأي شكل من الأشكال وعلى ذلك نجد أن الحملات الصليبية اللاحقة كان جزءاً منها موجهاً بدرجة رئيسية إلى مصر والمتتبع لتاريخ الحركة الصليبية حققوا بعض النجاحات في هذا الصدد مستغلين حالات عداء كانت تثور بين حكام مصر وبعض مناطق بلاد الشام.
- لجأت بعض الأطراف الصليبية إلى القيام بحملات عسكرية تهدف إلى ضرب المعنويات الإسلامية وتهديد المسلمين في مقدساتهم كما حصل حين غامرت بعض هذه القوى أمير الكرك والشوبك بالتعدي على الأماكن المقدسة في الحجاز، كما لجأت إلى ضرب بعض المقومات الاقتصادية والدينية مثل تهديد طرق التجارة وقوافل الحج وقامت بهذا الدور في مراحل معينة إمارة الكرك والشوبك الصليبية التي كانت تتبع لمملكة بيت المقدس الصليبية.
- لم تغفل الإمارات الصليبية والبابوية الداعمة لها وبعض رجال الدين والمفكرين أن يطوروا استراتيجية جاءت نتيجة لفشل الإستراتيجيات العسكرية التي تدعو إلى محاولة السيطرة بطرق بعيدة عن الأسلوب العسكري وإنما عن طريق التنصير والدعوة لزيادة عمليات التبشير بالدين المسيحي بين المسلمين، ونحن هنا لا نناقش إمكانية نجاح وفشل هذه الاستراتيجية بقدر ما يهمنا الإشارة إلى أن ذلك كان إحدى البدائل التي سعى الفرنجة لاستخدامها لتحقيق أغراضهم.
- صورت القوى الصليبية نفسها على أنها المدافعة عن المسيحية في بلاد الشرق بغض النظر عن اختلافاتهم المذهبية، حيث صُورت الحركة الصليبية على أنها جاءت لنجدة بيزنطة ضد الخطر الإسلامي السلجوقي، كما صورت زحفها على أراضي المنطقة الإسلامية بأنه يهدف إلى تحرير المسيحيين الشرقيين من نير السيطرة الإسلامية وضمنت من وراء ذلك مساعدات من الطوائف الأرمينية والسريانية .. في بدايات سيطرتها على المناطق الإسلامية، ولكن هذه الاستراتيجية المرحلية بدأت تتلاشى مع مرور الزمن [110]. والتحالف مع الحركات الباطنية.

إن هذه الاستراتيجيات وإن كانت عامة تخص جميع الصليبيين، إلا أن ذلك لم يمنع من استخدام استراتيجيات مرحلية وخاصة بكل إمارة حسب ظروفها مما يعني أن بعض هذه الإمارات ربما اتخذ وتبنى سياسة تخالف هذه المبادئ العامة ومن استعراض هذه الاستراتيجيات يبدو لنا أن القوة الإسلامية يقاس

---

[110] دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 31.

نجاحها في مقاومة هذا الخطر الصليبي بمدى تبنيها استراتيجيات واتباعها وسائل تحد من خطر هذه الإستراتيجيات الصليبية، إما عن طريق تبني استراتيجيات مضادة أو منع الطرف الصليبي من تطبيق استراتيجياته على أرض الواقع وهذا يمكن أن نلمحه من خلال تطورات ردود الفعل الإسلامية على التحدي الصليبي بدءاً من عهد عماد الدين ونور الدين زنكي وصولاً إلى مرحلة صلاح الدين الأيوبي واستكمالاً لما تم في عهد الدولة المملوكية، على أن لا يُفهم من ذلك أن هذا التطور في رد الفعل الإسلامي في العهد الزنكي والأيوبي والمملوكي كان دائماً في الإطار الإيجابي بل ما حصل أحيانا هو أن الطرف الإسلامي أو بعض قواه أو أفراده ساعد في نجاح الاستراتيجيات الصليبية [111].

ثانياً : حركة المقاومة في العهد السلجوقي :

أيقظت صدمة سقوط القدس غفوة العديد من الفقهاء والقضاة والأمراء وأدركوا حقيقة ذلك الغزو بعد أن هدد وجودهم ومكانتهم في مدن تلك البلاد فضلاً عن الأرض والعقيدة الإسلامية ولذلك بادر فقهاء وقضاة الشام من دمشق وحلب وطرابلس للاستنجاد بالسلطة المركزية ببغداد والإمارات المحلية باعتبارها تملك القوة العسكرية القادرة على مواجهة ذلك الغزو [112] ولم يكن الاستجابة من قِبل الفقهاء والقضاة في بلاد الشام ضد الغزو الصليبي مقتصرة على الاستغاثة وطلب النجدة، بل تعدت إلى العديد من الوسائل الأخرى التي من بينها الكتابة والتأليف في الجهاد ضد الغزو، لتهيئة الأجواء الفكرية، وتثقيف المسلمين عامة، حيث نالت اهتماماً كبيراً من جملة الفقهاء، والعلماء، قبل وأثناء الغزو الصليبي، فقد كانت حاجة العصر للتعبئة الفكرية، ونشر الثقافة الإسلامية، أصبحت من الأمور الأساسية آنذاك في وقت كانت بلاد الشام تخوض صراعاً سياساً، ومذهبياً وعسكريا انعكس على تدوين التاريخ في الشرق الإسلامي، وظهور العديد من المصنفات والتراجم حول سير السلاطين والملوك والأسر الحاكمة وأحداث القتال والصراع ضد الصليبيين ولذلك اندفعت فئة الفقهاء والقضاة إلى تنوير مجتمعاتها الإسلامية، الذي جاء مجسداً عبر مؤلفاتهم وكتبهم خلال مجموعتين الأولى ركزت على التأليف والوعظ بصورة تقليدية به؛ وتوضيح أمور وأركان الدين الحنيف للناس، والثانية التي توجهت للتحريض والتأليف في الجهاد، وحث المسلمين عليه، لأنها أدركت الضعف العام في إيمان المسلمين عليه وتركهم لأمور دينهم لذلك كتبت الكثير من المصنفات قبل وأثناء الغزو الصليبي في بلاد الشام والذي يهمنا هنا مؤلفات

---

[111] دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 31.

[112] موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو ص 68.

الفقهاء التي حرضت على الجهاد الإسلامي وتعبئة المسلمين بأمور دينهم للوقوف بوجه ذلك الغزو [113] ومن أبرز أولئك الفقهاء:

- الفقيه على بن طاهر السلمي (431 - 500ه/1039 - 1106م):

هو على بن طاهر بن جعفر القيسي السلمي الدمشقي الشافعي، كان من علماء بلاد الشام وعلى إثر مجيء ذلك الغزو تحول إلى واعظ ومحرض على الجهاد، بالقائه الخطب والدروس في المساجد التي تنقل فيها عبر مدن بلاد الشام وفلسطين، حيث جسد ذلك في كتابه الجهاد، الذي جاء عقب سقوط بيت المقدس عام 492ه/1098م). وذلك من خلال إحدى خطبة التي يحث فيها المسلمين على الجهاد ضد ذلك الغزو. فإن المجاهدين لهذه الطائفة الظافرين بهم الموقفين إخراجهم من بيت المقدس وغيرها من هذه البلاد [114] ، وركز السلمي في أبوابه الأولى من كتابه الجهاد على العديد من القضايا والأفكار الهامة التي كانت عليها.. بلاد الشام، والعالم الإسلامي آنذاك. مبتدئاً سياسة صليبية عامة استهدفت الأندلس وصقلية وبلاد الشام. إذ أنه أول من نبه إلى وحدة أهداف الحروب الصليبية سواء في الأندلس، أو في صقلية أو في بلاد الشام، تلك الفكرة التي أخذها المؤرخون فيما بعد، وطوروها فقد ذكر ابن الأثير : وكان ابتداء دولة الإفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام، واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا مدينة طليطلة، وغيرها من بلاد الأندلس.. ثم قعدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها .. فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام [115] . وأدرك السلمي أن ضعف العالم الإسلامي، وتشرذمه وتجزئته هو العامل الرئيسي وراء نجاح الغزو الصليبي في المشرق أو المغرب الإسلاميين وليس قوة الصليبيين أنفسهم: وركز على التجزئة السياسية لبلاد الشام بصورة خاصة، لأنه عاش وأحس بالمعانات هناك، وتثاقل السكان عن جهادهم [116] ، وذكر السلمي المسلمين بفكرة استمرارية الجهاد سواء في الحرب أو السلم كجزء من سياسة عامة يجب على الأمراء والخلفاء المسلمين القيام بها كشرط أساسي للمواجهة الناجحة، ففي كل عام يجب على الأمير المسلم القيام بحملة خارج ديار الإسلام لا لطمع، أو لغنيمة يبتغيها، وإنما للمحافظة على دار الإسلام من عدوان غير المسلمين، وإشعارهم بالرهبة وقوة المسلمين

---

113 موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 93.

114 المصدر نفسه ص 93.

115 الكامل في التاريخ (397/8).

116 موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 94.

بالاستمرار تجسيداً للرأي القائل في العصر الحاضر بضرورة نقل المعارك إلى أرض العدو دوماً (117)، وذكر السلمي الأمراء المسلمين بأن ذلك الغزو لم يكن هدفه الأرض والعقيدة فقط وإنما هدفه هو إزالتهم من سلطاتهم، وإخراجهم من البلاد التي تحت أيديهم، وذلك بهدف إثارة حميتهم، وحثهم على الجهاد (118) ، وطلب من عامة الناس مساندة أمرائهم وقادتهم المجاهدين الذين يتبعون السلف الصالح لمواجهة تلك المحنة، وطرد الصليبيين (119) ، والقارئ لكتاب السلمي في الجهاد يدرك مباشرة عمق المعاناة التي كان يعانيها السلمي وهو الفقيه الذي يرى بيت المقدس تنتهك حرمته، وتداس قدسيته، ولذلك أول ما حث عليه هو تخليص بيت المقدس من أيدي أولئك الغزاة (120). فاجتهدوا رحمكم الله في هذا الجهاد لعلكم تكونوا الظافرين بمزية هذا الفتح العظيم (121) ، ويعتبر السلمي أول من أدرك ضرورة الوحدة الجهادية بين بلاد الشام والعراق، ومدن آسيا الصغرى، قبل عصر الوحدة الإسلامية ضد الصليبيين بقيادة آل زنكي والأيوبيين (122) ويعتبر في هذا المجال من الرّواد، ودعا السلمي المسلمين إلى تطهير النفوس وإصلاحها، فهي الأساس في وحدة إسلامية لعقد العزم والإصرار على مجاهدة ذلك الغزو : وقدموا جهاد أنفسكم على جهاد أعدائكم فإن النفوس أعدى لكم منهم، واردعوها عما هي عليه من عصيان خالقها سبحانه تظفرون بما تؤملونه من النصرة عليهم (123) . إن الغزو الصليبي لبلاد الشام من وجهة نظر السلمي لم يأت من فراغ وإنما أدرك ضعف المسلمين لعدم تمسكهم بدين الله الحنيف ولذلك اجتهد في نصحهم بالعودة إلى الله وتطهير النفوس؛ بالرجوع إلى كتاب الله، والإقلال عما تقدم منهم، والنهوض إلى قرع باب الجهاد: وليكن قصدكم بجهادكم هذا إرضاء ربكم، والذب عن أنفسكم، وعن غيركم من إخوانكم ليمحص لكم ثواب غزوكم (124) ولا يكون ذلك أمام تقدم الغزو الصليبي، وأخده لمدن عديدة إلا المبادرة إليهم، والمرابطة على المدن التي لم تحصل في أيديهم (125) ، فإن النفير إليهم وقصدهم في البلاد التي قد تملكوها علينا إنما هو حرب يقصد بها الدفاع عن

---

[117] موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 95.

[118] المصدر نفسه ص 95.

[119] المصدر نفسه ص 96.

[120] المصدر نفسه ص 96.

[121] المصدر نفسه ص 97.

[122] المصدر نفسه ص 97.

[123] المصدر نفسه ص 98.

[124] المصدر نفسه ص 98.

[125] موقف فقهاء الشام وفضاتها من الغزو الصليبي ص 98.

النفـوس، والأولاد والأهـل والأمـوال والحراسـة لمـا بقـي في أيـدينا مـن الـبلاد (126) ، وكـان دعـوة السـلمي للمسلمين عامة لوحدة القوى الإسلامية : شاميها وجزريها ومصريها. ونصحهم باتباع منهاجه في تطهير النفوس، والتعافي فيما بينهم والإقدام على الجهاد وحتى يحققوا مبتغاهم في النيل من ذلك الغزو (127) ، حيث رأى : إن لم يتناسى الحكام المسلمون أحقادهم وخلافاتهم فإنهم ما زالوا على جاهلية غير مقتدين بالمثل النابع من التراث عند الشدائد تذهب الأحقاد (128) ، واستمر السلمي في مواضع عديدة من كتاب الجهاد يحث ويحرض ويعظ وينبه، ويعلم الحكام عامة على ضرورة الجهاد بخطبه ودروسه التي ألقاها في الجامع الأموي بدمشق، وفي مدن بلاد الشام وفلسطين في اثنين وثلاثين بابا (129) ، ولم يترك شاردة ولا واردة في الجهاد إلا وتطرق إليها (130) ، ونلاحظ أن السلمي في كتابه الجهاد تطرق إلى توضيح التجزئة والتشرذم في المشرق الإسلامي، وخاصة في بلاد الشام من ضعف القوى الإسلامية، وتفككها مع ضعف الإيمان بفرض الجهاد، وهي نقطه استغلها الغزاة، ولكنه عالج ذلك الخلل بطرحه قضية تطهير النفوس والعودة إلى التمسك بدين الله الحنيف؛ وإصلاح الأمر فيما بينهم، والإقدام على الجهاد لمواجهة ذلك الغزو، وأنه لا يتم ذلك إلا بوحدة القوى الإسلامية، لذا جاء كتابه الجهاد عاماً، لم يخصصه لسلطة سياسية معينة أو لفئة من المسلمين من بلاد الشام مثلاً وفق رؤية إسلامية مبنية على إسناد متين تمثل في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكتب السير والمغازي، والتفاسير وربط موضوعاتها بالخطر الصليبي على بلاد الشام، وهذا دليل على مدى إطلاعه وفكره الثاقب في جمع المعلومات وتسخيرها في مكانها المناسب (131) ، ونلاحظ من خلال البحث بأن الدعوة الأولى للجهاد لم تصدر عن مجالس الحكام بل صدرت من محافل الفقهاء والعلماء المسلمين من أساتذة وعلماء وفقهاء وكّتاب، ويعتبر السلمي من أوائل من حث على الجهاد ومن ضمن تيار الرفض العام الإسلامي المدعوم من قِبل الفقهاء والقضاة (132) لقد كتب السلمي كتابه في فترة مبكرة من تلك الحروب وهذا دليل على ذكائه وفطنته في إدراكه لمشاكل بلاد الشام المعقدة، ولكن إن لم تتوفر الظروف العامة لإنجاح دعوته للجهاد في تلك الفترة المبكرة ذاتها، فهو قد ساهم في كتابه للتمهيد لمرحلة الزنكيين والأيوبيين. ولقد

---

[126] المصدر نفسه ص 98.

[127] المصدر نفسه ص 98.

[128] المصدر نفسه ص 98.

[129] المصدر نفسه ص 98.

[130] المصدر نفسه ص 98.

[131] موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 99.

[132] المصدر نفسه ص 93.

قام الأستاذ رمضان حسين الشاوش بدراسة وتحقيق، كتاب الجهاد للسلمي وقدمه كرسالة ماجستير بجامعة الفاتح بطرابلس الغرب عام 1992م [133].

5- المشاركة الفعلية للفقهاء والقضاة في ساحات الجهاد :

إن من أبرز الأمثلة على مشاركة أولئك الفقهاء للعساكر النظامية في ساحات القتال للتعبير عن حالة الإيمان المثالية بالجهاد، والدفاع عن الأرض والنفس كانت حالة القاضي أبو محمد عبدالله بن منصور المعروف بابن صليحة قاضي حصن جبلة، الذي تولى إمارة وفقهاء ذلك الحصن بعد وفاة أبيه منصور عام 494هـ/1100م وكان ذا خبرة عسكرية جيدة لأنه أحب الجندية واختار الجند فظهرت شهامته [134] ، وقد برزت مواهب ذلك الأمير القاضي عند محاصرة الإفرنج حصن جبلة للاستيلاء عليه عام (494هـ/1100م) واستخدامه لما يسمى اليوم بالحرب النفسية أولا؛ وذلك عندما خطط بدهاء، لنشر الذعر بين صفوف قوات الفرنج، حيث أظهر أن السلطان بركياروق قد توجه إلى الشام [135] ، لمساعدته، مما أثار الفرنج، والقلق بين عسكر الفرنجة، ورحيلهم فيما بعد. وعندما أدرك الفرنجة حقيقة تلك الخدعة، عادوا فحاصروا المدينة مرة أخرى، ولكن كرر ذلك القاضي تلك الحيلة بصورة أخرى، ونشر بين صفوف الصليبيين: أن المصريين قد توجهوا لحربهم ومساعدته هذه المرة ولذلك تركوا محاصرة ذلك الحصن [136]، ويبدو أن الفرنجة لم يكن لديهم المعلومات الكافية عن حالة الحصن، ولا عن عدد قوات ذلك القاضي وإلا لما تركوا محاصرة ذلك الحصن في المرتين السابقتين، ولكن سرعان ما فطن الإفرنجة لتلك الحرب النفسية وأهدافهان، فعادوا لمحاصرة الحصن للمرة الثالثة في شهر شعبان عام 494هـ، إلا أن ذلك القاضي أدرك أن الفرنجة قد عرفوا أساليبه القديمة ولذلك لجأ إلى أسلوب جديد لمواجهة أولئك الفرنجة بأن : قرر مع النصارى الذين في الحصن، واتفق معهم على إرسال وفد منهم إلى الفرنجة للتفاهم حول تسليم الحصن وإرسال مجموعة من فرسانهم لاستلام الحصن، وأن : يبعثوا ثلاثمائة رجل من أعيانهم وشجعانهم، فوافق الفرنجة على ذلك ويبدو أن القاضي ابن صليحة قد نصب الكمين لهم [137] : فلم يزالوا يرقون في الحبال واحد بعد واحد وكلما صار عند ابن صليحة، وهو على السور رجل منهم قتله إلى أن قتلهم أجمعين، فلما أصبحوا رمى

---

[133] المصدر نفسه ص 93.

[134] الكامل في التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام .

[135] موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 120.

[136] الكامل في التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام ص 120.

[137] موقف فقهاء الشام وقضاتها ص 120.

الرؤس إليهم [138]، ورغم ذلك لم يسترح الصليبيون للطعم والفخ الذي نصبه لهم قاضي جبلة، وتحقيق ذلك النجاح. ولذا قرروا أخذها منه بأية وسيلة، ونصبوا على البلد برج خشب، وهدموا أبراجاً من أبراجه. ولكن ما يملكه ذلك القاضي من الدهاء والحيلة جعله يفطن لذلك الخطر المحدق به، حيث لم يركن للهدوء والاستسلام، وإنما بادر إلى وضع خطة ذكية على غرار تلك الخطط الناجحة التي كبدت ذلك الغزو الخسائر والفشل أكثر من مرة. ولذلك عمل هذه المرة على استدراج الصليبيين في كمين آخر وضعه لهم بخطة محكمة حيث أحدث ثقوبا في أسوار المدينة. ويبدو أنه كان السور الخلفي، وذلك لتسهيل مهمة خروج مجموعة من جيشه ونقب في السور نقباً [139] ، وعندما خرج القاضي ابن صليحة وجيشه من الأبواب لقتالهم تظاهر بالهزيمة أمامهم. بحيث انطوت الحيلة على أولئك الغزاة الذين لهم يفطنوا لها، وبادروا إلى مطاردته حتى أبواب المدينة في الوقت الذي استغل فيه جنده الفرصة في الخروج من تلك الثقوب، والتفوا من حوله، فأتوا الفرنج من ظهورهم فولوا منهزمين [140] ، إن القاضي ابن صليحة لابد له وأن أطلع على فنون الحرب، وبعض الأساليب العسكرية الإسلامية، فأسلوب الحرب النفسية ليست جديدة على التراث العسكري الإسلامي في الفترة الصليبية، إذ استخدام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ذلك الأسلوب في غزوة الخندق من العام، الخامس للهجرة عندما حفر الخندق وهزم جيوش الأحزاب، وكذلك معركة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة عندما حول القائد خالد بن الوليد المعركة من الهزيمة إلى النصر على الروم وذلك باستخدامه الحرب النفسية عن طريق تكثيف الغبار بفرسانه حتى ظن أولئك الروم بوصول الإمدادات إلى المسلمين فولوا منهزمين، وانسحب الجيش الإسلامي من أرض المعركة دون أية خسائر أخرى، وقد طبق تلك الحرب النفسية في العديد من المعارك الأخرى، والتي من بينها معركة اليرموك عام 13هـ عندما عمل على تقسيم قواته، بحيث جعل الميمنة ميسرة والخلف إلى الأمام وبهذا الأسلوب العسكري التكتيكي أرهب جيوش الروم الكبيرة العدد وأوقع بهم الهزائم [141] .

6- تحريض الفقهاء والقضاة على القتال في ساحات المعارك :

تبرز شخصية القاضي أبو الفضل بن الخشاب قاضي حلب المعروف في هذا المجال، فعندما اشتد الحصار الصليبي على حلب عام 513هـ/1119م) أقبل القاضي ابن الخشاب يحرض الناس على القتال وهو راكب

---

[138] المصدر نفسه ص 121.

[139] المصدر نفسه ص 121.

[140] الكامل التاريخ (425/8).

[141] موقف فقهاء الشام وقضاتها ص 122.

على حجر وبيده رمح حيث ألقى فيهم خطبة بليغة، استنهض بها هممهم وألهب مشاعرهم، فأبكى الناس وعظم في أعينهم، حتى أقدموا على قتال الغزاة، (142) ورغم تمكن الحلبيين من تخليص مدينتهم في ذلك العام لم يتردد الصليبيون من محاولة أخرى لأخذ حلب عام 518هـ/1124م وذلك عندما قاموا بتخريب كل القرى المجاورة لحلب، حتى لا يقدموا المساعدة لمدينة حلب ونزل الفرنج حران ثم حلب من ناحية مشهد الجف من الشمال، وكان للقاضي ابن الخشاب دور في التحريض على قتال ذلك الغزو، بل كان له دور في تحريض الأمير أقسنقر البرسقي أمير الموصل وسيأتي بيان ذلك بإذن الله عند الحديث عن دور أمراء السلاجقة في الموصل ودمشق وغيرها في صد هجمات الصليبيين.

ثالثاً: الشعراء ودورهم في حركة المقاومة :

قام بعض الشعراء بدور كبير في تحريض المسلمين ووصف أحوال الأمة وطبيعة الغزو الصليبي الذي احتل البلاد وهتك الأعراض ومن أشهر هؤلاء ما قاله القاضي الهروي وقيل لأبي المظفر الأبيوردي القصيدة التي أولها :

مزجنـــــــا دمـــــــاءً بالـــــــدموع الســـــــواجم
فلـــــم يبـــــق منـــــا عرضـــــه للمـــــراجم (143)

وشـــــــر ســـــــلاح المـــــــرء دمـــــع يفيضـــــه
إذا الحـــــرب شُـــــبَّت نارهـــــا بالصـــــوارم (144)

إنه، في هذا المطلع، يصرّح ببكاء الناس بكاءً أنزل الدم من العيون لشدته واستمراره، وأنهم بكوا حتى لم يبق فيهم مجال للذم، ولكنه لا يلبث أن يفطن إلى أن البكاء على شدته، لن يغني في شيء في معركة لا يسّعر نيرانها إلا السيوف القواطع ومنها :

فإيهـــــــا بـــــــني الإســـــــلام إن وراءكـــــــم

142المصدر نفسه ص 129.

143المراجم : جمع مرجم وهو القبيح من الكلام.

144شُبَّت : سُعِّرت اشتدت.

وقـــــائع يلحقـــــن الـــــذُرا بالمناســــم

أتهويمـــــــةً في ظـــــــلِّ أمـــــن وغبطـــــةٍ

وعـــــيشٍ كنّـــــوار الخميلــــة ناعـــــم (145)

وكيـــــف تنـــــام العـــــين مـــــلء جفونهـــــا

علــــى هفـــــوات أيقظـــــت كـــــلَّ نائـــــم

وأخـــــوانكم بالشـــــام يُضـــــحي مقـــــيلُهم

ظهـــــور المـــــذاكي أو بطـــــون القشـــــاعم (146)

تســـــــومهم الـــــــروم الهـــــــوان، وأنـــــــتم

تجـــــرون ذيـــــل الخفـــــض، فعـــــل المســـــالم (147)

وهنا يستصرخ الشاعر المتخلفين عن القتال مع أخوانهم المسلمين في بلاد الشام، فيبدأ هذا المقطوعة بتوجيه نداء حار للمسلمين : إيهاً بني الإسلام أن اصُحوا من نومكم فمادهمكم من الغزو يجعل أعزتكم أذلة. ثم يعجب لهم ولنومهم، إذ كيف ينامون ملء عيونهم ويعيشون ناعماً آمناً وغير بعيد منهم تجري فظائع الأمور التي تقع على رؤوس أخوانهم من أهل الشام، فلا يجدون وقتاً قصيراً ينامون فيه في بيوتهم، فجلّ أوقاتهم على صهوات خيولهم يحاربون أو تكتب لهم الشهادة فتتخطفهم نسور الجو ولا من يدفن جثثهم، وربما يقعون تحت إذلال أعدائهم من الفرنجة، أما أنتم فيبدو عليكم التقلب في ثياب النعمة كما أنكم مسلمون أو متحالفون مع الأعداء ومنها :

وكـــم مـــن دمـــاء قـــد أبيحـــت ومـــن دمـــىً

تـــــواري حيـــــاءً حســـــنها بالمعاصـــــم(148)

بحيـــث الســـيوف البـــيض محمـــرة الظبـــا

وسمـــــرُ العـــــوالي داميـــــاتُ اللَّهـــــاذِم (149)

145الهوم: النوم الخفيف. نوّار : زهر . الخميلة : الشجر الملتف.

146المذاكي : مذكية وهي الفرس : قشاعم : جمع قشعم وهو النسر المسن.

147الخفض : الغنى.

148نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية عمر الساريسي ص 26.

وبـــين اخـــتلاس الطعـــن والضـــرب وقفـــة

تظـــل لهـــا الولـــدان شـــيب القـــوادم

وتلـــك حـــروب مـــن يغـــب عـــن غمارهـــا

ليســـــــلمٍ يقـــــرع بعـــــدها ســـــنَّ نادم

سَـــــللن بأيـــــدي المشـــــركين قواضـــــباً

ســـتُغمد مـــنهم في الطُـــلا والجمـــاجم (150)

يكـــــاد لهـــــن المســـــتجنُّ بطيبـــــة

ينـــادي، بأعلـــى الصـــوت، يا آل هاشـــم

وفي هذه الأبيات يصور شراسة المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم من الفرنجة، فقد أُبيحت فيها دماء كثير من المسلمين ولقد اقتحم فيها على النساء خدورهن وما وجدت ما يدفعن به عن أجسامهن المصونة غير معاصمهن المشتبكة حياءً وخوفاً، وقد اشتدت هذه الحروب واستحّر فيها القتل حتى بدت أسنَّة السيوف والرماح حمراء لاهبة، وحتى أن الصبيان ربما يظهر في شعرهم الشيب لما فيها من هول الطعن والضرب ثم يعود لتنبيه المتخلفين بأنهم سوف يندمون على تخلفهم عن الاشتراك في هذه الحروب، التي يعود ليتحدث عن أخطارها فيهّون من شأن الأعداء وأسلحتهم فيما استلّوه من سيوف قاطعة تعود إلى نحورهم وجماجمهم. وفي آخر الآبيات يؤكد فظاعة هذه الحروب بأن الرسول صلى الله عليه وسلم، في ضريحه الطاهر في المدينة المنورة يستنجد على الأعداء، بالعرب والمسلمين وليس بآل هاشم فحسب (151). تحت إذلال أعدائهم من الفرنجة، أما أنتم فيبدو عليكم التقلب في ثياب النعمة كما أنكم مسلمون أو متحالفون مع الأعداء ومنها :

وكـــم مـــن دمـــاء قـــد أبيحـــت ومـــن دمـــىً

---

[149] المصدر نفسه ص 26.

[150] العنديد: المقاتل الشديد، والكماة جمع كمي، وهو لابس السلاح.

[151] المصدر نفسه .

تـــواري حيـــاءً حســـنها بالمعاصـــم[152]

بحيـــث الســـيوف البـــيض محمـــرة الظبـــا
وسمــــرُ العـــوالي داميـــاتُ اللَّهـــاذِم [153]

وبـــين اخـــتلاس الطعـــن والضـــرب وقفـــة
تظـــل لهـــا الولـــدان شـــيب القـــوادم

وتلـــك حـــروب مـــن يغـــب عـــن غمارهـــا
ليســـــلم يقـــــرع بعـــــدها ســـــنَّ نادم

سَـــــللن بأيـــــدي المشـــــركين قواضـــــباً
سُـــتغْمد مـــنهم في الطُـــلا والجمـــاجم [154]

يكـــــاد لهـــــن المســـــتجنُّ بطيبـــــة
ينـــادي، بأعلـــى الصـــوت، يا آل هاشـــم

وفي هذه الأبيات يصور شراسة المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم من الفرنجة، فقد أُبيحت فيها دماء كثير من المسلمين ولقد اقتحم فيها على النساء خدورهن وما وجدن ما يدفعن به عن أجسامهن المصونة غير معاصمهن المشتبكة حياءً وخوفاً، وقد اشتدت هذه الحروب واستحّر فيها القتل حتى بدت أسنَّة السيوف والرماح حمراء لاهبة، وحتى أن الصبيان ربما يظهر في شعرهم الشيب لما فيها من هول الطعن والضرب ثم يعود لتنبيه المتخلفين بأنهم سوف يندمون على تخلفهم عن الاشتراك في هذه الحروب، التي يعود ليتحدث عن أخطارها فيهّون من شأن الأعداء وأسلحتهم فما استلّوه من سيوف قاطعة تعود إلى نحورهم وجماجمهم. وفي آخر الآبيات يؤكد فظاعة هذه الحروب بأن الرسول صلى الله عليه وسلم، في ضريحه الطاهر في المدينة المنورة يستنجد على الأعداء، بالعرب والمسلمين وليس بآل هاشم فحسب [155].

---

152 نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية عمر الساريسني ص 26.

153 نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية عمر الساريسني ص 26.

154 المصدر نفسه ص 26 .

155 العنديد : المقاتل الشديد، والكماة : جمع كمي ، وهو لابس السلاح.

أرى أمـــــتي لا يشـــــرعون إلى العـــــدا

رمـــــاحهم، والـــــدين واهـــــي الـــــدعائم

ويجتنبـــون النـــار خوفـــاً مـــن الـــردى

ولا يحســـــبون العـــــار ضـــــربة لازم

أترضـــــى صـــــناديد الأعاريـــــب بالأذى

ويغفـــي علـــى ذلِّ كمـــاة الأعـــاجم (156) ؟

فليـــــتهم إذ لم يـــــذودوا حميـــــة

عـــن الـــدين، ضـــنوا غـــيرة بالمحـــارم

وإن زهـــدوا في الأجـــر، إذ حمـــي الـــوغى

فهـــلاً أتـــوه رغبـــة في الغنـــائم ؟

ويرى الشاعر قعود بعض بني قومه عن الجهاد فيتألم لذلك ألماً يصور معه واقعهم المتخاذل عن نصرة دينهم الذي يحاول الأعداء إضعافه، جبناً وخوفاً وغفلة عما يلحق بهم من العار في حالة الهزيمة، ويعجب لشجعان المسلمين، من عرب ومن عجم، كيف يقبلون بهذا كله ثم يقلب لهم أسباب الدفاع عن الدين وعن البيضة تقليباً منطقياً، فيه الألم الذي يعصر قلبه، والتبكيت الذي يهز أحاسيسهم من الأعماق، فيطالبهم بالدفاع عن الدين أولاً فإن لم ينهضوا له فليحموا محارمهم من النساء والبلدان والعقار، وهذا أضعف الإيمان، أن يهتموا بالدنيا وعَرَضَها من غنائم وأسلاب إن فقدوا الثأر للدين والخروج للجهاد ونيل الشهادة !!. وفي نهاية القصيدة يبلغ به الألم مبلغاً أشد فعلاً وتأثيراً، فيكشف لهم عن مستقبل أيامهم وما يلاقون فيه من إذلال وصغار في أيام أبنائهم الوارثين للخنوع إن قبلوا باحتلال الأعداء لبلادهم، ثم يهددهم بعار تسليم النساء للأعداء إن هم ظلوا على ما هم عليه من الخنوع والحين والقعود عن الجهاد ولم يزل الشاعر يستصرخهم والحرب مستعرة، ليغيروا على المعتدين غارة شعواء تلقن الفرنجة درساً قاسياً، كما تعّودوا في كل مرة يهاجمون فيها بلاد الإسلام :

لـــئن أذعنـــت تلـــك الخياشـــيم للـــبُرى

فـــلا عطســـت إلا بأجـــدع راغـــم (157)

---

[156] المصدر نفسه ص 26.

دعـــــوناكم والحـــــرب تــــدعو ملحــــة
إلينــــا بألحــــاظ النســـور القشــــاعم [158]

تراقـــــب فينـــــا غــــــارة عربيــــــة
تطيــل عليهــا الــروم غَضَّــى الأباهــم [159]

فـــإن أنـــتم لم تغضـــبوا بعـــد هـــذه
رمينـــــا إلى أعـــــدائنا بالجـــــرائم [160]

وقال شاعر آخر في الغزو الصليبي لبيت المقدس :

أحــــلَّ الكفُـــــر بالإســــلام ضــــيماً
يطـــــول عليـــــه للـــــدين النحيـــــب

فحـــــقٌّ ضــــائع وحمـــــىً مبــــاح
وســـــيف قـــــاطع ودم صــــبيب [161]

وكــــم مـــــن مســـلم أمســـى ســـليباً
ومســــــلمة لهـــــا حــــرم ســــليب

وكــــم مـــــن مســـجد جعلـــوه ديـــراً
علــــى محرابــــه نُصــــبَ الصــــليب

دم الخنزيـــــر فيـــــه لهـــــم خَلـــــوقٌ
وتحريـــف المصـــاحف فيـــه طيـــب[162]

أمــــــور لــــــو تأملهــــــن طفــــــل

---

[157]الخيشوم : أقصى الأنف، البُرى : جمع بُرة وهي حلقة من صفر أو غيره في أحد جانبي أنف البعير للتذليل أو في أنف المرأة للزينة.

[158]القشعم : النسر المسن.

[159]الأباهم : جمع الإبهام، كتابة عن الندم.

[160]الكامل في التاريخ (407/8).

[161]صبيب : أي سائل.

[162]الخلوق والخلاق : ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران.

لطفَّـــــل في عوارضــــــه المشـــــيب [163]

أتســـــبى المســـــلماتُ بكـــــل ثغـــــر؟

وعـــــيش المســـــلمين إذن يطيـــــب

أمـــــا لله والإســـــلام حـــــق ؟

يـــــدافع عنـــــه شـــــبان وشـــــيب

فقـــل لـــذوي البصـــائر حيـــث كـــانوا

أجيبـــــوا الله، ويحكـــــم، أجيبـــــوا [164]

– الشاعر ابن الخياط : أبو عبدالله أحمد بن محمد ابن الخياط: فقد حاول هذا الشاعر تحريك همة عضب الدولة زعيم الجيوش في دمشق فقال قصيدة طويلة يحثه على إعداد العدة للجهاد مطلعها قوله:

فـــــدتك الصَّـــــواهل قُبَّـــــا وجـــــرداً

وشُـــــمُّ القبائـــــل شـــــيباً ومـــــرداً

وذلـــــت لا ســـــيافِك البـــــيض قضـــــباً

ودانـــــت لأَرماحـــــك السُّـــــمر مُلْـــــدا [165]

إلى أن يقول:

وإني لمهـــــــد إليـــــــك القـــــــريض

يُطـــوى علـــى النُّصـــح والنُّصـــحُ يهُـــدَي

إلى كـــــم وقـــــد زخـــــر المشـــــركون

بســـــيل يُهـــــال لـــــه الســـــيل ســـــداً

---

[163] أي برز وظهر والعارضان : جانبا الوجه.

[164] البصائر جميع بصيرة : وهي قوة الإدراك والفطنة النجوم الزاهدة (151/5).

[165] ديوان ابن الخياط ص 182.

وقـــــد جَـــــاشَ مــــــن أرض إفرنجـــــة
جيـــــوش كمثــــــل جبـــــال تــــــردا
أنومـــــاً علــــى مثــــل هـــــدَّ الصـــــفاة
وهـــــزلا وقـــــد أصـــــبح الأمـــــر جِــــدَّاً
وكيــــــف تنــــــامون عــــــن أعـــــين
وتــــــرتم فاســــــهر تمــــــوهنَّ حقـــــداً
بنـــــو الشـــــرك لا يُنكـــــرون الفســـــاد
ولا يعرفــــــون مــــــع الجـــــور قصـــــداً
ولا يردعــــــون عــــــن القتـــــل نفســــاً
ولا يتركـــــون مـــــن الفتـــــك جُهـــــداً
فكـــــم مـــــن فتـــــاة بهـــــم أصـــــبحت
تـــــدق مـــــن الخـــــوف نحـــــراً وخـــــداً
وأمَّ عواتـــــــــق مـــــــــا إن عـــــــــرفن
حَّـــــــرا ولا ذُقـــــــن في الليـــــــل بـــــــرداً
تكـــــــاد علـــــــيهنَّ مـــــــن خيفـــــــة
تـــــذوب وتتلـــــف حـــــزناً ووجـــــدا

وبعد أن وصف الشاعر حال المشركين وقسوتهم، وحال المسلمين معهم بدأ يحرض عصب الدولة على الجهاد فقال:

فحـــــاموا عـــــن ديـــــنكم والحـــــريم
محامـــــاة مـــــن لا يـــــرى المـــــوت فقـــــداً
وسُـــــدُّوا الثغـــــور بطعـــــن النحـــــور
فمـــــن حـــــق ثغـــــر بكـــــم أن يُسَـــــدَّا
فقـــــد أينعـــــت أرؤس المشـــــركين
فـــــلا تغفلوهـــــا قِطافـــــاً وحصـــــدا

فلابــــــد مـــــــن حــــــدَّهم أن يُفَـــــــلَّ

ولابــــــد مــــــن ركـــــــنهم أن يُهَــــــدّا (166)

وكانت لجهود العلماء والفقهاء والقضاة والأدباء والشعراء أثر في تقوية حركة المقاومة المسلحة والتي قادها أمراء السلاجقة والتي سيأتي الحديث عنها بإذن الله في الصفحات القادمة.

رابعاً: قادة الجهاد من السلاجقة قبل عماد الدين زنكي:

من الحقائق المسلم بها في تاريخ الحركة الصليبية، أن حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين انبعث لأول مرة في بلاد المشرق الإسلامي من منطقة الجزيرة وهي تقع بين دجلة والفرات مجاورة لبلاد الشام وتشتمل على ديار مُضر وديار بكر، وسميت الجزيرة لوقوعها بين نهري دجلة والفرات، وتمتاز منطقة الجزيرة بأنها صحية الهواء جيدة الريع والنماء، واسعة الخيرات، بها مدن جليلة وحصون منيعة وقلاع كثيرة (167) ، ومن الأسباب التي جعلت حركة المقاومة تبعث من منطقة الجزيرة هي:

- أن منطقة الجزيرة أول أقطار المسلمين في المشرق الإسلامي أكتوت بنار الخطر الصليبي عندما استولى الصليبيون على الرها وتأسست بها أولى الإمارات الصليبية سنة 490هـ/1097م، فأدرك السكان خطر توغل الصليبيين في بلادهم، مما بعث المسلمين على التفكير الجدي في المبادرة إلى مهاجمة الصليبيين.
- أن منطقة الجزيرة قد ظهرت شخصيتها منذ عصر صدر الإسلام بسبب مجاورتها لأطراف الدولة البيزنطية، مما نشأ عنه خطر شديد على المسلمين أيام الأمويين والعباسيين فأصبحت خط الدفاع الأول عن ثغور المسلمين ضد الروم، وبعد الغزو الصليبي أصبحت منطقة الجزيرة تواجه إمارة الرها الصليبية التي شكلت أكبر خطر على الخلافة العباسية في بغداد.
- شهدت منطقة الجزيرة خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي دخول الأتراك السلاجقة إليها مع ما اشتهروا به من حبهم لتربية الخيول والمغامرة مع حماسهم للإسلام بسبب قرب عهدهم به، وانتمائهم للمذهب السني وأمد السلاجقة التركمان منطقة الجزيرة بدماء جديدة شديدة

---

[166] ديوان ابن الخياط ص 182 وما بعدها.

[167] الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 123، نور الدين محمود والصليبيون، حسن حبشي ص 11.

التحمس إلى الجهاد في سبيل الله، بعكس القوى الإسلامية الأخرى في بلاد الشرق الإسلامي التي خبت جذوة الحماس الديني في نفوسها وخمدت روح القتال لديها (168).

• الثروات الضخمة والموارد الكبيرة التي حوتها منطقة الجزيرة بسبب توفر مصادر المياه، وخصوبة الأرض، وسعة الرقعة الزراعية وكثرة المراعي اللازمة للخيل والماشية، الأمر الذي مكنها من مد المجاهدين بمصدر لا ينفذ من المؤن والعتاد هذا فضلاً عن الحصانة الطبيعية التي تمتعت بها كبرى مدن وقلاع الجزيرة التي انطلقت منها حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين مثل الموصل وآمد وماردين وحصن كيفا وغيرها، إذ أن تلك المدن التي امتازت بحصانة جغرافية فريدة جعلت اقتحامها عنوة أمراً بالغ الصعوبة وبالتالي أصبحت في مأمن من الهجمات الصليبية المضادة، ولايستبعد أن يكون قد اختمر في نفوس زعماء حركة الجهاد بعث فكرة الجهاد الإسلامي ما يمثله وجود إمارة الرها الصليبية في منطقة الجزيرة من خطورة بالغة على مركزهم بالإضافة إلى خوفهم من تقدم الصليبيين جنوباً للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد (169) . ومن هنا فلا غرو أن تنبعث فكرة الجهاد الإسلامي في منطقة الجزيرة بقصد انتزاع الرها من أيدي الصليبيين (170).

1- جهاد قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل : وقد اتخذت فكرة المقاومة الإسلامية مظهرها العملي منذ سنة 491هـ/1097م حيث قام قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل بجمع ما استطاع جمعه من العساكر بقصد منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين ولكن كربوقا لم يلبث أن توقف في الطريق حيث حاصر الرها لمدة ثلاثة أسابيع فأعطى بذلك فرصة كبيرة للصليبيين جدوا فيها لفتح أنطاكية، وقد تم لهم ذلك، ولو أن كربوفا أنفذ إلى أنطاكية مباشرة لا سلمه ياغى سيان مدينة أنطاكية، وتغيرت ظروف المحاصرين (171) ولكن كربوقا رفع الحصار عن الرها حين سمع بسقوط أنطاكية بيد الصليبيين، وعبر الفرات إلى الشام وأقام بمرج دابق حيث اجتمع هناك دقاق بن تتش صاحب دمشق وظهير الدين طغتكين أتابك دقاق، وجناح الدولة حسين صاحب حمص، وأرسلان تاشى صاحب سنجار، وسقمان بن أرتق صاحب بيت المقدس، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم في القدوة والكفاية على حد قول ابن الأثير(172). وانضم الأمراء جميعاً تحت قيادة كربوغا وسار بهم صوب أنطاكية في سنة 491هـ/1097م التي كانت قلعتها لا تزال في

168الإمارات الأرتقية في الشام والجزيرة ص 201.

169الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 137.

170المصدر نفسه ص 138.

171المصدر نفسه ص 138.

172الكامل التاريخ (400/8).

أيدي المسلمين، فاقتربوا منها وشددوا عليها الحصار حتى تغير موقف الصليبيين وساءت حالتهم، إذ وجدوا أنفسهم محاصرين من الداخل والخارج، فتعرضوا لأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء مما اضطرهم إلى أكل الجيف وأوراق الشجر [173] ، ودفع ذلك الصليبيين إلى إرسال وفد إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من أنطاكية، غير أن كربوقا رفض طلبهم وقال لهم : لا تخرجون إلا بالسيف [174]، وهذا ما دفع أحد رجال الدين المسيحيين واسمه بطرس "بورشلميوا" إلى اختلاق قصة الحربة المقدسة التي أدت إلى دفع معنويات الصليبيين والتفافهم حول زعمائهم، فقويت نفوسهم على الاندفاع تجاه المسلمين والخروج من الباب جماعات متفرقة حتى تكامل خروجهم فزحفوا على المسلمين وهم في غاية من القوة والكثرة فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم [175]، وهكذا فشل كربوقا في قيادة التحالف الإسلامي الذي أراد من ورائه منع سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين سنة 491هـ/1097م وقد ذكر المؤرخون أسباب فشل كربوقا في منع سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين في الوقت الذي كان فيه الصليبيون قد وصلوا إلى درجة من الضعف والتدهور داخل أنطاكية ومن أهم هذه الأسباب.

- ما ذكره مؤرخ أعمال الفرنجة من أن كربوقا صاحب الموصل قد أضاع ثلاثة أسابيع في حصار الرها مما مكن الصليبيين من الاستيلاء على أنطاكية، والاحتياط بما عسى أن يطرأ لهم من هجوم مباغت سواء من المسلمين الذين كانوا داخل قلعة أنطاكية أو من اخوانهم في بلاد الشام وغيرها [176].
- عدم وجود تجانس بين قوات كربوقا التي تكونت من العرب والترك وغيرهم، ثم ما قام به رضوان صاحب دمشق من بث روح الشقاق بين العرب والترك.
- عدم وجود خطة عسكرية واضحة أمام كربوغا، ولعل أبرز ما يوضح ذلك هو عدم رغبة كربوقا في السماح لرجاله بتوجيه الضربة القاضية للصليبيين وهم يخرجون جماعات متفرقة من أنطاكية. وهذا يعود إلى أن كربوقا كان يخشى على ما يبدو من أنه إذا فعل ذلك فسوف لا يقضي إلا على مقدمة الصليبيين [177] .
- سوء معاملة كربوقا لمن معه من الأمراء، كانت سبباً من أسباب هزيمته وفشله، فقد شرع بنوع من الاستعلاء عليهم: ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال، مما أدى إلى استيائهم من تصرفاته[178] .

---

[173] المصدر نفسه (400/8).

[174] الكامل في التاريخ (400/8).

[175] المصدر نفسه (400/8).

[176] تاريخ الحروب الصليبية (328/2).

[177] المصدر نفسه (350/2).

• ارتفاع الروح المعنوية عند الصليبيين بعد اختلاف قصة الحربة المقدسة، بالإضافة إلى ما قام به زعماء الصليبيين قبل وصول كربوقا إلى أنطاكية من مراسلة دقاق صاحب دمشق وإخباره أن مطامعهم لا تتعدى الاستيلاء على ما كان بيد الإمبراطور البيزنطي في شمال الشام [179]، ولا يمنع هذا من القول بأن محاولة كربوقا منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين كانت نقطة انطلاق في بعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين وكشفت للصليبيين عن مدى قوة المسلمين في حالة اتحادهم، كما أنها رسمت الطريق الصحيح لمن أتى بعده من زعماء المسلمين الذين أخذوا على عواتقهم حمل لواء الجهاد الإسلامي ليكملوا المسيرة من بعده، وتتمثل هذه الحقيقة إذا علمنا أن عماد الدين زنكي قد عاش في كنف كربوقا بعد موت والده [180] على أن كربوقا صاحب الموصل قد وافته منيته عند مدينة خوى بأذربيجان سنة 495هـ/1102م أثناء النزاع بين السلطان بركياروق بن ملكشاه وأخوه محمد بن ملكشاه، فخلت الموصل من أحد الزعماء الذين لم يشغلهم، النزاع القائم بين السلاجقة عن مواصلة العمل على بعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين [181].

2- جهاد جكرمش صاحب الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر:

جعلت وفاة أتابك الموصل كربوغا الموقف مائعاً وأدت إلى إثارة الحرب الأهلية. ذلك أن كربوغا أوصى بالولاية من بعده إلى سُنقرجه، وهو أحد أمرائه، وأمر الأتراك بطاعته، لكن نازعه موسى التركماني نائبه في حصن كيفا، بعد أن استدعاه أعيان الموصل، واستطاع أن يقتل منافسه بحكم الموصل بوصفه نائباً عن السلطان بركياروق [182]، واستغل شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، فرصة الاضطرابات، ليتدخل في النزاعات الداخلية، فزحف إلى نصيبين واستولى عليها، فهرب موسى إلى الموصل وتحصَّن بها، وهناك حاصره جكرمش مدة طويلة واضطر موسى إلى الاستعانة بسقمان الأرتقي في ديار بكر، فعرض عليه إعطاءه حصن كيفا ومنحه عشرة آلاف دينار، مقابل مساعدته، قَبِل سقمان هذا العرض وقدّم له مساعدة عسكرية فاضطر جكرمش إلى فكَ الحصار عن الموصل ولما خرج موسى لاستقبال سقمان، قتله بعض

---

[178] الجهاد ضد الصليبيين ص 140.

[179] الجهاد ضد الصليبيين ص 140.

[180] الجهاد ضد الصليبيين ص 140.

[181] دول الإسلام للذهبي (250/2.

[182] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 62.

غلمانه في الطريق فتشتَّت جيشه، وعاد سقمان مسرعاً إلى حصن كيفا، فاستولى عليه بينما تقدم جَكَرمش إلى الموصل ودخلها وسط ترحيب سكانها (183) .

تولى جكرمش إمارة الموصل عام 495هـ - 500هـ/1101- 1106م وعقد تحالف مع سقمان بن أرتق أمير الأراتقة في ديار بكر، استهدف التصدي لتقدم الصليبيين شرقاً باتجاه قلب الجزيرة، إذ كان للانتصارات السريعة التي أحرزها الصليبيون، واعتزامهم الاستيلاء على حران الواقعة في مفرق الطرق إلى العراق والجزيرة والشام، مستغلين فرصة الصراع بين الأمراء المسلمين، فضلاً عما يعنيه الاستيلاء على حران من قطع الصلة بين المسلمين في بلاد فارس والعراق والجزيرة والشام، وإعطاء الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل، وتأمين الرها، والسيطرة على إقليم الجزيرة، كان لهذه العوامل جميعاً الأثر الحاسم في تناسي كل من جكرمش وسقمان خلافاتهما القديمة، والعمل سوية لإيقاف تقُّدم الصليبيين (184).

أ- معركة البليخ وانتصار المسلمين على الصليبيين " وتسمى معركة حران "

أرسل كل من جكرمش وسقمان إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع لتلاقي أمر حّران. ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه " فأجاب كل منهما صاحبه، واجتمعا على الخابور عند رأس العين، حيث عززا تحالفهما وتوجها على رأس عشرة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد لمنازلة الرها قبل أن يتعرضا للهجوم، وعندما سمع بلدوين الثاني أمير الرها نبأ احتشادهم في رأس العين أرسل إلى جوسلين وبوهمند يستنجد بهما، واقترح عليهما أن يحّولا وجهة الهجوم بأن يقوما بمحاولة لمنازلة حران، وبعد أن أبقى بلدوين حامية صغيرة في الرها اتخذ طريقه إلى حران على رأس جماعة صغيرة من الفرسان والأرمن، وانحاز إليه بالقرب من حران كل من جوسلين أمير تل باشر وبوهمند أمير أنطاكية، وابن أخته تانكرد، وبطريرك إنطاكية، وجيش ضم فرسان الصليبيين وأمراءهم وعدداً كبيراً من الأرمن ورجال الدين، بلغ عدده نحو ثلاثة آلاف فارس، ونحو ثلاثة أمثال هذا العدد من الرجالة، والواقع أن هذا الجيش يمثل القوة الضاربة الكاملة لدى صليبيين شمالي الشام، عدا حاميات الحصون، وعندما احتشد هذا الجيش أمام حران كان جكرمش وحليفه لا يزالان يزحفان نحو " الرها " (185) .

---

[183] المصدر نفسه ص 63.

[184] المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 95 عماد الدين خليل.

[185] الحروب الصليبية وسمات (2/72-71) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 96.

كاد الصليبيون أن يستولوا على حران، بعد وقت قصير من فرض الحصار عليها، إلا أن الخلاف الذي نشب بين بلدوين بي بور، وبوهمند، وإصرار كل منهما على رفع رايته على المدينة بعد الاستيلاء عليها، ساعد على صمود حران، وأتاح للمسلمين فرصة التحرك لقتال الصليبيين قبل سقوط هذا الموقع بأيديهم، وتم اللقاء بين الطرفين على نهر البليخ في التاسع من شعبان، حيث أظهر المسلمون الهزيمة، فتبعهم الصليبيون نحواً من فرسحين، فأعاد المسلمون الكرة عليهم، وأبادوا معظم قواتهم [186] ، وغنموا مقادير كبيرة من الأموال والممتلكات [187] ، وكان بوهمند أمير إنطاكية وابن أخته تانكر، قد كمنَا خلف إحدى المرتفعات لينقضا على المسلمين من مؤخرتهم حين يشتد القتال، فلما خرجا شاهدا هزيمة رفاقهم ونهب معسكراتهم، فأقاما في أماكنهما إلى الليل، ومن ثم تسللاً هاربين، فتبعهما المسلمون وقتلوا وأسروا من أصحابهما عدداً كبيراً، بينما تمكّنا هما من الفرار إلى الرها. أما بلدوين وجوسلين فقد تم أسرهما. وكان بلدوين قد انهزم مع جماعة من قواده وخاضوا نهر البليخ، إلا أن الأوحال أعاقت تحُّركهم السريع، فلحقهم قائد تركماني من أصحاب سقمان وتمكن من أسرهم؛ حيث حمل بلدوين إلى سيده سقمان [188].

ب- الخلاف بين جكرمش وسقمان: وعندما رأى أصحاب جكرمش أنّ قوات سقمان قد استولت على حصة الأسد من غنائم الصليبيين قالوا لسيدهم : أي منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا؟ وحسنوا له اختطاف بلدوين، فأرسل جكرمش بعض أصحابه، حيث تمكنوا من اختطاف الأمير الصليبي من معسكر سقمان. فلما علم هذا بما حدث، وكان خلال ذلك غائباً عن مقره، شق عليه الأمر، وتهيأ أصحابه للقتال، إلا أنه ما لبث أن ردّهم وقال لهم: لا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين[189] ، ومن ثمّ تقّدم على رأس قواته، وأخذ سلاح الصليبيين وراياتهم، وألبس، أصحابه ملابسهم وأركبهم خيلهم وجعل يأتي حصون إقليم شبختان من ديار بكر، فيخرج الصليبيون منها، ظناً منهم أن أصحابهم قد انتصروا فيجابههم سقمان ويقضي عليهم ويقتحم حصونهم، وتمكن بذلك من وضع يده على عدد من حصون المنطقة، وقفل عائداً إلى مقر إمارته في ديار بكر[190] .

---

[186] المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 96.

[187] المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 96.

[188] المصدر نفسه ص 97.

[189] الكامل في التاريخ (466/8).

[190] المصدر نفسه (466/8) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 97.

ج- هزيمة جكرمش : قرر جكرمش المضي في القتال بعد عودة حليفه، وقام باقتحام قلاع الصليبيين في إقليم شبختان الممتد إلى شرق الرها، ليحمي مؤخَّرته، ومن ثم واصل السير إلى الرها نفسها وإذ أدى تمهل الصليبيين من قبل إلى الإبقاء على حران بأيدي المسلمين، فقد أبقى الرها للمسيحيين ما حدث من تمهل المسلمين إذ توفر لتانكرد من الوقت ما يكفي لإصلاح وسائل الدفاع وبذلك استطاع أن يردَّ أول هجوم قام جكرمش، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ما أظهره الأرمن والمحليون من الولاء والبسالة غير أن ما أحسن به تانكرد من ضغط شديد، حمله على المبادرة بالاستنجاد بيوهند، ومع أن هذا كان يواجه مشاكل عديدة، إلاَّ أنه رأى ألاَّ من جعل الأسبقية لدرء الخطر عن الرها، فنهض لمساندة ابن أخته، غير أنه عطله ما كانت عليه الطرق من أحوال سيئة. واستبَّد اليأس بتانكرد فأمر رجال الحامية بأن يتخذوا أماكنهم للهجوم قبل بزوغ الفجر، وتحت جنح الظلام انقَّض رجاله على الأتراك الذين استغرقوا في نومهم مطمئنين، واكتمل الانتصار الصليبي بوصول بوهمند، فهرب جكرمش مذعوراً، وخلف من ورائه معسكره الزاخر بالثروة فانتقم الفرنج من هزيمة حران، وتم إحتفاظهم بالرها [191] وكان من بين الأسرى الذي وقعوا في يدي تانكرد أميرة سلجوقية من عقائل بيت جكرمش الذي بلغ من تقديره لهذه السيدة أنه بادر لافتدائها مقابل مبلغ كبير من المال 15ألف بيزنت، أو مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه، وبلغت بيت المقدس أنباء هذا العرض، فأسرع الملك بلدوين بالكتابة إلى بوهمند بألاَّ يجعل هذه الفرصة تفلت حتى يتم إطلاح سراح بلدوين. غير أن بوهمند وتانكرد احتاجا إلى المال على حين أن عودة بلدوين سوف تخرج تانكرد من وظيفته الحالية —كمسؤول على الرها — ليعود إلى إنطاكية ولذا ردَّا على رسالة الملك: أنه ليس من الدبلوماسية في شيء أن يظهرا لهفتهما الشديدة على قبول العرض، على حين أنهما إذا تردّدا في القبول ربما لجأ جكرمش إلى زيادة الفدية. غير أنه في تلك الأثناء تم اتفاقهما مع جكرمش على قبول عرضه النقدي، وبذا بقي بلدوين في الأسر [192].

س: نتائج معركة البليخ أو حرّان: كانت لمعركة البليخ نتائج بالغة الأهمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي، لعل أهمها :

- أوقفت تقدم الصليبيين وتوسعهم باتجاه الشرق على حساب المسلمين، وقضت على آمالهم في التقدم نحو العراق وإتمام سيطرتهم على إقليم الجزيرة.

---

[191] الحروب الصليبية ص 98.

[192] المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 99.

•تلاشت أحلام بوهيموند في السيطرة على حلب، وتحويل إمارة إنطاكية إلى دولة كبيرة، وقضت على آمال الصليبيين بقطع الاتصال بين القوى الإسلامية في الشام والجزيرة وآسيا الصغرى عن طريق الاستيلاء على حلب.

•قرَّرت مصير إقليم الرها. ذلك أن هذه الإمارة تعرضت لكثير من المتاعب الداخلية التي أضعفتها وبخاصة من جانب الأرمن الذين سرعان ما أبدوا تذمراً من الحكم اللاتيني بفعل تعسف هؤلاء مع الكنسية الأرمينية، واضطهاد رجالها مما دفع الأرمن إلى الاتصال بالأتراك وأضحى احتمال سقوطها في أيدي المسلمين وشيكا [193] .

•أتاحت للمسلمين فرصة استعادة الأملاك التي خسروها في السابق، وضُمَّت إلى إمارة أنطاكية.

•أضحى تانكْرِد، بعد أسر بلدوين، وصياً على إمارة الرها، كما أصبح بوهيموند أقوى الأمراء الصليبيين في الشمال.

•أدَّت ظروف الانتصار إلى زيادة التقارب بين القوى الإسلامية والبيزنطيين ضد عدوهم المشترك وأوضح ابن القلانسي خطورة النتائج بقوله: وكان نصراً حسناً للمسلمين؛ لم يتهيأ مثله، وبه ضعفت نفوس الإفرنج، وقلَّت عدتهم، وفلَّت شوكتهم وشكتهم، وقويت نفوس المسلمين، وأرهقت عزائمهم في نصرة الدين، ومجاهدة الملحدين، وتباشر الناس بالنصر عليهم، وأيقنوا بالنكاية فيهم والإدالة منهم.

•حطَّمت أسطورة أن الصليبيين لا يقهرون [194] .

•استغل الإمبراطور البيزنطي الكسيوس فرصة ضعف مركز بوهمند إثر تعّرضه للانتقاد بسبب عدم افتدائه لرفيقه بلدوين، فضلاً عن التزامه بالمعاهدات التي كان عقدها مع الإمبراطور الذي راح يشجع الانتفاضات التي قام بها سكان قليقية ضد حكامهم النورمان، كما أوعز إلى قواته بالاستيلاء على عدد من المدن والمواقع التي كان تانكرد قد استولى عليها من قبل، واشترك الأسطول البيزنطي في السيطرة على بعض المدن الساحلية بين اللاذقية وطرطوس، يضاف إلى ذلك أن البيزنطيين تمكنوا من استغلال قواعدهم البحرية في قبرض لتقديم المساعدات لريموند الضجيلي – عدو بوهمند اللدود – الذي كان يسعى لتأسيس إمارة حول طرابلس تحاذي إنطاكية من الجنوب في الوقت الذي لم يتقدم فيه أحد من القدس لنصرة بوهمند ومساعدته في هذه المحنة [195].

193تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 65.

194المصدر نفسه ص 65.

195المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 100.

وهكذا قدر لجكرمش، بتحالفه مع سقمان، أن يلعب دوراً خطيراً في تاريخ الحروب الصليبية، وأن يقدم وحليفه للعالم الإسلامي، أول نصر حاسم على الصليبيين، فتح به الطريق لظهور قيادات وأحلاف إسلامية وجهت الضربات المتتالية للقوى الصليبية، تلك القيادات التي بدأت بمودود حاكم الموصل السلجوقي، وانتهت بصلاح الدين، عبر إيلغازي وبلك الأرتقيين، وآق سنقر البرسقي، ثم عماد الدين ونور الدين الزنكيين [196].

ش- مواصلة جكرمش للجهاد: ورغم بعض البوادر السلبية التي أعقبت انتصار المسلمين في البليخ فإن جكرمش ظل يطمح لتحقيق انتصارات أخرى في هذا الميدان، وبعد أقل من سنتين أتيح له ذلك عندما تلقى في أواخر عام 499هـ - 1106م أمراً من السلطان محمد بالقيام بحملة جديدة لمهاجمة الصليبين، فاتصل بأمراء المنطقة وتمكن من تشكيل حلف يضم رضوان أمير حلب وإيلغازي الأرتقي أمير ماردين وألبي تمر تاش صاحب سنجار والأصبهذ صاوا أحد كبار أمراء فارس إلاَّ أن ما طرحه إيلغازي على الأمراء المذكورين، أعاق تنفيذ الخطة المقترحة؛ إذ طلب منهم أن يبدؤوا حملتهم ضد جكرمش بقصد الاستيلاء على الموصل لكسب رضا السلطان محمد الذي كان يخفد على حاكم الموصل بعض تصرفاته، فضلاً عن إمكانية الاستفادة المباشرة من ميزان الموصل وإمكانياتها المالية والعسكرية ضد الصليبيين فوافقه زملاؤه على ذلك ومضوا سوية لمهاجمة نصيبين التابعة لحاكم الموصل. إلا نواب جكرمش هناك نجحوا — بتوجيه من سيدهم في الموصل — في إثارة النزاع والكراهية بين رضوان وإيلغازي، فاغتنم رضوان فرصة إقامة وليمة أمام أسوار نصيبين وقام باختطاف إيلغازي وتكبيله واعتقاله، إلا أن أتباعه من التركمان تمكنوا من تخليصه، وقاموا بهجوم مباَغت على معسكر رضوان أرغمه على الإنسحاب والعودة إلى حلب وبدا تمزق هذا التحالف قبل أن يخطو خطوة واحدة صوب هدفه الأساسي في قتال الصليبيين [197]، إلا أن ذلك كله لم يثن جكرمش عن عزمه على مهاجمة أعدائه الحقيقيين، إذ إنه ما أن تمكن من إحباط مساعي الأمراء المتحالفين ضده حتى بادر بشن الهجوم على الرها، إلا أنه ما لبث أن عاد إلى الموصل ليواجه متاعب جديدة تجاه السلاجقة بعد أن نجح في التغلب على هجوم قامت به عساكر ريتشادر (سالرنو) الذي كان يحكم الرها آنذاك نيابة عن بلدوين المأسور. ولم يمضي وقت قصير على ذلك حتى تحرك قلج أرسلان بن سليمان، سلطان سلاجقة الروم، لمهاجمة الرها، فانتهز نواب جكرمش في حران الفرصة وأرسلوا إليه يستدعونه ليسلموا إليه البلد، فتقَّدم

---

[196] المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 102.

[197] المصدر نفسه ص 103.

قلج أرسلان إلى هناك ودخل حران، وفرح به الناس لأجل جهاد الفرنج [198]، وأقام هناك أياماً اضطر بعدها للعودة إلى بلده بسبب مرض شديد ألّم به تاركاً في حران جماعة من أصحابه لحمايتها [199] ، ويبدو أن شخصية قلج أرسلان بدأت تطغى، بما تمتع به من قوة واستقلال ونفوذ، على شخصيات رفاقه من الأمراء المسلمين في المنطقة بسبب خلافاتهم المستمرة، وتطاحنهم الدائم من أجل تحقيق مكاسب إقليمية محدودة فضلاً عن أن المشاكل التي جابهت جكرمش في الموصل، وتدهور علاقته مع السلاجقة صرف اهتمامه كلية عن ساحة الجهاد ضد الصليبيين، الأمر الذي أدّى إلى أن يستقطب قلج أرسلان اهتمام نواب جكرمش في حران فاستدعوه وسلّموه البلد، مما يفسر لنا –كذلك– ما حدث بعد قليل من استدعاء قلج أرسلان من قِبل أهالي الموصل كي يتولى حكمهم، إثر مقتل حاكمهم السابق جكرمش [200].

3- جهاد جكرمس صاحب الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر:

لم يكد الغرب الأوروبي يعلم بنبأ النجاح الذي حقّقته الجموع الصليبية في بلاد الشام وفلسطين حتى تحمَّس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا من قبل في الذهاب إلى الشرق، تدفعهم مطامع شخصية دنيوية وهي الحصول على الغنائم والضياع فضلاً عن مطامع دينية وهي الحصول على الثواب والغفران، ويُذكر بأن الصليبيين في الشرق كانوا بحاجة ماسَّة إلى محاربين ومستعمرين بهدف:

- مواصلة الحرب ضد المسلمين.
- استئناف عملية التوسع.
- حراسة ما حقّقوه من مكاسب.
- المحافظة على هذه الحقوق ضد أي محاولة استرداد من جانب المسلمين.

استجاب المجتمع الغربي لهذه الظاهرة، وانبعث منه صحوة صليبية جديدة اسفرت عن تدفق جموع صليبية أخرى إلى الشرق. وشكَّل اللمبارديون أولى تلك الجموع، فغادروا إيطاليا في عام 494هـ/1101م بقيادة أنسلم بوي رئيس أساقفة ميلان، وصحبه عدد من الأمراء من بينهم ألبرت كونت بياندرات، وجيوبرت كونت بارما، وهيوكونت مونتيبلو [201] ، ويبدو أن هذه المجموعة اللمباردية على الرغم من وفرة عدد المشتركين فيها،

---

198 المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 103.

199 الكامل في التاريخ نقلاً من المقاومة الإسلامية ص 104.

200 المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 104.

201 تاريخ سلاجقة الروم في آسيا ص 96.

لم تكن تختلف كثيراً من حيث النوعية عن جموع العامة السابقة، بدليل أنهَّا لم تضم سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين، وتألفَّت غالبيتها العظمى من العامة الذين لا يحسنون القتال، ويفتقرون إلى النظام، ولما وصلوا إلى ضواحي القسطنطينية ارتكبوا أعمال السلب والنهب مما حمل الأمبراطور البيزنطي على الإسراع بنقلهم إلى آسيا الصغرى، وذلك في جمادي الأولى/آذار)، واستقروا في نيقوميدية بانتظار وصول جموع أخرى [202] ، وفعلاً لم تلبث أن وصلت مجموعة أخرى من الفرنسيين بقيادة ستيفن بلوا، وانضم إليه عدد من الأمراء أمثال ستيفن كونت برجنديا وهيوكونت بروي، وبلدوين كونت جراندبريه، وهيو بيرفون أسقف سواسون بالإضافة إلى سرية ألمانية بقيادة كونراد كندسطبل الأمبراطور هنري الرابع وعبرت هذه المجموعة البوسفور، وعسكر أفرادها عند نيقية على مقربة من المعسكر اللمباردي، وبلغ عدد أفراد المجموعتين بين مائتين وثلاثمائة ألف مقاتل، وعين الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين صديقه ريموند كونت تولوز، قائداً عاماً عليهم، وألحق بهم جماعة من الجنود البيزنطيين بقيادة تسيتاس [203].

أ- معركة مرسيفان : تحرك الجيش الصليبي الضخم من نيقوميدية إلى دوريليوم بهدف الوصول إلى الأراضي المقدسة، على أن يعيد أثناء زحفه فتح الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى، لذلك أوصى الأمبراطور ستيفن بلوا بأن يسلك الجيش الطريق الذي سلكته الجموع الصليبية السابقة الذي يجتاز دوريليوم وقونية، غير أن اللمباردينن رفضوا التوجه إلى الأراضي المقدسة إلا بعد فك أسر بوهميوند الذي اتخذوه مثلاً يُحتذى وبطلاً لهم، والمحارب الوحيد الذي يثقون به ليقودهم إلى النصر، وأصّروا بأن تتوجه الحملة إلى كمبادوكية ويذكر ابن الأثير أن هدف تلك الجموع الصليبية كانت تخليص بوهيموند من الأسر [204] ، وعلى الرغم من احتجاج بعض القادة الأمراء فقد توجَّه أفراد الحملة إلى الأراضي الداشمندية عبر أنقرة التابعة لقلج أرسلان، فاستدلوا عليها وتابعوا طريقهم إلى كنغري الواقعة في جنوب بافلاجونيا كي يسلكوا الطريق الرئيسي المؤدي إلى أماسية ونيكسار وحتى يعرقل التقدم الصليبي، عمد قلج أرسلان إلى الإنسحاب التدريجي من أمام القوة الصليبية، واتبَّع أسلوب البدو بتخريب البلاد أثناء أنسحابه وحرق كل ما يمكن أن يستفيد الصليبيون منه وبخاصة مواد التموين وفي الوقت نفسه، أخذت القوى التركية تتجمَّع في تحالف جديد لمواجهة الخطر الصليبي، فبادر كمشتكين أحمد الدانشمند بتجديد تحالفه مع قلج أرسلان، كما حثَّ رضوان صاحب حلب على أن يرسل

---

[202] المصدر نفسه ص 96.

[203] الكامل في التاريخ نقلاص عن تاريخ سلاجقة الروم ص 97.

[204] تاريخ سلاجقة الروم في آسيا ص 97.

عدداً من الجنود[205] ، وصل الصليبيون إلى كنغري فألفوا الأتراك فيها بكامل قوتهم، واستعصت عليهم المدينة لمناعتها، فاضطروا إلى متابعة سيرهم بعد أن نهبوا القرى المجاورة لكن التعب بدأ يظهر عليهم بسبب النقص في المؤن، وشدة الحرارة، ومضايقة الأتراك وأقترح ريموند، حتى يجنِّب الجيش الدمار المحقَّق أن يتوجه صوب الشمال الشرقي إلى قسطموني، ومنها إلى إحدى المدن البيزنطية على ساحل البحر الأسود. على أن الرحالة إلى قسطموني كانت بطيئة وشاقة بسبب نفاذ المؤن وتدمير الأتراك للمحاصيل الزراعية، وردمهم للآبار، وتعَّرض الصليبيون بهجوم تركي مفاجئ فتفّرقوا لا يلوون على شيء قبل أن يعيد ريموند لمّ شعثهم ولما وصلوا إلى أطراف قسطنوني، كان على ريموند أن يشق طريقاً بين الجموع التركية إلى الساحل، على أن اللمباردين، أصُّروا مجدداً على التوجه إلى الشرق، ونزل في الأطراف على رأيهم مرغمين [206] واجتاز الجيش الصليبي نهر هاليس إلى بلاد الدانشمنديين ووصل أفراده إلى مدينة مرسيفان الواقعة في منتصف الطريق بين النهر وأماسية [207] . وعندما أدرك الأتراك أن القوة الصليبية أضحت منهكة تقدَّموا نحوها واصطدموا بها، ولم يمض وقت طويل حتى تضعضع الصليبيون وفُّروا من أرض المعركة تحت ضغط القتال مخلفين وراءهم نساءهم ورهبانهم ولجأ ريموند إلى تل صغيراً احتمى به إلى أن أنجده الفرنسيون والألمان، ثم هرب خلال الليل بعدما يئس من إحراز أي نصر، وترك وراءه المعسكر الصليبي ومن كان به من غير المحاربين ليقع غنيمة في أيدي الأتراك [208]. تلت المعركة عملية مطاردة لم ينج منها إلا الفرسان، وبلغت خسائر الصليبيين أربعة أخماس الجيش[209] ، واستولى الأتراك على كميات كبيرة من الأسلحة، وغنموا كثيراً من الأسرى بيعوا رقيقاً.

ولم يلبث ريموند أن وصل إلى بافرا، المينا البيزنطي الصغير على البحر الأسود قرب سينوب، وأقلتَّه من هناك سفينة بيزنطية إلى القسطنطينية [210] ، ويشير المؤرخ اللاتين ألبرت أوف أكس، أن ريموند تلقى رشوة من الأتراك كي يقود الجيش إلى قسطموني، وهذا مستبعد، لأن من يتتبع سير الحملة ومارافقها من أحداث يلمس مدى ما بذله ريموند من جهد في إقناع اللمباردين بعدم التوجه إلى بلاد الدانشمندبين أولاً، ثم محاولته إخراج الجيش من المأزق الذي أوقع نفسه فيه ثانياً، وما اختياره للطريق إلى قسطموني إلا نتيجة لما تعَّرض له

---

[205]الحروب الصليبية (43/2) رنسيمان.

[206]تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 98.

[207]المصدر نفسه ص 98.

[208]المصدر نفسه ص 98.

[209]المصدر نفسه ص 98.

[210]تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 99.

الجيش من متاعب وأما فراره من أرض المعركة، فناتج عن إدراكه بعدم جدوى متابعة القتال بعد أن ولَّى اللمبارديون الأدبار وتبعهم البجناك المرتزقة [211].

ب- معركة هرقلة الأولى: محت الكارثة التي حلَّت بالصليبيين في مرسيفان، الشهرة، التي اكتبسها هؤلاء نتيجة انتصارهم في دوريليوم وزاد من أثرها أنها لم تكن الكارثة الأخيرة. إذ، في الوقت الذي غادر فيه اللمبارديون مدينة نيقوميدية، وصل إلى القسطنطينية جيش فرنسي بقيادة وليم كونت نيفر على رأس خمسة عشر ألف من الفرسان والمشاة وحرص وليم على اللحاق بالمبارديين على وجه السرعة، فغادر القسطنطينية إلى نيقوميدية، وعلم فيها أن الجموع الصليبية مضت في طريقها إلى أنقرة فسار إلى هذه المدينة ووصل إليها بسهولة. لكن لم يكن أحد يعلم بالجهة التي سارت إليها هذه الجموع، لذلك لم يسع الكونت إلاَّ أن توجه نحو قونية، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها، وتولت حامية تركية سلجوقية الدفاع عنها، وما قام به من محاولات للاستيلاء عليها باءت بالفشل فتركها [212].

كان السلاجقة وحلفاؤهم قد فرغوا، في غضون ذلك، من إبادة الجموع اللمباردية، وعلم قلج أرسلان وكمشتكين أحمد دانشمند بقدوم العدو الجديد، وإذ لا زالت تغمرهما حرارة الانتصار، سارا نحو الجنوب، وسبقا وليم إلى هرقلة وسارت عساكر ينفر ببطء من قونية متوجهين نحو الشرق، ولما وصلوا إلى مكان قريب من هرقلة، وكان التعب قد استبَّد بهم، هاجمهم الأتراك، فانهارت مقاومتهم بعد معركة لم تستمر طويلاً، ولقي الجيش الفرنسي بأسره مصرعه، باستثناءالكونت وستة من أتباعه [213].

ج- معركة هرقلة الثانية : في الوقت الذي كانت فيه حملة نيفر تجوس آسيا الصغرى، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الجموع الصليبية إلى القسطنطينية، وتألَّفت من فرنسيين وألمان بقيادة وليم التاسع دوق أكويتين، وولف الرابع دوق بافاريا، وبلغ عدد أفرادها ستين ألف مقاتل خرجت هذه الجموع من القسطنطينية باتجاه قونية، وسلكت الطريق نفسه الذي سلكه، بوهيموند، من قبل، وانتهج الأتراك تجاهها الخطط نفسها التي طَّبقوها من قبل، بإحراق الغلال وإتلاف المؤن وطمر الآبار، ولما وصل أفراد هذه المجموعة

---

[211] المصدر نفسه ص 99.

[212] المصدر نفسه ص 99.

[213] المصدر نفسه ص 99 ، 100.

إلى قونية وجدوا المدينة خاوية وكانت الحامية السلجوقية قد أخلتها بعد أن قاومت حملة نيفر، وحملت معها كل ما كان فيها من مؤن، كما جّردت البساتين والحدائق من كل ما يمكن أن يفيد الصليبيين[214] ولم يمكث الصليبيون في قونية وغادروها إلى هرقلة عن طريق يبلغ طوله خمسة وخمسون ميلاً، فعانوا من المتاعب الكثيرة حتى اشتد بهم الجموع والعطش وكان الأتراك يتخطفونهم بالقتل بين الحين والآخر ولما دخلوا إلى المدينة وجدوها مهجورة [215] ، وترَّبص المسلمون في هذا الوقت بالصليبيين، وكمنوا لهم في الغابات المحيطة بهرقلة، وباغتوهم وهم يشربون من ماء ذلك النهر المتفجر وراء المدينة، وإذ اضطرب نظامهم، انقضَّ عليهم الأتراك وأبادوهم عن آخرهم، باستثناء قلَّة قليلة استطاعت النجاة بصعوبة، من بينهم وليم التاسع وولف الرابع وتوجها إلى طرسوس ومنها إلى أنطاكية [216].

س- نتائج معارك قلج أرسلان السابقة: أنتهت كل مجموعة من المجموعات الثلاث، نهاية محزنة أثَّرت نتائجها في سير الحركة الصليبية من جهة وفي الأتراك بعامة والسلاجقة بخاصة من جهة أخرى وأهم هذه النتائج هي : -

- ثأر السلاجقة لما حلَّ بهم في دوريليوم، فلن يجري بعدئذ طردهم من الأناضول كما رفعت الانتصارات المتتالية روحهم المعنوية.
- ظل الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى إلى بلاد الشام غير آمن للجيوش الصليبية والبيزنطية على السواء على الرغم من نجاح المجموعات الصليبية الأولى في اقتحامه، فخشي المهاجرون الصليبيون سلوك هذا الطريق البري الذي يجتاز القسطنطينية إلى إيسوس، ما لم يكونوا في جيوش ضخمة، ولم يعد بوسعهم القدوم إلا بحراً مع ما يتطَّلب ذلك من مصاريف إضافية لم يتمكَّن من دفعها إلا القليل. وظل هذا الطريق البري مغلقاً في وجه الصليبيين عدة أعوام [217].
- ألقى الصليبيون اللوم على البيزنطيين بما حلَّ بهم من مصائب وحّملوهم مسؤولية ما حدث. وتردَّدت الشائعة بينهم أن ريموند كان يُنفِّذ تعاليم الأمبراطور عندما أخرج الجيش الذي يقوده عن طريق المرسوم ليلقى

---

[214] تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 100.

[215] المصدر نفسه ص 100.

[216] المصدر نفسه ص 100.

[217] تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 101.

أفراده حتفهم في كمين سبق إعداده، والواقع أن اللاتين أرادوا التماس كبش فداء يتحمَّل مسؤولية أخطائهم، فألقوا اللوم على البيزنطيين، وعدُّوهم مسؤولين عّما حلَّ بهم من كوارث [218].

– لم يلبث قلج أرسلان أن ازداد افتخاراً بعد هذه الانتصارات وشاركه سائر أتراك الأناضول، وأضحى بوسعه أن يعيد سيطرته على جوف الهضبة، ثم أقام في عاصمته قونية الواقعة على الطريق الرئيسي الذي يربط القسطنطينية ببلاد الشام [219] .

– أستأنف الدانشمنديون فتوحهم في وادي الفرات دون عائق وبلغوا أطراف إمارة الرها، كما فتحوا ملطية وأسروا حاكمها في 23ذي الحجة 495هـ/18أيلول 1102م.

– أعاد رحيل الصليبيين إلى بلاد الشام، الخصومة والتنافس بين السلاجقة والدانشمنديين، وتنازع البيتان التركيان الكبيران حول امتلاك ملطية وفدية بوهيموند، فتفكَّكت بذلك جبهة الأتراك في المنطقة [220].

•**أثر وفاة قلج أرسلان :** راسل زنكي بن جكرمش قلج أرسلان الأول يستنجد به وكان آنذاك في ملطية، ووعده بتسليمه الموصل والأعمال التابعة لها، واستغل السلطان قلج أرسلان السلجوقي هذه الفرصة للتوسع على حساب الأمراء المتنازعين، فأسرع لنجدة زنكي، ولما علم جاولي بمسيره، انسحب من المدينة، لاسيما وقد توفي جكرمش فجأة وهو في الأسر، وكان ينوي اتخاذه أداة للمساومة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه أدرك أن لقج أرسلان الأول من القوة ما لايستطيع مجابهته في معركة سافره، لذلك قرّر تكوين حلف مناهض له حتى يدعم موقفه [221] ، لكن قلج أرسلان الأول تمَّكن من دخول الموصل وسط ترحيب السكان، وقد وعدهم باحترام حرياتهم وأجرى فيها بعض الترتيبات الإدارية [222] ، وأما جاولي، فقد انسحب إلى سنجار، وأجرى مباحثات مع كل من إيلغازي الأرتقي ورضوان صاحب حلب، واتفق في نهايتها على طرد قلج أرسلان الأول من الموصل، والتوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية وانتهت الحرب ضد قلج أرسلان الأول بهزيمته وغرقه في نهر الخابور [223] في عام 500هـ/1107م [224] ،

218المصدر نفسه ص 101.

219المصدر نفسه ص 101.

220المصدر نفسه ص 101.

221تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 68.

222المصدر نفسه ص 68.

223نهر الخابور : نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة.

224الكامل في التاريخ (502/8).

ويعتبر قلج أرسلان الأول من الشخصيات الفذَّة التي أنجبتها سلاجقة الروم، وتأثر الشرق الأدنى بمختلف فئاته بموته.

- فسلاجقه الروم الذين لم يظهر بينهم زعيم قوي يحل محل قلج أرسلان تعَّرضوا لضغط متزايد من جانب الأمبراطورية البيزنطية التي حدَّدت تدخلها في شؤونهم الداخلية، واستطاع ألكسيوس كومنين أن يعيد، باطمئنان، سيطرته على المناطق الغربية لآسيا الصغرى وعلى امتداد ساحلها الجنوبي.
- أطالت وفاة قلج أرسلان من عمر دولة السلاجقة العظام، ما يقرب من مائة عام. ذلك أن الانقسامات الحادة داخل الدولة بين السلاطين والأمراء للسيطرة على العرش، وكثرة الحروب الداخلية بينهم بالإضافة إلى الأخطار الخارجية التي أحاقت بهم، كخطر الحشيشية والخطر الصليبي، شجّع قلج أرسلان على التدخل في شؤون الشرق للسيطرة على مقاليد الحكم، وليوحَّد من جديد كل القوى السلجوقية في المشرق وكان باستطاعته تحقيق حلمه هذا، فالظروف السياسية الداخلية والخارجية مواتية غير أن وفاته ساهمت السلاجقة العظام من الزوال وأطالت أمد عمرها.
- تُعدُّ وفاة قلج أرسلان مرحلة بالغة الأهمية في انفصال سلاجقة الروم عن سلاجقة المشرق. ذلك أن الأخطار الداخلية والخارجية التي أحاقت بدولة السلاجقة العظام حالت بينهم وبين التدُّخل في شؤون الفروع السلجوقية الأخرى وبخاصة في بلاد الشام وآسيا الصغرى، والجدير بالذكر أن دولة سلاجقة الروم كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تابعة اسمياً للسلاجقة العظام، ولم تستقل تماماً إلا في عام 552هـ/1157م[225].
- حرم موت قلج أرسلان، سلاجقة الشام من قوة كانت كفيلة بإقامة الوحدة بينهم، ذلك أن السيادة السلجوقية في بلاد الشام، أخذت تتقلصَّ سريعاً، لأن ابني تتشى، رضوان ودقاق لم يتمتعا بالمقدرة السياسية التي تمكَّنهما من مواجهة الأوضاع القلقة التي عاشتها بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وأوائل القرن التالي، ولعل أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة في بلاد الشام والعراق وغيرهما، هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة التي تجمعها رابطة الاتصال بالبيت السلجوقي وظهرت من تلك البيوت، وحدات سياسة أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابك [226].

---

[225] تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 111.

[226] تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 111.

- أزالت وفاة قلج أرسلان خطراً شديداً عن صدر الأمبراطورية البيزنطية في وقت حرج، إذ كان بوهيموند يستعهد لمهاجمة بلاد البلقان في عام 501هـ/1107م انطلاقاً من حصن دورازو المنيع وقد ضحى الكسيوس كومنين بحدود بلاده الجنوبية الشرقية من أجل إنقاذ دورازو، فعقد معاهدة مع قلج أرسلان حصل بموجبها منه على مساعدة عسكرية، إلا أن وفاته المفاجئة، وعدم وجود شخصية قوية تحل محله، أعطاه الفرصة ليتفرَّغ وهو مطمئن، لمواجهة خطر بوهيموند، الذي انهزم أمامه عام 502هـ/1108م [227].
- جعلت وفاة قلج أرسلان الموقف في آسيا الصغرى مائعاً إذ أن أكبر أولاده الأربعة وهو ملكشاه أضحى أسيراً في يد السلطان محمَّد بعد معركة الخابور، بينما استولت أرملته على ملطية والأقاليم الشرقية بمساعدة الأمير أيدبر الذي اعترف بسيادة طغرل أرسلان، أصغر أولاد قلج أرسلان، على بلاد الروم، أما الاخوان الآخران، وهما مسعود وعرب، فقد عاش الأول في بلاد الدانشمنديين في حين استقر الثاني في قونية [228].
- لم يكن انهيار الحكم المركزي لسلاجقة الروم لصالح البيزنطيين، لأن أولئك استمروا في شنَّ الغارات على أراضي الأمبراطورية، وعلى الرغم من ذلك، فقد تمكَّن الأمبراطور البيزنظي من الاستيلاء على بعض الحصون في المناطق الحدودية [229] ، على أنه لم يشأ أن يغامر بالذهاب إلى قيليقية أو إلى بلاد الشام، وكان هذا التصرف منه لصالح السلاجقة الذين تفَّرغوا لمعالجة مشكلاتهم الداخلية [230].
- **جاولي سقاوة** : بعد وفاة قلج أرسلان وغرقه في نهر الخابور عام 500هـ/1107م، أضحى بوسع جولي أن يدخل الموصل، غير أن ما أقترن به حكمه من الوحشية لم يلبث أن جعله مكروهاً عند الناس كما أنه لم يزد عن جكرمش فيما أظهره من الاعتراف بسلطة السلطان محمد على الرغم من أنه خطب باسمه في الموصل [231] ، إذ أعلن استقلاله وقطع كل صلة به، مما دفع السلطان محمد لأن يعهد في شهر ذي القعدة عام 501هـ/شهر حزيران عام 1108م إلى أحد رجاله، وهو مودود بن التونتكين بطرد جاولي من الموصل والحلول مكانه في حكمها [232] ، وهكذا اضطر جاولي إلى الفرار مُحَّدداً من الموصل، وذهب إلى

---

[227] المصدر نفسه ص 112.

[228] المصدر نفسه ص 112.

[229] المصدر نفسه ص 112.

[230] المصدر نفسه ص 112.

[231] الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 68.

[232] الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 68.

الجزيرة حيث التفَّ حوله جميع أعداء الدولة السلجوقية وعلى رأسهم قبيلة بني مزيد العربية، كما لم يتردد في محالفة القوى الصليبية المجاورة، فأطلق سراح بلدوين الثاني دي بورج أمير الرها، وعقد معه تحالفاً ضد السلاجقة [233] . ودخل مودود الموصل وسط ترحيب السكان في شهر صفر عام 502هـ/شهر أيلول عام 1108[234].

5- شرف الدولة مودود بن التونتكين 501هـ - 507هـ/1108م - 1113م :

يحتل مودود مكانة خاصة في تاريخ الجهاد ضد الصليبيين، وقد أسهمت في تكوين هذه المكانة عوامل عدة أهمها – ولا ريب – الفترة المبكرة التي ظهر فيها، والطابع الإسلامي العميق لشخصيته المتفانية في سبيل أهداف المسلمين الكبرى، وسياسته الداخلية العادلة السمحة وقدرته – بناء على ذلك كله – على تزعُّم حركة الجهاد وإيجاد نوع من التنسيق، ربما لأول مّرة، بين كافة القوى الإسلامية في ساحات الجهاد، الأمر الذي لن نجده متبلوراً وناضجاً إلاَّ في عهد الأراتقة وزنكي فيما بعد.. وأخيراً نجاحه في وضع الصليبيين في موضع الدفاع، وتحقيقه عدداً من الانتصارات، جاء أحدها عند مرتفعات طبرية في قلب فلسطين، بعيداً عن الساحة التي درج عليها الصراع بين ولاة الموصل السابقين وأعدائهم .. ثم جاء مقتله السريع، إثر ذلك، في جامع دمشق على أيدي الشيعة الباطنية الأعداء الشرسين لحركة الجهاد والمقاومة، والحزن العميق الذي شمل جماهير المسلمين بعيد اغتياله والكلمات المخلصة التي قالها قبيل استشهاده جاء ذلك كله لكي يؤكد مكانة مودود الإسلامية كبطل من أبطال الحروب الصليبية ورائد من رواد الجهاد الأولين [235].

أ- حملة مودود الأولى ضد الرها: في عام 503هـ/1109م بعد أشهر قليلة من استتباب الأمر له في الموصل وبعد أن تلقَّى أمراً من السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه بالتحرك لقتال الصليبيين فبدأ مودود بتشكيل تحالف إسلامي ضم الأمير إيلغازي الأرتقي أمير ما ردين بعساكره من التركمان، وسقمان

233تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 68.

234الباهر لابن الأثير ص 17.

235المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 112.

القطبي أمير أرمينية المعروف باسم شاه الأرمن وعدد كبير من المتطوعين [236]. وكانت هذه أول مرة يجتمع فيها هذا العدد من الأمراء المسلمين لقتال الصليبيين، ولهذا تُعُّد هذه الحملة فاتحة عهد جديد من النضال ضد الصليبيين، ونقطة تحول هامة من التفرق والتخاذل إلى التجمع والهجوم [237] ، وما إن علم الصليبيون في الرها بحشود المسلمين حتى أنفذ بلدوين دي بورج رسولاً إلى بيت المقدس يلتمس النجدة العاجلة من الملك بلدوين، متجاهلاً الاستعانة بـ "تانكرد" صاحب أنطاكية، إذ كان يشك في نواياه، وباتفاقه مع المسلمين ضد الرها وكان الملك بلدوين آنذاك يحاصر مدينة بيروت، ولم يتحرك إلا بعد أن استولى عليها، فأسرع بالمسير نحو الشمال، وصحبه برترام أمير طرابلس، وانضم إليه قرب سميساط، بعض زعماء الأرمن وعلى رأسهم كوغ باسيل، فوصل إلى الرها في آخر شهر ذي الحجة/أواخر شهر تموز، وظل الأتابك مودود يحاصر الرها مدة شهرين دون أن يتمكّن من اختراق استحكاماتها، فلما تراءى له جيش بيت المقدس، رفع الحصار عنها وتراجع إلى حّران وفق خطة عسكرية محكمة، وانضم إليه طغتكين أتابك دمشق [238] ، وقّرر الملك بلدوين مطاردة الجيوش الإسلامية، إلا أنه كان عليه أن يوحِّد كلمة الصليبيين قبل أن يقوم بهذا العمل، فاستدعى تانكْرد صاحب أنطاكية، ونجح في تحقيق المصالحة بينه وبين أمير الرها [239] ، وكان مودود قد أمعن في إنسحابه لاستدراج الصليبيين إلى مكان بعيد عن قاعدتهم، ثم تطويقهم بعد أن ينحرف فجأة إلى الشمال لكن عملية المطاردة توقفت فجأة، وانفرط عقد التحالف الصليبي، لأنه تظافرت عدة دوافع جعلت الصليبيين يتوقفون عن المطاردة ويتراجعون من المنطقة لعل من أهمها:

– لقد تلقّى الملك بلدوين تحذيراً مبكراً بخطة مودود، ففكّ الحصار عن قلعة شناو التي تقع إلى الشمال الغربي من حّران، كما تلقّى إنذاراً من بيت المقدس بتحرك فاطمي ضد بيروت، فقَّرر التخليَّ عن الحملة [240].

– راجت شائعات في الأوساط الصليبية، بأن رضوان صاحب حلب يستعد لمهاجمة أنطاكية في ظل غياب أميرها، فاضطر تانكرد إلى التخلي عن الحملة.

– وبناء على نصيحة الملك، بأن لا جدوى من محاولة حماية الجهات الواقعة شرقي نهر الفرات، أوعز بلدوين إلى السكان بالجلاء إلى الجهات الواقعة على الضفة اليمنى، واحتفظ بحاميات عسكرية، في حصن الرها

---

[236] المصدر نفسه ص 113، تاريخ الزنكيين في الموصل ص 69.

[237] نور الدين محمود، حسين مؤنس ص 123.

[238] ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص 271.

[239] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 70.

[240] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 70.

وسروج الكبيرين، وبعض القلاع الصغيرة، مع تدعيم الإمكانات الدفاعية لها. أما مودود فقد اكتفى بمهاجمة مؤخرة الصليبيين العابرين وعاد إلى الموصل (241).

ب- حملة مودود الثانية ضد الرها: جاءت الجولة الثانية بعد أقل من سنتين، إثر الاستنفار الذي دعا إليه وفد من أهالي حلب قدم إلى بغداد للدعوة إلى الجهاد، بعدما رأوا من تمادي رضوان في إذعانه للصليبيين، والهزائم المتتالية التي مُنِيَ بها مسلمو الشام والتي سقط على إثرها عدد من المواقع بأيدي الأعداء وقد استفز نداء الوفد الحلبي جماهير بغداد وفقهاءها، فقاموا بتظاهرة واسعة طالبوا المسؤولين خلالها خلفاء وسلاطين بضرورة إعلان الجهاد وتسيير الجيوش لوقف الزحف الصليبي، .. وقد أسرع الخليفة بإعلام السلطان السلجوقي بما جرى، وطلب منه الاهتمام بالأمر والإسراع بالاستجابة لنداءات المسلمين، فأصدر هذا أوامره على الفور إلى وإليه على الموصل الأمير مودود بتشكيل تحالف إسلامي جديد جاعلاً القيادة الأسمية لابنه الملك مسعود (242) ، واجتمع تحت قيادة مودود، حاكم الموصل، جميع حكام الأقاليم في دولة السلاجقة، سقمان القبطي صاحب خلاط (243)، وتبريز (244) ، وبعض ديار بكر، وإيلغازي الأرتقي الذي أناب عنه ابنه أياز، والأميران الكرديان أحمديل صاحب مراغة (245) ، وأبو الهيجاء صاحب إربل، فضلاً عن بعض أمراء فارس بزعامة الأميرين أيلنكي وزنكي التي بُرسُق أمير همذان (246) بدأت قوات التحالف عملياتها العسكرية في شهر محرم عام 505هـ شهر تموز عام 1111م بفتح عدة مواقع صليبية شرقي الفرات ثم اتجه أفرادها لحصار الرها، أثارت الحملة الذعر بين السكان، لكن في الحقيقة لم تغيَّر الموقف فيها، فقد أعيت المسلمين بسبب مناعتها وصمود أهلها، عندئذ رأى مودود أن يعبر الفرات لمهاجمة تل باشر (247) ، فتحولت قوات المسلمين إليها كي يجرّوا أعداءهم إلى عبور الفرات فيتمكنوا منهم إلا أن هذا كان خطأ من قادة المسلمين، لأن الصليبيين تمكنوا لدى عبورهم الفرات من نقل مقادير كبيرة من الميرة والأعتدة والأقوات

---

241 المصدر نفسه ص 70.

242 المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 115 نقلاً عن الكامل في التاريخ..

243 قصة أرمينية الوسطى.

244 تبريز : من أشهر مدن أذربيجان.

245 مراغة : أعظم وأشهر بلاد في أذربيجان.

246 ذيل تاريخ دمشق ص 278 - 279.

247 تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 73.

إلى الرها فقويت من بعد ضعف كاد يوقعها بأيدي المسلمين لو استمروا على حصارهم لها [248]. وما لبث جوسلين صاحب تل باشر، الذي تعرض لضغط القوات الإسلامية، أن تمكن من رشوة القائد الكردي أحمديل الذي كان الجزء الأكبر من قوات المسلمين بمعيته فانسحب متراجعاً بالرغم من معارضة سائر الأمراء [249]. ولم يمض وقت طويل حتى استنجد رضوان بمودود واستدعى قواته للقدوم إلى حلب كي يعملوا سوية من هناك ضد المواقع الصليبية، فغادر مردود تل باشر متجهةً إلى حلب على رأس قواته، وما أن ابتعدوا عن تل باشر حتى خرج إليهم جوسلين، على رأس قوة من فرسانه، وتمكن من مهاجمة مؤخرتهم، وقتل ما يقرب من ألف رجل منهم، وعاد إلى بلده مثقلاً بالغنائم ولم تكن دعوة رضوان لمودود صادقة، فلم تكد القوات الإسلامية تقترب من حلب حتى أقفل رضوان بوجهها الأبواب، واتخذ من إجراءات الحيطة لمنع المظاهرات أن أمر باعتقال عدد كبير من أعيان المدينة واتخذهم رهائن ولم يسع مودود إلا أن يتحّرك بجيشه جنوباً إلى شيزر بعد أن أغار على عدد من المواقع الصليبية في الشمال وفي شيزر اجتمع به طغتكين الذي كان قد توجه إلى بغداد طالباً المساعدة لاستعادة طرابلس، إلا أنه خاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الصليبيين سراً وأما تانكرد الذي عسكر أمام شيزر فإنه تراجع إلى أفامية، وأرسل إلى الملك بلدوين يستنجد به، فاستجاب له هذا وبعث إلى سائر الفرسان في الشرق الصليبي ليلحقوا به فانضم إليه عدد كبير منهم، كما قام تانكرد باستدعاء أتباعه من سائر جهات إنطاكية. وأما مودود فقد تحصن خلف أسوار شيزر قبل أن يكتمل حشد الصليبيين الذين بلغ عددهم نحو ستة عشر ألف مقاتل كان على رأسهم ملك بيت المقدس، وأمراء الرها وإنطاكية وطرابلس، ورفض مودود أن يجّروه أعداؤه إلى معركة حاسمة. إلا أن الأمور لم تجر على نحو طيب في جيشه، إذ إن طغتكين لم يشأ أن يبذل له المساعدة إلاَّ بعد أن تعهد مودود بالمضي في حملته إلى الجنوب لقتال الصليبيين في فلسطين رغم خطورة هذه المحاولة من الناحية العسكرية وأما برسق الكردي فأصابه المرض وأراد أن يعود إلى بلاده، ومات سقمان القطبي فجأة فانسحبت عساكره صوب الشمال حاملة جثمانه، وبادر أحمديل إلى الإنسحاب بعساكره محاولاً انتزاع جانب من ممتلكات سقمان ولم يعد يوسع مودود القيام بالهجوم نظراً لتناقض قواته يوماً بعد يوم كما أنه لم يكن راغباً في أن يقضي الشتاء بعيداً عن الموصل، فقفل عائداً إليها [250]. كان لتلك البوادر السيئة من قبل بعض الأمراء أثرها المباشر على إمكان تحقيق أي نصر حاسم ضد الصليبيين، كذلك الذي حققه جكرمش وسقمان في معركة البليخ. وقد أظهرت هذه الأحداث

---

[248] نهر الذهب للغزي (82/3).

[249] مرآة الزمان (8/35 – 36) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 116.

[250] مرآة الزمان (8/35 – 36) المقاومة الإسلامية عماد الدين ص 118.

مدى تفكُّك القيادات الإسلامية وعدم وحدتها، في الوقت الذي تجمعت فيه القوى الصليبية في شمالي الشام وجنوبه، وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعاً من الزعامة على سائر أمراء الصليبيين [251].

كانت سياسة رضوان في إمارة حلب شراً كلها، فقد هادن الإسماعيلية والصليبيين، وحالفهم ضد خصومهم من المسلمين، إذ انضم إلى صاحب أنطاكية الصليبي ضد صاحب الموصل جاولي عام 501هـ وعندما هاجم الأمير مودود صاحب الموصل أنطاكية وتل باشرن رفض رضوان مساعدته وأغلق مدينة حلب في وجهه بل تحالف مع "تنكرد" الصليبي صاحب أنطاكية ضد المجاهدين، وبقيت أبواب المدينة مغلقة سبع عشرة ليلة في وجه الجيش الإسلامي [252] ، ولم يحفظ له الصليبيون هذه المواقف فحاصروا حلب عام 504هـ واشتد الحصار، حتى أكل الناس الميتات وورق الشجر، وفرضوا على رضوان مبلغاً من المال كان يحمله إليهم سنوياً [253]، وحصل الإسماعيلية الباطنية الرافضية على مكانة مرموقة في حلب، بفضل تشيع رضوان لأرائهم، ومساعدته لهم، ومن ثم صار يستخدمهم في اغتيال خصومه السياسيين [254] ، وكان يميل إلى الفاطميين، فخطب للمستعلي في بلاده، ولوزيره الأفضل، ودامت الخطبة لها عامين في حلب وكان دميم السيرة، قرّب الباطنية، وعمل لهم دار دعوة في حلب فكثروا وهلك سنة 507هـ [255] ، وصفه المؤرخ أبو المحاسن فقال: كان شحيحاً بخيلاً قبيح السيرة، ليس في قلبه رحمة للرعية، وكانت الفرنج تغير وتسبي ... ولا يخرج إليهم [256] ، خلفه ابنه ألب أرسلان المعروف بالأخرس، فنكب الإسماعيلية وقتل زعيمهم أبا طاهر الصائغ، وبقية زعماء تلك الطائفة.

ج- حملة مودود الثالثة ضد الرها: ومع أن مودوداً وجد نفسه وحيداً في حركة الجهاد إلا أنه قام في شهر ذي القعدة 505هـ/شهر أيار 1112م، بمهاجمة الرها فجأة، وحاصرها لكن المدينة صمدت في وجه الحصار، فرأى عندئذ أن يترك حولها قوة عسكرية ويهاجم سروج في شهر محرم عام 506هـ/شهر تموز عام 1112م بوصفها المعقل الثاني للصليبيين شرقي الفرات. وبهذه الخطة العسكرية يكون مودود قد قسَّم قواته أضعفها متخلياً عن حذره في مواجهة الصليبيين، وكانت النتيجة أن لحق به جوسلين صاحب تل باشر

---

[251] المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 118.

[252] زبدة الحلب (159/2) الجهاد والتجديد ص 119.

[253] الكامل في التاريخ (544/8).

[254] الجهاد والتجديد ص 119.

[255] الكامل في التاريخ (552/8) سير أعلام النبلاء (315/19).

[256] النجوم الزاهرة (205/5).

وهزمه وقتل عدداً كبيراً من رجاله، فلم يسعه عند ذلك إلا التراجع نحو الرها، لكن جوسلين سبقه إليها لمساعدة بلدوين دي بورج في الدفاع عنها، وفي الوقت الذي كانت تدور فيه هذه الأحداث، تآمر الأرمن في الرها ضد بلدوين، واتصلوا بمودود ليخلصّهم من حكم الصليبيين، وجرى الاتفاق على أن يساعدوه في الاستيلاء على قلعة تسيطر على القطاع الشرقي من المدينة، مما يمكنّه بعد ذلك من الاستيلاء على بقية المدينة بسهولة، لكن وصول جوسلين السريع حال دون تنفيذ الاتفاق ورُدَّ المسلمون على أعقابهم، فلم يتمكنوا من انتزاع المدينة من أيدي الصليبيين [257].

س- حملة مودود ضد إمارة بيت المقدس : معركة الصنبرة [258] **:** ظل مودود متمسكاً بفكرة جهاد الصليبيين، وهي المهمة التي عهد إليه بها السلطان محمد السلجوقي، بوصفه ممثله في إقليم الجزيرة وبلاد الشام، فتحرك في مطلع عام 507هـ/شهر حزيران عام 1113م على رأس تحالف إسلامي لقتال الصليبيين في بيت المقدس بناءً على استنجاد طغتكين أتابك دمشق به، بعد أن تعرضت إمارته لهجمات شديدة من صليبي بيت المقدس، الذين نفذوا من وادي التيم إلى البقاع، ووصلوا إلى بعلبك، انضم : تميرك صاحب سنجار، وأياز بن إيلغازي أمير ماردين إلى هذا التحالف [259] وكان هدف المسلمين منقطة فلسطين. فنجحوا في استدراج الملك بلدوين إلى أراضي دمشق حتى جسر الصنبرة، الواقع في المجرى الأعلى لنهر الأردن وفي الثالث عشر من شهر محرم حدث اللقاء الذي انتهى بانتصار المسلمين، ونزلت بالصليبيين هزيمة ساحقة، فارتد ملك بيت المقدس إلى طبرية [260] ، ولم يلبث أن وصل لنجدته روجر أمير أنطاكية، وبونز أمير طرابلس، في حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته كانت بحاجة إلى حماية دائمة [261] ، ومضى المسلمون في زحفهم، بعد المعركة، حتى بلغوا طبرية، غير أنهم لم يغامروا بمواجهة التحالف الصليبي، وبخاصة أنه دخل فصل الشتاء، فقرروا الإنسحاب إلى دمشق [262]. وكان ذلك أول مرة تتعاون الموصل ودمشق في حرب الصليبيين في مملكة بيت المقدس وتكمن أهمية الأتابك مودود في أنه : أعاد للمسلمين

---

[257] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 76.

[258] الصنبرة : موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال.

[259] الكامل في التاريخ (550/8).

[260] المصدر نفسه (550/8).

[261] ذيل تاريخ دمشق ص 294 - 297.

[262] المصدر نفسه ص 297.

الثقة بأنفسهم، فتحولوا من الدفاع إلى الهجوم في علاقاتهم مع الصليبيين وبلور فكرة الاتحاد بين المسلمين، وأعطاها بُعداً سياسياً وعسكريا، فأضحى أمراؤهم على استعداد للتعاون المثمر بنوايا صادقة (263).

ر– مقتل مودود : سيَّر مودود وحليفه رسولاً إلى السلطان السلجوقي في أصفهان يبشرانه بما تمّ على أيديهما من فتح وبعثوا مع الرسول بعض ما غنموه، وعدداً من أسرى الفرنج ورؤوسهم إلا أن بعُد المسلمين عن بلادهم، وإنقطاع الإمداد والتموين عنهم، واشتداد البرد عليهم، واضطرهم إلى وقف عملياتهم في المنطقة والعودة إلى دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول على أمل الرجوع ثانية لقتال الصليبيين عن حلول الربيع، وبعد أن يتلقى مودود جواب السلطان على رسالته، والتعليمات التي سيصدرها لهذا الصدد (264) ودخل جامع دمشق يوم الجمعة في ربيع الأول، ليصلي فيه، وطغتكين، فلما فرغوا من الصلاة وخرج إلى صحن الجامع ويده في يد طغتكين، وثب عليه باطني فضربه فجرحه أربع جراحات وقتل الباطني، وأخذ رأسه، فلم يعرفه أحد فأحرق، وكان مودود صائماً، فحمل إلى دار طغتكين، واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال: لا لقيت الله إلا صائماً، فمات من يومه رحمه الله (265) ، وتأثر المسلمون لمصرع بطل من كبار أبطال الجهاد، واشتهر بإخلاصه وتفانيه وجرأته، وحزنوا حزناً عميقاً لاختفائه السريع، بعد الانتصار العظيم الذي حققه مع حليفه في قلب البلاد الصليبية، وقد عبرت جماهير دمشق عن حزنها وغضبها، حيث شهدت المدينة اضطرابا لم تشهد له مثيلاً منذ فترات بعيدة، ولم يهدئ من روع الناس سوى أملهم بنجاة القائد من الجراح التي أثخنته، لكنهم ما أن سمعوا نبأ استشهاده بعد ساعات قلائل، حتى عادوا – ثانية – إلى ما كانوا عليه (266) ، وكتب ملك الفرنج في بيت المقدس كتاباً إلى طغتكين جاء فيه : إن أمة قتلت عميدها، يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها (267) !! غير أن ملك الفرنج وغيره من أمراء الصليبيين تجاهلوا أو تعمدو التجاهل آنذاك، إن ما هو أكثر عونالهم وأشد خطراً على كل محاولة إسلامية لقتالهم، ليست هي الأمة التي ظنوا أنها قتلت عميدها في بيت معبودها. فقد عرفنا موقف هذه الأمة من مقتل بطلها المجاهد، إنما هي تلك الفرقة الباطنية الرافضية الحاقدة – التي قامت على مذهب جديد، شديد الميل إلى التدمير كان قد أنشأة في بلاد فارس، شخص يدعى الحسن بن الصباح وقد تحدثنا عنه وقد دعمته الدولة

263تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 77.

264المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 122.

265الكامل في التاريخ (551/8).

266تاريخ دمشق لابن القلانسي ص 187 - 188.

267الكامل في التاريخ (551/8).

الفاطمية الرافضية الباطنية ولم تكن كراهية الحشاشين هؤلاء للمسيحيين تزيد على بغضهم للمسلمين السنيين [268] ، وما نشاهده اليوم خير دليل على ذلك.

ك- ما ترتب على حملات بطل الإسلام مودود من نتائج:

وعلى الرغم من الإخفاق الذي حل بحملات بطل الإسلام مودود إلا أنها تمخضت عن عدد من النتائج المهمة في مسار تاريخ حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ويمكن إجمالها في الآتي:

- إن إمارة مودود – على قصر مدتها – تعد نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي – الصليبي خلال تلك المرحلة المبكرة، فقد صارت فكرة الجهاد حقيقة واقعة [269] ، ووجدت فارسها المخلص الذي حمل لواءها ما يقرب من نصف المدة التي تولى فيها أمر إمارة الموصل [270].
- يمكن اعتبار حملات مودود مقدمة لحملات عماد الدين زنكي مع عدم إغفال الفارق الزمني في صورة الثلاثة عقود الفاصلة بين إنجاز كل منهما والتي أدت إلى سقوط إمارة الرها الصليبية عام 1144م/539هـ حيث أن مودود وجه حملاته الأولى إلى الرها وتل باشر، وعمل على إرهاق أهلها على نحو نصفه بأنه المقدمة الأولى لجهود زنكي ضدها، على اعتبار أن قافلة الجهاد متصلة قائداً من بعد قائد.
- كشفت حملات مودود عن الضعف الذي كانت عليه القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة وعدم إخلاص بعضها لقضية الجهاد ضد الغزاة الصليبيين [271].

وعلى الرغم من الدور الرائد الذي قام به مودود؛ إلا أننا نجد البعض يرى أن عماد الدين زنكي هو الذي وضع أساس حركة الجهاد ضد الصليبيين [272] ، وفي هذا أجحاف بدور تلك القيادة السلجوقية وواقع الأمر: أن المؤرخين الذين أرخوا لتلك المرحلة من تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي انبهروا بحجم الإنجاز الكبير الذي قام به عماد الدين زنكي من حيث إسقاط أول إمارة صليبية أقيمت في المنطقة، فتصوروا أن المراحل السابقة عليه ليست قيمة كبيرة على الرغم من أنها كانت الممهدة الحقيقية لإنجاز عام 1144م/539هـ ولا

---

[268] المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 124.
[269] شرف الدين مودود ص 150 عبد الغني رمضان.
[270] الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص 156.
[271] المصدر نفسه ص 156.
[272] المصدر نفسه ص 157.

نغفل أيضاً أن الدعاية السياسية الناجحة والفعالة التي قدمها المؤرخ العراقي الفذ ابن الأثير من خلال كتابه الباهر لمؤسس البيت الزنكي قد جعلت المؤرخين يتأثرون بها بصورة أو بأخرى، على نحو جعل سقوط عماد الدين زنكي في مثل ذلك – الموقف – من حيث تقويم دورهم التاريخي، ويكفي مودود فخراً أنه نجح في ضرب الوجود الصليبي في الجليل، وهي منطقة لم تصل إليها فعاليات المسلمين منذ قرابة عقدين من الزمان، ويكفيه أنه الحق الهزيمة بمؤسس مملكة بيت المقدس الصليبي، ونستطيع أن نصل إلى رؤية محددة من خلال أن قادة الجهاد الإسلامي كل يكمل الآخر، ولاخصومه بينهم، وما قام به مودود أفاد – فيما بعد – القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي، ولذا فبالإمكان القول، اليوم الصنبرة وغداً حطين؛ وهذا ما اثبته السياق العام لتاريخ تلك المنطقة في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي [273] وعلى أية حال عند مقارنة جهد مودود بسابقيه في صورة كربوغا، وجكرمش، وجاولي سقاوة سيتضح لنا أنها أدوار متدرجة ومتصارعة، فكربوغا انحصر أمره في نجدة إنطاكية وجكرمش زاد الأمر من خلال تحالفه مع سقمان بن أرتق على نحو أدى إلى الانتصار في معركة حران 498هـ/1104م أما مودود فإن دوره أكثر تعاظماً على نحو أدى إلى هزيمة الصليبيين في معركة الصنبرة عام 507هـ/1113م، وهو أمر يثبت لنا أنه خلال نحو تسعة أعوام فقط تم الحاق هزيمتين كبيرتين بالصليبيين، غير أن العقبة القائمة تمثلت في عدم الإفادة من كل من الانتصارين في اجتياح مناطق الأعداء، وتحقيق انتصار سريع خاطف يصعب على الصليبيين تعويض خسائرهم من جرانه غير أن بقايا ظاهرة التشرذم السياسي، والتباغض بين القيادات الإسلامية كان عائقاً دون تحقيق ذلك [274].

6- نجم الدين ايلغازي صاحب ماردين : ارتبطت حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ارتباطا شديداً بزعماء الموصل الذين كانوا تحت طاعة السلاجقة وأدت وفاة السلطان محمد بن ملكشاة سنة 512هـ/1117م إلى ازدياد تدهور أحوال السلاجقة في العراق، فسعى السلطان محمود بن محمد ملكشاه إلى استدعاء آقسنقر من الموصل لتوليته شحنكية بغداد [275] الأمر الذي أفقد الموصل مكانتها القيادية في بعث حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين مؤقتاً، وانتقال هذه القيادة إلى نجم الدين ايلغازي صاحب ماردين، واستهل ايلغازي أعماله بالاستيلاء على حلب سنة 511هـ/1117م، لاهميتها بالنسبة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الصليبيين وذلك لما كانت تتمتع به مركز استراتيجي حيوي من النواحي

---

[273] الحروب الصليبيية العلاقات بين الشرق والغرب ص 157.

[274] المصدر نفسه ص 158.

[275] الوافي بالوفيات (310/9) النجوم الزاهرة (214/5).

البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية، وكانت حلب تقع بين إمارتين صليبيتين هما الرها وأنطاكية، وفي نفس الوقت يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة في منطقة الجزيرة. لذا كان الاستيلاء عليها بمثابة فتح الطريق لقيادة حركة الجهاد، وذلك ما حدث فعلاً بالنسبة لنجم الدين ايلغازي وابن أخيه بلك بن بهرام ومن بعدهما آقسنقر البرسقي وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود فيما بعد [276] . وأما عن تفاصيل استيلاء نجم الدين ايلغازي على حلب سنة 511هـ/1117م فقد تجدد بها من الحوادث ما أطمع الصليبيين في الاستيلاء عليها حيث بلغت حداً من الضعف والضائقة الاقتصادية مما أعجز أهلها عن تقديم القوت لدوابهم ولكن خوف أهلها من أنه تسقط بيد الصليبيين قد أجبرهم على استدعاء نجم الدين إيلغازي وتسليمه حلب في السنة المذكورة، واستهل إيلغازي أعماله بحلب بفرض سيطرته على بعض المواقع التابعة لها كبالنس، ومصادرة بعض رجال حلب للحصول منهم على مال يهادن به الصليبيين، فاستوجش منه أهل حلب وجندها – على حد قول ابن العديم – مما اضطره إلى مغادرتها إلى ماردين بعد أن استخلف على حلب ابنه حسام الدين تمرتاش واستغل الجند المقيمون في بالس موجة الغلاء التي مروا بها في نفس السنة 511هـ/1117م، فأرسلوا إلى الصليبيين ليسلموها إليهم فاضطر إيلغازي إلى العودة على رأس قوة من التركمان إلى حلب، فلما شعر الصليبيون بالخطر، انسحبوا عنها فتسلمها إيلغازي للمرة الثانية، وعاد إلى ماردين بعد أن عقد معهم هدنة بعدم اعتداء أي منهما على ممتلكات الطرف الآخر[277].

- **نقض الصليبيين للهدنة:** ولكن الصليبيين وجدوا الفرصة سانحة بعد خروج إيلغازي واغاروا على عزاز وشددوا لحصار عليها حتى اضطر من بها من المسلمين إلى التسليم، واضطر أهل حلب إلى مراسلة الصليبيين وطلبوا منهم التمسك بالهدنة التي كان قد عقدها معهم إيلغازي وأن يسلموهم أي أهل حلب تل هراق ويؤدون لهم القطيعة المقررة على حلب عن أربعة أشهر ومقدارها ألف دينار ويكون لهم من حلب شمالاً وغربا [278]. وغضب نجم الدين ايلغازي لما وصلت إليه أخبار حلب، ولكنه لم يستطع العودة إليها وانقاذها مما هي فيه لقلة عساكرها فاتجه إلى شرق منطقة الجزيرة بقصد جمع العساكر في الوقت الذي أبلغ فيه ظهير الدين طغتكين عن رغبته في الاجتماع به سنة 512هـ/1118م واجتمعا على قلعة دوسر بهدف القيام بدفع الصليبيين عن حلب ولكن ذلك لم يتسير لهما، الأمر الذي دفع الصليبيين إلى

---

[276] الإمارات الإرتقية في بلاد الشام والجزيرة ص 234 - 235.

[277] زبدة الحلب (180/2) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 125.

[278] زبدة حلب (185/2 – 186).

أحكام السيطرة على مداخل حلب بعد أن استولوا على بزاغة فتردت الأحوال بحلب حتى بلغت حد التلف على حد قول ابن العديم [279] ، ولم يجد أهل حلب بدا من الاستعانة بالخلافة العباسية والدولة السلجوقية في بغداد، إلا أنهم لم يغاثوا نظراً لإنشغال السلاجقة بالمنازعات الأسرية فيما بينهم من جهة وضعف الخلافة العباسية من جهة أخرى.

- **إعلان النفير ضد الصليبيين:** لم يتيسر لنجم الدين ايلغازي لقاء الصليبيين فقد فارق طغتكين وعاد إلى ماردين لجمع العساكر تمهيداً للعودة للجهاد والالتقاء مع الصليبيين في معركة حاسمة [280] وفي ماردين حشد نجم الدين ايلغازي ما يزيد على عشرين ألفا من التركمان [281] . بقصد قتال الصليبيين الذين ضيقوا على حلب حتى كادت أن تعدم القوت. وأرسل ايلغازي رسله إلى بغداد لإعلان النفير ضد الصليبيين وإعلام الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه بما فعله الصليبيون بالديار الجزرية وإنهم ملكوا قلعة عند الرها وقتلوا صاحبها بن عطير [282] وكان نجم الدين ايلغازي قد تواعد مع ظهير الدين طغتكين في سنة 512هـ/1118م على ملاقاة الصليبيين في شهر صفر من السنة التالية 513هـ/1119م بالشام. وتوجه ايلغازي قبل الموعد المحدد إلى الرها وشدد عليها الحصار، مما اضطر من بها من الصليبيين إلى مصالحته لقاء تنازلهم عن الأسرى المسلمين الموجدين بها فأجابهم ايلغازي وشرط عليهم عدم التوجه لمساعدة أمير انطاكية في حالة حدوث قتل معه فأجابوه من عزل إحدى قوى الصليبيين عن مديد العون للقوى الأخرى وهذا دليل واضح على ضعف رضوخ الصليبيين في منطقة الجزيرة إلى مطالب الأمراء المسلمين[283].
- **معركة ساحة الدم:** وبعد أن أطمأن ايلغازي إلى أنه لن يتعرض إلى طعنة الصليبيين من الخلف توجه إلى بلاد الشام وقد انضم إليه أسامة بن المبارك بن شبل الكلابي والأمير طغان أرسلان صاحب بدليس وارزن، وواصل سيره حتى بلغ قريباً من الاثارب بأرض سرمدا في ربيع الأول سنة 513هـ/1119م وهناك انتظر وصول ظهير الدين طغتكين، وكان الصليبيون بقيادة روجر صاحب أنطاكية قد نزلوا بتل عقرين وشرعوا في بناء حصن لهم هناك ولم يدر بخلدهم أن نجم الدين ايلغازي سيباغتهم هناك لضيق الطريق، تم لتوهمهم أن المسلمين سينالون الإثارب أوزوردنا، حتى أن الغرور قد أصابهم لاعتقادهم بحصانة موقعهم،

---

[279] المصدر نفسه (186/2).

[280] المصدر نفسه (186/2).

[281] المصدر نفسه (187/2 -190).

[282] الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 153.

[283] الإمارات الأرتقية في بلاد الشام والجزيرة، عماد الدين خليل ص 241.

فأرسلوا إلى ايلغازي يقولون له: لا تتعب نفسك بالمسير إلينا فنحن واصلون إليك [284] . ولما طال انتظار ايلغازي لوصول حليفه، لبى رغبة الأمراء الذين كانوا معه في التعجيل بمباغتة الصليبيين، فما شعر الصليبيون إلا ورايات المسلمين قد اقبلوا وأحاطوا بهم من كل جانب، وذلك يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول من السنة 513هـ/1119م. وخرج قاضي حلب أبو الفضل بن الخشاب وخطب في المسلمين خطبة بليغة استنهض فيها عزائم المسلمين على الجهاد، فحمل المسلمون على الصليبيين حملة واحدة من جميع الجهات فكانت السهام على الصليبيين كالجراد في الوقت الذي أخذتهم السيوف من سائر نواحيهم، فلم يفلت منهم غير يسير بينما كان الباقون بين قتيل وجريح وكان ضمن القتلى روجر صاحب أنطاكية الذي كان قد تعجل لقاء المسلمين قبل وصول قوات بيت المقدس وطرابلس وغيرها ووقع في الأسر نيفا وسبعين من فرسان الصليبيين ومقدميهم، وحاولوا أن يفتدوا نفوسهم بمبلغ ثلاثمائة ألف دينار فلم يقبل منهم نجم الدين ايلغازي بل أمر بقتلهم جميعاً [285] ، وقد عرفت هذه الوقعة عند المؤرخين اللاتينيين، ومن نقل عنهم من المؤرخين المحدثين باسم ساحة الدم لكثرة ما قتل فيها من الصليبيين والتي لم يقتل فيها من المسلمين سوى العدد القليل [286].

- **الابعاد التي حققها الانتصار على الصليبيين في معركة ساحة الدم:** إن أهمية ما حل بالصليبيين لم يقف عند حد النصر العسكري الذي حققه نجم الدين ايلغازي عليهم، بل تعداه إلى أنه قد صاحب هذا النصر قيام جبهة إسلامية متحدة من الأمراء المسلمين في الشام والجزيرة إضافة إلى إنها جعلت حلب في منأى عن أخطار الصليبيين خصوصاً بعد استيلاء نجم الدين ايلغازي على حصن قريب من الإثارب في السنة نفسها فضلاً عن إنها كانت كارثة فادحة حرمت أنطاكية من زعيمها روجر وجيشها مما جعل السريان والأرمن بأنطاكية يتشككون في موقعهم إلى جانب الصليبيين وهذا على ما يبدو ما دفعهم إلى التآمر للخاص من الصليبيين الغربيين فيما بعد [287]، وذكر ابن العديم أن نجم الدين ايلغازي نزل بعد انتهاء المعركة إلى خيمة روجر ليسلم إليه المسلمون الغنائم التي حصلوا عليها ولكنه رد جميع الغنائم إلى المقاتلين ولم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه لملوك الإسلام ليبعث في نفوسهم حب الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين [288] واستطاع ايلغازي أن يحقق سلسلة من الانتصارات في شمال الشام هيأت

---

[284] زبدة الحلب (190/2) الجهاد ضد الصليبيين ص 154.

[285] الجهاد ضد الصليبيين ص 154 نقلاً عن الكامل في التاريخ.

[286] الشرق الأوسط والحروب الصليبية (473/1) الإمارات الأرتقية ص 242.

[287] الاعتبار ص 40،41، الحركة الصليبية (492/1).

[288] زبدة الحلب (190/2) الجهاد ضد الصليبيين ص 155.

للمسلمين جوا من الهدوء والاستقرار. فقد استطاع المسلمون أن يلحقوا بالنجدة الصليبية التي أتت بزعامة بلدوين ملك بيت المقدس لنجدة روجر صاحب إنطاكية هزيمة ساحقة [289] ، ولم يكتف نجم الدين ايلغازي بهذا بل اجتمع في ارتاح بحليفه طغتكين واتفقا على مهاجمة الإثارب وزردنا، فاستطاعا الاستيلاء عليهما من الصليبيين، ثم سار ايلغازي إلى دانيت بنفر قليل من المسلمين والتقى ببلدوين ملك بيت المقدس وروبرت صاحب زردنا ودارت بين الطرفين معركة في جمادى الأولى من السنة 513هـ/1119م أسفرت عن انتصار نجم الدين ايلغازي وهزيمة الصليبيين الذين احتموا بحصن هاب بعد مطاردة نجم الدين لهم [290]. ثم عاد نجم الدين ايلغازي إلى حلب بينما التقى رجاله في طريق عودتهم بصاحب زردنا روبرت الأبرص وبصحبته قوة من الصليبيين، فهاجمتهم قوة ايلغازي مما اضطر من سلم من الصليبيين إلى العودة إلى حصن هاب، في الوقت الذي وقع فيه الابرص اسيراً في أيدي المسلمين فحملوه إلى ايلغازي بحلب، وأنفذه بدوره إلى طغتكين بدمشق حيث قتله صبراً [291] ، وفي أواخر جمادى الأولى سنة 513هـ/1119م غادر ايلغازي حلب إلى ماردين بسبب الضائقة المالية التي مر بها إضافة إلى أن حلب كانت من الضعف بحيث جعلته لا يستطيع البقاء فيها [292].

- **حصار إنطاكية وعقد الهدنة مع ملك بيت الملك:** وبالرغم من انشغال نجم الدين ايلغازي ببعض الأمور الإدارية في ماردين، فقد جمع جيشاً من التركمان عبر بهم الفرات إلى بلاد الشام في سنة 514هـ/1120م واجتمع بطغتكين وسارا إلى أنطاكية حيث ضرب عليها حصاراً، فلم يتمكنا منها، فد خلا إلى قنسرين، وحاصراها يوماً وليلة، ولم ينالا منها شيئاً، وعندها أشار ظهير الدين طغتكين على صاحبه برفع الحصار عنها وأن يعود كل منهما إلى بلده، فقبل نجم الدين ايلغازي مشورة صاحبه، وعاد إلى حلب بعد أن أدرك ما عليه الصليبيون من القوة، وتفرق عساكره من التركمان واضطر ايلغازي إلى عقد هدنة مع ملك بيت المقدس بلدوين الثاني على أن يكون للصليبيين المعرة وكفر طاب والبارة وضياع من جبل السماق، وعلى أن يكون أمد هذه الهدنة نهاية السنة [293].

- **نقض الهدنة:** لم يتقيد الصليبيون بهذه المعاهدة، فقد أغار جوسلين صاحب تل باشر في السنة نفسها 514هـ/1120م على بعض البلاد التابعة لحلب، مما اضطر أهل حلب إلى إرسال احتجاج شديد

---

[289] الجهاد ضد الصليبيين ص 155.

[290] زبدة الحلب (190/2) الجهاد ضد الصليبيين ص 156.

[291] تاريخ الحروب الصليبية (245/2).

[292] الجهاد ضد الصليبيين ص 156.

[293] المصدر نفسه ص 156.

اللهجة إلى بلدوين الثاني ملك بيت المقدس يخبرونه فيه باعتداءات جوسلين على المسلمين، ولكنه رد عليهم بقوله: مالي على جوسلين يد (294) . ولم يقف الصليبيون عند هذا الحد بل أغار الصليبيون بأنطاكية على بلد شيزر وأسروا جماعة من المسلمين وطالبوا أمير شيزر العربي أبو العساكر سلطان بن منقذ ببعض المطالب التعسفية مما اضطره إلى مصالحتهم على مال يدفعه إليهم (295) . وبالإضافة إلى ذلك فقد استغل الصليبيون فرصة خلو حلب من ايلغازي فشنوا في صفر من سنة 515هـ/1121م هجوماً على الإثارب واحرقوا ما بها من الدور والغلال وسار بلدوين الثاني وأغاز على حلب نفسها، وفرض عليها حصاراً شديداً أدى إلى وقوع خمسين أسيراً من أهلها في يده ونجح الحلبيون في استنقاذ اخوانهم وأجبروه على التراجع عنها إلى أنطاكية (296) وعلى ما يبدو فإن نجم الدين ايلغازي قد اضطر إلى البقاء في ماردين بعض الوقت مما دعاه إلى مراسلة ولده سليمان بن ايلغازي النائب عنه في حلب يأمره بعقد صلح مع الصليبيين، حصل الصليبيون بموجبه على سرمين وبلدة ليلون وبعض الجهات الزراعية المحيطة بحلب، والإثارب (297).

- **تمرد سليمان بن ايلغازي على أبيه:** وعلى الرغم من أن الصلح الذي عقده سليمان بن ايلغازي مع الصليبيين لم يكن في صالح المسلمين، فإن سليمان بن ايلغازي لم يسع إلى علاج ما استجد بحلب من الفوضى والاضطراب، بل أعلن عصيانه على والده وأعلن استقلاله بحلب، وقد شجعت هذه الخطوة من قِبل سليمان بن ايلغازي الصليبيين على مضايقة حلب والاستيلاء على بعض المواقع المحيطة بها في جمادى الآخرة من سنة 515هـ/1121م، ومطالبة صاحبها سليمان بالتنازل عن الإثارب لبلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ولكن سكان الإثارب من المسلمين رفضوا الخضوع للصليبيين الأمر الذي أجبر بلدوين على التراجع إلى إنطاكية ومنها إلى بيت المقدس (298).

- **القضاء على التمرد:** وأما نجم الدين ايلغازي، فإنه ما أن سمع بعصيان ابنه بحلب حتى قدم إليها على وجه السرعة، فعاقب من كان وارء عصيان ابنه، فلما رأى سليمان باعوانه من عقاب شديد خاف على

---

294 المصدر نفسه ص 157،156.

295 المصدر نفسه ص 157.

296 زبدة الحلب (199/2) الجهاد ضد الصليبيين ص 157.

297 زبدة الحلب (199-205/2) الجهاد وضد الصليبيين ص 157.

298 المصدر نفسه.

نفسه وهرب إلى دمشق وطلب من صاحبها طغتكين حق اللجوء، ولما تم لايلغازي القضاء على الفتنة بحلب استناب بها ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبدالجبار بن أرتق، وعقد هدنة جديدة مع الصليبيين لمدة سنة كاملة، وكان هدف ايلغازي من عقد تلك الهدنة مع الصليبيين هو كسب الوقت حتى يتمكن من العودة إلى ديار بكر وحشد ما يمكن حشده من قوات ليعيد الكرة على الصليبيين، إضافة إلى خوفه من قيام الصليبيين بغارة على حلب فلا يستطيع ابن أخيه صدهم (299) ، وفي ماردين استطاع نجم الدين ايلغازي أن يحشد أكبر عدد من التركمان ثم سار بهم إلى بلاد الشام في شهر ربيع الآخر سنة 516هـ/1122م، مستغلاً في ذلك الشقاق الذي حصل بين بلدوين ملك بيت المقدس ويونز صاحب طرابلس، ولكن نجم الدين ايلغازي لم يستطيع أن يحقق نصراً حاسماً على الصليبيين، وبالرغم من انضمام بلك بن بهرام بن أرتق وظهير الدين طغتكين إلى جانبه غير أنه لم يمكن الصليبيين بأن يمدوا نفوذهم وسيطرتهم على حلب (300) .

- **وفاة ايلغازي وأثر ذلك على المسلمين:** في شهر رمضان من سنة 516هـ/1122م أحس ايلغازي بتدهور صحته فعاد إلى ميا فارقين حيث وافته منيته هناك، وبقدر ما كانت وفاة نجم الدين ايلغازي خسارة فادحة للمسلمين في بلاد الشام والجزيرة عامة فإن المصيبة كانت أعظم على أهل حلب الذين عظمت عليهم وفاته، لأن نجم الدين ايلغازي كان قد قطع أمل زعماء الصليبيين في الاستيلاء عليها، ولم تقف أهمية وفاة نجم الدين إيلغازي إلى هذا الحد، بل أدت إلى أن إمارته قد تفككت وقسمت بين أولاده حسام الدين تمرتاش الذي حصل على ماردين، وابنه سليمان الذي حصل على ميا فارقين، بينما بقيت حلب من نصيب ابن أخيه سليمان بن عبدالجبار بن أرتق، واحتفظ بلك بن بهرام بن ارتق بقلعة خرتبرت وضم إليهم حران فيما بعد (301) ، ويضاف إلى ذلك أن حلب التي كانت تعتمد على عساكر التركمان الذين كان يحشدهم ايلغازي من شمال الجزيرة قد افتقرت هذا العنصر البشري الذي رجح كفة المسلمين على الصليبيين في عهد إيلغازي مما جعلها عرضة لغارات الصليبيين، وضعف مركز صاحبها سليمان عبدالجبار بن أرتق عن دفع الصليبيين الذين استغلوا وفاة نجم الدين وأغاروا بقيادة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس على بزاعة وبالس على نهر الفرات، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل استطاع الملك الصليبي الاستيلاء على قلعة البيرة، حتى أصبحت حلب محاطة بالصليبيين من جميع الجهات، مما حتم على

---

[299] الإمارات الارتقية ص 60.

[300] زبدة الحلب (205/2) الجهاد ضد الصليبيين ص 158.

[301] الشرق الأوسط والحروب الصليبية (480/1 – 481) للعريني .

سليمان بن عبدالجبار أن يعقد مع الصليبيين صلحاً سنة 517هـ/1123م تنازل بموجبه لهم عن حصن الأثارب [302].

7- بلك بن بهرام بن أرتق: بلك بن بهرام صاحب قلعة (خرتبرت) استلم راية الجهاد بعد عمه "إيليغازي – صاحب ماردين" كان خصماً عنيداً للصليبيين وكان يتطلع للقضاء عليهم لا في منطقة الجزيرة فقط بل وفي بلاد الشام وقد استهل أعماله العسكرية أثناء مرض عمه نجم الدين إيلغازي في رجب سنة 516هـ/1122م بحصار الرها، ولكنه لم يستطيع النيل منها بعد فترة طويلة من الحصار، مما اضطره إلى الإنسحاب عنها، لذا رأى الصليبيون الذين بالرها أنه لابد من الاستعانة بجوسلين صاحب الأطماع الكثيرة وخصم المسلمين العنيد، الذي كان وقتذاك مع بلدوين ملك بيت المقدس بالبيرة مستغلين في ذلك تفرق عساكر بلك بن بهرام بن ارتق عقب عودته من الرها، إلا أن بلك بن بهرام استطاع أن ينصب لجوسلين ومن معه من الصليبيين كميناً عند سروج بأرض موحلة ومشبعة بمياه الأمطار فلم تتمكن خيولهم من الإسراع بسبب هذا الوحل، في الوقت الذي سلط عليهم بلك ورجاله الذين لا يتجاوز عددهم أربعمائة فارس وابلاً من السهام فلم يفلت منهم إلا القليل، وأسر جوسلين وابن خالته جاليران صاحب البيرة في سنة 516هـ/1122م. وقد ترتب على هذا الانتصار الذي حققه بلك بن بهرام على الصليبيين ضياع قوة الصليبيين المعنوية في بلاد الشام وازدياد حماسة المسلمين وتطلعهم إلى الوثوب على الصليبيين من كل ناحية [303] ، وحاول بلك بن بهرام بن ارتق أن يحصل من جوسلين ومن معه من الصليبيين الذين وقعوا في الأسر على تنازل منهم على الرها، مقابل إطلاق سراحهم ولكنهم رفضوا قائلين: نحن والبلاد كالجمال، متى عقر جمل حول رحله إلى آخر والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا [304] عندها حمل بلك بن بهرام أسراه إلى قلعة خرتبرت ووكل بهم من يحرسهم وتوجه سنة 517هـ/1123م إلى حصن كركر التابع لإمارة الرها بقصد الاستيلاء عليه[305] ، وأدرك بلدوين ملك بيت المقدس الذي أصبح وصياً على الرها مضافاً إلى وصايته على إنطاكية أن من واجبه التحرك لتخليص جوسلين من الأسر ومنع كركر من السقوط بيد بلك بن بهرام وافهام المسلمين بأن قوة الصليبين لا زالت قوية باطشة وخرج بلدوين على رأس جيشه حتى وصل عند الضفة الشرقية لنهر سنجه أحد روافد الفرات تجاه معسكر بلك بن بهرام الذي كان قد رفع الحصار عن كركر وعاد

---

[302] الكامل في التاريخ (632/8).

[303] نور الدين محمود والصليبييون حسن حبشي ص 20.

[304] الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 160 .

[305] زبدة الحلب (206/2) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 160.

لمواجهة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ودار القتال بين الطرفين في التاسع عشر من شهر صفر سنة 517هـ/1123م، انهزم الصليبيون بالرغم من قلة قوات المسلمين، ولم تقف أهمية الوقعة عند حد انتصار بلك بن بهرام بل تعدته إلى أن بلدوين ملك بيت المقدس قد وقع في أسر بلك في بن بهرام بالإضافة إلى استيلائه على حصن كركر، وحمل بلك أسيره الجديد إلى خرتبرت وضمه إلى جوسلين ومن معه من زعماء الصليبيين وفرسانهم [306] . وهكذا خلت إمارات الصليبيين، الرها، وإنطاكية، ومملكة بيت المقدس من زعمائها الذابين عنها، مما أدى إلى اضطراب وضع الصليبيين في الجزيرة وبلاد الشام ولكن القوى الإسلامية في بلاد الشام لم تستطع وقتذاك أن تهتبل هذه الفرصة والانقضاض على إماراتهم والقضاء على شأفة الصليبيين [307].

•**محاصرة الصليبيين لحلب:** أما بلك بن بهرام بن أرتق فإنه بعد أن جمع أسراه في قلعة خرتبرت توجه إلى حران للاستيلاء عليها في ربيع الأول من سنة 517هـ/1123م، بهدف التقوي بها، فتم له ذلك وكان بلك بن بهرام يطمع في الاستيلاء على حلب من سليمان بن عبدالجبار عقب استيلائه على حران لأنه كان يدرك أهمية حلب الاستراتيجية، وأنه لن يحقق آية نتيجة حاسمة على الصليبيين مالم يضم حلب إلى إمارته كي تكون له قاعدة في بلاد الشام، يستطيع من خلالها التحرك في ميدان فسيح، وليتفرغ لقتال الصليبيين [308] ، لذلك فرض بلك بن بهرام على حلب الحصار حتى اضطر من بها إلى تسليمها إليه في صباح يوم الثلاثاء غرة جمادى الأولى سنة 517هـ/1123م [309]. إلا أن بلك بن بهرام لم يستطع المضي قدماً في جهاد الصليبيين بالشام حيث وصله نبأ تمكن جوسلين من الفرار من الأسر بمعونة جماعة من الأرمن الذين كان بلك بن بهرام قد أحسن إليهم بخرتبرت، فعاد على وجه السرعة إلى خرتبرت في رجب من نفس السنة 517هـ/1123م واستطاع إعادة الأمن بها ونقل الأسرى المتبقين فيها إلى حران بعد معاقبة الأرمن الذين كانوا بها [310] . وأما جوسلين صاحب الرها الذي هرب من الأسر فقد استطاع تكوين جيش من صليبيين بيت المقدس وإنطاكية، واتجه به صوب حلب وضيق على من بها من المسلمين، ولم يكتف بهذا، بل اقعد على نبش قبور الموتى من المسلمين في البلاد المحيطة بها وظل محاصراً

306نور الدين محمود والصليبيون ص 20.

307الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 160.

308الإمارات الأرتقية ص 268.

309الكامل في التاريخ (632/8 ، 633).

310الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 161.

لها حتى شهر رمضان من السنة نفسها 517هـ/1123م ولما لم يستطع النيل منها عاد إلى تل باشر، على أن حلب لم تسلم من حصار الصليبيين بعد عودة جوسلين إلى تل باشر، بل تعرضت لحصار آخر من صليبي أنطاكية، أدى إلى قطع الصلة بينها وبين غيرها من البلاد الإسلامية في الشام، تلك البلاد التي كانت تزودها بالمؤن [311] ، وجد بلك بن بهرام بن أرتق إنه لابد من الاستعانة بآقسقر البرسقي صاحب الموصل وبظهير الدين طغتكين صاحب دمشق لرفع الظلم عن أهل حلب ولإنزال ضربة بالصليبيين يستطيع بعدها بلك بن بهرام العودة إلى حلب وإقرار الأوضاع بها، فوصل إليه سنة 517هـ/1123م كل من صاحب الموصل آقسنقر البرسقي وصاحب دمشق طغتكين على رأس قواتهما يعبر بهم الفرات ونزلوا على عزاز، ولكن الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا بها تمكنوا من طرد المسلمين، فعاد كل منهم إلى بلده، ودخل بلك بن بهرام حلب في سنة 518هـ/1124م وتخلص من بعض المناوئين له وقضى على فوضى قطاع الطرق، وتزوج بإحدى بنات رضوان بن تتشى لتويثق صلته بالسلاجقة، واتخذ من حلب عاصمة له من بلاد الشام، وقاعدة انطلاق لتوجيه الضربات ضد الصليبيين ولم يكتف بهذا بل نقل إليها أسراه من حران واعتقلهم في قلعة حلب ويبدو أن ما قام به بلك بن بهرام من نقل أسراه إلى حلب إنما كان من أجل الإطمئنان عليهم من أية محاولة لانقاذهم أثناء بعده عنهم، والدليل على ذلك أنه حين جهز فرقة عسكرية في صفر من سنة 518هـ/1124م لقتال الصليبيين بعزاز، لم يخرج معهم خوفاً من أن يغدر به بعض سكان حلب المعارضين له ويطلقوا سراح أسراه [312].

- **مقتل بلك بن بهرام:** لم يمهل الأجل بلك بن بهرام وبينما كان يحاصر الفرنجة عند قلعة منبج وافته المنية بسهم طائش أصابه فقتله لا يدري من رماه، واضطرب عسكره، وتفرقوا وبمقتله فقد المسلمون فيه رجلاً عظيماً أثبتت أعماله إنه زعيم وقائد حاول جمع كلمة المسلمين في الشام والجزيرة ضد الصليبيين، ويمكن القول إنه بمقتل بلك بن بهرام سنة 518هـ/1124م انتهت مرحلة قيادة الأراتقه لحركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، على الرغم من أن حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي قد استطاع الاستيلاء على حلب عقب مقتل بلك بن بهرام إلا أن حلب لم تتمتع في أيامه بأوضاع مستقرة، بل فسدت أحوالها وضعف أمر المسلمين بها حيث، الهاه الصبى واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك ولم يقف حسام الدين عند هذا الحد من الخمول وعدم المبالاة بجهاد الصليبيين، بل قبل وساطة أبي العساكر سلطان بن منقذ

---

[311] المصدر نفسه ص 161.

[312] زبدة الحلب (216/2 – 217) الجهاد ضد الصليبيين ص 164.

صاحب شيزر في إطلاق سراح بلدوين ملك بيت المقدس، الذي كان في أسر بلك بن بهرام [313]، الأمر الذي أدى إلى ازدياد حماس الصليبيين في النيل من المسلمين، وهذا بالطبع كان له أثر كبير في تصدي الصليبيين بصلابة لحركة بعث فكرة الجهاد الإسلامي في المرحلة التالية التي قادها كل من آقسنقر البرسقي صاحب الموصل وظهير الدين صاحب دمشق [314].

8- جهاد أمير الموصل آق سُنقرُ البرسقي لإنقاذ حلب:

أ- حلب تتصدى للصليبيين: تعرضت حلب لضغط الصليبيين وهجماتهم مراراً عديدة بدأت مع فجر الغزو الصليبي لبلاد الجزيرة والشام وكان أبرزها وأخطرها ولا ريب حصار عام 518هـ وقد أدرك هؤلاء الغزاة الأهمية البالغة لهذه المدينة وما كانت تتمتع به من مركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وخطوط المواصلات، فهي تقع في مركز وسط حصين بين إمارتين صليبيتين، هما: الرها شرقاً في الجزيرة الفراتية، وإنطاكية غرباً على البحر المتوسط في نفس الوقت الذي يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة في الجزيرة والفرات الأناضول وشمالي الشام مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين وفي المقابل فإن إسقاط حلب وضمها إلى الكيان الصليبي سوف يؤمن المواصلات بين الرها وإنطاكية، ويعجل إقامة وحدة سياسية وعسكرية بينهما، كانت ستلعب ولا شك دوراً خطيراً لصالح الغزاة [315] وإذ أدرك الحلبيون عدم جدوى بقاء حلب على هذه الأوضاع القلقة، وضرورة تسليمها لأمير قوي، لذلك أرسلوا إلى إيلغازي الأرتقي حاكم ديار بكر يطلبون منه القدوم لتسليمها إياه، فتقدم هذا إلى حلب عام 511هـ، وتولَّى مقاليد الأمور فيها، وفرض سيطرته على المواقع التابعة لها، ولكن إنشغال الرجل بأمور ولايته في ديار بكر كان يضطره في كثير من الأحيان إلى الغياب عن حلب وإدارة ظهره لمشاكلها وكان الصليبيون يستغلون ذلك ويشددون هجماتهم على حلب والمناطق المحيطة بها، حتى إذا توفي الرجل في رمضان عام 516هـ سعى الصليبيون لاستغلال الفرصة وانقسام إمارته بين أبنائه وانعزال حلب عن القوى المقاتلة في ديار بكر لتحقيق انتصارات سريعة في شمال الشام، ولكن ظهور ابن أخيه بلك بن بهرام وتوليِّه قيادة حركة الجهاد ضد الغزاة؛ قطع الطريق على هؤلاء، وأنقذ حلب من خطر محقق، غير أن مقتل بلك بعد سنتين من توليه الحكم وانتقاله إمارته إلى ابن عمه حسام الدين تمرتاش الذي

---

313 الجهاد ضد الصليبيين ص 163،162.

314 المصدر نفسه ص 163.

315 دراسات تاريخية ص 12 ، 13.

تميز بالضعف والانهزامية، فتح الطريق ثانية أمام الصليبيين لكي يشددوا النكير على حلب ويحققوا حلمهم بالسيطرة عليها، ويصف المؤرخ ابن العديم كيف تدهورت الأوضاع في حلب إثر تولّي تمرتاش الحكم، ويقول : فأما تمرتاش فإنه لما ملك حلب، ألهاه الصبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك، ففسدت الأحوال وضعف أمر المسلمين بذلك [316] . وقد بدأ تمرتاش ولايته بإطلاق سراح بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي كان بلك قد أسره في إحدى معاركه ضد الغزاة، وذلك لقاء مبلغ تافه من المال، وقد أطلقه تمرتاش من معتقله وأحضره إلى مجلس؛ فأكلا وتشاربا وخلع عليه تمرتاش قباءً ملكياً، وأعيد إليه الحصان الذي كان قد أخذه منه بلك يوم أسره [317]. ولم يلبث تمرتاش – بعدها – أن انسحب إلى ولايته في ديار بكر لكي يتبع سياسة انعزالية فلا يرمي بسهم ضد الغزاة وبهذا اتيحت لهؤلاء الفرصة –كرة أخرى – لتضييق الخناق على حلب والسعي لتحقيق هدفهم الذي عجزوا عنه في السنين السابقة، وهكذا شهدت حلب في عام 518هـ حصاراً من أخطر ما تعرضت له في تاريخ الحروب الصليبية الطويل [318] .

ب- خيانة دبيس بن صدقة المزيدي أمير الحلة:

بدأت المحاولة لإسقاط حلب بخيانة تقدم بها أحد الأمراء العرب : دبيس بن صدقة المزيدي أمير الحلة الواقعة جنوبي بغداد، والهارب من وجه الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بسبب استفزازه المستمر لهما وتآمره عليهما، قال للصليبيين بأن له أنصاراً في حلب، وأنهم متى رأوه على رؤوس المهاجمين سلموا إليه البلد ومما قاله للصليبيين: إن أهلها شيعة وهم يميلون إليّ لأجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد إليّ، وبذل لهم على مساعدته بذولاً كثيرة [319] ووعد بلدوين أمير إنطاكية وجوسلين أمير الرها بأنه سيقدم لهما الكثير لقاء مساعدتهما له، وقال لهما: إنني أكون في حلب نائباً عنكم مطيعاً لكم [320]. وتمكن – أخيراً – من التوصل مع الصليبيين إلى اتفاق تكون حلب بموجبه له، أما الأموال فتكون لهم، فضلاً عن بعض المواقع القريبة من حلب [321] ، وتقدم بلدوين على رأس قواته ونزل على نهر قويق قريباً من حلب، وأفسد المناطق الزراعية المحيطة به، ثم رحل إلى حلب فنزل عليها في أواخر شعبان 518هـ، وتقدم جوسلين أمير الرها

---

[316] زبدة حلب (220/2).

[317] الاعتبار ص 103 ، 120 - 121.

[318] دراسات تاريخية د. عماد الدين خليل ص 14.

[319] الكامل في التاريخ (642/8).

[320] ذيل تاريخ دمشق ص 212.

[321] الاعتبار ص 103، زبدة حلب (222/2 – 223).

بصحبة دبيس بن صدقة [322] – وكان دبيس شيعياً كآبائه – [323] صوب ناحية أخرى من أعمال حلب، وقاما بتدمير مزروعاتها، وقدرت الخسائر بما يقرب من مئة ألف دينار، ومن ثم رحلا ونزل مع بلدوين على حلب، واجتمع بهم هناك (خونة) آخرون من أجل تطمين مصالحهم واقتسام الغنائم في حالة سقوط حلب : سلطان شاه بن رضوان السلجوقي، عيسى بن سالم بن مالك العقيلي، ياغي سيان بن عبدالجبار الأرتقي .. وفرضوا جميعاً الحصار على حلب من شتى جهاتها [324]. ووطّنوا أنفسهم على المقام الطويل، وأنهم لا يغادرونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل البرد والحر [325] ، فضلاً عن ثلاثمائة من الخيام، بينما لم يكن في حلب يومها سوى خمسمائة فارس [326].

ت– أعمال استفزازية صليبية ضد أهالي حلب: بدأ الغزاة بشن هجماتهم الدورية على حلب، وقطعوا أشجارها، وأفسدوا بساتينها وزروعها في محاولة لتدمير اقتصادياتها التي تعتمد على الزراعة بالدرجة الأولى، كما قاموا بتخريب مشاهد المسلمين ونبشوا قبور موتاهم، وسلبوا أكفانهم، وجعلوا من توابيتهم أوعية يتناولون بها طعامهم وعمدوا إلى من لم تتقطع أوصاله منهم فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم أمام أنظار المسلمين المحاصرين في حلب، وجعلوا يصيحون: هذا نبيكم محمد!! وأخذت جماعة منهم مصحفاً من المشاهد المحيطة بحلب وصاحوا : يا مسلمين أبصروا كتابكم !! ثم ثقبه أحدهم بيده ثم شده بخيطين وربطه بأسفل برذون قريب فراح هذا يروث عليه .. وكلما أبصر صاحبه الروث يتساقط على المصحف الشريف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً [327].

ث– المقاومة الحلبية الشعبية: لم يكتف الصليبيون بهذا بل راحوا يمثلون بكل من يقع بأيديهم من المسلمين، فاضطر هؤلاء إلى مجاراتهم بالمثل، وكان يقود المقاومة الإسلامية القاضي أبو الفضل بن الخشاب الذي كان قد تمّرس على أعمال الدفاع منذ بداية العقد، وكان يملك شعبية واسعة في حلب فأصدر أوامره بتوجيه ضربات مباشرة في قلب معسكرات الغزاة فكانت جماعة من مقاتلي حلب تخرج سراً لتغير على هذه

---

[322] دراسات تاريخية د.عماد الدين خليل ص 15.

[323] سير أعلام النبلاء (613/19).

[324] زبدة حلب (225/2 – 226).

[325] الكامل في التاريخ (642/8).

[326] زبدة حلب (224/2 – 225) دراسات تاريخية ص 15.

[327] دراسات تاريخية ص 15.

المعسكرات، فتقتل وتأسر وتقفل عائدة من حيث أتت ... وفي الوقت نفسه كانت الرسل تتردد بين الطرفين للتوصل إلى اتفاق ولكن دون جدوى [328].

ج- استنجاد أهالي حلب بأمير ديار بكر: ضاق الأمر بالمسلمين في حلب واعتصرهم الإرهاق والجوع، فاتفق أميرهم بدر الدين الأرتقي وجماعة من كبار المسؤولين على إرسال وفد من زعماء حلب إلى ديار بكر للاستنجاد بأميرها حسام الدين تمرتاش وتسلَّل أعضاء الوفد الثلاثة ليلاً ومضوا إلى ماردين – قاعدة ديار بكر – ليستغيثوا بأميرها علَّه يولي اهتماماً لما تعانيه حلب من ويلات وعندما وصلوا إلى هناك كان حسام الدين منهمكاً في الاستيلاء على بلاد أخيه سليمان الذي كان توفي في تلك السنة، الأمر الذي دفعه إلى إهمال شؤون حلب وعدم الاستجابة لمطالب وفدها، وقد بقي أعضاء هذا الوفد فترة من الوقت في ماردين يحثون حسام الدين على التوجه إلى حلب لإنقاذها من الحصار، وهو يعدهم ويمنيهم ويماطلهم دون أن يقدم على أي إجراء فأعلموه أنهم لا يريدون سوى أن يصل بنفسه، والحلبيون يكفونه أمر الغزاة [329] إلا أن مساعيهم فشلت وفي نهاية المطاف تمكن الوفد الخلاص من مراقبة حسام الدين التي فرضها عليهم حتى لا يغادروا ماردين للاستنجاد بأمير آخر، خوفاً من ازدياد ضعف مركزه وفقدانه مدينة حلب، واستطاع الوفد الاتصال بوالي الموصل السلجوقي آق سنقر البرسقي [330].

س- آق سنقر البرسقي واستجابته لاستغاثة أهل حلب: كان البرسقي حينذاك مريضاً، وكان الضعف قد بلغ منه مبلغاً عظيماً، فمنع الناس من الدخول عليه إلاَّ الأطباء ووصل إلى دبيس من أخبره بذلك، فأعلن البشائر في عسكره وارتفع عنده التكبير والتهليل، ونادى بعض أصحابه أهل حلب: قد مات من أملتم نصره؛ فكادت أنفس الحليبيين تزهق [331] ، وعندما استؤذن للوفد الحلبي بالدخول أذن البرسقي لهم، فدخلوا عليه واستغاثوا به وشرحوا له الأخطار التي تحيق بحلب ومدى الصعوبات التي يعانيها أهل المدينة، فأجابهم الرجل: إنكم ترون ما أنا الآن فيه من المرض، ولكني قد جعلت لله عليَّ نذراً لئن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في أمركم والذي عن بلدكم وقتال أعدائكم ولم تمض ثلاثة أيام على مقابلته تلك حتى فارقته الحمى، وتماثل للشفاء، وسرعان ما ضرب خيمته بظاهر الموصل، ونادى قواته لأن تتأهب لقتال

---

[328] المصدر نفسه ص 16 ، ديل تاريخ دمشق ص 212.

[329] دراسات تاريخية ص 16.

[330] زبدة حلب (227/2) دراسات تاريخية ص 17.

[331] دراسات تاريخية ص 17.

الصليبيين وإنقاذ حلب، وفي غضون أيام معدودات غدا جيشه على أهبة الاستعداد فغادر الموصل متجهاً إلى الرحبة، وأرسل من هناك إلى طغتكين أمير دمشق وخير خان أمير حمص يطلب منهما مساعدته في إنجاز مهمته، فلبى هذان الأميران دعوته وبعثا عساكرهما للانضمام إلى جيش البرسقي الذي كان قد تحرك آنذاك صوب بالس القريبة من حلب وأرسل من هناك إلى مسؤوليها وشرط عليهم – مسبقاً – تسليم قلعة حلب لنوابه لكي يحتمي بها في حالة انهزامه أمام الصليبيين فأجابوه إلى طلبه، وما أن استتب الأمر لؤلاء النواب وأطمأن الرجل إلى وجود حماية أمينة في حالة تراجعه، حتى بدأ زحفه صوب مواقع القوات الصليبية التي تطَّوف حلب [332]. وصلت قوات طلائع البرسقي حلب يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة 518هـ وما أن اقترب البرسقي بقواته المنظمة حتى أسرع الصليبيون في التحول إلى منطقة أفضل من الناحية الدفاعية، فعسكروا في جبل جوشن على الطريق إلى إنطاكية، وهكذا غدوا في حالة الدفاع بعد أن كانوا مهاجمين، وخرج الحلبيون إلى خيامهم فنالوا منها ما أرادوا، بينما اتجه قسم آخر منهم لاستقبال البرسقي والاحتفاء به لدى وصوله، وقد أدرك الرجل ما يرمي إليه الصليبيون بانسحابهم واتخاذهم موقفاً دفاعياً، فلم يتسرع بمهاجمتهم قبل أن يعيد تنظيم قواته من جديد، خوفاً من نزول هزيمة فادحة بعساكره قد تعرض حلب للسقوط، وأرسل طلائعه الكشفية لرد القوات المتقَّدمة إلى معسكراتها في حلب وقال موضحاً خطته هذه : ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويهلك المسلمون؟ ولكن قد كفى الله شرهم، فلندخل إلى البلد ونقويه وننظر إلى مصالحه، ونجمع لهم إن شاء الله، ثم نخرج بعد ذلك إليهم. ومن ثم دخل البرسقي حلب، وبدأ بحل مشاكلها ورفع مستواها الاقتصادي والاجتماعي، فنشر العدل وأصدر مرسوماً برفع المكوس والمظالم المالية وإلغاء الصادرات وعمَّت عدالته الحلبيين جميعاً بعدما منوابه من الظلم والمصادرات وتحكم المتسلطين طيلة فترة الحصار الصليبي [333] ، ولم يكتف البرسقي بذلك، بل قام بنشاط واسع لجلب المؤن والغلال إلى المدينة كي يخفف من حدة الغلاء، ويقضي على الضائقة التي يعاينها الحلبيون، وما لبث النشاط الزراعي في منطقة حلب أن عاد إلى حالته الطبيعية، حيث استأنف المزارعون العمل في الأراضي التي شَّردوا عنها، كما عاد النشاط التجاري إلى سابق عهده اعتماداً على ما تمتعت به المنطقة من أمن واستقرار [334] ، وهكذا استطاع البرسقي أن يحكم الطوق الذي أحاط به الصليبيون حلب، وأن يخلصَّ هذا الموقع الهام من أخطر محنة جابهته طيلة الحروب الصليبية ويوحده مع الوصول لأول مرة منذ بدء هذه الحروب، الأمر الذي أتاح لهذا القائد ولعماد الدين زنكي من بعده أن يفيد من هذه الوحدة لتحقيق انتصارات عديدة ضد الغزاة

---

[332] نهر الذهب للغزي (86/3 – 87) دراسات تاريخية ص 18.

[333] زبدة حلب (229/2 – 230) دراسات تاريخية ص 19.

[334] دراسات تاريخية ص 19.

(335) يقول المؤرخ الإنكليزي المعاصر ستيفن رنسمان : ... سرعان ما غدت الإمارة التي شكلها البرسقي نواة لما قام بعدئذ بالشام من دولة إسلامية متحدة زمن الزنكيين والأيوبين والمماليك، ولم يكن الصليبيون الذين وحد بينهم نظام الملكية في بيت المقدس، يواجهون قبل ذلك سوى بلاد تنازعتها في الشام قوى عديدة وإقطاعات متفرقة زادت من ضعفها، وما حدث – إذن – من توحيد حلب مع الموصل يعتبر بدء توحيد الجبهة الإسلامية التي قدر لها أن تقضي في يوم من الأيام على قوة الصليبيين في الشام (336) . ونلاحظ حرص عامّة المسلمين على الاندماج في كيان إسلامي سني بغض النظر عن القيادة سواء كانت تركية أو عربية أو غيرها وإنما المهم من يقوم بواجب الدفاع عن الإسلام والمسلمين تحت راية أهل السنة.

ك- مقتل البرسقي: في سنة 520هـ ثامن ذي القعدة، قتل قسيم الدولة آقسنقر البرسقي صاحب الموصل، بمدينة الموصل قتلته الباطنية يوم جمعة بالجامع وكان يصلى الجمعة مع العامة وكان قد رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به، فقتل بعضها، ونال منه الباقي ما أذاه فقص رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام فقال : لا أترك الجمعة لشيء أبداً، فغلبوا على رأيه، ومنعوه من قصد الجمعة، فعزم على ذلك، فأخذ المصحف يقرأ فيه، فأول مارأ " وكان أمر الله قدراً مقدوراً " (الأحزاب، آية : 38)، فركب إلى الجامع على عادته، وكان يصلي في الصف الأول، فوثب عليه بضعة عشر نفساً عدة الكلاب التي رآها، فجرحوه بالسكاكين، فخرج هو بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله وكان من خير الولاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلى من الليل متهجداً (337).

ن- الباطنية من أخطر معوقات حركة الجهاد :

أثبت الباطنية عداءهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، وكأن خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقاً نحو تثبيت أقدامهم في بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين وهكذا أثبتت وقائع التاريخ كيف التقى قادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر في بعض الأحيان – في الشهادة – فمن قبل اغتيل شرف الدين مودود، والآن نجد آق سنقر البرسقي يلقي نفس المصير، وقد عكس ذلك كله : أن

---

335 المصدر نفسه ص 20.

336 الشرق الأوسط والحروب الصليبية (345/1 ، 485 – 486).

337 الكامل في التاريخ (8/.)

مسلك الإسماعيلة النزارية في ذلك الحين كان من أخطر معوقات حركة الجهاد ضد الغزاة نظراً لوجود عدوين في وقت واحد أمام القيادات السنية على نحو عكس المشاق البالغة التي واجهت أولئك القادة [338] في الدفاع عن عقيدة الأمة ودينها وأعراضها وأوطانها.

هذا وإن كان أقسنقر البرسقي قد استشهد فإن قائمة المجاهدين عامرة ومتأهبة للقتال في سبيل الله، ففي ربيع الآخر من عام 521هـ/1127م عهد السلطان محمود إمارة الموصل إلى عماد الدين زنكي وبظهوره على مسرح الأحداث بدأت صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين [339] ، وقد بدأ عماد الدين بتكوين جبهة إسلامية متحدة ضد الصليبيين فسيطر على القلاع القريبة منه مثل جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار وبلاد الخابور وحران، ثم اتجه تفكيره بعد ذلك للاستيلاء على حلب، أكبر المراكز الإسلامية بشمال الشام، وواتته الفرصة عندما علم باضطراب الأحوال بها وتهديد كل من جوسلين الثاني صاحب الرها وبوهيمند الثاني صاحب أنطاكية لها، فسارع عماد الدين زنكي إليها فلقيه أهلها بالبشر ودخل البلد في يوم الاثنين 13 جمادي الأخرة سنة 522هـ/يونيو 1128م[340] ، واستولى عليه ورتب أموره وأقطع أعماله الجنود والأمراء، ويؤكد ابن الأثير على أهمية هذا الفتح بقوله: ولولا أن الله تعلى مَن على المسلمين بولاية الشهيد لكن الفرنج استولوا على جميعه [341].

خامساً: أهم أعمال عماد الدين زنكي فتح الرها:

استطاع عماد الدين زنكي أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكون لنفسه، مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي، كسياسي بارع وعسكري متمكن ومسلم واع أدرك الخطر الذي أحاط بالعالم الإسلامي من قِبل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج أن تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين وقد فصلت ذلك في حديثي عن عماد الدين زنكي في كتابي عن الدولة الزنكية ويعتبر فتح الرها من أهم إنجازات عماد الدين زنكي، فقد كانت إمارة الرها الصليبية أولى الإمارات التي تأسست في الشرق سنة 491هـ/1097م بزعامة بلدوين الأول الذي استمر في حكم هذه الإمارة حتى سنة

---

338 الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 161.

339 دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدني في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية ص 48.

340 الكامل في التاريخ (663/8).

341 الكامل في التاريخ (664/8).

494هـ/1100م حين انتقل إلى حكم بيت المقدس عقب وفاة جورفرى ملك بيت المقدس [342] . وقد تميزت الرها عن بقية الإمارات الصليبية بموقعها في الحوض الأوسط لنهر الفرات حيث تحملت عبء الدفاع عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وذلك لقربها من الخلافة العباسية ثم لوقوفها في وجه التركمان الذين كانت تعج بهم منطقة الجزيرة عقب التفكك الذي أصاب السلاجقة في بلاد الشام والعراق عقب وفاة السلطان ملكشاه 485هـ/1092م [343] ، ولم تقتصر أهمية الرها على موقعها الاستراتيجي وكونها خط الدفاع الأول عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام بل إنها شكلت خطراً أساسياً على خطوط المواصلات الإسلامية بين الشام وآسيا الصغرى والعراق ومنطقة الجزيرة [344] وعلى الرغم من أن الرها لم تقع في نطاق الأراضي المقدسة في فلسطين فقد عدها الصليبيون من أشرف المدن عندهم بعد بيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية، وفيرة الثروات ساعدات أمراء الرها على توسيع رقعتهم فامتدت إمارة الرها الواقعة على ضفتي نهر الفرات من راوندان وعين ثاب غرباً إلى مشارق ومن بهنسي وكيسوم شمالاً إلى منبج جنوباً [345] واكتسبت الرها أهمية بما تهيأ لها من حكام اتصفوا بالقوة والشجاعة واستطاعت الصمود في وجه المقاومة الإسلامية، على الرغم أن الرها كانت تعاني من نقطتين ضعف واضحتين أحدهما الحدود الطبيعية إذ لا توجد لها موانع طبيعية تحميها وتكسبها وقاية ومناعة وثانيها عدم وجود تجانس بين سكانها إذ كانوا خليطاً من المسيحيين الشرقيين " السريان والأرمن اليعاقبة " ومن الصليبيين الغربيين فضلاً عن المسلمين الذين تركزوا في مدن بكاملها كسروج والبيرة التي خضعت للصليبيين [346] ، ولم تقتصر أهمية الرها على الجانب الصليبي، بل كانت في نظر المسلمين من أهم المواقع التي يجب السيطرة عليها، فقد ذكر ابن الأثير مكانتها في بلاد الجزيرة بسبب موقعها بين الموصل وحلب، ووصفها بأنها من الديار الجزرية عينها ومن البلاد الإسلامية حصنها مما جعل القوى الإسلامية سواء في العراق أو الشام ترغب في السيطرة عليها [347].

1- أوضاع إمارة الرها الداخلية: كانت ظروف الرها الداخلية مؤاتية لعماد الدين زنكي، إذ اتصف أميرها جوسلين الثاني بضعف الشخصية وإنسياقه وراء العواطف والأهواء وعدم امتلاكه مقدرة سياسية، وبعد

---

[342] الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد ضد الصليبيين في الشرق ص 230.

[343] سلاجقة إيران والعراق، وعبد المنعم حسين ص 84.

[344] إمارة الرها علية الجنزوي ص 34.

[345] الحركة الصليبية (424/1) الجهاد ضد الصليبيين ص 230.

[346] الجهاد ضد الصليبيين ص 231.

[347] التاريخ الباهر ص 66.

نظر، والواقع أن جوسلين الثاني تأثر في نشأته بالميول الأرمينية بفعل أن والدته كانت منهم، فترعرع وفي نفسه ميل إلى الأرمن وغيرهم من السكان الأصليين من الطوائف النصرانية الشرقية وفضَّلهم على النصارى الغربيين الأمر الذي أثار الفرسان الصليبيين وأوجد نوعاً من عدم الاستقرار داخل الإمارة وعُرف عن صاحب الرها أنه كان من ذلك النوع الذي يؤثر الراحة والعافية، حتى أنه في الوقت الذي هاجم فيه عماد الدين زنكي إمارته، اختار أن يترك مدينته ليقيم في تل باشر عن الضفة الغربية للفرات، وإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين أحاطوا بهذه الإمارة من كل جانب، وفصلها نهر الفرات عن بقية الممتلكات الصليبية في بلاد الشام؛ لاستطعنا أن نكّون فكرة عامة عن العوامل التي ساعدت على سقوطها والجدير ذكره أن هذه شَّكلت خطراً كبيراً على المواصلات الإسلامية بين حلب والموصل وبغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، كما كانت عائقاً حال دون قيام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة بسبب تدخلها المستمر لصالح خصوم عماد الدين زنكي من الأمراء المسلمين في المنطقة [348] ، فكان فتحها ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية [349] ودينية.

2- عمليات الفتح: استغل عماد الدين زنكي الظروف السابق ذكرها وسعى إلى تدبير خدعة تتيح له تحقيق هدفه من أقصر طريق. وكان يعلم أنه لن يستطيع أن ينال غرضه من الرها ما دام جوسلين وقواته موجودين بها، وهكذا انصب اهتمامه على إيجاد وسيلة تدفع غريمه إلى مغادرة مقر إمارته، فاتجه إلى آمد، وأظهر أنه يعتزم حصارها، وأنها هدفه دون غيرها، وبث عيونه – في الوقت نفسه – في منطقة الرها ليطلعوه – أولاً بأول – على تحركات أميرها الذي ما أن رأى إنهماك زنكي بجيوشه في ديار بكر وعدم تفرغه للهجوم على المواقع الصليبية، حتى غادر مقر إمارته على رأس قواته [350] ، بعد أن اتخذ إجراءاً احتياطياً بأن عقد هدنة مع فرار أرسلان صاحب حصن كيفا الذي كان قد التجأ إليه بعد تهديد زنكي لإمارته [351] ، ومن ثم اتجه إلى تل باشر الواقعة على الضفة الغربية للفرات، كي يتخلص هناك، من كل مسؤولية، ويتفرغ لملذاته، تاركاً حماية الرها لأهاليها من الأرمن والسريان والنساطرة واليعاقبة، وكان معظمهم من التجار الذين لا خبرة لهم بشؤون الحرب والقتال بينما تولى الجند المرتزقة مهمة الدفاع عن القلعة [352] ، جاءت عيون عماد زنكي

---

[348] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 149

[349] المصدر نفسه ص 149.

[350] الباهر ص 67 عماد الدين زنكي ص 151.

[351] عماد الدين زنكي ص 151.

[352] المصدر نفسه ص 152.

لتطلعة على النبأ الذي كان يتحرق إليه فأسرع بالتوجه إلى الرها مستعيناً على السرعة بركوب النجائب الإبل مستنفراً كل قادر على حمل السلاح من مسلمي المنطقة للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وما لبث أن انهالت عليه جموع المتطوعين، فطوق بهم الرها من جهاتها الأربع، وحاول في البدء أن يتوسل بالطرق السلمية علها تحقق هدفه دون اضطرار إلى رفع السيف، فراسل أهالي الرها، باذلاً لهم الأمان، طالباً منهم أن يفتحوا له الأبواب قبل أن يجد نفسه مضطراً إلى تدمير أسوار بلدهم وإخلاء دياره، إلا أنهم أبوا قبول الأمان [353] . وحينئذا اشتد زنكي في التضييق على الحصن، مستخدماً آلات الحصار الضخمة التي جلبها معه لتدمير أسواره، أن تتاح الفرصة لتجمع الصليبيين والتقدم لإنقاذ هذا الموقع الخطير، وأرسل جوسلين لدى سماعه نبأ الهجوم – في طلب نجدة مستعجلة من كافة الإمارات الصليبية في الشام، فلم يستجب له سوى (ميلزاند) الوصية على بيت المقدس، التي وصلت نجدتها بعد فوات الأوان [354] ، كما أنه قام بمحاولة للدخول إلى المدينة، أو إرسال نجدة لتعزيز دفاعها فحيل بينه وبين ذلك وفي السادس والعشرين من جمادى الآخرة 539هـ وبعد مرور ثمان وعشرين يوماً على بدء الحصار إنهارت بعض أجزاء الحصن، أثر الضرب المركز الشديد الذي تعرضت له، فاجتاحت قوات المسلمين المدينة [355] ، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت بعد يومين، وقام القس اليعقوبي برصوما بإجراءات تسليم الرها لزنكي [356].

3- سياسة عماد الدين زنكي في الرها: رأى عماد الدين زنكي، بعد أن فتح الرها، أن ذلك البلد لا يجوز في السياسة تخريب مثله [357] وأصدر أوامره إلى جنده بإيقاف أعمال القتل والأسر والسلب، وإعادة ما استولوا عليه من سبي وغنائم، فاعيدوا ولم يفقد إلا الشاذ النادر، وأعقب ذلك بإصدار أمر آخر بالإسراع في تنظيم ما اضطرب من أمور الرها، وتعمير ما تهدم خلال أسابيع طويلة من القتال ورتّب من رآه أهلاً لتدبير أمرها وحفظها والاجتهاد في مصالحها، ووعد أهلها با جمال السيرة وبسط العدالة [358] مستهدفاً من

---

[353] المصدر نفسه ص 152.

[354] الحركة الصلبية (605/2 ، 606) عاشور عماد الدين زنكي ص 152.

[355] ذيل تاريخ دمشق ص 279 – 280) عماد الدين زنكي ص 152.

[356] عماد الدين زنكي ص 153.

[357] الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 153.

[358] ذيل تاريخ دمشق ص 280 عماد الدين زنكي ص 153.

وراء ذلك استمالة سكانها الأصليين من المسيحيين الشرقيين ضد الصليبيين الكاثوليك، الأمر الذي يؤكده قيامه بتدمير عدد من الكنائس الكاثوليكية، واحتفاظه بكنائس الشرقيين [359].

4- العوامل التي ساعدت عماد الدين على استعادة الرها: هناك العديد من العوامل التي ساعدت عماد الدين على تحرير الرها منها:

- تنامي حركة الجهاد الإسلامية حتى عصره وحصاد تجربة المسلمين في ذلك المجال، فلا ريب في أن التجارب السابقة أثبتت أن إمارة الرها مرشحة أكثر من غيرها لكي تكون أولى الإمارات الصليبية المعرضة للسقوط في أيدي قادة الجهاد الإسلامي حينذاك، وقد اجهدها أمر الإغارات المستمرة من جانب أتابكة الموصل على نحو خاص طوال ما يزيد على أربعة عقود من الزمان على نحو مثل موتاً بطيئاً لها إلى أن تم الإجهاز عليها في العام المذكور.

- ويضاف إلى ذلك براعة عماد الدين زنكي العسكرية الذي فاجأ تلك الإمارة الصليبية بالهجوم، بعد أن أطمأن الصليبيون إليه وتصوروا أنه لن يهاجم فاستغل فرصة غياب أميرها جوسلين الثاني عنها ووجه لها ضربته القاضية التي انتهت بإسقاطها، وهكذا أثبت ذلك القائد المسلم الكبير أنه اختار التوقيت الملائم لذلك العمل العسكري العظيم.

- زد على ذلك: أن الخلاف الواقع بين إمارتي الرها وأنطاكية أثر بدوره على إمارة الرها، وأدى إلى إجهادها واستهلاكها سياسياً وعسكرياً [360] ، على نحو أثبت أن الخلافات التي كانت تحدث بين القيادات الصليبية أثرت بدورها على كياناتهم السياسية وها هي – لحسن الحظ – إمارة الرها تدفع الثمن بأن سقطت في قبضة من استحقها من قادة الجهاد الإسلامي في ذلك الحين.

- ولا نغفل – من ناحية أخرى شخصية أمير الرها جوسلين الثاني الذي لم يكن على نفس القدر من الكفاءة السياسية والعسكرية التي اتصف بها والده جوسلين الأول، وكان أميل إلى حياة الخلاعة والمجون والسعي الحثيث إلى الملذات، بل إن كثيراً ما غادر مدينة الرها ذاتها واتجه إلى تل باشر من أجل أن يجد هناك ما يبحث عنه من صور الفساد ولذلك أدرك فيه المسلمون تلك الزاوية فأحسن قائدهم الإفادة منها وهاجم الرها وقت أن غاب عنها جوسلين الثاني، فأصابها في مقتل [361].

---

[359] عماد الدين زنكي ص 153.

[360] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 162

[361] المصدر نفسه ص 162.

– ويبدو أن الجيل الصليبي الذي حل بعد الجيل الأول الذي أسس الكيان الصليبي وحافظ عليه، لم يكن قادراً على الحفاظ على ما شيده السابقون بل لم يكن يدرك أهمية دوره التاريخي في ذلك الموقع الشديد الحساسية الذي أحاطه المسلمون من كل جانب، وهكذا شارك جوسلين الثاني – دون أن يدري – في إنجاح حركة الجهاد الإسلامية حينذاك بقيادة قائدها الكبير عماد الدين زنكي [362].

– وعلى أية حال: من الممكن أن من المؤرخين الغربيين من حاول إظهار عوامل الضعف الداخلي في إمارة الرها، وجعل تلك العوامل وحدها هي التي أدت إلى إسقاطها، وهدف من وراء ذلك إضعاف فعاليات المسلمين السياسية والحربية، غير أن المنطق التاريخي يدعونا إلى تصور أن العوامل الداخلية والخارجية تعاونت معاً من أجل صنع انتصار عام 539هـ/1144م ومهما كان أن شأن عوامل "النحر والانتحار" الداخلية ونتائجها في الرها فإنها ما كانت لتسقط دون الفعاليات العسكرية لقائد موهوب مثل عماد الدين زنكي، وجنوده من خلفه [363].

5- موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرها وماذا جرى في صقلية:

ورويا لعماد الدين بعد موته:

- **موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرها:** كان للفقيه المؤذن موسى الأرمني المدرس بإحدى مدارس الموصل موقف مشكور في فتح الرها حيث استخدم أسلوب الحرب النفسية في حملة عماد الدين زنكي على الرها عام 539هـ/1145م فقد نزل الفقيه محاصراً ومقاتلاً، فخطرت بذهنه فكرة ذكية أثناء حصار عماد الدين للرها، فقد نزل السوق، واشترى ملابس الأرمن، لكي يدخل بها إلى المدينة حتى لا يعرفه الصليبيون، ويشكون في أمره [364] : فقال فنزلت السوق، واشتريت لباساً من لباس الأرمن، وتزينت في زيهم [365] ووصلت إلى البلد لأنظره وأكشف حاله، فجئت إلى الجامع فدخلت ورأيت المنارة فقلت في نفسي أصعد إلى المنارة، وأوذن حتى يجري ما جرى، فصعدت وناديت الله أكبر الله أكبر، وأذنت، والكفار على

---

[362] المصدر نفسه ص 163.

[363] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 163.

[364] موقف فقهاء الشهام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 22.

[365] المصدر نفسه نقلاً عن بغية الطلب في تاريخ حلب.

الأسوار، فوقع الصياح في البلد أن المسلمين قد هجموا البلد من الجهة الأخرى، فترك الكفار القتال ونزلوا على السور، فصعد المسلمون وهاجموا المدينة [366].

- **ملك جزيرة صقلية:** كان ملك جزيرة صقيلة من الفرنج لما فتحت الرُّها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان يُحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله، ويّقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرُّها سير هذا الملك الإفرنج جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي، وقد نعس وهو شبيه النائم فأيقظه الملك وقال: يا فقيه، قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها – أي اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم – فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك : لا تضحكوا، فوالله ما قال عن غير علم واشتد هذا على الملك، فلم يمض غُير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدة هذا الوهن رخاءَ ذلك الخبر؛ لعّلو منزله الرّها عند النَّصرانية [367] .
- **رويا للشهيد بعد قتله:** ويحكى أن رجلاً من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. قلت: بماذا ؟ قال: بفتح الرها [368].
- **مؤامرة فاشلة من سكان الرها:** ما لبث سكان الرها من الأرمن أن دبروا – في العام التالي – مؤامرة استهدفت الفتك بالمسلمين وإعادة المدينة إلى السيطرة الصليبية بعد القيام باستدعاء جوسلين، إلا أن زنكي سرعان ما تمكن من كشف هذه المحاولة الخطيرة، والقبض على مُدبريها وإعدامهم، ثم أعقب ذلك بنفي عدد من الأرمن كيلا يتاح لهم مرة أخرى أن يسعوا إلى طعن المسلمين من الخلف، وتسليم أهم مواقعهم لقمة سائغة للغزاة الصليبيين [369].

---

[366] بغية الطلب في تاريخ حلب (3851/9) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 122.

[367] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (141/1).

[368] المصدر نفسه (141/1).

[369] عماد الدين زنكي ص 157.

6- نتائج فتح الرها: حقق عماد الدين زنكي بفتح الرها أهم إنجازاته التي قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه، وكانت لهذا النصر نتائج هامة في العالمين الإسلامي والنصراني ومن أهم تلك النتائج على الإجمال:

أ- تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامية وصلت سن الرشد وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية دون أن يكون ذلك إجحاف بإنجازات القادة السابقين على زنكي لاسيما مودود – وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم، فإنها البداية، واليوم أسقاط الرها وغداً إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل، وهذا ما حدث فعلاً، ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة، وإباء، وإنجاز.

ب- تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية الغير شرعية لن تستمر على الأرض المسلمة، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينينة الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكري الدخيل وبالتالي عاد التجانس لمنطقة شمال العراق، ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة العراق، وكذلك بلاد فارس [370].

ج- زاد الضغط على النطاق الصليبي الذي اتخذ شكلاً طولياً من أنطاكية في الشمال إلى إيلات (الرشراش) جنوباً ومن نهر الأردن شرقاً إلى الساحل الشامي – باستثناء عسقلان، إذ أن صور سقطت بالفعل عام 1124م/518هـ/ بما اشتمله من إمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس الصليبية، فالمؤكد أن رأس الحربة الصليبية في الرها سقطت إلى غير رجعة، والآن أصبح ذراعها قائماً في باقي الكيان الصليبي، ولذلك ازداد الضغط العسكري عليه من قِبل القوى الإسلامية التي سيطرت على الظهير الشامي الموازي للساحل والسهل الساحلي، وكأن المعركة صارت – على المستوى الجغرافي – معركة بين الساحل والظهير، واعتمد الأول على الدعم الخارجي الأوروبي في الأساس، واعتمد الثاني على إمكاناته المحلية الوافرة التي تزايد شأنها مع ظهور قادة الوحدة بين المسلمين.

د- أدى إسقاط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الاستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق، والرحم الأمم في الغرب الأوروبي، فلم يكن ذلك الغرب ليسمح لامتداده السياسي والتاريخي في

370الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 164 ، 165.

الشرق أن ينهار قطعة قطعة، بل لابد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها وإجهاز فعاليات إمارة الموصل، ومن ثم كان قيام صليبية 1147 – 542/1149هـ - 544هـ التي اشتهرت بالصليبية الثانية، وهي من النتائج المباشرة لإسقاط الرها وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامية حاربوا قوى عالمية، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية، وأنهم بالفعل كانوا جزءاً من صراع قاري أو عالمي على نحو يجعل لهم مكانة بارزة في تاريخ المسلمين – عامة – في عهد الحروب الصليبية.

هـ- ومن النتائج العديدة التي نتجت عن ذلك الإنجاز، إرتفاع شأن عماد الدين إلى حد بعيد، فبعد أن كان مجرد حاكم محلي محدود النطاق والفعالية، تردد اسمه سريعاً في الحوليات اللاتينية والسريانية ليعكس أنه أحدث تأثيراً كبيراً في مجرى أحداث الشرق اللاتيني، وبصورة غير مسبوقة، أما بالنسبة للمسلمين، فقد احتل مكانة بارزة [371] ، فقد عزّز فتح الرها مركز عماد الدين تجاه السلطان السلجوقي مسعود والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب التي حازها عن جدارة، كالأمير المظفر، ركن الإسلام، عمدة السلاطين، زعيم جيوش المسلمين، ملك الأمراء أمير العراقين والشام [372] وجعل هذا النصر عماد الدين زنكي المدافع الأول عن الدين والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، ودارت في المحافل الإسلامية، أحاديث تمحورت حول شخصه، تصور لنا مدى التقدير، والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر الكبير، ومهد هذا الفتح الطريق أمام عماد الدين زنكي لاستكمال فتح الحصون المجاورة، وفرض سيطرته التامة على أملاك أعدائه في المنطقة، وأدّى فتح الرها دوراً كبيراً في إنقاذ إمارة عماد الدين زنكي من خطر استمرار الغارات الصليبية عليها، فأصبح أهلها بعد الخوف آمنين [373] وهذا إنشاء الله من عاجل بشرى المؤمن.

7- رأي المستشرق جون لامونت في عماد الدين: يعد المستشرق جون لامونت من أبرز المؤرخين الأمريكيين خلال النصف الأول من القرن الماضي، وتعددت مؤلفاته في مجال الصليبيات، ولاسيما دراسته الوافية عن الملكية الإقطاعية في مملكة بيت المقدس، غير أن له دراسة أخرى عنوانها الحرب الصليبية والجهاد ضمن كتاب التراث الإسلامي الذي نشره نبيه فارس وفي هذه الدراسة؛ اتجه لامونت إلى تفنيده فكرة الجهاد عند المسلمين حينذاك، وتصور تحرك قادة الجهاد الإسلامي حينذاك على أنه من خلال الدوافع

---

[371] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق الغرب ص 165.

[372] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 156.

[373] المصدر نفسه ص156.

السياسية والاقتصادية فقد وذكر بأن عماد الدين زنكي لا يعتبر بأي حال من الأحوال بطل الجهاد، فإن عماد الدين وإن كان يطمع في استرجاع الرها منُذ وقت طويل كما يقول كمال الدين بن العديم، لم يقم بهذا العمل بوضوح إلا متأخراً، وإلا بعد، حثه على ذلك أمير حران جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان الذي بين له سهولة احتلال المدينة [374] ، ويستمر في تصوره قائلاً: الظاهر أنه هو نفسه كان يعتبر احتلال الرها خروجاً عن سياسته وعملاً قام به بناء على تحريض الآخرين [375] وذكر أيضاً : أن استيلاء زنكي على حماه، وحلب وحروبه ضد الأرتقيين أعظم أهمية عنده من حرب النصارى، وما كان ليكره التحالف مع اللاتين إذا رئ ذلك مصلحته [376]. ومن الممكن تفنيد تلك الآراء على النحو التالي:

- كان اتجاه عماد الدين زنكي لمهاجمة الرها متأخراً وذلك أمر لا يقلل البتة من دوره الجهادي خاصة أنه كان يرى أن يستهلك طاقات تلك الإمارة الصليبية في صراعاته وحروبه معها ضد حصونها ومعاقلها، تم يتجه بعد ذلك إلى مهاجمة الإمارة نفسها بعد أن يتمكن من سبر غور دفاعاتها، ومعرفة نقاط الضعف فيها، وكذلك نقاط القوة، ومن ناحية أخرى من الطبيعي تصور أن نصيحة أمير حران لزنكي بإسقاط الرها لم تكن لتغير من الموقف شيئاً لم يكن زنكي قد خطط مسبقاً لذلك، بل أغلب الظن أن سقوط تلك الإمارة من الصعب تصور حدوثه على النحو الذي يصوره لامونت، بل أنها في الأغلب كانت من مخططات الزنكيين منُذ أمد بعيد، أما تعليل عدم تبكير زنكي، بالاستيلاء عليها، فذلك مرجعه إلى عدم رغبته في إجهاض قوته الحربية في صدام مبكر مع الصليبيين غير مضمون النتائج خلال مرحلة حكمه المبكرة، ولذا فمن الممكن اعتبار توقيت الاستيلاء على الرها – على نحو ما فصلته المصادر اللاتينية والسريانية، والعربية، يعتبر بحق من أبرز دلائل حنكة زنكي السياسية يبدو أن إدعاء لامونت بأن إسقاط الرها كان بعيد عن سياسة عماد الدين زنكي هو أكبر الإدعاءات التي لا تجد سنداً تاريخياً يدعمها، فمن المعروف أن زنكي كان مشتركاً في جيش مودود، وبنص عبارة ابن الأثير: شهد معه حروبه [377] ، ولا ريب في أنه أدرك أهمية إسقاط الرها، بل إن ذلك الحلم ترسب في ذهنه منُذ زمن بعيد والمتصور أنه أراد النجاح فيما أخفق فيه مودود من قبل، وقد أعتقد أن إسقاطها أمر ضروري على اعتبار أنها الهدف الصليبي الأقرب إلى الموصل، كما أن تحقيق مثل ذلك الهدف من شأنه تيسير إتصاله بشمال الشام، وخاصة من خلال رؤيته التوحيدية الثاقبة [378].

---

[374] الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب ص 166.

[375] المصدر نفسه ص 166.

[376] المصدر نفسه ص 166.

[377] الباهر ص 17 الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 167.

[378] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 167.

– إن افتراض جون لامونت بأن زنكي كان يمكن أن يتحالف مع اللاتين من أجل مصلحته السياسية، افتراض يدعم حنكة عماد الدين زنكي السياسية، فقد لجأ إلى عقد الاتفاقيات مع الصليبيين أحياناً من أجل التقاط الأنفاس، وعدم الوقوع في آتون جبهتين جبهة الشرق بصراعه مع قواه السياسية وجبهة الصراع مع الصليبيين ثم أنه أراد أن يبعث الطمأنينة في نفوس الأخيرين من خلال مثل تلك الاتفاقات، في حين كان يبطن النية للإجهاز على الرها، ولذا جاءت عمليات الحصار من جانبه نحوها أمراً مفاجئاً لأهلها [379].

– أما القول بأن زنكي لم يكن هدفه الوحيد إسقاط الرها، بل إنه كان سعى أيضاً إلى بناء دولته على حساب جيرانه سواء المسلمين أو الصليبيين فينبغي ملاحظة أن كافة القيادات الإسلامية التي ظهرت خلال عصر الحروب الصليبية على امتداد القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادين/السادس والسابع الهجريين وساهمت في قضية الجهاد، كان لديها طابع ما من الطموح السياسي وكانت تسعى بالفعل إلى توطيد أركان دولها على حساب القوى السياسية المجاورة لها، غير أن العبرة هنا بأن الطموح السياسي –كما أشرت من قبل – يتم تفجيره في قضية الأمة بأسرها وهي الجهاد، لأن مثل تلك القيادات كان من الممكن أن ترضى العيش في ذلة وإنكسار مع الصليبيين ولا تتوسع على حسابهم تجنباً لإثارة المشكلات السياسية معهم ولسقوط القتلى والجرحى بل وتعرض مناطق نفوذها الأصلية لاعتداءات الغزاة غير أنها رفضت ذلك وقبلت التحدي الصليبي وأظهرت قدرتها على تغيير الجغرافية السياسية للمنطقة من خلال تبنيها لمشاريع الجهاد [380].

– من المهم أن تعرف أنه لا يخفى على دراسي تاريخ العلاقات الإسلامية مع القوى المسيحية في مرحلة الحروب الصليبية، كيف أن قطاعاً من المستشرقين حرص على سلب المسلمين إنجازاتهم، وشككوا في المراحل الناصعة من تاريخهم، كما أن هناك ثأراً ملازماً ذلك القطاع منهم لاسيما مع فكرة الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام، ولذلك حرصوا الحرص أجمعه على إنكارها، والتشكيك فيها، والإساءة إلى كافة التجارب الجهادية الماضية للمسلمين حتى لا يتبنوها في الحاضر والمستقبل، وهكذا من الممكن التقرير – بموضوعية ودون اعتساف في الأحكام – أن عصر الحروب الصليبية شهد نقلة نوعية في تطوير فكرة الجهاد في الإسلام، حيث أن الجهاد هذه المرة ضد عدو استقر على الأرض الإسلامية، بعد ضعف المسلمين من جراء صراعاتهم

[379] المصدر نفسه ص 167.

[380] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق الغرب ص 168.

مع بعضهم البعض، فإذا ما أدركنا أن هويتهم الدينية كانت في خطر أمام مشاريع التنصير التي علقت عليها البابوية آمالاً كباراً، أدركنا كم كانت فكرة الجهاد فكرة محورية في عصر الحروب الصليبية (381) ، إن المراجع الغربية حاولت تشويه صورة هذا المجاهد الكبير قديماً وحديثاً ومن أشهر الكتب المعاصرة، كتاب الحرب المقدسة، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم قالت صاحبة الكتاب كارين ارمسترونغ عن عماد الدين زنكي: لم يكن هذا بأي حال قدوة تحتذى، بل كان سكيراً عربيداً قلما يفيق من سكره، كما كان قاسياً بطاشاً مثل معظم رجال الحرب في عصره (382) ، وسيرة الرجل تكذب ما يقولون ووصفه مؤرخونا بالشهيد وهو وسام عالي الرتبة والمقام لا يعطي إلا لمن هو أهلاً لهذا الوصف الكبير، فقد قالوا في سيرته من أحسن سير الملوك وأكثرها حزماً للأمور وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف (383) ، وكان معظماً للشريعة ومقيماً لحدودها في دولته وقد كلف بذلك القضاة إن من أهداف بعض المستشرقين:

- تشويه رموز الجهاد لكي تبقى أجيالنا بدون قدوات تقوي العزائم وتنهض بالهمم.
- إضعاف روح الفداء والتضحية والشهادة والجهاد في الأمة حتى يستطيعوا سوقها كالبهائم.
- محاولة فصل الأمة عن تاريخها بالأكاذيب والتشويه حتى لا ترجع إلى تاريخها الحافل فتستخرج منه الدروس والعبر.
- كانت كتابتهم تنبثق من روح صليبية حاقدة على الأبطال الذين ساهموا في إفشال المشروع الصليبي وذلك حاول المستشرقين تشويه صورة عماد الدين زنكي.
- إن سيرة عماد الدين ومن حوله من أعوانه المخلصين كالقاضي الشهرزوري تقطع بدون شك بكذب أولئك المستشرقين الذين حاولوا طمس الحقائق والصاق التهم الباطلة بذلك الرجل العظيم، فتجربته الجهادية تستحق الدراسة والتحليل العميق مع ربط ما وصلنا إليه من دروس وعبر بواقعنا المعاصر، لكي نستفيد منها في السعي الجاد لنهضة الأمة.

8- **مدح الشعراء لعماد الدين عند فتح الرها :** إن كثيراً من الباحثين والكتاب لم يهتموا بالأدب في الحروب الصليبية، بل إن الكثير منهم أطلقوا عليه أدب الإنحطاط، آخذين بأقوال وآراء المستشرقين الذين

---

[381] المصدر نفسه ص 168.

[382] الحرب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم ص 245.

[383] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (157/1).

رغبوا في أن نبتعد عن دراسة تاريخ وأدب هذه الحروب لأسباب كثيرة منها رغبتهم في عدم إطلاعنا على وحشية الصليبيين وقسوتهم، ثم حتى لا نشعر بالعزة والفخر ونحن نقرأ عن تاريخ الأبطال المسلمين عرباً وأكراداً وأتراكاً – يقودون الجيوش وهم يحملون راية الإسلام – مقاتلين ومجاهدين ومنتصرين يترفعون عن القوميات والوطنيات الجاهلية وتجمعهم حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته، إن أدب هذه الفترة ما زال بحاجة إلى دراسات مستفيضة، ثم إلى إعادة تقييم وحينئذ سنجد أن آراءنا قد تغيرت تغيراً إيجابياً لإننا سنجد فيه الكثير مما يستحق الدراسة وسنجد الكثير من الأشعار اللطيفة الرقيقة في الحماسة ووصف المعارك ومديح الأبطال وسنجد الشعر الحزين الباكي في رثائهم [384] وهذه باقة طيبة من الأشعار متعلقة بفتح الرها ومدح عماد الدين زنكي فقد وصف ابن الأثير جيش عماد الدين في خروجه لفتح الرها فقال:

بجـيش جـاش بالفُرسـان حـتى
ظننـت الـبَرَّ بحـراً مـن سـلاح

وألسـنة مـن العـذبات حُمْـر
تخاطبنـا بأفـواه الـرِّياح

وأروع جيشـه ليـلٌ بهـيم
وغُرَّتـه عمـود للصـباح

صـفوح عنـد قدرتـه ولكـن
قليـل الصـفح مـا بـين الصـفاح

فكـان ثباتـه للقلـب قلبـاً
وهيبتـه جناحـاً للجنـاح [385]

أ- القيسرني يمدح عماد الدين في فتح الرها: قال الشاعر:

هـو السـيف لا يغنيـك إلا جـلاده

---

[384] شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص 10.

[385] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (139/1).

وهـــــل طّـــــوق الأمـــــلاك إلا نجـــــاده

لقد كان لهذا الفتح رنة فرح في نفوس الناس وبفتح الرها تغيرت نظرة الفرنج إلى قوة المسلمين، وأعادها عماد الدين زنكي إلى ديار الإسلام بعد أن حكمها الفرنج نصف قرن ومما جاء في القصيدة:

وعـــن ثغـــر هـــذا النصـــر فلتأخـــذ الظُّـــبي
سـَــــناها وإن فـــــات العيـــــون اتقـــــاده

سمـــــت قبـــــة الإســـــلام فخـــــراً بطولـــــه
ولم يـــــك يســـــمو الـــــدين لـــــولا عمـــــاده

وذاد قســـــيُم الدَّولـــــة ابـــــنُ قســـــيمها
عـــــــن الله مـــــــالا يُســـــــتطاعُ ذيادة

لِـــــيَهْنِ بي الإيمـــــان أمـــــنٌ ترفَّعَـــــتْ
رواســـــيه عـــــزّاً وأطمـــــأنَّ مهـــــادة

وفـــــتحٌ حـــــديثٌ في الســـــماع حديثـــــه
ســـــهيٌّ إلى يـــــومِ المِعَـــــادِ مُعَـــــاُده

أراح قلـــــوباً طِـــــرْن مـــــن وُكُناتِهـــــا
عليهـــــا فـــــوافى كـــــلَّ صـــــدر فـــــؤادُهُ

لقـــــد كـــــان في فـــــتح الرُّهـــــا دلالِـــــة
علـــــى غـــــير مـــــا عنـــــد الُعلُـــــوجِ اعتقـــــاده

يُرَجُّـــــون مـــــيلاد ابـــــن مـــــريم نصـــــرة
ولم يُغْـــــنِ عنـــــد القـــــوم عـــــنهم ولاده

مدينـــــة إفـــــك منُـــــذ خمســـــين حِجَّـــــة
يِفـــــلُّ حديـــــد الهنـــــد عنهـــــا حـــــداده

تفـــوتُ مـــدى الأبصـــار حـــتى لـــو أنهـــا
ترقـــــت إليـــــه خـــــان طرْفـــــاً ســـــواده

وجامحـــــةٌ عـــــزَّ الملـــــوكَ قِيادُهـــــا
إلى أن ثناهـــــا مـــــن يعـــــزُّ قيـــــاده

فأوســــــعها حـــــــرَّ القِـــــراع مُؤيَـــــدٌ
بصـــــــيرٌ بتمـــــــرين الألـــــــدَّ لِـــــــدَادةٌ

كــــأنَّ ســــنا لَمْـــعِ الأســـنَّةِ حولـــه
شــــــرارُ ولكـــــــن في يديـــــــه زناده

فأضـــــرمها ناريـــــن: حـــــرباً وخدعـــــة
فمـــــا راع إلا ســـــــورُها وإنهـــــداده

فصَّـــدت صُـــدُودَ البِكْـــر عنـــد افتضاضـــها
وهيهـــات كـــان الســـيف حتمـــاً ســـفاده [386]

فيمـــا ظَفَـــراً عمّـــا الـــبلاد صـــلاحه
بمـــن كـــان قـــد عـــمَّ الـــبلادَ فســـاده

فـــــلا مُطْلَـــــقٌ إلا وشُـــــدّ وثاقـــــه
ولا مُوثَـــــــقٌ إلا وحُـــــــلَّ صِـــــــفاده

ولا مِنـــــــبرٌ إلا تـــــــرنحَّ عُـــــــوُده
ولا مصـــــــــحف إلا أنار مــــــــداده

فـــإن يثكـــل الإبرنـــز فيهـــا حياتـــه
وإلا فقـــل للـــنجم كيـــف سُـــهادُهُ

وباتـــت ســـرايا القمـــص نقمـــص دونهـــا
كمـــا يتـــرّى عـــن حريـــق جـــراده

إلى إيـــن يا أســـرى الضَّـــلالة بعـــدها
لقـــد ذَلَّ غـــاويكم وعَـــزَّ رشـــاده

رُوَيْـــدكُمُ لا مـــانع مـــن مُظفَّـــر
يعانِـــدُ أســـباب القضـــاء عِنـــادُهُ

مُصـــيبُ ســـهام الـــرأي لـــو أن عَزْمَـــهُ
رمـــى سَـــدَّ ذي القـــرنين أصـــمى سَـــدادُهُ

---

[386] في رواية : نفاده.

وقـــل لملـــوك الكُفـــر سُـــلِّم بعـــدها
مَمالكهــــا إن الـــبلاد بــــلاده
كـــذا عـــن طريـــق الصُّـــبح أيتهـــا الـــدُّجى
فيـــا طالمـــاً غـــال الظـــلام امتـــدادُهُ
ومـــن كـــان أمـــلاك السَّـــمواتِ جنـــده
فأيـــــة أرض لم ترضـــــها جيـــــاده
ولله عــــزم مــــاءُ ســــيحان ورده
وروضـــة قســـطنطينية مســـتراداه [387]

وله قصيدة هنَّأ بها القاضي كمال الدين بن الشهرُزُوري أَوّلُها : هي جنة المأوى فهل من خاطب يقول فيها:

إن الصَّـــفائح يـــوم صـــافحت الرُّهـــا
عطفـــت عليهـــا كـــل أشـــوس ناكـــب
فـــتح الفتـــوح مبشَّـــراً بتمامـــه
كـــالفجر في صـــدر النَّهـــار الأيـــبِ
لله أيّـــــة وقفـــــة بدريـــــة
نُصـــرت صـــحابتها بأيمـــن صـــاحب
ظفَّـــر كمـــال الـــدين كنـــت لقاحَـــه
كـــم ناهـــض بالحـــرب غـــير محـــارب
وأمـــدكم جـــيشُ الملائـــك نصـــرةً
بكتائـــب محفوفـــة بكتائـــب
جنبـــوا الَّبـــور وقـــد تم ريـــح الصـــبا
جنـــدُ النبـــوة هـــل لهـــا مـــن غالـــب
أتـــرى الرُّهـــا (الورهـــاء) [388] يـــوم تمنعـــت

---

[387] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (143/1).

لا أيـــــن يا أســــرى المهالـــــك بعـــــدها
ظنـــت وجـــوب الســـورِ ســـورة لاعـــب

شـــــدًّا إلى أرض الفرنجـــــــة بعـــــــدها
ضـــاق الفضـــاء علـــى نجـــاة الهـــارب

أفغَـــــرّكم والثّــــأرُ رهـــــنُ دمـــــائكم
إن الـــــدُّرُوبَ علـــــى الطريـــــق اللأَّحـــــب

وإذا رأيـــــت الليــــث يجمــــع نفســــه
مـــا كـــان مـــن إطـــراق لحـــظ الطَّالـــب

دون الفريســـة فهـــو عـــينُ الواثـــب [389]

ب- ابن منير يمدح عماد الدين في فتح الرها:

صـــفاتُ مجِـــدكَ لفـــظ جـــلَّ معنـــاه
فـــــلا اســـــتردَّ الـــــذي أعطاكـــــه الله

يا صـــــــارماً بيمـــــــين قائمُــــــــةُ
وفي أعـــــــالي أعـــــــادي اللّهِ حَـــــــداَّه

أصـــــبحت دون ملـــــوك الأرض منفـــــرداً
بـــــلا شـــــبيهٍ إذ الأمـــــلاكُ أشـــــباه

فـــداك مـــن حاولـــت مســـعاك هِمتُـــهُ
جهـــــلاً وقصَّـــــرَ عـــــن مســـــعاك مســـــعاه

قـــل للأعـــادي ألا موتـــوا بـــه عمـــداً
فـــــالله خيـــــبَّكم والله أعطـــــاه

مَلْـــكٌ تنـــام عـــن الفحشـــاء هِمتَّـــهُ

---

388 الورها: الخرقاء.

389 كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (144/1).

تقى وتسهر للمعروف عيناه

ما زال يَسْمُكُ والأيام تخدمه
فيما ابتلاه وتُدْني ما توخّاه

حتى تعالت عن الشَّعْرى مشاعره
قدراً وجاوزت الجوزاء نعلاه

وقد روى الناس عن فتح أُتيح له
مظّلٌ أفف الّدنيا جناحاه

على المنابر من أنبائه، أرج
مقطوبة بفتيق المِسْك رَياه

فتحٌ أعاد على الإسلام بَهجَتهُ
فافتَّر مبسُمه واهتزّ عِطْفَاه

يُهْدَى بمتعصم بالله فتكته
حَديثها نَسَخ الماضي وأنساه

إن الرُّها غير عمُّوريةٍ وكذا
مَن رامها ليس مَغْزَا، كمغزاه

أخذت الكواكب عِزَّا ما بغى أحُد
من الملوك لها وَقْما [390] فواتاه

حتى دلفت لها بالعزم يشحذه
رأيٌ يبيتُ فُوَيْقَ النَّجْم مسراه

مشمَّراً وبنو الإسلام في شُغلٍ
عن بَدْءِ غرْس لهم أثمار عقباه

يا مُحيي العَدْلِ إذ قامت نَوَادبَهُ
وعامر الجُودِ لمامحَّ [391] معناه

390وقماً : أي ذلاً.

يا نعمـــــة الله يستضـــــفي المزيــــد بهـــــا

للشـــــــاكرين ويســـــــتقني صـــــــفاياه

أبقـــــاك للّـــــدين والـــــدُّنيا تحوطُهمـــــا

مـــن لم يُتوَّجْـــك هـــذا التّـــاج إلا هـــو [392]

ولابن منير أيضاً من قصيدة أخرى يقول فيها:

أيا مِلكـــــاً ألقـــى علـــى الشَّـــرك كلكـــلاً

أناخ علـــــى أماتـــــه كَلْكَـــــلُ الُّثكـــــل

جمعـــــت إلى فـــــتح الرُّهـــــا ســـــدّ بابـــــه

بجمعـــك بـــين النَّهْـــب والأَّسْـــر والقتـــل

هـــو الفـــتحُ أنـــس كـــلَّ فـــتح حديثـــه

وتـــــوَّجَ مســـــطورَ الرَّوايـــــة والنَّقْـــــلِ

فضضـــــت بـــــه نقـــــشَ الخـــــواتِمِ بعـــــده

جُزيـــتَ جـــزاءَ الصـــدق عـــن خـــاتم الرســـلِ

تجـــــــردت للإســـــــلام دون ملوكـــــــه

تُبتَـــــذكُ أســـــباب المذلَّـــــةِ والخـــــذل

أخـــو الحـــرب غَدَّتْـــهُ القـــراع مفطَّمـــاً

يشـــوب بإقـــدام الفـــتى حُنْكَـــة الكهـــل

وقال أيضاً:

بعمـــاد الـــدين أضـــحت عـــروة الـــدين

معصـــــوبا بهـــــا الفـــــتح المبـــــين

391مرّ : خلق ودرس.

392أماته: مفردها أم والجمع أمات أو المهات.

واستزادت بقسيم الدَّولة
القسم في إدحاض كيد المارقين
ملك أسهر عيناً لم يزل
هُّمها تشديد هَمَّ الرَّاقدين

لاخَلْت من كَحَل النَّصْر فقد
فقأت غيظاً عيون الحاسدين
كلَّ يوم مرّ من أيامه
فهو عُيد عائد للمسلمين
لو جرى الإنصاف في أوصافه
كان أولاها أمير المؤمنين
ما روى الرَّاوون بل ما سَّطروا
مثل ما خَطَّتْ له أيدي السنين
إذ أناخ الشرك في أكنافه
بمئي ألفٍ تلاها بمئين
وقعة طاحت بكلب الروم من
قطعه التَّين إلى قطع الوتَيْنْ [393]
إن حمت مصر فقد قام لها
واضح البرهان أن الصَّين صينْ
والرُّها لو لم تكن إلا الرُّها
لَكَفَتْ حسماً لشك المُمترين
درج الدّهر عليها مُعصِراً
لم تدنس بمرام اللاّمسين
هَمَّ قسطنطين أن يَفْرعَهَا

---

[393] الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

ومضـــى لم يَحـــوِ منهـــا قِسْـــطَ طـــين

ولكـــــم مِـــــنْ مَلِـــــكٍ حاولهـــــا

فتحلَّــــــى الحـــــين وسمـــــا في الجبـــــين

هـــــي أخـــــت الـــــنجم إلا أنّهـــــا

منـــــه كـــــالنجم لـــــرأي المبصـــــرين

مُنِيَـــــتْ منـــــه بليـــــث قائـــــدٍ

بِعـــــران [394] الـــــدُّلّ أســـــاد العـــــرين

زارهـــــا يـــــزأرُ في أســـــد وغًـــــى

تبـــــدل الأســـــد في الـــــزأر الأنـــــين

صـــــولجوا البـــــيضَ [395] بضـــــرب نثـــــر

الهـــــام في ســـــاحاتها نثـــــر الكُـــــرِيْن [396]

يا لهـــــا هَمَـــــةُ نَغْـــــرٍ أضـــــحكت

مـــــن بـــــني القُلْـــــفِ [397] ثغـــــور الشَّـــــامتين

بَرْنَسَـــــــتْ رأسَ بـــــــرنسٍ ذِلـــــــةً

بعـــــدما جاســـــت حـــــوايا جوســـــلين

وســـــــروج مُـــــــذْوعت أســـــــراجه

فَرَّقَـــــتْ جُمَّاعهـــــا عنهـــــا عِضـــــين

تلـــــك أقفـــــال رماهـــــا الله مـــــن

عزمـــــه الماضـــــي بخـــــير الفـــــاتحين

شـــــامَ منـــــه الشُّـــــامُ برقـــــاً ودْقُـــــه [398]

مـــــؤمنُ الخـــــوف مخيـــــفُ الآمنـــــين

---

[394] العران: خشبة تجعل في وتر أنف البعير وهو ما بين المنخرين.

[395] أي جعلوا السيوف صوالجة، مفردها: صولجان.

[396] مفردها كرة: وهي التي يلعب بها بالصولجان.

[397] القُلْقِ: أي الذين لم يختنوا ويعني الصليبيين.

[398] ودقة: مطرة.

كـــــم كنـــــيس كُنِســـــت آرامهـــــا
منـــه بعـــد الـــروح في ظـــل السَّـــفين

إلى أن قال:

همــــة تمســــي وتضــــحي عزمـــةٌ
لــــيس حصـــن إن نحتـــه بحصـــين
قـــــل لقــــوم غــــرهّم إمهالـــــه
ســـــتذوقون شــــذاه بعــــد حــــين
إنــــه المــــوت الــــذي يــــدرك مــــن
فــــر منـــــه فشـــــجاً للغــــــافلين
وهـــــو يُحيـــــي مُمســـــكي عُروتـــــه
إنهـــــا حبـــــل لمـــــن تاب متـــــين
مـــن يطـــع يـــنج ومـــن يعـــص يكـــن
مـــــن غـــــداةْ عـــــبرةُ للأخـــــرين
أقســـــم الجـــــد بأن تبقـــــي لكـــــي
تملـــــك الأرض يمينـــــاً لا يمـــــينْ [399]
وتُفـــــيض العـــــدل في أقطارهـــــا
منســـــياً مـــــؤلم عســـــف الجـــــائرين
لا تـــــزل دارُك كيـــــف انتقلـــــت
كعبـــــة محفوفـــــة بالطـــــائفين
كـــــل يـــــوم يتحلـــــى جُيـــــدها

---

[399] لايمين : لا يكذب.

مــــن نظـــيم المـــدح بالـــدُّرِّ الثمــــين

كلمــــــا أُخلـــــص فيهـــــا دعـــــوةٌ

لـــك قالـــت ألسْـــنُ الخلْـــفِ أمـــين[400]

9- الأحداث العسكرية بعد فتح الرها:

كان فتح الرها بداية لها ما بعدها، إذ لم يكن من الصعب على عماد الذين زنكي أن يستكمل مهمته بفتح باقي المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة، فاستغل فرصة تضعضع أحوال الصليبيين في المنطقة [401]، واتجه إلى سروج التي تخلت حاميتها عنها مولية الفرار واستولى عليها، وما لبثت الحصون المجاورة أن أخذت تسقط في يديه واحدة تلو الأخرى [402]، وجعل لا يمّر بعمل من أعمالها ولا معقل من معاقلها، إلا سّلم إليه في الحال [403]، ثم يمم وجهه صوب قلعة البيرة الحصينة المطلة على الفرات، وكانت من أهم الحصون التي تبقت لجوسلين الثاني، وأشدها مناعة ففرض الحصار عليها وقطع عنها ما كان يصل إليها من القوت والميرة والمعونة حتى أشرفت على الاستسلام، وحينذاك بلغ زنكي نبأ مقتل نائبه في الموصل فاضطر إلى فك الحصار والإسراع بالتوجه إلى مقر إمارته لإقرار الأوضاع فيها: إلا أن صليبي الحصن خافوا من مهاجمته إياهم ثانية، فأرسلوا إلى حسام الدين تمرتاش الأرتقي وأعلموه برغبتهم في التنازل له عن موقعهم هذا، قبل أن يسقط بيد عدوهم اللدود. وهكذا فقط صليبيو الرها كافة حصونهم الواقعة شرقي الفرات [404]، كنتيجة مباشرة لسقوط القاعدة الأم بيد زنكي، ولم يتبق لجوسلين من إمارته الواسعة سوى عدد من الحصون المنتشرة غربي الفرات كتل باشر ومرعش ودلوك وسميساط وعينتاب وعزاز [405] واستطاع نور الدين محمود – فيما بعد – أكتساحها جميعاً، ومحو أولى الإمارات الصليبية من الوجود [406].

400كتاب الروضتين (149/1).

401تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 156.

402ذيل تاريخ دمشق ص 280 عماد الدين زنكي ص 156.

403ذيل تاريخ دمشق ص 280 عماد الدين زنكي ص 157.

404مفرج الكروب (96/1) عماد الدين زنكي ص 157.

405عماد الدين زنكي ص 157.

406عماد الدين زنكي ص 157.

10- من أساليب عماد الدين زنكي في محاربة الصليبيين:

لم يقتصر عماد الدين زنكي، في قتاله للصليبيين على الحروب النظامية، فحسب، إذ كان ذلك يقتضي منه البقاء باستمرار في بلاد الشام، واستنفاد قواه في قتال أعدائه هؤلاء، وعدم تمكنه – بالتالي – من التفرغ لتصفية مشاكله العديدة في العراق وأدرك أهمية الاستفادة من الغارات، أي الهجوم والإنسحاب السريع، سيما في فترات غيابه عن الشام، ذلك أن هذا النوع من القتال سيتيح له الحصول على نتائج هامة، أولها أقلاق الصليبيين وعدم أعطائهم المجال لإعادة تنظيم قواتهم، ورسم الخطط الهجومية على مواقع المسلمين في المنطقة، ومن ثم تمكين هؤلاء من الدفاع عن مراكزهم والاحتفاظ بها، وثانيها إضعاف قوى العدو العسكرية والاقتصادية، بما تحدثه – هذه الحروب – من قتل وأسر ونهب وتخريب، وثالث تلك النتائج قطع الاتصال بين المراكز الصليبية شمالي الشام، وعدم إعطائهم الفرصة للتجمع وتوجيه ضربة موحدة ضد المسلمين (407)، وقد اعتمد زنكي في هذا النوع من القتال على محاربي التركمان، ومهد لذلك بتوثيق علاقاته بقادتهم وإسناد كبرى المناصب الحربية إليهم وقد عمل زنكي على توفير القيادة الحاذقة من التركمان ايتكين، ولجة التركي والياروق وغيرهم، والمحاربين الشجعان، للقيام بشن ما يطلق عليه اليوم حروب المقاومة والعصابات، وجعل من حلب مركزاً لهم نظراً لأهمية موقعها بالنسبة للحصون الصليبية والإسلامية على السواء، فهي تتوسط أنطاكية والرها الصليبيتين، وتسيطر على خطوط المواصلات بينهما، كما أنها تعد خير قاعدة عسكرية لتوجيه الهجمات السريعة ضد مواقع وتحركات الصليبيين، وقوافل امدادهم وتموينهم وقد قامت هذه الجماعات من التركمان بشن غارات عديدة ضد جيوش الأعداء ومعسكراتهم، وقوافلهم ومراكز تجمعهم، ولم تخل سنة من سني الصراع وحروب العصابات كان يقوم بها هؤلاء التركمان، ويلحقون – بفضلها – خسائر مختلفة في صفوف أعدائهم، ففي رجب من عام 524هـ على سبيل المثال جهز زنكي قوة عسكرية أغارت على عزاز الصليبية وعاشت في بلاد جوسلين أمير الرها (408) وفي العام التالي حدث اشتباك بين سوار وجوسلين، شمالي حلب، أسفر عن انتصار الصليبيين ومقتل عدد من المسلمين، مما دفع سوار إلى القيام بهجوم على ربض الأثارب، والاستيلاء على مقادير من أموالهم ومحاصيله ثم ما لبث، بعد عام واحد 526هـ أن أوقع بصليبي تل باشر وقتل منهم خلقاً كثير (409) ولم يتوقف سواء وجنده التركمان عن شن الغارات ضد الصليبيين كلما اتيحت الفرصة لذلك، وشهد صفر من عام 527هـ عدة اشتباكات بين الطرفين، وقع

---

[407] عماد الدين زنكي ص 158.

[408] مفرج الكروب (4/1) عماد الدين زنكي ص 159.

[409] عماد الدين زنكي ص 160.

أحدها بالقرب من قنسرين، أثر قيام بلدوين بيت المقدس بمحاولة للهجوم على أطراف حلب، حيث تصدى له سوار، وجماعة من جنده، وأسفر القتال عن هزيمة المسلمين وإنسحابهم إلى حلب، إلا أن قائدهم الشجاع ما لبث أن خرج بهم ثانية ووقع على طائفة منهم فأوقع بهم وأكثر القتل والأسر، وانهزم من سلم منهم إلى بلادهم وعاد إلى حلب حاملاً معه رؤوس القتلى والأسرى وكان يوماً مشهوداً [410] ، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى قام صليبيو الرها بمحاولة جديدة للإغارة على أعمال حلب، فخرج إليهم سوار يصحبه الأمير حسان البعلبكي أمير منبج، وأوقع بهم على حين غرة، وتمكن من إبادة عدد كبير منهم، وأسر الباقين، ثم قفل عائداً إلى حلب دون أن يصاب أحد من جنده بأذى [411] وفي جمادي الآخرة من نفس العام قام سوار على رأس قوة من الفرسان بالأغارة على تل باشر، فتصدى له صليبيو ذلك الموقع، إلا أنه تمكن من هزيمتهم، وحصد رؤوس ألف رجل، حملها معه إلى حلب [412] . وفي ربيع الأول من العام التالي سار صاحب موقع القدموس الصليبي إلى قنسرين، على رأس قوة من فرسان أنطاكية، فلقيهم عسكر حلب بقيادة سوار وأسفر القتال عن انتصار الصليبيين واضطر قائد زنكي إلى مصالحتهم، إلا أنه ما لبث أن باغت إحدى سرياهم بهجوم سريع وتمكن من قتل معظم أفرادها، ثم قفل عائداً إلى حلب: فسر الناس بذلك بعد مساءتهم، ولم يمض سوى وقت قصير حتى أغار فرسان الرها على أطراف حلب الشمالية في طريقهم إلى إحدى المعسكرات الصليبية فأوقع بهم سوار وحليفه أمير منبج، وأباد عدداً كبير منهم، بينما وقع معظم الباقين في الأسر [413] ، ثم ما لبث سوار أن قام – في نفس العام – بغارة واسعة على المواقع الصليبية في منطقة الجزر [414] ، وزردنا، وأوقع بأعدائه عند حارم تم عاد إلى حلب محملاً بالغنائم والأسلاب [415] ، وأخذ نطاق الغارات والهجمات المفاجئة يتسع شيئاً فشيئاً، وشهد رجب من عام 530هـ محاولة واسعة قام بها سوار، إذ سار على رأس ثلاثة آلاف فارس من التركمان وفاجأ بلاد اللاذقية وأعمالها بهجوم مباغت لم يكن الصليبيون يحسبون له أي حساب، وتمكن بذلك من أسر سبعة آلاف أسير، والحصول على مقادير كبيرة من الغنائم، واجتياح عشرات من القرى والمزارع الصليبية ملأ المسلمون أيديهم منها بالأسرى والغنائم، وقد استبشر مسلموا المنطقة أيما استبشار لهذا النصر الكبير الذي أحرزه سوار، والذي كان بالنسبة لصليبي الشمال نكبة

---

[410] ذيل تاريخ دمشق ص 240 – 241 عماد الدين زنكي ص 160.

[411] عماد الدين زنكي ص 160.

[412] المصدر نفسه ص 161.

[413] زبدة حلب (252/2).

[414] الجزر : إحدى كور حلب معجم البلدان (71/2).

[415] زبدة حلب (254/2) عماد الدين زنكي ص 161.

لم يمنوا بمثلها [416] والواقع أن ما شاهدته أنطاكية، خلال عامي 529هـ،530هـ من فتن داخلية بسبب النزاع على الحكم، أسهم إلى حد كبير في عجز هذه الإمارة عن الدفاع عن نفسها إزاء هجمات المسلمين [417] الأمر الذي دفع قائدهم إلى استغلال الفرصة وتحقيق نصر كبير ضد صليبي الشمال وفي أواخر العام التالي قام سوار بهجوم مباغث ضد سرية بيزنطية كبيرة العدد، كانت تتقدم شرقاً، وتمكن من قتل وأسر عدد من أفرادها تم قفل عائداً إلى مقره في حلب [418] ، ولم تمض سوى أشهر معدودات على هذا الهجوم حتى قام الصليبيون والبيزنطيون بإرسال قوات مشتركة لاحتلال قلعة الأثارب القريبة من حلب، وبعد أن حققت هذه القوات هدفها، وأوكل إليها حراسة أسرى المسلمين الذين جمعوا في هذا الموقع. إلا أن سوار ما لبث أن خرج على رأس قواته وهاجم الحامية الصليبية والبيزنطية، وتمكن من استخلاص معظم أسرى المسلمين من أيديهم، وعاد بهم إلى حلب التي عمها السرور وسادتها الأفراح لهذا النصر الذي حققه أميرها [419] وفي عام 533هـ هاجم سوار عدداً من المواقع الصليبية واستولى على بعض الغنائم، إلا أن فرسان الصليبيين تمكنوا من اللحاق به وإنزال هزيمة بقواته أسفرت عن أسر ما يزيد عن ألف فارس منهم، وانسحب هو إلى حلب بمن سلم من جنده [420] واستمرت المناوشات بين الطرفين طيلة السنين التالية، وأصابها بعض الفتور خلال عامي 534هـ - 535هـ . أثر فشل زنكي في الاستيلاء على دمشق، وتحالف الصليبيون والدمشقيون ضده إلا أن هذه المناوشات ما لبثت أن استعرت من جديد في عام 536هـ والسنين التي تلته، ففي الأشهر الأولى من هذا العام قام الصليبيون بهجوم سريع ضد بعض المواقع الإسلامية غربي حلب، ولدى تفرقهم، أرسل سوار قوة من التركمان بقيادة ابنه علم سبيل تحقيق برنامجه المزدوج أي تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين وقد اتضح لنا من خلال استعراض علاقة عماد الدين زنكي بالقوى الإسلامية كامارات المدن والإمارات المحلية في الجزيرة والشام، والقبائل الكردية والتركمانية – مدى قدرته السياسية وبراعة خططه العسكرية خلال علاقاته السلمية والحربية مع هذه القوى المنبثة في المنطقة، فهو من الناحية الرسمية كان قد تسلم من السلطان السلجوقي "محمود بن محمد بن ملكشاه " عام 522هـ منشوراً يقر سلطته الشرعية على الموصل والجزيرة والشام، وقد تأكد هذا المنشور خلال الأعوام التالية. إلا إنه لم يكن كافياً لتثبيت سلطته الفعلية في هذه الفترة التي استطاع فيها عدد كبير من الأمراء أن يفرضوا سلطتهم على عدد لا يحصى من المدن والأقاليم،

[416] ذيل تاريخ دمشق ص 255 – 256) عماد الدين زنكي ص 161.

[417] الحروب الصليبية، العريني (510/1) عماد الدين زنكي ص 161.

[418] عماد الدين زنكي ص 162 زبدة حلب (263/2).

[419] الكامل في التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكي ص 162.

[420] زبدة حلب (271/2) عماد الدين زنكي ص 162.

مستقلين إلى حد كبير عن السلطة السلجوقية ومستفيدين من مجموعة من العوامل الشخصية والسياسية والجغرافية والاقتصادية والبشرية، فكان لابد لزنكي إذن، من إخضاع هذه العدد الكبير من السلطات المتمركزة في المنطقة، ومن اختيار أسلوب الهجوم، منُذ البداية بالرغم مما يحيق بهذا الأسلوب من أخطار أولها احتمال تشكيل حلف دفاعي مضاد من الأمراء العادين وقد يتحول هذا الحلف فيما بعد إلى حلف هجومي، كما حدث بالنسبة للأراتقية وثاني تلك الأخطار عدم وجود خط رجعة في حالة إنكساره أو إنسحابه أمام الأمراء المحليين الذين كانوا يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم. إلا أنه لم يأبه لهذه الأخطار، وراح يهاجم الأمراء المحليين منُذ البداية، دفعه إلى ذلك طموحه وشجاعته الشخصية، وإطمئنانه إلى قاعدة شعبية تحبه وتخلص له لمواقفه السابقة تجاه الصليبيين، قبل أن يتولى الحكم في الموصل، كما ساعده على ذلك منشور السلطان، آنف الذكر بتسلم الموصل والجزيرة والشام، وما كان يتضمنه من اعتراف بحرية زنكي في الاشتباك مع التشكيلات السياسية المحلية واكتساحها، والتوسل بأية وسيلة يراها مناسبة لتحقيق هذا الهدف [421] ، ولكن الأهم من ذلك كله ما تمتع به زنكي من مقدرة سياسية وعسكرية وما تميز به من نظر بعيد. ذلك أنه عرف – منُذ البدء – أنه إذا ما سلك سبيل المسالمة والتودد تجاه الأمراء المحليين فإن حصونهم ومدنهم وإماراتهم ستظل تشكل عوامل خطر ضد إمارته، لقربها منها، ولاستراتيجية مواقعها إذ تشكل نقاط تسلط مرتفعة، إنحدارها باتجاه الموصل، وخطوطها الخلفية سلاسل جبلية وأنهار متشابكة وحصون منيعة. كما أن السياسة الانعزالية التي اتبعها أولئك الأمراء تجاه الخطر الصليبي المتقدم نحو الشرق، وما تبع ذلك من تشتيت لإمكانات المسلمين البشرية والعسكرية والاقتصادية، قد أدت إلى عجز هذه الإمارات عن الوقوف بوجه هذا الخطر الصليبي الزاحف هذا في الوقت الذي كان على زنكي فيه أن يعمل على إزالة العقبات التي تقف أمام توحيد الإمارات المتفرقة، المبعثرة، في جبهة إسلامية موحدة الدين، أغارت على المواقع الصليبية وتوغلت إلى أسوار أنطاكية، ثم عادت تحمل معها كثيراً من الغنائم والأسلاب [422] وبعد فترة قصيرة أغار لجة التركي على بعض المناطق الصليبية في الشمال فساق وسبى وقتل، وذكر أن عدد القتلى بلغ سبعمائة رجل [423] ، وفي رمضان من العام نفسه هاجم سوار معسكراً صليبياً عند جسر الحديد، إلى الشمال الشرقي من أنطاكية، بعد أن اجتاز بقواته نهر العاصي صوب تجمعات العدو، وتمكن من قتل معظم أفراد المعسكر، وأسر الباقين [424] ، وما لبث أمير أنطاكية أن خرج – في العام التالي – للأغارة على وادي بزاعة القريب

[421] عماد الدين زنكي ص 165.

[422] زبدة حلب (275/2) عماد الدين زنكي ص 162.

[423] عماد الدين زنكي ص 163 زبدة حلب (275/2).

[424] زبدة (276/2) عماد الدين زنكي ص 163.

من حلب، فتصدى له سوار وأجبره على الإنسحاب. وتمكن جوسلين من الفرصة فقام بهجوم على تجمعات المسلمين عند ضفاف الفرات، وتمكن من أسر تسعمائة رجل منهم، ثم أرتأى الطرفان عقد هدنة بينهما لم يكن لأمير أنطاكية نصيب فيها [425] ، وهكذا ظل القتال مستمراً بين هذه الإمارة وقوات حلب وعندما خرجت طائفة كبيرة من تجار أنطاكية وفي جمادي الأولى من عام 538هـ - تحرسها قوة من الفرسان في طريقها إلى بعض البلاد الصليبية المجاورة ومعها مال كثير وأموال ومتاع باغتها المسلمون، وأوقعوا بها، وتمكنوا من إبادة كافة أفراد القوة التي خرجت لحمايتها، وغنموا ما كانت تحمله من بضائع قيمة [426] وفي أواخر ذي القعدة من العام نفسه هاجمت مجموعة من فرسان حلب قوة من الفرسان الصليبيين الخارجين من فرسان حلب قوة من الفرسان الصليبيين الخارجين من باسوطا وأبادوهم، وأسروا صاحب باسوطا حيث اعتقله سوار في حلب [427].

عاشراً : حصيلة الدور السياسي العسكري الذي لعبه عماد الدين على مسرح التاريخ الإسلامي:

يمكن القول بأن عماد الذين زنكي استطاع أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكون لنفسه مكانه خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارع وعسكري متمكن ومسلم واع أدرك الخطر الذي أحاط بالعالم الإسلامي من قِبل الصليبيين فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية، بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات تستطيع أن توقف الزحف الصليبي، ومن ثم تبدأ بالهجوم المنظم على قواعد الصليبيين هذه العوامل التي دفعت زنكي إلى اتباع سياسة الهجوم، والتي تخللتهاا أحياناً علاقات سلمية ومعاهدات استدعتها طبيعة الظرف الذي كان يمر فيه وفي نفس الوقت، عمل زنكي على تأمين حدود إمارته باتجاه الشرق والشمال الشرقي، حيث يشكل الأكراد والتركمان في هذه المناطق عناصر خطر بالغة ضد إمارته، لاسيما عند تأزم علاقاته بالإمارات الغربية، أو عند توغله بعيداً عن مقره في الموصل [428] . ومن تم تبدو لنا واضحة أهمية الدور الذي لعبه زنكي في التاريخ الإسلامي

---

[425] عماد الدين زنكي.

[426] ذيل تاريخ دمشق ص 278 زبدة حلب(2/277 – 278).

[427] زبدة حلب (2/278) عماد الدين زنكي ص 163.

[428] المصدر نفسه ص 166.

إذ يعتبر أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي ملم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من مودود بن التونتكين 502 - 507هـ وإيلغازي وبلك الأرتقيين 512 – 518هـ (429) ومن المرجح أنه لو تمكن زنكي من فتح دمشق وإنجاز محاولته لتوحيد الشام، ولو لم يقتل – وهو في قمة انتصاراته ضد الصليبيين – لكان قد استطاع أن يستكمل الأجزاء المتبقية من برنامجه، ولتكاملت أمام الباحث الحديث الصورة الواضحة للدور الذي قام به في التاريخ الإسلامي، وهو دور فاصل تتضح خطورته، إذا عرفنا أن نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين لم تكن جهودهما سوى اتمام العمل الذي بدأه عماد الدين زنكي وفي نفس الطريق (430).

سادساً : الحملة الصليبية الثانية: كان لسقوط الرها في أيدي المسلمين ردة فعل عنيفة في الغرب الأوروبي وباعثاً على السرعة في إرسال حملة صليبية جديدة، بعد أن أثار سقوطها الرعب في النفوس، ولا بسبب المكانة الدينية التي تتمتع بها هذه المدينة في تاريخ النصرانية فحسب، بل لأنها كانت أيضاً، أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الأدنى، فجاء سقوطها إيدانا بتزعز البناء الكبير الذي شيده الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى في الشرق الأدنى، وأدرك الغرب الأوروبي أنه إذا لم يسارع إلى ترميم ذلك البناء فإنه لن يلبث أن ينهار (431) وكانت نداءات الاستغاثة قد وصلت إلى البابا يوجنيوس الثالث من فرنج الشرق، فقد بعثت ملكة بيت المقدس بوفد رفيع المستوى إلى البابا لطلب النجدة بعد سقوط الرها (432) وأرسل البابا رسلاً إلى إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا يحثهما على الإسراع لنجدة فرنج الشرق من خطر المسلمين، وفي الوقت كلف أحد رجال الدين المشهورين في فرنسا اسمه برنارد بالدعوة للحرب ضد المسلمين في الشرق، فقام هذا القس بالدور الذي قام به البابا أوربان الثاني عام 490هـ/1095م أثناء الدعوة للحملة الفرنجية الأولى (433) ، لبى الإمبراطور كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا، دعوة البابا، وخرجا كل بجيشه عبر أوروبا باتجاه القسطنطينية ومن هناك عبرا مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى (434) .

---

429 عماد الدين زنكي ص 166.

430 المصدر نفسه ص 166.

431 تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 171.

432 دور نور الدين في نهضة الأمة ص 94.

433 المصدر نفسه ص 94.

434 المصدر نفسه ص 94.

1- السلاجقة يقضون على الجيش الألماني: كان الجيش الألماني يتقدم الجيش الفرنسي عدة أيام وعندما بلغ منطقة دوريليوم شرق مدينة نيقية نفس الموقع الذي انتصر فيه فرنج الحملة الأولى على السلاجقة بقيادة قلج أرسلان قبل خمسين عاماً، وقع الجيش الألماني في قبضة جيش السلطان مسعود أمير سلاجقة الروم في آسيا، فقد تراجع السلطان مسعود وفق خطة عسكرية ذكية حتى وصل الجيش الألماني تقدمه إلى قلب فريجيا، وكان السلطان مسعود قد نشر قواته على قمم الجبال المحيطة بهم ولما وصل الجنود الألمان إلى نهر باتيس قرب دوريليوم داهمهم الجيش السلجوقي، وكان قد استبد بهم التعب والظمأ فاختلت قيادتهم، وحاولوا الاحتماء في شعاب الجبال، لكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم وابلاً من السهام، وفقد الجنود الألمان ميزة استعمال السهام لإبعاء الأتراك في حين افتقرت خيالتهم إلى العلف، عندئذ قَّرر كونراد الثالث الإنسحاب والعودة من حيث أتى، لكن السلاجقة لم يتركوه وشأنه فهاجموا مؤخرة جيشه ومقدمته وقلبه، فدبَّت الفوضى في صفوفه وتعَّرض أفراده لأفدح الخسائر بين قتل وأسر والواقع أن القتال لم يكن سوى مذبحة مروعة، قتل فيها تسعة أعشار الجيش، وأصيب كونراد الثالث نفسه بجرحين أحدهما في رأسه [435]، حاول كونراد الثالث، عبثاً جمع شتات جيشه إلا أنه ترك ساحة المعركة عند المساء ممعناً في الفرار مع من تبقَّى من رجاله، وقليل ماهم، عائدين إلى نيقية، في حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم [436]، فقد غنموا كل ما في معسكرهم من مواد وخيول وأسروا أعداداً كبيرة منهم، ظلت الغنائم تباع في أسواق المدن الإسلامية عدة شهور[437] وبهذه الهزيمة الساحقة يمكننا التأكيد بأن الجيش الألماني قد فشل في تحقيق الغاية التي أتى من أجلها إلى الشرق، مما سيكون له أثر سيء على الحملة الصليبية الثانية [438].

2- سلاجقة الروم يعرقلون تقدم الجيش الفرنسي: خرج الجيش الفرنسي بقيادة الملك لويس السابع متأخراً عن الجيش الألماني وكانت القوات الفرنسية مساوية في العدد تقريباً للجيش الألماني إنما كان أكثر تنظيماً واصطحب لويس السابع معه زوجته اليانور [439] وفي الوقت الذي كان يجري فيه القتال بين السلاجقة والقوات الألمانية، عبرت القوات الفرنسية البوسفور إلى آسيا الصغرى، ووصلت إلى نيقية، وعلم

---

[435] تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 146.

[436] المصدر نفسه ص 146.

[437] ذيل تاريخ دمشق ص 197.

[438] تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 146.

[439] المصدر نفسه ص 147.

الملك الفرنسي بهزيمة الأمبراطور الألماني، فأسرع لمواساته ومساعدته [440] وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتخذها الملك الفرنسي فقد فأجاه السلطان السلجوقي مسعود في مدينة ديكيرفيوم قرب أنطاكية وراح يناوئ الصليبيين حتى بلغ الجسر المقام على النهر ونشبت في هذا المكان رحى معركة قاسية استطاع الصليبيون خلالها شق طريق لهم على الجسر عند ذلك تراجع مسعود إلى داخل أسوار المدينة، وتمكّن الصليبيون بعدهما من متابعة طريقهم، ولم يغامر مسعود بالهبوط إلى السهل لمطاردتهم، إلا أن القبائل التركمانية البدوية الضاربة في المناطق الحدودية، تصّدت لهم وأمطرتهم وابلاً من السهام، كما طاردتهم وتخطّفت بالقتل جنود المؤخرة والشاردين والمرضى، ولم يُنج الجيش الصليبي من الفناء الشامل سوى هبوط الظلام حيث انسحب التركمان [441] ولم يصل الجيش الفرنسي إلى أنطاكية إلا بعد أن تكبد خسائر هائلة، وبعد أن شفى الإمبراطور الألماني من مرضه أكمل رحلته إلى فلسطين بحراً على سفن الأسطول البيزنطي [442] ، والتقى الإمبراطور الألماني والملك الفرنسي في القدس مع الملك بلدوين الثالث ملك القدس وأمه مليزاند وكبار القادة ورجال الدين في مملكة القدس، وبحث الجميع موضوع الهدف الذي ستتوجه الحملة لاحتلاله وقرروا أن يكون هدفهم الأول دمشق [443].

3- الهجوم الصليبي على دمشق :

توجهت الجيوش الفرنجية المتحالفة نحو دمشق التي كان يحكمها آنذاك معين الدين أنر أتابك الملك مجير الدين أبق بن محمد بن بوري، الذي كان أكثر الأمراء المسلمين قرباً من الفرنج وتعاوناً معهم [444] ، ولذلك لم يكن يتوقع أن يكون الضحية الأولى لهذه الجيوش الفرنجية الضخمة، لكنه لم علم بنوايا الفرنجة ومسيرهم نحو دمشق اتخذ جميع الإجراءات اللازمة للدفاع عن المدينة وأرسل يسأل المساعدة من نور الدين محمود وسيف الدين غازي [445] ، كان من عادة نور الدين محمود تحليل الأوضاع الدولية والإقليمية ومتابعة الأحداث الجارية – وتحليلها بعمق ثم – ويخرج بالدروس والعبر التي تفيده في تقرير سياسته المستقبلية، وقد شكلت الحملة الصليبية الثانية الحدث الأكبر في المنطقة والعالم كله عام 543هـ/1148م وكانت بالنسبة لنور الدين

440المصدر نفسه ص 147.

441تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 147.

442دور نور الدين في نهضة الأمة ص 95.

443المصدر نفسه ص 95.

444المصدر نفسه ص 96.

445المصدر نفسه ص 96.

محمود الحدث الأول من نوعه بعد توليه الحكم عام 541هـ/1146م والذي يمارس عليه سياسته المذكورة، فقد كان نور الدين يتوقع أن تكون إمارته (حلب) الهدف الأول لهذه الحملة، لأنها تشكلت وتوجهت للشرق على خلفية سقوط مدينة الرها عاصمة إمارة الرها الفرنجية عام 539هـ/1144م، على يد عماد الدين ولكن الذي حصل أن الحملة غيَّرت هدفها المتوقع وتوجهت إلى دمشق وحاصرتها محاولة احتلالها، وكان هذا التغيير مفاجأة كبيرة لنور الدين، ومفأجاة أكبر لمجير الدين آبق حاكم دمشق وأتابكه معين الدين أنر المدبر الحقيقي لشؤون إمارة دمشق، كانت مفأجاة نور الدين معروفة الأسباب أما مفاجأة حكام إمارة دمشق فلأنهم كانوا أصدقاء الفرنجة الوحيدين من المسلمين في المنطقة وجرى بين الطرفين تعاون وثيق ضد عماد الدين زنكي عندما كان يحاول الاستيلاء على دمشق، ولم يكن متوقعاً من الفرنجة مهاجمة أصدقائهم في دمشق وترك عدوهم الأول في حلب، ولكن نور الدين محمود استفاد من هذا التغيير المفاجئ في هدف الحملة التي لم يحصل ارتجالا ولم يكن حماقة كما يذكر بعض المؤرخين [446] بل جاء بعد دراسة وتحليل للأوضاع في المنطقة قام بها قادة الحملة في اجتماعات مكثفة اشترك بها ملك بيت المقدس وقادته في مدينة عكا قبل الهجوم على دمشق [447] . لقد تأكد لنور الدين محمود المغزى الحقيقي لغزو الفرنجة السابق في الحملة الأولى والحالي في الحملة الثانية والذي لايمت بصلة إلى استرجاع قبر المسيح عليه السلام من المسلمين وتأمين طريق الحج إلى القدس على طوال الساحل شمالاً إلى القسطنطينية، كما كان يزعم زعماء الدين المسيحي الذين خططوا لهذه الحروب كما أن الهدف الحقيقي للحملة الفرنجية الثانية أبعد ما يكون عن الانتقام لسقوط الرها لأن الحملة توجهت إلى دمشق حليف الفرنجة في المنطقة ولم تتوجه إلى حلب أو الرها حيث يوجد من يتوجب الانتقام منه، فقد أدرك نور الدين محمود أن هدف الفرنجة الحقيقي هو احتلال المشرق الإسلامي والسيطرة عليه كما كانت الإمبراطورية الرومانية تسيطر عليه قبل الإسلام وأنهم لا يميَّزون في عملهم لتحقيق هذا الهدف بين إمارات ودول المسلمين فالحليف المتعاون معهم سواء عندهم مع المقاوم لسيطرتهم وتوسعهم المجاهد لتحرير البلاد من احتلالهم، فهم يقصدون احتلال بلاد الجميع والسيطرة على الجميع، وعلى هذا الأساس فإنه من الأفضل لهم البدء بدمشق التي تعتبر قلب بلاد الشام وأكثر الإمارات الإسلامية فيها مساحة وموارد ولكونها الأضعف عسكريا، ثم يتم بعد ذلك التحول إلى حلب والرها والموصل وغيرها، فالأمر إذن حرب شاملة لن يسلم منها المراقب عن بعد ظناً منه أن الخطر بعيد عنه، فدوره قادم ولو بعد حين، وإذا كان الأمر كذلك فإن نور الدين بما اشتهر به من سياسة بعيدة النظر، لابد أن يخوض هذه

---

[446] تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان ص 523.

[447] نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق ص 212 - 213.

الحرب من بدايتها فدمشق بالنسبة له، كحلب تماماً وهي في الوضع الراهن تشكل الخط الأول للدفاع عن حلب والموصل وباقي بلاد المسلمين ولذلك نراه يحشد جيشه إلى جانب جيش أخيه سيف الدين غازي أمير الموصل بالقرب من حمص وبعلبك لإجراء التنسيق اللازم مع حكام دمشق حول العمل المشترك لمواجهة الغزو الأجنبي، وكان لهذا الحشد الأثر الرئيسي في فشل الهجوم الصليبي على دمشق وقد خرج نور الدين محمود من هذا الحدث الكبير بدروس مهمة تؤكد قناعاته وتوجهاته السابقة. من هذه الدروس: الأهمية القصوى للوحدة بين الإمارات الإسلامية لمواجهة الخطر الفرنجي وتحرير البلاد من احتلالهم، ثم الأهمية الاستراتيجية لإمارة دمشق في المواجهة مع الفرنجة، وضرورة الاستيلاء عليها بأي ثمن، ومنها وضع التدخل الأوروبي في الصراع مع الإمارات الفرنجية في الاعتبار [448].

4- موقف رجال الدين المسيحي من الحملة الصليبية الثانية:

أما عن موقف رجال الدين المسيحي من خروج الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق، فإنه لم يكد نبأ سقوط الرها – في يد عماد الدين زنكي سنة 539هـ/1144م يتردد في عواصم غرب أوروبا حتى أثار مخاوفاً وقلقاً شديدين، وأدرك الصليبيون أن ذلك يمثل بداية النهاية لبقية الإمارات الصليبية في الأراضي المقدسة بالمسؤولين عن إمارة أنطاكية، واستقر الرأي على إرسال وفد إلى البابا يوجنيوس الثالث 540هـ – 548هـ/1145 -1153م) ليدعو إلى حملة صليبية جديدة فقامت بالفعل في أوروبا حركة كبيرة تدعو بكل حماس إلى سرعة القيام بهذه الحملة لإعادة إمارة الرها إلى المسيحيين وبادر البابا يوجينيوس الثالث بدعوة لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ليتزعما تلك الحملة. وقد رحب لويس السابع بطلب البابا، ودعا أتباعه للاجتماع به للنظر فيما يتخذ من الترتيبات ولما لم يبد هؤلاء أي حماس للاشتراك في هذه الحملة، قرر الملك لويس السابع تأجيل تنفيذ دعوة البابا لمدة ثلاثة شهور، ولجأ إلى أحد أعلام الدين المسيحي في مملكته، وهو القديس برنارد – رئيس دير كليرفو الذي كان يتمتع بشهرة كبيرة ويفوق الملك في السلطة على حد تعبير المؤرخ الإنجليزي رانسيمان، فقد كان له قدرة عظيمة على الإقناع والتأثير في الناس، ولم يكد الملك لويس السابع والبابا يوجينيوس يطلبان منه القيام بالدعوة للحملة الصليبية حتى أسرع القديس برنارد لتلبية هذا الطلب والعمل بكل قواه من أجل إنجاح هذا المسعى [449] ، وكما وقف البابا أوربان الثاني في كليرمونت يدعو للحملة الصليبية الأولى قبل ذلك بخمسين سنة وقف القديس برنارد

---

[448] دور نور الدين في نهضة الأمة ص 151.

[449] تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان (2/407 – 409).

خارج كنيسة فيزيليه في شوال 540هـ/مارس 1146م يدعو للحملة الصليبية الثانية، ونفذ ببلاغته إلى قلوب متعطشة للحرب والمغامرة فتشتعل ناراً، فلما استمع الناس لسحر بيانه وبلاغته وفصاحته، أخذوا يصيحون طالبين الصلبان، وعندئذ خلع القديس برنارد أرديته الخارجية فقطعت وحيكت صلبانا، وظل هذا القديس ومساعدوه يخيطون الصلبان لكل الذين تطوعوا للاشتراك في هذه الحملة (450) وبعد عدة أيام كتب القديس برنارد رسالة إلى البابا يتضح منها مدى تأثير رجال الدين المسيحي في الناس ومدى طاعة الناس لهم في ذلك الوقت فيقول فيها: لقد أمرتهم، فأطعت، وما كان لمن أصدر الأمر من سلطة، جعلت طاعتي مثمرة، فلم أكد أفتح فمي وأتحدث حتى تكاثر الصليبيون، فلا حصر لعددهم، فالقرى والمدن هجرها سكانها، فلا تكاد رجلاً واحداً لكل سبع نساء ويصادفك في كل مكان الأرامل اللائي لا زال أزواجهن أحياء (451) . وبعد ذلك أخذ الحماس يزداد عند القديس برنارد بعد النجاح الذي أحرزه في فرنسا، فأخذ يطوف أقاليم ألمانيا مؤملاً أن يجتذب الألمان للإشتراك في هذه الحملة وقد نجح إلى حد كبير في التأثير على كونراد الثالث ملك ألمانيا للانضمام إلى الحرب المقدسة، ويطلب منهم أن يقوموا بشرح الإعلان البابوي الذي بعث البابا إلى كافة مدن أوروبا من أجل أن يتحمل الجميع مسؤولية مساعدة الأرض المقدسة بفلسطين والعمل على تحريرها (452) ، واستقر رأي المشاركين في هذه الحملة على مهاجمة دمشق واحتلالها واشترك رجال الدين المسيحي جنباً إلى جنب مع الجند في حصار دمشق فكان مع الملك الألماني كونراد قسيس عجوز يدعى الياس، طويل اللحية، يعتقدون به، فلما حاصروا دمشق، ركب هذا القسيس حماره وعلق على عنقه صليبياً وحمل في يده صليبيا وجمع القساوسة بالصلبان وركب الملوك والفرسان بين يديه، ولم يتخلف من الصليبيين المشاركين في الحصار أحد إلا من تركوه لحفظ الخيام. ووقف هذا القسيس أمام الجميع وهو يتقدمهم قائلاً : لقد وعدني المسيح أني أفتح اليوم دمشق ولا يردني أحد. ولكن باءت نبؤته بالفشل إذ هاجمه أحد شباب المجاهدين فقتله وقتل حماره (453)

5- انتصار دمشق على الحملة الصليبية الثانية: في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة نازلت الفرنج دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فخرج المسلمون في دمشق للمصاف فكانوا مائة وثلاثين ألف رجل وعسكر البلد، فاستشهد نحو المائتين، ثم برزوا في اليوم الثاني فاستشهد جماعة، وقتل

450دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 254.

451المصدر نفسه ص 255.

452دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 255.

453المصدر نفسه ص 255.

من الفرنج عدد كثير، فلما كان في اليوم الخامس وصل غازي بن أتابك، وأخوه نور الدين في عشرين ألفا إلى حماه، وكان أهل دمشق في الاستغاثة والتضّرع إلى الله تعالى، وأخرجوا المصحف العثماني إلى صحن الجامع، وضجَّ الناس والنساء والأطفال – مكشفي الرؤوس، وصدقوا الافتقار إلى الله، فأغاثهم [454] وقال تعالى : "أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء" (النمل، آية :). وكان من أسباب الله التي جعل فيها النصر لأهل دمشق وصول جيوش الموصل وحلب في الوقت المناسب، فقد اتصل كل من سيف الدين غازي وأخوه نور الدين بمعين الدين أنر لتنسيق التعاون بينهم ضد الفرنجة وكان معين الدين أنر حاكم دمشق لم يكن يرغب بدخول سيف الدين ونور الدين دمشق وكان في الوقت نفسه يهدد الفرنجة بتسليم دمشق لسيف الدين أو لنور الدين إذا. حاولوا اقتحامها وراسل حكام القدس ووعدهم بتسليم حصن بنياس لهم إذا أقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بالإنسحاب عن دمشق، وترافقت هذه الاتصالات مع حدوث خلاف بين الفرنجة أنفسهم حول من سيحكم دمشق بعد احتلالها[455] ، قبل حكام القدس عرض معين الدين إنر؛ وأقنعو الإمبراطور كونراد والملك لويس بضرورة الإنسحاب خوفاً من تسليمها لسيف الدين غازي "ملك الشرق " [456] ، الذي إن تسلمها طمع باحتلال القدس وباقي الإمارات الفرنجية فيما بعد فيزول الوجود المسيحي كله من الشرق، انسحبت جيوش الفرنجة إلى فلسطين ومنها غادر الإمبراطور كونراد عن طريق البحر إلى القسطنطينية في طريق عودته لألمانيا، بينما تأخر الملك لويس عدة أشهر ثم غادر بطريق البحر إلى فرنسا [457] . وهكذا انتهت أكبر حملة فرنجية إلى الفشل الذريع بسبب تضامن الإمارات الإسلامية، كالموصل وحلب مع دمشق وسلاجقة الروم في وجه العدوان، وبسب توفر إرادة المقاومة والقتال في نفوس القادة، بعكس الوضع الذي حصل خلال الحملة الفرنجية الأولى التي حققت أهدافها باحتلال معظم بلاد الشام بسبب اختلاف هذه الإمارات وعدم توفر إرادة القتال وضعف روح المقاومة في نفوس الحكام، كان نور الدين محمود المستفيد الرئيسي من فشل الحملة الفرنجية الثانية " بعد حاكم دمشق " فقد برزت أهمية الدور الذي قام به وأخوه سيف الدين غازي في إرغام الفرنجة على الإنسحاب عن دمشق خائبين، وظهرت بالتالي أهمية التعاون والتضامن بين الإمارات الإسلامية في حمايتها من أطماع الفرنجة وهذا ما كان نور الدين محمود يسعى لتحقيقه باعتباره الخطوة الأولى على طريق الوحدة التي كانت تمثل الهدف الاستراتيجي له في سبيل تحرير البلاد من الاحتلال الفرنجي، أدرك نور الدين محمود بعد فشل الحملة الفرنجية الثانية الأهمية

---

[454] شذرات الذهب (219/6).

[455] تاريخ الحروب الصليبية (255/2).

[456] الباهر ص 89 دور نور الدين في نهضة الأمة ص 96.

[457] نور الدين محمود، حسين مؤنس ص 96.

الكبيرة لدمشق في مواجهة الفرنجة سواء من حيث موقعها الجغرافي المواجه الأكبر وأقوى الإمارات الفرنجة (مملكة القدس) أم من حيث إمكانياتها وكثرة مواردها وقوتها البشرية، فترسخت فكرة الاستيلاء عليها في نفسه وأخذ يسعى لتحقيق ذلك معتمداً الوسائل السلمية ومستفيداً من تجربة والده في هذا المجال [458] .

6- مشاركة فقهاء المغاربة للدفاع عن دمشق: لم يقتصر المشاركة الفعلية للفقهاء في القتال على فقهاء مدن بلاد الشام وحدهم، إذ تشير بعض الروايات إلى مشاركة أولئك الفقهاء المغاربة والأندلسيين الذين كانوا يقيمون ببلاد الشام في تلك المعارك، فعندما تعرض مدينة دمشق عام 543هـ/1147م للغزو الصليبي شارك أولئك الفقهاء جيوش مدينة دمشق لمواجهة ذلك الغزو؛ وكان منهم الفقيه المغربي حجة الإسلام أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي المالكي، والشيخ عبدالرحمن الحلحوني [459] وكان الشيخ الفندلاوي كبيراً زاهداً عابداً – خرج راحلاً، فراه معين الدين – حاكم دمشق – فقصده وسلَّم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قُوَّة على القتال، فقال قد بعت واشترى، فلا نُقيلهُ ولا نستقيله يعني قول الله تعالى : "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" (التوبة : 111) وتقّدم فقاتل الفرنج حتى قتل رحمه الله شهيداً [460] . واستشهد الشيخ الحلحوني بعد قتال واستبسال [461] ورؤي الشيخ الفندلاوي في المنام بعد استشهاده فقيل له: أين أنت ؟ قال في جنات عدن على سُرر متقابلين [462] .

7- ماقيل من شعر:

قال أبو الندى حسان بن نمير الكلبي في مدح مجير الدين صاحب دمشق:

عَـــرِّجْ علــــى نَجْــــدٍ لعلَّــــكَ مُنْجــــدِي

بنســـــيمها وبـــــذكر سُــــعْدى مُسْــــعِدى

مــــن قاتــــل الإفــــرنج دينــــاً غــــيره

[458] دور نور الدين في نهضة الأمة ص 97.

[459] موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 125.

[460] أخبار الروضتين (190/1).

[461] دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 117.

[462] أخبار الروضتين (191/1).

ردَّ الأمــــانَ بكــــلِّ نَــــدْب باســــل
والخيـــلُ مثـــل الســـيل عنـــد المشـــهد
ومـــن الســـيوف بكـــلِّ عَضْـــب أبـــيض
ومـــن الجيـــاد بُكـــلِّ نهـــد أجْـــرَدِ
حـــتى لـــوى الإســـلام تحـــت لوائـــه
ومـــن العَجَـــاج بكـــلِّ نقـــع أســـود
وغـــدا بحمـــد مـــن شـــريعة أحمـــد [463]

سابعاً : نتائج الحملة الصليبية الثانية:

هناك مجموعة من النتائج تمحضت عنها الحملة الصليبية الثانية منها:

- **أججت العداء الغرب أوروبي :** تجاه الأمبراطورية البيزنطية؛ إذ أن المعاناة التي لقيها الإمبراطور الألماني كونراد الثالث وكذلك الملك الفرنسي لويسع السابع من خلال الطريق البري الذي مر بمناطق بيزنطة أكد العداء المتأصل بين الطرفين وهو عداء سيتراكم طول القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري حتى يصل إلى ذروته مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري.
- **أثرت تلك الحملة على طبيعة الوجود الصليبي:** في الشرق، فالملاحظ أن الحركة الصليبية ارتبطت بحلف دفاعي استراتيجي مع الغرب الأوروبي، الذي وفر لها كل دعم مادي ومعنوي من أجل القيام والنمو والإزدهار، بل وفر لها كل حماية ممكنة وسط المحيط الإسلامي المعادي، والآن بعد المصير الذي وصلت إليه الحملة الثانية بكل الآمال التي علقت على نجاحها، اتضح لنا بجلاء، أن اعتماد الصليبيين على الدعم الأوروبي الخارجي خلال تلك الحملة الفاشلة، لم يغنيهم شيئاً، بل يضمن لهم الاستمرار بقوة من احتلال مناطق المسلمين طالماً أن أطماعهم لا تحد، وجشعهم ليس له حدود لقد ظل الوجود الصليبي في الشرق أشبه شيء برضيع لم يكتب له النمود الطبيعي من خلال ارتباطه المرضي بالوطن الأم في أوروبا وظل الاعتماد على ذلك الوطن نقطة ضعف لذلك

[463] أخبار الروضتين (193/1).

الوليد ليس لها حل حقيقي في آلية الصراع الصليبي الإسلامي (464) وهذا ما ينطبق على إسرائيل في هذا العصر.

- **عجز الكيان الصليبي بإمكاناته** المحلية عن تغيير واقع عام 539هـ/1144م وحتى مع الاعتماد على الوطن الأم عجز أيضاً وتعليل ذلك إلى جانب أخطاء الصليبيين إلى درجة لن تستطيع أن تعود معها عقارب الساعة إلى الوراء بل من الآن فصاعداً الإنجاز وراء الآخر حتى يتم طرد الصليبيين نهائياً من المنطقة لتصحيح خطا الانقسام الإسلامي الذي مهد للغزاة القدوم للمنطقة.
- **بروز نجم نور الدين محمود:** فالحملة المذكورة دعمت وجود نور الدين محمود في حلب إلى حد كبير، فعلى الرغم من خشية الدماشقه من تطلعاته السياسية، إلا أنهم صاروا على علاقات ودية معه أفضل من قبل تلك الأحداث (465)، وتدعم وضعه السياسي في شمال الشام، بصورة أقوى، فقد اعترف الدماشقة ضمنياً بقوة نفوذه السياسي، وطلبوا منه العون ضد مملكة بيت المقدس، حليفة الأمس (466).
- **ضعف حكام دمشق:** والحملة المذكورة تلقي الضوء على مدى الضعف الذي وصلت إليه أتابكية دمشق، إذ أنها لم تتمكن من مواجهة الزحف الصليبي عليها، ولذلك طلبت العون العسكري الخارجي ولا ريب في أن ذلك الوهن أدركه نور الدين محمود بصورة مؤكدة على نحو جعله يخطط أكثر من ذي قبل من أجل توحيد الجبهة الإسلامية وضم دمشق (467).
- **تدمير حصن العريمة:** استغل نور الدين محمود أول فرصة سنحت له للعمل المشترك مع معين الدين أنر فقد استعان رايموند أمير طرابلس بنور الدين ضد أحد أمراء الفرنجة الذين حضروا مع الحملة الفرنجية الثانية من ضمن الجيش الفرنسي هو برتراند كونت تولوز، لم يرجع هذا الأمير مع الجيش الفرنسي إلى فرنسا بعد انتهاء الحملة، وإنما توجه إلى الشمال في البحر محاذيا للشاطئ حتى صار بمحاذاة إمارة طرابلس نزل إلى البر ومعه

[464] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 184.

[465] الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 184.

[466] المصدر نفسه ص 185.

[467] المصدر نفسه ص 185.

فرسانه، فاقتحم حصن العريمة التابع لإمارة طرابلس وتحصن فيه وأعلن عن نيته في الاستيلاء على طرابلس معتبراً نفسه أحق بها من أميرها رايموند، ولم يتمكن رايموند أمير طرابلس من التغلب عليه، فحاول الاستعانة بباقي الإمارات الفرنجية وعندما لم يجد منهم استجابة بعث يستنجد بنور الدين ومعين الدين اللذين بادرا سرعة لحصار الحصن بقواتهما واستوليا عليه وأسرا كل من مكان فيه ثم دمراً الحصن حتى استوى مع الأرض، وعاد كل منهم إلى مدينته [468] ، وتدل هذه الحادثة على مدى الأثر السيء الذي أحدثه فشل الحملة الفرنجية الثانية على وضع الإمارات الفرنجية في المشرق الإسلامي [469].

- **كسر هيبة الصليبيين في نفوس المسلمين:** يعتبر العديد من المؤرخين فشل الحملة الصليبية الثانية تلك نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي – المسيحي، فبالإضافة إلى أنها أدت إلى إنحطاط هيبة الصليبيين في الشام مما شجع القوى الإسلامية على الغارة بجرأة على الإمارات الصليبية، ثم إنها كانت المناسبة التي ظهر فيها نجم آخر من نجوم الجهاد الصليبي هو نور الدين محمود زنكي الذي أحيا مشروع أبيه لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين وهو المشروع الذي سيستكمله صلاح الدين فينجح في التمهيد لإنهاء الحروب الصليبية، ولقد نجح نور الدين في استغلال الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية في توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق، ثم استأنف جهاده للصليبيين بنجاح مما شجع القوى الإسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والآراتقة والتركمان على التقدم لمواجهة الصليبيين خاصة في الرها وأنطاكية بل وتحالفوا أيضاً في جهودهم حتى استطاع نور الدين زنكي أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قيادته من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً فقامت دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التي ستمتد من الفرات إلى النيل للتصدي بحق لهذا الخطر الصليبي [470] هذه هي أهم النتائج.

المبحث الرابع : فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية:

---

[468] دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 97.

[469] المصدر نفسه ص 98.

[470] السقوط ص 136.

أولاً: جذور الشيعة الإسماعيلية والدولة الفاطمية:

بعد موت الإمام جعفربن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين ممن نسبوا أنفسهم إلى جعفر الصادق: فرقة: ساقت الإمامية إلى ابنه موسى الكاظم، وهؤلاء هم الشيعة الاثنى عشرية. وفرقة: نفت عنه الإمامة وقالت: إن الإمام بعد جعفر، هو ابنه إسماعيل وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية [471] . قال عبد القاهر البغدادي في شأن الإسماعيلية: وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل [472] . وقال الشهرستاني : الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثنى عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر قالوا: ولم يتزوج الصادق رحمه الله على أمه — أم إسماعيل — بواحدة من النساء ولا تسرى بجارية كسنة رسول الله في حق خديجة رضي الله عنها، وكسنة علي رضي الله عنه في حق فاطمة رضي الله عنها [473]. فالإسماعيلية إحدى فرق الشيعة وهي تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ولهم ألقاب كثيرة عرفوا بها غير لقب الإسماعيلية منها الباطنية، وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويل، ومنهم القرامطة والمزدكية، وقد عرفوا بهذين اللقبين في بلاد العراق، ويطلق عليهم في خراسان التعليمية الملحدة وهم لا يحبون أن يعرفوا بهذه الأسماء، وإنما يقولون : نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الإسم [474] .

وقد قامت الدولة الفاطمية الرافضية عام 296هـ/909م في الشمال الأفريقي على يدي أبو عبدالله الشيعي بعد سقوط القيروان أمام قواته وهروب زيادة التغلبي إلى مصر في جماد الآخرة عام 296هـ [475] وكانت بيعة عبدالله المهدي في القيروان عام 297هـ/910م وانتهت ولاية أبي عبدالله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين [476].

1- عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول: هو عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء الخوارج العُبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنو مذهب الإسماعيلية وبثوا الدُّعاة

---

[471] الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلاَّبي ص 35.

[472] الفرق بين الفرق ص 62.

[473] الملل والنحل (191/1).

[474] المصدر نفسه (192/1).

[475] موسوعة المغربي العربي (60/2).

[476] المرجع السابق (70/2).

يستغوون الجبلَّية والجهلة [477] ، وذكر ما قيل عنه في نسبه ثم قال: والمحققون على أنه دعيٌّ بحيث إنَّ المعزَّ منهم لما سأله السيد ابن طباطبا عن نسبه، قال غداً أخرجه لك، ثم أصبح وقد ألقى عُرمة من الذهب، ثم جَذبَ نِصْف سيفه من غمِدِه فقال: هذا نسبي، وأمرهم بنهب الذهب، وقال : هذا حسبي [478] وأما مفتي الديار الليبية رحمه الله الشيخ طاهر الزاوي فقد قال في ترجمة عبيد الله المهدي: هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها وهو عراقي الأصل، ولد في الكوفة سنة 260هـ واختبأ في بلدة سلمَّية بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام. ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سلميَّة كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن ميمون القداح، وفي منطقة سَلَمَّية مقر الإسماعيلية مات علي بن حسن بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية، وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحي [479] ، ثم قال: هذا أصل عبيد الله المهدي، وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه [480] ويذكر أن عبيد الله الشيعي عندما دخل إفريقيا "يعني تونس" : أظهر التشيع القبيح وسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه حاشا علي بن أبي طالب والمقداد وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري، وزعم أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ارتدوا بعده غير هؤلاء الذين ذكروا [481] . وكان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر كأنهم ذمة [482] تجري عليهم في كثير من الأيام محن شديدة، ولما ظهر بنو عبيد أمرهم ونصبوا حسيناً الأعمى السباب – في الأسواق للسب بأسجاع لُقنَّها يتوصل منها إلى سب الرسول صلى الله عليه وسلم في ألفاظ حفظها [483] مثل، العنوا الغار وماوعى والكساء وما حوى وغير ذلك والغار المقصود منه غار ثور الذي اختفى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه عن أعين المشركين التي كانت تطاردهم قصة الهجرة، وهذا اللفظ فيه سب للنبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر على حد سواء وكذلك فيه سب لآل البيت الذين

---

[477] سير أعلام النبلاء (141/15).

[478] المصدر نفسه (142/15)

[479] تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص 253.

[480] الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلاَّبي ص 47.

[481] جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 291.

[482] ترتيب المدارك (318/2).

[483] المصدر نفسه

حواهم الكساء [484] . وعلقت رؤوس الأكباش والحمر على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلقة مكتوب عليها أسماء الصحابة، واشتد الأمر على أهل السنة، فمن تكلم أو تحرك قتل ومُثّل به [485].

2- من جرائم العبيديين في الشمال الإفريقي:

ارتكب الشيعة الرافضة الإسماعيلية جرائم نكرة منها:

أ- غلو بعض دعاتهم في عبيد الله المهدي: حتى أنه أنزله منزلة الإله وأنه يعلم الغيب، وأنه نبي مُرسل، يقول بدر الدين بن قاضي شهبة: وكان له (أي المهدي) دعاة بالمغرب يدعون الناس إليه، وإلى طاعته، ويأخذون عليهم العهود ويلقون إلى الناس من أمره بحسب عقولهم، فمنهم من يلقون إليه أن المهدي ابن رسول الله وحجة الله على خلقه، ومنهم من يلقون إليه أنه الله الخالق الرازق[486] وأما زعمهم بأنه إله فيظهر من أفعال دعاته وأقوالهم وأشعارهم، فقد كان هناك رجل يدعى أحمد البلوي النحاس: يصلي إلى رقادة أيام كون عبيد الله بها، وهي منه إلى المغرب، فلما انتقل إلى المهدية وهي منه إلى الشرق صلى إليها [487] باعتبار أنها مثل مكة المكرمة – شرفها الله – وهذا الاعتقاد كان سائداً عند كثير من الناس يومها، فهذا أحد شعراء بني عبيد يقول في المهدية بعد انتقال المهدي إليها:

ليهنـــــك أيهــــا الملـــــك الهمــــام
قـــــدوم فيـــــه للـــــدهر ابتســـــام
لقـــــد عظمـــــت بأرض الغـــــرب دار
بهـــا الصـــلوات تقبـــل والصـــيام
هـــــي المهديـــــة الحـــــرم المـــــوقى
كمـــا بتهامـــة البلـــد الحـــرام
كـــأن مقـــام إبـــراهيم فيـــه
تـــرى قـــدميك إن عـــدم المقـــام

---

[484] جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 291.
[485] المصدر نفسه ص 291.
[486] الكواكب الدرية في السيرة النورية ص 204 - 205.
[487] البيان المغرب (258/1 – 259).

وإن لـــــثم الحجــــيج الــــركن أضــــحى
لنــــــا بعــــــراص قصــــــركم التشــــــام

لــــك الــــدنيا ونســــلك حيــــث كنــــتم
فكلكــــــم لهــــــا أبــــــداً إمــــــام [488]

ومن الشعر أيضاً في تأليهه ما مدحه بن محمد البديل حيث يقول:

حـــــــــل برقــــــــادة المســــــــيح
حـــــــــل بهــــــــا آدم ونــــــــوح

حـــــل بهــــــا أحمــــــد المصــــــطفى
حـــــل بهــــــا الكــــــبش والــــــذبيح

حـــــــــل بهــــــــا الله ذو المعــــــــالي
وكـــــــل شــــــيء ســــــواه ريــــــح

وأما زعمهم أنه كان يعلم الغيب، فيظهر من أيمان بعضهم حيث كان إذا أقسم يقول: وحق عالم الغيب والشهادة مولانا الذي برقادة [489] ومعرفة الغيب من خصوصيات الألوهية ولا يعلم الغيب إلا الله قال تعالى : " قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون " (النمل: 65) وقال تعالى : " وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " (الأنعام، آية:59) كما أن الحلف لا يكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت. وجاءت الأحاديث في النهي عن الحلف بالآباء [490].

---

488 البيان المغرب (221/1).

489 المصدر نفسه (221/1).

490 كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ص 90.

ب- التسلط والجور وإعدام كل من يخالف مذهبهم، هذا بالإضافة إلى كل ما ذكرناه آنفاً على لسان القاضي عياض في طعنهم في الصحابة وتعليق رؤوس الأكباش – الدالة في زعمهم – على أسماء الصحابة وغير ذلك من الأفعال القبيحة والشنيعة التي كانوا يقومون بها [491] وكان أجبار الناس على الدخول في مذهبهم بوسيلة التخويف بالقتل وقد نفذوا حكم الإعداد في أربعة آلاف رجل مّرة واحدة قال القابسي: إن الذين ماتوا في دار البحر – سجن العبيديين – بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عالم وعابد ورجل صالح [492] . هذا عدا ما كانوا يقتلون دون سجن ويمثل بهم في شوارع القيروان، فأثر ذلك على سير الحياة العلمية ومع ذلك فإن هذه المحنة لم تزد أهالي المغرب الإسلامي إلا عزيمة وصبراً واحتساباً وتمسكاً بالكتاب والسنة.

ت- تحريم الإفتاء على مذهب الإمام مالك : حرّموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي، حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادى عليه: هذا جزاء من يذهب مذهب مالك، ولم يبُيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم، كما فعلوا بالفقيه المعروف بالهزئي: أبو عبدالله محمد بن العباس بن الوليد المتوفى في عام تسع وعشرين وثلاثمائية [493].

ث- إبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة: والزيادة في بعضها كما فعلوا في زيادة: حتى على خير العمل : في الأذان وإسقاط صلاة التراويح [494] ، بعد أن تُرِكَ الناس يصلونها عاماً واحداً، ولهذا ترك أكثر الناس الصلاة في المساجد وياويح من يسقط عبارة: حى على خير العمل من الأذان، من ذلك ما روي أن عروس المؤذن ت 317هـ وكان مؤذناً في أحد المساجد، شهد عليه بعض الشيعة أنه لم يقل في أذانه، حي على خير العمل فكان جزاؤه أن قطع لسانه ووضع بين عينيه وطيف به في القيروان ثم قتل [495] ، إلا أن بعض العلماء فطن لكيد العبيديين وأغراضهم الخبيثة من وراء ذلك وهو إخلاء المساجد من المصليين، ودفعاً لهذه المفسدة أذنوا للمؤذنين أن يزيدوا حي على خير العمل: لأن تركها يؤدي إلى مفاسد أعظم ومن هؤلاء

---

491 جهود علماء المغرب ص 312.

492 مدرسة الحديث بالقيروان (76/1).

493 رياض النفوس (56/2).

494 جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 309.

495 البيان المغرب (182/1 – 183).

العلماء : أبو الحسن علي بن محمد بن مسرور العبدي الدباغ ت 359هـ [496] ، الذي كان من أهل الورع والعبادة والخشوع فقد فطن لغرض العبيديين، فكانوا أن قال للمؤذنين: أذنوا على السنة في أنفسكم فإذا فرغتم فقولوا: حي على خير العمل، فإنما أراد بنو عبيد إخلاء المساجد لَفِعلكُم هذا – وأنتم معذورون خير من إخلاء المساجد [497] .

ج– منـع التجمعـات: حرصت الدولة الفاطمية على منع التجمعات خوفاً من الثورة والخروج عليهم ولذلك جعلوا بوقاً يضربونه في أول الليل فمن وجد بعد ذلك ضرب عنقه، كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء [498] ، وهذا الفعل لا يزال مستمراً في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا ترى إلا ما يراه حاكمها وطاغوتها وفرعونها "ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد " (غافر، آية:29).

ح– إتـلاف مصنفات أهل السنة: أتلفوا مصنفات أهل السنة، ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد ابن أبي هاشم التجيبي ت 346هـ توفي وترك سبعة قناطير كتب، كلها بخط يده، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها : ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه [499].

خ– منع علماء أهل السنة من التدريس: منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السنة لا تقرأ إلا في البيوت خوفاً من بني عبيد فكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التبان وغيرهما، يأتيان إلى أبي بكر بن اللباد شيخ السنة بالقيروان في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفاً من بني عبيد [500] . وهذا المسلك لا زالت الدول القمعية في العالم الإسلامي تمارسه على شعوبها فبعضها تمنع هذا الأمر كلياً، وبعضها تسمح ببعض أمور الدين التي لا تصطدم مع مصالح الدول الكبرى.

---

[496] ترتيب المدارك (2/525 – 528).

[497] ترتيب المدارك (2/526).

[498] رياض النفوس (2/29).

[499] المصدر نفسه (2/423).

[500] مدرسة الحديث بالقيروان (1/76).

س- عطلوا الشرائع، وأسقطوا الفرائض عمّن تبع دعوتهم حيث يقع إدخالهم إلى داموس ويدخل عليهم عبيد الله لابساً فرواً مقلوباً داباً على يديه ورجليه فيقول لهم: (بَح) ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: فأما دخولي على يدي ورجلي فإنما أردت بذلك أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لا شيء، ولا ضوء ولا ولا صلاة، ولا زكاة، ولا أي فرض من الفروض، وسقط جميع ذلك عنكم، وأما لباس الفرو مقلوبا فإنما أردت أن أعلمكم انكم قلبتم الدين، وأما قولي لكم بَح، فإنما أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشرب الخمر [501].

ش- إجبار الناس على الفطر قبل رؤية الهلال: وكانوا كثيراً ما يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال [502] ، بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال كما فعلوا بالفقيه ابن الحُبُلى قاضي مدينة برقة قال الذهبي في ترجمته: الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة، محمد بن الحُبُلى أتاه أمير برقة، فقال : غداً العيد، قال: نرى الهلال، ولا أفطر الناس، وأتقلَّد إثمهم، فقال: لهذا جاء كتاب المنصور – وكان هذا من رأي العبيدية يفطَّرون بالحساب، ولا يعتبرون رؤية – فلم يُر هلال، فاصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي، فأمر الأمير رجلاً خطب. وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال له: تَنصَّلْ، وأعفو عنك، فامتنع، فأمر، فُعلقَّ في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يُسقَ، ثم صلبوه على خشبة فلعنة الله على الظالمين [503] .

ع- إزالة آثار خلفاء السنة: عمل حكّام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السنيين فقد أصدر عبيد الله أمراً بإزالة أسماء الحكام الذين بنو الحصون والمساجد وجعل اسمه بديلاً منهم واستول هذا الشيعي الرافضي الباطني على أموال الأحباس وسلاح الحصون، وطرد العّباد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزناً للسلاح [504] .

---

[501] رياض النفوس (504/2).

[502] مدرسة القيروان (73/1).

[503] سير أعلام النبلاء (374/15).

[504] رياض النفوس (29/2).

ل- دخول خيولهم المساجد: من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خيله دخلت المسجد، فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد؟ فقالوا : إن أوراثها وأبوالها طاهرة؛ لأنها خيل المهدي، فأنكر عليهم قيم المسجد، فذهبوا به إلى المهدي فقتله، يقول ابن عذارى: وإمتحن عبيد الله في آخر حياته بعلة قبيحة : دود في آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك [505] إن المسلمين المعاصرين يقرءون تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره، والمقصود نشر كتب الفلاسفة ولكن القليل من يذكر بطش هؤلاء الباطنية بالعلماء من أهل السنة، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون المعز لدين الله الفاطمي وكأنه بطل من أبطال التاريخ، وهذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدي الإسلامي لتاريخنا، بل إن بعض المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثروا بمدارس الاستشراق، أو بالفكر الشيعي الرافضي، وبذلت لهم الأموال لطمس الحقائق وتزوير التاريخ، ولا يزال الصراع الباطني والإسلامي ممتداً إلى يومنا هذا، فالأفكار لا تموت وإنما تتغير الأشكال والوجوه والمسوح وأن أعداء الإسلام لا يزالون يعملون سراً وإعلاناً ليلاً ونهاراً للقضاء على العقيدة الصحيحة التي تلقتها الأمة من الحبيب المصطفى وأصحابه الغر الميامين وأهل بيته الطاهرين الطيبيين رضي الله عنهم أجمعين.

3- أساليب المغاربة في مواجهة الدولة الفاطمية العبيدية: لقد سلك علماء السنة المغاربة في مقاومة التشيع أساليب عديدة، منها المقاومة السلبية، والمقاومة الجدلية والمقاومة المسلحة، وكانت هناك أنواع أخرى من المقاومة، مثل عن طريق التأليف وعن طريق نظم الشعر .. إلخ.

أ- المقاومـة السـلبية: أولى الوسائل التي استعملها علماء المغرب السنة في مقاومة التيار الشيعي: الوسيلة السلبية، ونعني بها: المقاطعة الجماعية التي قاطع بها علماء المغرب كل ماله صلة بالتشيع، أو بالحكم القائم وتمثلت تلك المقاطعة في مقاطعة قضاة الدولة وعمالها، ورفض من استطاع منهم دفع الضرائب لها [506] ومن مظاهر هذه المقاومة مقاطعة حضور صلاة الجمعة التي كانت مناسبة للعن أصحاب رسول الله على المنابر : فتعطلت بذلك الجمعة دهراً بالقيروان [507]، ومنهم من اكتفى بالدعاء عليهم كما فعل الواعظ

[505] أيعيد التاريخ نفسه محمد العبده ص 39.

[506] مقدمة حسين مؤنس على رياض النفوس ص 17.

[507] البيان المغرب (277/1).

عبد الصمد [508] ، وكما كان يفعل أبو إسحاق السبائي الزاهد إذا رقى رقية يقول بعد قراءة الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين: وببغضي في عبيد الله وذريته، وحبي في نبيك وأصحابه وأهل بيته أشف كل من رقيته [509] ومن مظاهر المقاومة السلبية أيضاً: مقاطعة كل من يسير في ركب السلطان واعتزاله وكل من كانت له صلة بهذا السلطان أو سعى إلى تبرير وجوده عملاً بقوله تعالى: "لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا ءاباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم" (المجادلة، آية :22). فهذا خلف بن أبي القاسم البراذعي (ت نحو 400هـ) [510] قام عليه فقهاء القيروان بصلته بملوك بني عبيد وقبوله هداياهم وتأليفه كتاباً في تصحيح نسبهم، وزادت النقمة عليه عندما وجدوا بخطه الثناء على بني عبيد متمثلاً ببيت الحطيئة [511]:

أولئـــك قـــوم إن بنـــوا أحســـنوا البنـــا
وإن عاهـــدوا أوفـــوا وإن عقـــدوا شـــدوا

لذلك كله أفتى فقهاء القيروان بطرح كتبه وعدم قراءتها وإزاء ذلك اضطر هو إلى الهجرة إلى الصقلية حيث حصلت له حظوة كبيرة عند أميرها[512].

ب- المقاومة الجدلية: كانت المقاومة الجدلية هي أقوى وأوسع أنواع المقاومة التي قام بها علماء السنة المغاربة ضد الشيعة الرافضة المنحرفين، وقد سطع في سماء هذه المساجلات العلمية والمناظرات العقدية عدد كبير من العلماء، وكانوا لسان أهل السنة الناطق والذاب عن بيضة هذا الدين، وممن لمع نجمه في ميدان المناظرة الشيخ عبد الله بن التبان (371 ت) [513] وقد اشتهر بسبب مناظرته لبني عبيد حتى ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار المختلفة لعلمه بالذب عن مذهب أهل السنة وكان هذا الإمام – فضلاً عن براعته في الجدل والمناورة شجاعاً مقداماً لا يهاب الموت، من ذلك ما ذكره المالكي والدباغ من أن عبد الله

---

[508] معالم الإيمان (237/3).

[509] معالم الإيمان (71/3).

[510] جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 324.

[511] المصدر نفسه ص 324.

[512] المصدر نفسه ص 324.

[513] ترتيب المدارك (517/2 – 524) شجرة النور الزنكية (95/1 – 96).

المعروف بالمحتال [514] ، صاحب القيروان قد شدد في طلب العلماء، فاجتمعوا بدار ابن أبي زيد القيرواني فقال لهم ابن تبان: أنا أمضي إليه، أبيع روحي لله دونكم، لأنه إن أتى عليكم وقع على الإسلام وهن عظيم [515] . وفعلاً ذهب إليه وأقام عليه الحجة هو وجماعته الذين جاء بهم ليناظروه وبعد أن هزمهم في مجلس المناظرة لم يخجلوا أن يعرضوا عليه أن يدخل في نحلتهم ولكنه أبى وقال: شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنتين وسبعين فرقة يقال له هذا ؟ لو نشر تموني في اثنتين ما فارقت مذهبي [516] ، ولما خرج من عندهم بعد بأسهم منه تبعه أعوان الدولة الفاطمية العبيدية وسيوفهم مصلتة عليه ليخاف من يراه من الناس عن تلك الحال، فإذا به وهو تحت الضغط يهدي الناس ويقدم لهم النصيحة، ويقول لهم دون خوف ولا وجل: تشبثوا، ليس بينكم وبين الله إلا الإسلام، فإن فارقتموه هلكتم [517] . وكان يخشى على العامّة من فتنة بني عبيد ويقول: والله ما أخشى عليهم الذنوب، لأن مولاهم كريم، وإنما أخشى عليهم أن يشكوا في كفر بني عبيد فيدخلوا النار [518] وممن اشتهروا بالذب عن الإسلام وأشهروا حجج الحق وبراهين العدل وإقامة الحجة على دعاة الدولة الفاطمية أبو عثمان سعيد بن الحداد 302ت) لسان أهل السنة وابن حنبل المغرب قال عنه السلمي: كان فقيها صالحاً فصيحاً متعبداً أوحد زمانه في المناظرة والرد على الفرقة [519] . وقال عنه الخشني: كان يرد على أهل البدع المخالفين للسنة وله في ذلك مقامات مشهودة وآثار محمودة ناب عن المسلمين فيها أحسن مناب، حتى مثله أهل القيروان بأحمد بن حنبل [520] . وقال عنه المالكي : وكانت له مقامات في الدين مع الكفرة المارقين أبي عبيد الله الشيعي وأبي العباس أخيه وعبيد الله أبان فيها كفرهم وزندقتهم وتعطيلهم [521] ، حاولت الدولة الفاطمية بالمغرب أجبار الناس على مذهبهم بطريقة المناظرة وإقامة الحجة مرة والتهديد بالقتل مرة أخرى، فارتاع الناس من ذلك ولجؤوا إلى أبي سعيد وسألوه التقية فأبى وقال : قد أربيت عن التسعين، ومالي في العيش حاجة، ولا بدلي من المناظرة عن الدين

---

[514] أحد عمال دولة بني عبيد.

[515] معالم الإيمان (113/3).

[516] جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 327.

[517] المصدر نفسه ص 327.

[518] معالم الإيمان (91/3).

[519] جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 328.

[520] طبقات الخشني ص 199 معالم الإيمان (209/2.

[521] رياض النفوس (75/2).

أو أن أبلغ في ذلك عذراً ففعل وصدق، وكان هو المعتمد عليه بعد الله في مناظرة الشيعة [522] ، ومن أشهر هذه المناظرات.

- **التفاضل بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما:** وأول هذه المناظرات كما يذكر صاحب المعالم حول التفاضل بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما فبعد الاجتماع بين ابن الحداد وأبي عبيد الله الشيعي؛ سأل أبو عبدالله الشيعي ابن الحداد : أنتم تفضلون على الخمسة أصحاب الكساء غيَرَهم – ؟ يعني بأصحاب الكساء : محمداً صلى الله عليه وسلم وعلياً وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، ويعني بغيرهم : أبا بكر رضي الله عنه — فقال أبو عثمان : أيما أفضل ؟ خمسة سادسهم جبريل عليه السلام؟ أو اثنان الله ثالثهما ؟ [523] فبهت الشيعي.
- **موالاة علي رضي الله عنه:** في هذه المناظرة أراد عبيد الله الشيعي أن يثبت أن الموالاة في قوله عليه الصلاة والسلام: من كنت مولاه فعلي مولاه [524] . بمعنى العبودية : قال له : فما بال الناس لا يكونون عبيداً لنا ؟ فقال ابن الحداد : لم يرد ولاية رق وإنما أراد ولاية الدين، ونزع بقوله تعالى : " ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون " (آل عمران، آية : 79 – 80) فما لم يجعله الله لنبي لم يجعله لغير نبي، وعلي رضي الله عنه لم يكن نبياً وإنما كان وزيراً للنبي صلى الله عليه وسلم [525] هذه إشارات عابرة وهي جزء صغير من مجموع المناظرات التي دارت بين الفريقين.

ج– المقاومة المسلحة: لم يكتف علماء المغرب بالمقاومة السلبية والمقاومة الجدلية، بل منهم من حمل السلاح وخرج ليقاتلهم، فهذا جبلة بن حمود الصدفي ترك سكن الرباط ونزل القيروان، فلما كلم في ذلك قال: كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر، والآن حل هذا العدو بساحتنا، وهو أشد علينا من ذلك وقال:

---

[522] معالم الإيمان (298/2) جهود علماء المغرب ص 329.

[523] سنن الترمذي، وتحفة الأحوذي رقم 3797 حسن غريب.

[524] المصدر نفسه.

[525] جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 331.

جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الشرك [526] . واستدل بقول تعالى : "يا أيهاّ الذين ءامنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار " (التوبة، آية : 123) ومنهم الإمام: أبو القاسم الحسن بن مفرج ت 309هـ الذي كان من أوائل من خرج على الشيعة ومات شهيداً ، قتله عبيد الله المهدي وصلب هو ورجل يدعى أبا عبدالله السدري الذي كان من الصالحين وكان قد بايع على جهاد عبيد الله وجعل يحث الناس على جهاده فبلغ خبره عبيده الله، فأمر بقتله[527]، ثم إن العلماء خطوا خطوة أكبر بإصدار فتوى بوجوب قتال الدولة الفاطمية العبيدية وكان ذلك بعد اجتماع وتشاور بين علماء السنة وتحالفوا مع أهل القبلة ضد الفاطميين الذين حكموا عليهم بالكفر لمعتقداتهم الفاسدة قال الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني : خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي رحمه الله – مع شيوخ إفريقية إلى حرب بني عبيد مع أبي يزيد، فكان أبو إسحاق يقول – ويشير بيده إلى عسكر أبي يزيد هؤلاء من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة – يريد عسكر بني عبيد – فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من "هو" على غير القبلة – فإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي، والله عز وجل يسلط عليه إماماً عادلاً فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا. والذين خرجوا معه من الفقهاء والعباد: أبو العرب ابن تميم، وأبو عبدالملك مروان نصروان وأبو إسحاق السبائي وأبو الفضل وأبو سليمان ربيع بن القطان [528] وغيرهم كثير [529] وفي الموعد المحدد خرج العلماء ومن ورائهم وجوه القوم وعامتهم في أعداد غفيرة لا يحصيهم عد، ولم يتخلف من العلماء والصلحاء أحد إلا العجزة، ومن ليس عليهم حرج، وكان ربيع القطان من طليعة الصفوف راكباً فرسه، وعليه آلة الحرب متقلداً مصحفه وهو يقول: الحمد لله الذي أحياني حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك وأعداء نبيك [530] وقد أبلى العلماء في تلك المواجهة بلاء حسناً، وقدموا صور حقيقية للجهاد في سبيل الله لأعداء الإسلام، واستشهد منهم مالاً يقل على الثمانين عالماً، منهم ربيع القطان والمميسي وغيرهما، وحققوا انتصاراً باهراً وكادوا يستولون على المهدية، لولا أن ساعة الغدر حلت ورجعت الكرة عليهم، حين خدعهم أبو يزيد وأسفر عن وجهه القبيح المناوئ لأهل السنة وأمر جنده أن ينكشفوا عنهم بقوله: إذا التقيتم مع القوم فانكشفوا عن أهل القيروان حتى يتمكن أعداؤكم من قتلهم لا نحن فنستريح منهم [531].

---

[526] معالم الإيمان (185/2) جهود علماء المغرب ص 337.

[527] رياض النفوس (169/2 – 172).

[528] الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلاَّبي ص 78.

[529] المصدر نفسه ص 78.

[530] معالم الإيمان (37/3 – 42).

[531] البيان المغرب (218/1).

وكان غرضه من تلك الفعلة الشنيعة والخدعة المنكرة : الراحة منهم لأنه فيما ظن إذا قتل شيوخ القيروان وأئمة الدين تمكن من أتباعهم فيدعوهم إلى ما شاء الله فيتبعونه (532) فهزم شر هزيمة حيث انضم عدد غير قليل من جنده إلى صفوف عدوه ولم يبق له من الجند إلا القليل، وقتل شر قتلة، وكانت نهايته يوم 30 محرم سنة 336هـ (533) ، وقد أثرت هذه المواجهة بين السنة والشيعة على الساحة المغربية فيما بعد، حيث استمرت المقاومة فيمن جاء بعدهم حتى بعد خروج بني عبيد من المغرب، فكانوا يبحثون عن مراكز وجود الشيعة، فإذا عثروا عليهم قتلوهم وسلبوا أموالهم، فقد ذكر ابن عذارى في البيان المغرب أنه: كان بمدينة القيروان قوم يتسترون بمذهب الشيعة من شرار الأمة انصرفت العامة إليهم من فورهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً رجالاً ونساءً وانبسطت أيدي العامة على الشيعة وانتهبت دورهم وأموالهم (534) ، ويصف القاضي عياض هذه الحادثة: وكان إبتداء ذلك اليوم الجمعة منتصف المحرم، قتلت العامة الرافضة أبرح قتل بالقيروان وحرقوهم وانتهبوا أموالهم، وهدموا دورهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم، وجروهم بالأرجل، وكانت صيحة من الله سلطها عليهم، وخرج الأمر من القيروان إلى المهدية وإلى سائر بلادهم فقتلوا وأحرقوا بالنار، فلم يترك أحد منهم في إفريقية إلا من اختفى (535) . وهكذا كان هذا النوع من المقاومة هو أشد الأنواع وأنكاها، طهر الله به أرض المغرب من بدعة التشيع الباطني الرافضي.

ح- المقاومة عبر التأليف: وكانت المقاومة عبر التأليف من الوسائل المجدية والنافعة في مقاومة الشيعة والتي كان لها أثر طيب في إقلاقهم وقض مضاجعهم وإعلانهم الحرب على من يفعل ذلك، كما كان لها أثر في تبصير العامة بالحق وإرساء دعائم السنة وكانت هذه المؤلفات تنقسم إلى نوعين:

– المؤلفات التي تتناول مسائل العقيدة جملة وفق منهج أهل السنة والجماعة، ومن بين المسائل التي تتناولها مسألة الإمامة عند أهل السنة وأفضلية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهما، وشرعية خلافة الثلاثة خلافاً للشيعة الرافضة والترضي عن أصحاب رسول الله جميعاً من غير تفريق بينهم، واعتبارهم جميعاً عدولاً خلافاً للشيعة الذين يكفرونهم ويفسقونهم عدا نفر قليل منهم فهذا النوع من التأليف كان له أثر عميق في تبصير الناس بدينهم ونشر المذهب الحق فيهم، حتى أصبحوا يعتبرون كل من خالف هذه العقيدة مخالفاً

---

[532] البيان المغرب (218/1).

[533] جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 344.

[534] البيان المغرب (268/1).

[535] ترتيب المدارك (625/2).

للإسلام وخارجاً عن جماعة المسلمين يجب فيه كل ما يجب في الكافر من المعاداة والقتال والمقاطعة وغير ذلك من المعاملة، لعله يرتدع ويرجع ويتوب [536].

– والنوع الثاني: المؤلفات التي ألفت للرد على الشيعة خاصة وعلى عقائدهم الباطلة: وهذا النوع من التأليف –كما سبق الحديث عنه – جاء نتيجة ظروف خاصة أوجبت على أهل السنة الرد عليهم، وتفنيد شبههم ودحض باطلهم من هذا الصنف من المؤلفات نذكر كتابي "الإمامة" اللذين ألفهما الإمام محمد بن سحنون، وهما أعظم ما ألف في هذا الفن، يقول عيسى بن مسكين: وما ألف في هذا الفن مثلهما [537]، وكتاب الإمامة للإمام إبراهيم بن عبد الله الزبيري، وكتاب الرد على الرافضة له أيضاً، واللذان كانا السبب في محنته وسجنه وضربه من قبل الدولة الفاطمية العبيدية، فهذا النوع كان له أثره في المقاومة [538].

خ- مقاومة شعراء أهل السنة: إلى جانب وسيلة التأليف كانت هناك وسيلة نظم الشعر لهجو بني عبيد وذمهم، وقد برز في هذا الميدان كثير من الشعراء منهم: أبو القاسم الفزاري، فقد وصفهم ووصف سلوكهم فقال:

عبـــــدوا ملـــــوكهم وظنـــــوا أنهـــــم
نالـــوا بهـــم ســـبب النجـــاة عمومـــا
وتمكـــــن الشـــــيطان مـــــن خطـــــواتهم
فـــــأراهم عـــــوج الضـــــلال قويمـــــا
رغبـــوا عـــن الصـــديق والفـــاروق في
أحكـــــامهم لا ســـــلموا تســـــليما
واســـتبدلوا بهمـــا ابـــن الأســـود نابحـــاً
وأبا قـــــدارة واللعـــــين تميمـــــا
تبعـــوا كـــلاب جهـــنم وتأخـــروا

---

[536] جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 349.
[537] المصدر نفسه ص 349.
[538] المصدر نفسه ص 349.

أمـــن اليهـــود ؟ أم النصـــارى ؟ أم هـــم
عمـــــن أصـــارهم الإلـــه نجومـــا

أم هـــم مـــن الصـــائبين أم مـــن عصـــبة
دهريـــة جعلـــوا الحـــديث قـــديما

أم هـــــم زنادقـــــة معطلـــــة رأوا
عبـــدوا النجومـــا وأكثـــروا التنجيمـــا

أم عصـــبة ثنويـــة قـــد عظمـــوا
أن لا عـــــذاب غـــــداً ولا تنعيمـــــا

ســـبحان مـــن أبلـــى العبـــاد بكفـــرهم
النـــورين عـــن ظلمـــاتهم تعظيمـــا

وبشـــركهم حقبـــاً وكـــان رحيمـــا

يارب فــــــــالعنهم ولقهـــــــــم
بأبي يزيـــد مـــن العـــذاب أليمـــا [539]

ومن أشهر ما قاله قصيدته الرائية التي انتشرت في الآفاق والبلدان والتي قال فيها:

عجبـــت لفتنـــة أعمـــت وعمـــت
يقـــوم بهـــا دعـــي أو كفـــور

تزلزلـــــت المـــــدائن والبـــــوادي
لهـــا وتلونـــت منهـــا الـــدهور

وضـــاقت كـــل أرض ذات عـــرض
ولم تغـــن المعاقـــل والقصـــور

فنجـــى القـــيروان وســـاكنيها

539 رياض النفوس (2/494 – 495).

إله دافع عنها قدير

أحاط بأهلها علماً وخبراً
وميز ما أكتنه الصدور

وجللهم بعافية وأمن
وأسبل فوقها ستر ستير

وأثبت جلة العلماء فيها
بحار لا تعد ولا بحور

ومنها سادة العلماء قدما
إذا عُدَّوا وليس لها نظير

وفيها القوم عباد خيارا
فقد طاب الأوائل والأخير

هم افتكوا سبايا كل أرض
وفادوا ما استبد به المغير

كفيناهم عظائمها جميعاً
فزالت عنهم تلك الشرور

وسكنَّا قلوباً خافقات
أمات عروقها ضر ضرير

وأوينا وآسينا وكنا
لهم أهلاً وأكثرهم شطير

فبات طعامنا لهم طعاماً
هناك ودُورنا للقوم دور

وكان لنا ثواب الله ذُخراً
وقام بشكرنا منهم شكور

ولولا القيروان وساكنوها

لغاب طعامهم والمخ [540] ريرُ

وليس لنا كما لهم حصون ... ولا جبل أعاليه وعور

ولا سور أحاط بنا ولكن ... لنا من حفظ رب العرش سُورُ

ولا نأوي إلى بحر وإنا ... إذا قضى القضا تُنحَى البحُورُ

ولكنا إلى القرآن تأوي ... وفي إيماننا البيض الذكور

عقائق كالبوارق مرهفات ... بها تحمي الحرائم والثغور

وسُمر في أعاليهن شهب ... بها ظمأ مواردها النحور

إلى أن قال:

وإنا بعد من خوف وأمن ... نحب إذا تشعبت الأمور

رسول الله والصديق حبا ... به ترجى السعادة والحبور

وبعدهما نحب القوم طُرًّا ... وما اختلفوا فربهم غفور

ألا بأبي وخالصتي وأمي ... محمد البشير لنا النذير

سأهدى ما حييت له ثناء

---

[540] رياض النفوس (493/2).

مـــــع الركبـــــان ينجـــــد أو يغـــــور [541]

4- المعز لدين الله الفاطمي ودخوله مصر: كان يتابع أحول حكام وأمراء مصر عن كثب، وأصبحت نفسه تسول له الاستيلاء على مصر، وبموت كافور الإخشيدي في سنة 355هـ اضطربت الديار المصرية، فاقتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب، فعزم ودبر وأقدم على حفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر، وحشد الجيوش العظيمة، وجمع الأموال الجزيلة وإختار جوهر الصقلي قائداً لتلك الجيوش التي كانت تزيد عن مائة ألف، وأمر المعز كل أمرائه وولاته أن يسمعوا ويطيعوا ويترجلوا في ركاب جوهر الصقلي، وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطني إلى مصر ليتخلص من الأزمات والثورات والصراعات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة في خمس عقود متتالية في الشمال الإفريقي، رافضين المذهب الباطني معلنين عقائد أهل السنة والجماعة، فاستفاد المعز من ضعف الحكم الإخشيدي التابع للدولة العباسية فرمى بسهامه المسمومة، ودفع إليها جيوشه المحمومة طلباً من أعوانه وسعياً للقضاء على الدولة العباسية وفي جماد الآخرة سنة 358هـ استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة جوهر الصقلي الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين وجوهر الصقلي هذا هو الذي بنى الأزهر الذي تم بناءه سنة 361هـ ليكون محضناً لإعداد دعاة المذهب الإسماعيلي الباطني وبعد أن مهدت مصر للمعز الفاطمي العبيدي جهز جيوشه وحاشيته وأهله وأمواله وسار مفارقاً شمال إفريقيا إلى مصر، ليتولى أمرها فأسند زعامة الشمال الإفريقي إلى الأمير الصنهاجي بلكين بن زيري وضم العز إلى مصر كلاً من طرابلس وسرت وبرقة وكان معه شاعره الذي غالى في مدح المعز محمد بن هانئ الأندلس الذي قال:

فكأنمـــــا أنـــــت النـــــبي محمـــــد
وكأنمـــــا أنصـــــارك الأنصـــــار

مـــا شـــئت أنـــت لا مـــا شـــاءت الأقـــدار
فـــــأحكم فأنـــــت الواحـــــد القهـــــار

هـــــذا الـــــذي تجـــــدي شـــــفاعته غـــــداً
حقَّـــــا وتُخمـــــد أن تـــــراه النـــــار

---

541 رياض النفوس (494/2).

ومن شعره في المعز:

النـــــور أنـــــت وكـــــل نـــــور ظلمـــــة
والفـــــوق أنـــــت وكـــــل فـــــوق دون

فـــــارزق عبـــــادك فضـــــل شـــــفاعة
وأقـــــرب بهـــــم زُلفـــــى فأنـــــت مكـــــين

ومنه

تـــــدعوه منتقمـــــاً عزيـــــزاً قـــــادراً
غفـــــاراً موبقـــــة الـــــذنوب صـــــفوحاً

أقســـــمت لـــــولا أن دُعيـــــت خليفـــــة
لـــــدُعيت مـــــن بعـــــد المســـــيح مســـــيحاً

شـــــهدت بمفخـــــرك الســـــموات العـــــلا
وتنـــــزل القـــــرآن فيـــــك مـــــديحاً

ومنه

وعلمـــــت مـــــن مكنـــــون ســـــر الله مـــــا
لم يـــــؤت في الملكـــــوت ميكـــــائيلا

لـــــو كـــــان آتـــــى الخلـــــق مـــــا أوتيتـــــه
لم يخلـــــق التشـــــبيه والتـــــأويلا

وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر في 362هـ وقتل ابن هانئ في برقة في رجب سنة 362هـ وهو في الثانية والأربعين من عمره ووجدوا جثته مرمية رمي الكلاب على ساحل بحر برقة وتأسف المعز على قتله وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك (542)، واستمر المعز في سيره حتى قارب

[542] الفتح العربي في ليبيا ص 362.

الحدود المصرية، ووصل الإسكندرية يوم 23 من شعبان سنة 362هـ واستقبلته وفود عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام في مصر وامتد ملك المعز من سبته بالمغرب إلى مكة بالمشرق ياتمر بأوامره سكان سواحل المحيط الأطلنطي وبقي المعز في مصر سنتين ونصف وتوفي بالقاهرة في السابع من ربيع الأول سنة 365هـ ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة [543] .

قال الذهبي: ظهر في هذا الوقت الرفض وأبدى صفحته وشمخ بأنفه في مصر والشام والحجاز والغرب بالدولة العُبيدية، وبالعراق والجزيرة والعجم بني بُويَه، وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بني بويه وضعف بدنه ثم أصابه فالج، وخَرَسٌ فعزلوه، وأقاموا ابنه الطائع لله، وله السكة والخطبة، وقليل من الأمور فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن [544].

5- زوال الدولة الفاطمية من شمال إفريقيا: استطاع بعض فقهاء المالكية أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة صنهاجة التابعة للدولة الفاطمية بمصر وأثروا في بعض الوزراء والأمراء — الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السنة واستطاع العلامة أبو الحسن الزجال أن يؤثر في الأمير المعز بن باديس الصنهاجي في تربيته على منهج أهل السنة، وأعطت هذه التربية ثمارها بعدما تولى المعز إفريقية في ذي الحجة سنة 406هـ وكان عمل العلامة أبو الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة الرافضة وكان هذا العالم فاضلاً ذا خلق ودين وعقيدة سليمة ومبغض للمذهب الشيعي الباطني واستطاع أن يغرس التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكر المعز بن باديس الذي تمّ على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الإفريقي وقد وصف الذهبي المعز باديس فقال: وكان ملكاً مهيباً، وسرَّيا شجاعاً عالي الهمة، محباً للعلم، كثير البذل، مدحه الشعراء وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بإفريقية فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمدة الخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام، فخلع طاعة العبيدية وخطب للقائم بأمر الله العباسي، فبعث إليه المستنصر يتهدده فلم يخفه [545] ، ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر الفاطمي بمصر الذي هدده فيه وقال له : هلا اقتضيت آثار آبائك في الطاعة والولاء في كلام طويل، فأجابه المعز : إن آبائك وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من

---

543 المصدر نفسه ص 362.

544 سير أعلام النبلاء (113/15 ، 114).

545 المصدر نفسه (140/18).

الخدم أعظم من التقديم ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم (546) ، وبينت لنا كتب التاريخ أن المعز بن باديس تدرج في عدائه للشيعة الرافضة الباطنية ولحكام مصر وظهر ذلك في عام 435هـ عندما وسع قاعدة أهل السنة في جيشه وديوانه ودولته، فبدأ في حملات التطهير للمعتقدات الباطنية ولمن يتلذذ بسبب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأوعز للعامة وللجنوده بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فسارعت العامة في كل الشمال الإفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفى الشمال الإفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الذي أشرف على تنفيذه المعز بن باديس رحمه الله وذكر الشعراء أشعاراً في مدح المعز، فقد قال القاسم بن مروان في تلك الحوادث :

وســــــــوف يقتلـــــــون بكـــــــــل أرض
كمـــــــــا قتلـــــــوا بأرض القـــــــيروان

وقال آخر:
يا معــــــز الــــــدين عشــــــى في رفعــــــة
وســــــرور واغتبــــــاط وجــــــذل
أتـــــت أرضـــــيت النــــبي المصــــطفى
وعتيقـــــــاً في الملاعــــــين الســــــفل
وجعلــــــت القتـــــــل فــــــيهم ســــــنة
بأقاصــــــي الأرض في كـــــل الـــــدول (547)

واستمر المعز بن باديس في التقرب إلى العامة وعلمائهم وفقهائهم من أهل السنة وواصل السير في تخطيطه للانفصال الكلي عن العبيديين في مصر، فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته وأعلن انضمامه للخلافة العباسية وغيَّر الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم وأحرق أعلام الدولة الفاطمية وشعاراتهم وأمر بسبك الدراهم والدنانير التي كانت عليها أسماء العبيديين والتي استمر الناس يتعاملون بها 145سنة وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها : لا إله إلا الله محمد رسول الله. وكتب على الآخر " ومن يبتغ غير

546تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، لطاهر الزاوي ص 289.

547تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزاوي ص 289.

الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " (آل عمران، آية: 85) وقضى المعز بن باديس على كل المذاهب المخالفة لأهل السنة من الصفرية والنكارية والمعتزلة، والإباضية وفي سنة 443هـ انضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له وكان أول من قاد حملة التطهير على الشيعة الإسماعيلية في طرابلس وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة علي بن محمد المنتصر وكنيته أبو الحسن المتوفى عام 432هـ [548].

6- جهود السلاجقة في حماية العراق من التشيع الرافضي الباطني : كانت الدولة الفاطمية تسعى للسيطرة على العراق والمشرق ولذلك قامت بإرسال الدعاة إليها، فقد واصل الخلفاء الفاطميون جهودهم في نشر دعوتهم مستغلين الاضطراب الذي ساد بلاد العراق، فأرسل الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي الدعاة إلى بغداد سنة 425هـ، فاستجاب لهم كثير من الناس [549] ، وازداد نشاط الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي على عهد المستنصر بالله الفاطمي، فعهد إلى دعاته بالرحيل إلى فارس وخراسان وما وراء النهر، ومن أشهر دعاة وفلاسفة المذهب الشيعي الإسماعيلي الفاطمي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وعرف أحياناً بالمؤيد فقط، وقد نجح هذا الداعية في التأثير على البساسيري أحد القادة العسكريين في الدولة العباسية وقد استطاع البساسيري أن يستولى على بغداد ويزيح الخليفة القائم بأمر الله وإقامة الخطبة فيها للفاطميين وانقطعت دولة بني العباس من بغداد وأخرج الخليفة وحُمل إلى الأنبار وحبس بالحديثة عند صاحبها مهارش بن مجلي العقيلي فتولى خدمة الخليفة بنفسه وكان أحد وجوه بني عقيل، وخطب لبني عبيد – الفاطميين في بغداد أربعين جمعه في ولاية المستنصر [550] . وحاول البساسيري نقض الاتفاق الذي عقده مع قريش بن بدران وعزم على أخذ الخليفة العباسي وترحيله إلى مصر، إلا أن قريشاً تصدى لهذه المحاولة وعهد إلى ابن عمه الأمير محي الدين بن مهارش العقيلي – صاحب حديثة بالتحفظ على الخليفة وتأمين حياته، وعلى الرغم من ذلك فلم يسمح البساسيري للخليفة القائم بأمرالله بالرحيل إلى حديثة إلا بعد أن أرغمه على كتابة اعترافه بعدم أحقية بني العباس في الخلافة الإسلامية مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام [551] ، ولم يكتف البساسيري بذلك بل استولى على ثوب الخليفة

---

[548] تاريخ الفتح العربي ص 290 ، 291.

[549] دولة السلاجقة للصَّلاَّبي ص 54.

[550] أخبار الدول المنقطعة (430/3).

[551] الخطط للمقريزي (439/1).

وعمامته وشباكه [552]، وأنفذها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وكان البساسيري قد شرع في استخدام طائفة من العوام ودفع إليهم السلاح من دار الخلافة وجمع العيّارين وأطمعهم في نهب دار الخلافة ونهب أهل الكرخ – الشيعة – دور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة الدّمغاني، وهلك أكثر السّجلاّت والكتب الحكيمة وأبيعت للعطارين، ونهبت دور المتعلقين بالخليفة وأعادت الروافض الأذان بحيَّ على خير العمل، وأُذِّن به في سائر جوامع بغداد في الجُمعُات والجماعات، وخطب ببغداد للخليفة الفاطمي وضربت له السَّكة على الذهب والفضة وحُوصرات دار الخلافة واعتقل رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المسُلمة ووبخه البساسيري ولامه لوماً شديداً، ثم ضربه ضرباً مبرحاً وأعتقله مهانا عنده ونهبت العامة دار الخلافة، فلا يُحصى ما أخذوا منها من الجواهر والنَّفائس والدَّيباج والأثاث والثياب وغير ذلك مما لا يُحَدُّ ولا يُوصف وفي يوم عيد الأضحى في سنة 450هـ ألبس البساسيري الخطباء والمؤذنَّين البياض، وعليه هو وأصحابه كذلك وعلى رأسه الألوية المستنصرية والمطارد المصرية، وخطب للمستنصر صاحب مصر، والشيعة الرّافضة في غاية السرور والأذان في سائر العراق بحيَّ على خير العمل، وانتقم الباسيسريُّ من أعيان أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وغرَّق خلقاً ممَّن كان يعاديه وبسط على آخرين الأرزاق والعطايا ولما كان يوم الاثنين ليلتين بقيتا من ذي الحجة أحضر إلى بين يديه الوزير أبو القاسم بن المسلمة الملقّبُ برئيس الوزراء وعليه جُبَّة صوف وطرطور من لبد أحمر وفي رقبته مخنقة من جلود كالتعاويذ، فأركب جملاً [553] ، وطيف به في البلد وخلفه من يصفعه بقطعة من جلد، وحين اجتاز بالكرخ نثروا عليه خُلقْان المداسات وبصقوا في وجهه ولعنوه وسبُّوه وهذه هي عادتهم عندما يتمكنون من مخالفيهم في كل زمان ومكان، وأوقف بإزاء دار الخلافة وهو في ذلك يتلو " قل اللهم مالك الملك تُوتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير" (آل عمران آية: 16) فالبس جلد ثور بقرنيه وعُلقّ بكلّوب في شدقيه ورفع إلى الخشبة حيَّاً، فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله وكان آخر كلامه: الحمد لله الذي أحياني سعيداً وأماتني شهيداً [554] . من خصائص النفسية الشيعية الرافضية الباطنية الثابتة عبر التاريخ اتباع أسلوب التذلل والتمسكن والتودد عند الضعف ولكن متى استشعروا القوة، فإنها تمارس أشد أنواع الطغيان والنهب والبطش والانتقام وكان طغرل بك السلطان السلجوقي الذي أزاح البويهيين كان خارج العراق بجيوشه يحارب المنشقين عنه ويمكن لدولته ولما قضى على الفتن كّر بجيوشه على بغداد وأعاد الخليفة العباسي إلى الخلافة بعد فكاكه من أسره واستطاع ملاحقة البساسيري وقتله وعادت العراق إلى الخلافة العباسية السنية من

---

[552] الشباك : هو الشرفة التي يجلس فيها الخليفة ويتوكأ بيديه على حافته.

[553] البداية والنهاية (759/15).

[554] دولة السلاجقة للصَّلاَّبي ص 82.

جديد وقد فصلت هذه الأحداث التاريخية في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي. وقد أدرك السلاجقة الخطر الذي يتهددهم من وراء الدعوة الفاطمية في بلدان الخلافة العباسية، لذلك اتبعوا سياسة حكيمة بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد تتمثل في مناهضة الدعوة الفاطمية [555] ، ودعاتهم بالحزم والشدة فتعقبوا دعاة الفاطمية الذين قاموا بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد فارس –كما قاموا بإقصاء الموظفين المتشيعين للمذهب الإسماعيلي على دواوين الحكومة والوظائف الدينية وعينوا من أهل السنة بدلاً منهم [556].

7- المدارس النظامية ودورها في الإحياء السني والتصدي للفكر الشيعي الرافضي:

بدأ التفكير الفعلي في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المد الشيعي الإمامي والإسماعيلي الرافضي عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة في عام 455هـ فقد استوزر هذا السلطان رجلاً قديراً وسنياً متحمساً هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك، فرأى هذا الوزير أن الاقتصار على مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية الباطنية سياسياً لن يكتب له النجاح على المدى البعيد إلا إذا وازى هذه المقاومة السياسية مقاومة فكرية، ذلك أن الشيعة، إمامية كانوا أو إسماعيلية نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلا نشاط سني مماثل يتصدى له بالحجة والبرهان [557] فقد كانت الدولة الفاطمية تقوم بإعداد الدعاة من خلال جامع الأزهر الذي جعلوا منه مؤسسة تعليمية تعني بنشر مذهبهم في عام 378هـ [558].

هذا بالإضافة إلى البرامج التعليمية التي كانت تعد بعناية خاصة في عاصمة الدولة الفاطمية لإعداد الدعاة وتثقيفهم ثقافة مذهبية واسعة قبل إرسالهم إلى البلاد الإسلامية لنشر المذهب الإسماعيلي، وكان لذلك أثر في رواج هذا المذهب في بعض مناطق الشرق الإسلامي نتيجة لهذه الجهود المنظمة المستمرة في نشر هذه الدعوة [559] ، لذلك كله فكر نظام الملك في أن يقاوم النفوذ الشيعي بنفس الأسلوب الذي ينتشر به، ومعنى ذلك

---

[555] المصدر نفسه ص 68.

[556] المصدر نفسه ص 68.

[557] المصدر نفس ص 291.

[558] المصدر نفسه ص 291.

[559] التاريخ السياسي والفكري ص 179.

أنه رأى أن يقرن المقاومة السياسية للشيعة بمقاومة فكرية أيضاً [560] ، وتربية الأمة على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من الوحي الإلهي ومن هنا كان تفكيره في إنشاء المدارس النظامية التي نسبت إليه، لأنه الذي جد في إنشائها وخطط لها، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة، واختار لها الأكفاء من الأساتذة فكان من الطبيعي أن تنسب إليه من دون السلاجقة [561] وقد وفق الله نظام الملك توفيقاً قلّ نظيره في التاريخ السياسي والعلمي والديني فقد عاشت مدارسه أمداً طويلاً وعلى الخصوص نظامية بغداد التي طاولت الزمن زهاء أربعة قرون، إذ كان آخر من عرفنا ممن درس فيها صاحب القاموس الفيروز آبادي المتوفى سنة 817هـ حيث زالت في نهاية القرن التاسع الهجري [562] وأدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السني الشافعي وزودت الجهاز الحكومي بالموظفين ردحاً من الزمن وبخاصة دوائر القضاء والحسبة والاستفتاء وهي من أهم وظائف الدولة في ذلك العصر، وانتشر هؤلاء في العالم الإسلامي حتى اخترقوا حدود الباطنية في مصر وبلغوا الشمال الأفريقي ودعموا الوجود السني بها لقد تخرج من هذه المدارس جيل تحقق على يديه معظم الأهداف التي رسمها نظام الملك فوجدنا كثيراً من الذين تخرجوا منها يرحلون إلى أقاليم أخرى ليقوموا بتدريس الفقه الشافعي والحديث الشريف، ونشروا عقيدة أهل السنة في الأمصار التي انتقلوا إليها أو يتولوا مجالس القضاء والفتيا، أو يتولوا بعض الوظائف الإدارية الهامة في دواوين الدولة وينقل السبكي عن أبي إسحاق الشيرازي – أول مدرس بنظامية بغداد بقوله : خرجت إلى خراسان فما بلغت بلدة ولا قرية إلا وكان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابي [563] ، وقد ساهمت هذه المدارس في إعادة دور منهج السنة في حياة الأمة بقوة، وكان من أبرز آثارها أيضاً تقلص نفوذ الفكر الشيعي وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس وكان الإمام الغزالي على قمة المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة الرافضة [564] . وقد مهدت المدارس النظامية بتراثها ورجالها وعلمائها السبيل ويسرته أمام نور الدين زنكي والأيوبيين كي يكملوا المسيرة التي من أجلها أنشئت النظاميات وتتمثل في العمل على سيادة الإسلام الصحيح وخاصة في المناطق التي كانت موطناً لنفوذ الشيعة، في تلك المرحلة، كالشام ومصر وغيرها [565].

---

[560] المصدر نفسه ص 179.

[561] المصدر نفسه ص 179.

[562] نظام الملك ص 401.

[563] طبقات الشافعية (89/3).

[564] دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي ص 203.

[565] المصدر نفسه ص 304.

إن من الأخطار العظيمة التي تواجه الأمة اليوم المشروع الباطني الجديد النشط في أنحاء المعمورة وقد استهدف عقيدة الأمة وكتاب ربها وسنة نبيها وتاريخها وعظمائها، فهل نستلهم الدروس ونستخرج العبر ونعمل بالسنن والقوانين الإلهية في الدعوة إلى الإسلام الصحيح الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فيكون من حكامنا، مثل ألب أرسلان في شجاعته، ومن وزرائنا كنظام الملك في همته وغيرته، ومن علمائنا كالجويني والغزالي والبغوي والجيلاني وعلماء المغاربة الأفذاذ في دفاعهم عن الكتاب والسنة والصحابة، وقضايا الفكر الإسلامي الصحيح، ونوظف الوسائل الحديثة في بث عقائد الإسلام الصحيحة وتاريخه الموثق وفكره البديع من خلال الفضائيات والإنترنت والمطابع والجرائد والمجلات والكتب والندوات والمؤتمرات والمناهج والمدارس والجامعات ووسائل الدعوة بأنواعها، نريد بذلك وجه الله والدار الآخرة ومرافقة النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين.

8- جهود الإمام الغزالي في دحر الشيعة الباطنية:

إذا كانت إحدى ثمرات المدارس النظامية أنها مهدت الطريق لسيادة المذهب السني وهذا الأمر لم يكن بالأمر السهل بل كان نتيجة لجهود مضنية وتضحيات رائعة وتكاتف للجهود وقد كان من أبرز آثارها أيضاً تقلص نفوذ الفكر الشيعي وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس وكان الإمام الغزالي – العالم السني – على قمة المفكرين الذين شنوا حربا شعواء على الشيعة الرافضة الباطنية، إذ يذكر هو : أنه ألف في ذلك كتباً عدة : أشهرها فضائح الباطنية الذي كلف بتأليفه في 487هـ من قبل الخليفة المستظهر [566] ، على أن الشيء المثير للأعجاب هو شجاعة الغزالي في حملته على الإسماعيلية الباطنية جاءت في وقت انتشر فيه دعاتهم في فارس وتزايد خطرهم حتى أقاموا الحصون والقلاع، وهددوا أمن الناس وسلامتهم، وقاموا بالاغتيالات على نطاق واسع، فشملت كثيراً من الساسة والمفكرين وعلى رأسهم نظام الملك نفسه والغزالي قام بهذه الحملة بتوجيه من السلطة – مع رغبة الغزالي العالم السني في القيام بواجبه في الدفاع عن الإسلام الحقيقي [567] ، وهذا شيء جميل لما تلتقي جهود السلطة السياسية مع علمائها في تحقيق أهداف الإسلام من خلال مؤسسات نافعة للمجتمع والدولة، كالذي قامت به المدارس النظامية في مقاومة الفكر والنفوذ الشيعي الباطني فقد كانت الدولة الفاطمية قد تدرعت بالفلسفة والعقيدة الباطنية وظهرت في مظهر

---

[566] دولة السلاجقة للصَّلاَّبي ص 380.

[567] رجال الفكر والدعوة (204/1) الغزالي للقرضاوي ص 57.

ديني سياسي، فكانت كما يقول الأستاذ الندوي – أشد خطراً على الإسلام من الفلسفة، فقد كانت الفلسفة تعيش في برجها العاجي بعيداً عن الشعب والجمهور [568] ، وأما الباطنية فكانت تتسَّرب إلى المجتمع وتنفث سمومها فيه، وكان لها الإغراءات المادية القوية، ولم يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحد أجدر بالرد عليها والكشف عن أسرارها ونقض ما تبني عليه دعوتها من الغزالي وكان لكتابات الغزالي أثر قوي في مجال الرد على الباطنية، فقد استطاع بفكره القوي وبما نال من شهرة أن يكون ذا تأثير قوي في مقاومة الباطنية وأن يناصر المذهب السني، فقد استطاع توظيف العلوم الشرعية والعلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والكلام في نسف جذور المذهب الباطني وقال فيهم كلمته التي طار بها الركبان وسارت مسير الأمثال : ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، فهم يتسترون بالتشيع وما هم من الشيعة في شيء وإنما هو قناع يخفون وراءه كيدهم لأهل الإسلام [569] ومما يذكر للغزالي : استمراره على نقد هذه الطائفة وكشف اللثام عن تناقض أفكارها وفضائح أعمالها وسوء نواياها، برغم ما كان معلوماً في ذلك الوقت أن هذا النقد قد يكلفه حياته، وقد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة الكبير الوزير نظام الملك وكان الشيعة الباطنية تهدد كل من يرونه خطراً عليهم من رجال الملك أو رجال العلم بالانتقام في صورة طعنة في خنجر، أو سم يدس في طعام أو غير ذلك من الأساليب التي أتقنوها ونفذوها بكل دقة وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شجاعة الغزالي في صدعه بالحق، ومواجهة الباطل، مهما تكن النتيجة ولن يصيبه إلا ما كتب الله له [570]. وهذا درس وتذكير للعلماء المعاصرين أن يصدقوا الله في مقاومة الباطنيين الجدد، وقد رأيت بعض المحسوبين على العلماء يخشونهم، ويخافون من القتل والاغتيال أو تهمة الطائفية أو بعضهم وقع تحت تأثير أبر التخدير الباطنية ومجاملات لا وزن لها في ميزان الشريعة أو حسابات دنيوية زائلة ولذلك تركوهم يعيثون بعقائد الأمة ومقدساتها وساهم بعض علماء الأمة في تخدير الجمهور العريض من أبناء المسلمين مع علم هؤلاء العلماء بخطر هؤلاء القوم على عقائد الأمة وأخلاقها، أما يخشى هؤلاء الناس من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار ويسأل الله فيه الصادقين عن صدقهم.

ثانياً: الحملات النورية العسكرية على مصر:

---

568 الجهاد من الهجرة إلى الدعوة والدولة ص 147.

569 الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ص 60.

570 الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ص 62.

قام الوزير الفاطمي ابن السلار السني المذهب بمحاولة الاتصال بنور الدين من أجل شن عمليات حربية مشتركة على أساس أن يتقدم نور الدين بقواته من الشمال ويقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة المدن الساحلية الشامية الصليبية وتوسط أسامة بن منقذ بين الجانبين وعرض عليه ابن السلار أن يأخذ الأموال والهدايا لسلطان حلب عارضاً عليه القيام بمنازلة طبرية، وفي نفس الحين يقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة غزة، وفي حالة موافقة نور الدين على ذلك يقدم له ابن منقذ الأموال لمساعدته، فإن رفض فعلى الأخير أن يجند بالأموال عدداً من الفرسان لقتال الصليبيين عند عسقلان، غير أنه عندما بلغ بصرى وقابل نور الدين أوضح له مدى إنشغاله بأمر دمشق وأنها تقف سداً منيعاً دون التعاون المشترك مع الفواطم إذ أنها لم تكن حينذاك قد سقطت بعد في قبضته [571]، ويلاحظ أن ابن السلار استمر في صراعه مع الصليبيين فجهز في عام 546هـ/1151م أسطولاً أنفق عليه مالاً وفيراً وهاجم به المدن الساحلية الصليبية وبلغ ذلك وقد تحدث الذهبي عن ابن السلار فقال: وكان بطلاً شجاعاً، مقداماً مهيباً شافعياً سنيّاً، ليس على دين العُبيدية، احتفل بالسَّلفَي، وبنى له المدرسة، لكنه فيه ظلم وعسف [572] وجبروت وتجددت المحاولات السابقة في عهد وزارة طلائع ابن رزُيك الذي اتصل بنور الدين محمود عن طريق أسامة بن منقذ غير أن نور الدين لم يتعجل وكان يرأى أن الفرصة المناسبة لم تأتي بعد وكانت بين أسامة بن منقذ والملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رُزِّيك مسجلات شعرية منها ما قاله طلائع بن رُزيك:

فقولـــوا لنـــور الـــدين لا فُـــل حـــدُّه
ولا حَكَمـــــت فيـــه الليــــالي الغواشُــــم

تجهــــز إلى أرض العـــــدوَّ ولا تَهِــــــن
وتُظهــر فتــوراً إن مضــت منــك حــارم [573]

ومنها مما كتبه إلى أسامه بن منقذ

يا سَـــــــيَّداً يســـــــموا بهمتَّـــــــه
إلى الرُّتـــــــــب العَلبَّــــــــــة

---

[571] فن الصراع الإسلامي الصليبي ص 83.
[572] اتعاظ الحنفا (202/3).
[573] سير أعلام النبلاء (282/20).

فينـــــــال منهـــــــا حـــــــين يُحـــــــرم
غـــــــــــــيره أوفى مُزِيَّـــــــــــــــة
أتـــــــــت الصـــــــــديق وإن بعـــــــدت
وصـــــــاحب الــــــــشَّيَم الرَّضــــــــية
نُنبيـــــــــــــــك أن جيوشـــــــــــــــنا
فعلـــــــــــت فِعـــــــــال الجاهليــــــــة
ســــــــارت إلى الأعــــــــداء مـــــــــن
أبطالهـــــــــا مئتـــــــــا سَـــــــــرِيَّة
فتُغـــــــــيرُ هـــــــــذي بُكـــــــــرةً
وتُعـــــــاوِدُ الأخـــــــرى عَشِـــــــيَّه
فالويـــــــــل منهـــــــــا للفـــــــــرنج
فقـــــــد لقـــــــوا جهـــــــد البَليَّـــــــه
جــــــــاءت رؤوســـــــــهُم تلـــــــــوح
علـــــــــــــى رؤوس السَّـــــــــــــهمرِيَّة
وقلائـــــــــع قـــــــــد قُسَّـــــــــمَتْ
بـــــــين الجنـــــــود علـــــــى السَّـــــــويَّه
وخلائـــــــــقٌ كثـــــــــرت مـــــــــن
الأســـــــــرى تقـــــــــادُ إلى المنيـــــــــة
فـــــــانهض فقـــــــد أنبيـــــــت مجـــــــد
الــــــــدين بالحــــــــال الجَلِيَّــــــــة
والمـــــــم بنـــــــور الـــــــدين وأعلمـــــــه
بهاتيـــــــــــــك القضـــــــــــــيّة
فهـــــــو الـــــــذي مـــــــا زال يخلـــــــص
منـــــــه أفعـــــــالاً ونيَّـــــــه
ويُبُيـــــــد جمـــــــع الكفـــــــر بالبـــــــيض

الرِّقَــــــــــــاق المشــــــــــــــرفيه

فعســـــــــــاه يـــــــــنهض نهضـــــــــة

يفــــــــني بهـــــا تلـــــــك البقيَّـــــــه

إمَّـــــــــا لنُصــــــــــرة دينــــــــه

أو ملكــــــــــــه أو للحميَّـــــــــــه [574]

وكتب إلى أسامة بن منقذ أيضاً فقال:

قـــــــل لابـــــــن منقـــــــذ الـــــــذي

قــــــد حـــــاز في الفضــــل الكمـــــالا

فلـــــــذلك قـــــــد أصـــــــحى الأنام

علــــــــى مكارمـــــــــه عِيـــــــالا

كـــــم قـــــد بعثنـــــا نحـــــوك

الأشـــــــعار مســـــــرعة عجـــــــالا

وصـــــددت عنهـــــا حـــــين رامـــــت

مـــــــن محاســـــــنك الوِصَـــــــالا

هـــــلاَّ بَـــــذَلْتَ لنـــــا مقـــــالا

حـــــين لم تبـــــذُل فعـــــالا

مـــــع أنّنـــــا نُوليـــــك صـــــبراً

في المـــــــــودة واحتمـــــــــالا

ونبثُّـــــــك الأخبـــــــار إن

574أخبار الدولتين (366/1).

أضـــــــحت قصــــــاراً أو طِــــــوالا

ســــــارت سَـــــــرايان لقصـــــــد
الشـــــام تعتســـــف الرَّمـــــالا

تُزجـــــــــــي إلى الأعـــــــــداء
جُــــرد الخيــــل أتباعــــاً تَــــوالَى (575)

إلى أن قال:

فلـــــــو أنَّ نــــــور الـــــــدين
يجعـــــل فعلنـــــا فـــــيهم مثـــــالاً

وَيُسَـــــــيِّرُ الأجنـــــاد جهـــــــراً
كـــــــي يُنـــــــازِلَهم نِـــــــزالا

ووفى لنــــــا ولأهــــــل دولتــــــه
بمــــا قــــد كــــان قــــالا

لرأيــــــت للإفــــــرنج طُــــــرَّا
في معاقلهـــــــا اعتقـــــــالا

وتجهَّـــــــزوا للسَّـــــــير نحـــــــو
الغــــرب أو قصــــدوا الشَّـــــمالا

وإذا أبى إلاَّ اطَّراحـــــــــــــــاً
للنصـــــــــيحة واعتـــــــــزالا

عُـــــدنا بتســـــليم الأمـــــور
لحكـــــم خالقنـــــا تعـــــالى (576)

575كتاب الروضتين (368/1).

576المصدر نفسه (369/1).

فأجابه بن منقذ بقصيدة منها:

يا أشـــــــــرف الـــــــــوزراء أخلاقـــــــــاً
وأكـــــــــــــــــرمهم فعـــــــــــــــــالا

نَبَّهْـــــــــــــت عبـــــــــــداً طالمـــــــــا
نَبَّهتـــــــــــــه قـــــــــــدراً وحـــــــــــالا

وَعَتَبْتَـــــــــــــــــه. فأنَلْتَـــــــــــــــــهُ
فخـــــــــراً ومجـــــــــداً لـــــــــن يُنـــــــــالا

لكـــــــــن ذاك العَتْـــــــــبَ يُشـــــــــعلُ
في جوانحـــــــــــــه اشـــــــــــــتعال

إلى أن قال:

واشـــــــــدُد يـــــــــديك بـــــــــودَّ
نـــــور الـــــدين والـــــقَ بـــــه الرَّجـــــالا

فهـــــــو المحـــــــامي عـــــــن بـــــــلاد
الشـــــــام جمعـــــــاً أن تُـــــــذَالا

ومُبيـــــــــدُ أمـــــــــلاكِ الفـــــــــرنج
وجمعهـــــــم حـــــــالاً فحـــــــالا

مَلِـــــــــكٌ يتيـــــــــه الـــــــــدهُر
والـــــــدنيا بدولتـــــــه اختيـــــــالا

جمـــــــع الخِـــــــلال الصَّـــــــالحات
فلـــــم يَـــــدَع منهـــــا جـــــلالا

فـــــــإذا بـــــــدا للنَّـــــــاظرين
رأت عيـــــــــونهم الكمـــــــــالا

فبقيتمـــــــــــا للمُســـــــــــلمين

جِمـــــــــــيً وللـــــــــــدُّنيا جمـــــــــالا [577]

ولم يدخل نور الدين في تحالف عسكري مع طلائع بن رُزيك إلا أنه اهتم بالاتصالات الدبلوماسية وقد وصلت في 552هـ/1157م سفارة من جانب نور الدين وتكرر ذات الأمر في العام التالي أي 553هـ/1158م وردت الدولة الفاطمية على تلك السفارة بأن تم إعادة السفير النوري إلى بلاده، ومعه هدايا وأسلحة تقدر بثلاثين ألفاً من الدنانير، وعينيات تقدر بسبعين ألفاً من أجل دعم صراع نور الدين مع الصليبيين [578] ونجد سفارة أخرى من نور الدين في عام 554هـ/1159م ومن جهة أخرى أظهرت الدولة الفاطمية ودها له، فأرسل العاضد في عام 555هـ/1160م بالخلع إليه والواقع أن التعليل المنطقي لذلك أن الفاطميين بعد أن فقدوا عسقلان عام 548هـ/1153م أدركوا أكثر من ذي قبل؛ خطورة الصليبيين عليهم وضرورة الاستفادة من قوة الدولة النورية وثقلها السياسي والعسكري [579] .

1- دوافع فتح مصر عند نور الدين : كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين رحمه الله، فقد تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي والخلل العقدي في أنحاء العالم الإسلامي، فهي التي أعانت الصليبيين في احتلال بلاد الشام بتحالفها وتآمرها معهم وهي التي تبنت المذهب الباطني ونشرته في ديار المسلمين، وعندما سادت الفوضى إدارة الحكم فيها، وتحكم الوزراء بالأمر دون الخلفاء طمع الصليبيون بغزو مصر فهاجموها المرة تلو المرة وعندها جرد نور الدين محمود حملاته العسكرية لتخليص مصر من مطامعهم، ولإعادة أرض الكنانة إلى منهج أهل السنة والجماعة، وجمع كلمة المسلمين [580] ويمكن تلخيص أبرز الدوافع التي أدت إلى غزو مصر ما يأتي:

الدافع الأول: حالة الفوضى التي سادت مصر آخر أيامها فقد أصبحت الدولة تعاني كثيراً من مظاهر الإنحلال والفساد، حتى صار من الأمور الشائعة، أن يصبح الخليفة أو الوزير مقتولاً، خلال الصراع الدائر بين الوزراء أنفسهم، أو بين الوزراء والخلفاء فقد قتل الظافر على يد وزيره، وتحكم الوزراء فيمن جاء بعده وفي

577كتاب الروضتين (370/1).

578فن الصراع الإسلامي الصليبي ص 84.

579المصدر نفسه ص 84.

580الجهاد والتجديد ص 195.

اختيار من يشاءون، وقتل الوزراء بعضهم بعضاً، فقد تولى الوزارة في عام واحد ثلاثة وزراء : العادل بن رزيك، وشاور وضرغام، فضعفت الدولة وسادت الفوضى في البلاد ومن أواخر هذا الصراع خروج شاور من مصر، بعد أن طرده "ضرغام" ومن ثم استنجاده بنور الدين محمود، الذي وجد الفرصة مواتيه لتوحيد الوحدة الإسلامية في بلاد الشام ومصر.

الدافع الثاني: إن مطامع الصليبيين شجعت القائد المجاهد نور الدين على التفكير جدياً بضم مصر إلى الجبهة الإسلامية، كما أن تلقيه العهد من الخليفة العباسي بإطلاق يده في بلاد الشام ومصر عام 549هـ شد من عزيمته لإنجاز هذا الأمر [581] .

الدافع الثالث: من أقوى الأسباب التي أدت إلى القضاء على الخلافة الفاطمية العبيدية، العامل العقدي، فقد كانت دولة باطنية المعتقد، إ سماعيلية المذهب فرقت وحدة المسلمين وتآمرت مراراً مع أعدائهم [582] . فكان لابد من إقامة وحدة قوية في عقيدتها، شرعية في توجهها تضم إلى الخلافة العباسية أرض الكنانة مع بلاد الشام [583] .

وفي هذه الظروف التي كان نور الدين الشهيد يتطلع فيها إلى غزو مصر وصل إلى دمشق عام 559هـ الوزير الفاطمي شاور بن مجير السعدي، طالباً النجدة منه، ضد من سلب منه منصبه قهراً، كما وعد شاور مقابل مساعدة نور الدين له: بثلث دخل البلاد المصرية سنوياً، بعد دفع رواتب الجند، وأن يكون نائباً عن نور الدين بمصر، إذا ساعده في التغلب على ضرغام عدوه، ويكون أسد الدين شيركوه مقيماً بعسكره بمصر، ويتصرف مع شاور في شؤون البلاد بأمر نور الدين [584] . لكن نور الدين كان متردداً متريثاً : يقدم إلى هذا الغرض رجلاً، ويؤخر أخرى حتى استخار الله في الأمر، على ما هنالك من أخطار جسيمه ممثلة في الصليبيين بالساحل وبيت المقدس، إضافة إلى شكه في إخلاص شاور السعدي، [585] ثم جهز نور الدين الحملات المتوالية، ووجهها نحو مصر منذ عام 559هـ حتى 564هـ بقيادة أسد الدين شيركوه [586] .

---

[581] المصدر نفسه ص 196.

[582] المصدر نفسه ص 197.

[583] مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك ص 13.

[584] الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 198.

[585] الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 198.

[586] الجهاد والتجديد ص 198.

2- الحملة النورية الأولى : 559هـ:

قرّر نور الدين محمود إرسال حملة عسكرية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه لتحقيق هدفين مبدئيين:

- الوقوف عن كثب على أوضاع مصر الداخلية تمهيداً لضمَّها، وبخاصة أن شاور وعده إن هو عاد إلى منصبه، سيتحمَّل نفقات الحملة ويؤمن إقامة أسد الدين شيركوه وجنده في مصر.
- إعادة شاور، الوزير الفاطمي المخلوع إلى منصبه.

وعلم ضرغام بالاستعدادات التي تجري في دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، فاحتاط للأمر، واستنجد بعموري الأول في محاولة منه للدخول في لعبة توازن القوى، وعقد معه اتفاقاً لمساعدته ضد نور الدين محمود وتعهد له بالمقابل أن يدفع جزية سنوية يقررها الملك كما وافق على أن تدخل مصر في تبعية الصليبيين وأجبر الخليفة الفاطمي العاضد على توقيع هذا الاتفاق [587] ، وكان طبيعياً أن يقبل عموري الأول هذا العرض الذي سيتيح له فرصة لا تُعوَّض لدخول مصر وهو الأمل الذي سعى إليه الصليبيون منذ أكثر من نصف قرن، فأعَّد على الفور حملة عسكرية من أجل الزحف على مصر وخرج أسد الدين شيركوه على رأس حملته الأولى إلى مصر في شهر جمادى الاخرة 559هـ/شهر نيسان 1164م يصحبه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان يناهز السابعة والعشرين من عمره وسار على الطريق المحدَّد للحملة، والذي يمر عبر أراضي يسيطر عليها الصليبيون [588] وحتى يصرف أنظارهم عن التعرض للحملة، وتأميناً على حياة أفرادها تصرف نور الدين محمود على محورين:

الأول: أنه رافق الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق للحيلوة دون التعرض لأفرادها.

الثاني: راح يهاجم الأطراف الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق لتحويل أنظار الصليبيين عن مصر [589].

وسار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه الكثيف عبر الصحراء، بصحبة شاور، فعبر الكرك ومر بالشوبك ثم أيلة، فالسويس ومنها إلى القاهرة وقد بلغ من السرعة في سيره أنه اجتاز برزخ السويس قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل، فأرسل ضرغام قوة عسكرية بقيادة أخ له يدعى ناصر الدين، للتصدي لزحفه، أسفر

---

[587] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 328.

[588] النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص 76.

[589] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 329.

لقاء الطرفين في بلبيس عن انتصار واضح لأسد الدين شيركوه وتراجع ناصر الدين مهزوماً إلى القاهرة، فطارد أسد الدين شيركوه ووصل في أواخر جمادى الآخرة إلى العاصمة المصرية، فخرج إليه ضرغام بكل ما يملك من قوة لإدراكه بأن هذه المعركة هي معركته الأخيرة وجرى اللقاء تحت أسوار القاهرة: اتسمت المعركة بالعنف وانتهت بانتصار أسد الدين شيركوه بعد أن تخليّ الجيش والناس والخليفة عن ضرغام، وقتل أثناء محاولته الفرار قرب مشهد السيدة نفيسة – المزعوم – في شهر رجب 559هـ/شهر حزيران 1164م كما قتل أخوه ناصر الدين ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها [590] .

وبعد أن ضمن شاور عودته إلى منصب الوزارة عاد إلى طبيعته التي اتصف بها – من المكر والخداع – ليدخل في صراع جديد مع أسد الدين شيركوه، فأساء معاملة الناس وتناسى وعوده لنور الدين محمود بل سرعان ما ظهرت عليه إمارات الغدر فنقض اتفاقيته معه، وطلب من شيركوه الخروج من مصر وأن يعود فوراً مع قواته إلى بلاد الشام، ولكن هذا الأخير رفض الاستجابة لطلبه، وردَّ على موقفه المتقلب، فسارع إلى الاستيلاء على بلبيس وحكم البلاد الشرقية، [591] ولم يَسَعْ شاور إلا أن يستنجد بالملك عموري الأول الذي كان يتأهب للزحف على مصر، وأخذ يخوِّفه من نور الدين محمود وعرض عليه أن :

- يؤدي له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل، البالغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة.
- يمنح هدية لكل من يصحبه من فرسان الأسبتارية الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس، في محاولة منه لإغراء فرسانها بالاشتراك بالحملة.
- يتكفّل بنفقات علف أفراسهم، مقابل مساعدته لإخراج أسد الدين شيركوه من مصر [592] وهكذا انغمس شاور في اللعبة السياسية بين الأعداء الكبار ومحاولاً بذلك إثارتهم لمصلحته الخاصة ولا شك بأن عموري الأول كان آنذاك يراقب تطورات الموقف السياسي والعسكري في مصر، فلما علم بزحف أسد الدين شيركوه ازدادت مخاوفه، ولما وصلت إليه دعوة شاور رَّحب بها، وبذلك لم تُصنع الفرصة عليه لدخول مصر وإن اختلف الحليف، الأمر الذي لا يهمه في شيء فكل ما يعنيه هو دخول مصر [593].

---

[590] المصدر نفسه ص 329.

[591] الباهر ص 121 – 122 تاريخ الزنكيين في الموصل ص 330.

[592] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 330.

[593] المصدر نفسه ص 330.

3- حملـة عمـوري الثانيـة علـى مصـر: فشلت حملت عموري الأول على مصر واضطر إلى الإنسحاب والعودة إلى بيت المقدس وكانت في عام 558هـ/1163م وعندما اتيحت الفرصة مّرة أخرى لدخول مصر بادر عموري الأول، فور تلقيه دعوة شاور، إلى عقد مجلس في بيت المقدس حضره بارونات المملكة، وتقرَّر فيه تلبية دعوة شاور بعد أن أوضح للمجلس أنّ في قدرته تجهيز حملة لغزو مصر دون أن يضعف من دفاعات المملكة، وبخاصة أنه وصل وقتئذ من أوروبا عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس يمكن الاستفادة منهم في المجهود الحربي وأمل في أن يتمَّكن من احتلال مصر لحساب الصليبيين، وقرَّر بأن يتولى بوهميوند الثالث، أمير أنطاكية، إدارة شؤون المملكة خلال غيابه[594] ، وأسرع ملك بيت المقدس بالزحف إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية في شهر رمضان عام 559هـ/شهر آب عام 1164م واتصل، فور وصوله إلى فاقوس [595] بشاور واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بلبيس وصمد هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين شيركوه خلالها عن مواقعه [596] ، وفجأة قَّرر عموري الأول الدخول في مفاوضات معه للجلاء المزدوج عن مصر، فما الذي حدث في الأفق السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة ؟ – وهنا تبرز عبقرية نور الدين العسكرية وقيادته الفذة فقد — تلقَّى عموري الأول أنباء مزعجة من بلاد الشام بتعرُّض ممتلكاته لضغط من نور الدين محمود، ففضَّل العودة للدفاع عنها، وأدرك في الوقت نفسه أن حملته مقضي عليها بالفشل في ظل امتناع أسد الدين شيركوه في بلبيس. وكان موقف أسد الدين شيركوه صعباً أيضاً، فالمؤن بدأت بالنفاذ فضلاً عن تفوق القوات الصليبية الفاطمية المشتركة في العدد وأن الوضع العسكري ليس في صالحه لذلك قبل الدخول في مفاوضات من أجل الجلاء عن مصر [597] . وفعلاً تمّ الاتفاق بين الرجلين على الخروج من مصر في شهر ذي الحجة، شهر تشرين الأول وسار الجيشان الإسلامي والصليبي في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم وكان شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه [598] وكان شاور الفائز الحقيقي في هذا الصراع الذي انتهى لمصلحته، فتخلَّص من الجيوش الإسلامية الشامية والصليبية على السواء كما تخلَّص من ضرغام وأضحى طوال العامين

---

[594] الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 331.

[595] فاقوس: مدينة في جوف مصر الشرقي وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الجوف الأقصى الحموي (232/4).

[596] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 331.

[597] المصدر نفسه ص 331.

[598] المصدر نفسه ص 331.

التاليين صاحب الأمر والنهي والمتحكمَّ في مقاليد البلاد [599] ، ووضع أسد الدين شيركوه نفسه بعد عودته من مصر، تحت تصرف نور الدين محمود وأصبحت مصر محور تفكير أسد الدين شيركوه وحديثه في مجالسه ومحور أفكاره ولم ينقطع عن تبادل الآراء مع أصدقائه فيها الذين كانوا يزودونه بأخبارها وأرسله نور الدين محمود في تلك الاثناء بمهمة إلى بغداد، فاستغل وجوده في عاصمة الخلافة ليثير حماس الخليفة المستنجد بالله حيث راح يقص عليه أخبار مصر وأحوالها، وما شاهده وخبره بنفسه، فتأثر الخليفة بما سمعه وشجَّعه على العودة إليها [600].

وعلى الرغم من أن حملة أسد الدين شيركوه لم تحقق أهدافها في مصر، إلا أن النتيجة النهائية هي أن أملاك نور الدين محمود قد تدعَّمت في بلاد الشام وارتفع شأنه في العالم الإسلامي وأصبح من القوى الإقليمية الكبرى في المنطقة، بينما تراجعت أملاك الصليبيين إلى الساحل واستبد الياس بهم [601] ، ومهما يكن من أمر، فقد غادر كل من شيركوه وعموري الأول أرض مصر وقد وقف كل منهما على أوضاعها السياسية المتردية وسوء أحوالها الاقتصادية، بالإضافة إلى ما تتمتع به من ثروة وفيرة وموارد بشرية هائلة ترجَّح كفة من يضع يده عليها. وانتهز شاور فرصة خروجهما فعاد إلى سيرته الأولى، يظلم ويقتل، ويصادر أموال الناس، بحيث لم يبق للخليفة الفاطمي العاضد معه أمر ولا نهي، ولما ثقلت وطأته عليه كتب إلى نور الدين محمود يستنجد به ليخلصَّه منه [602].

4- الحملة النورية الثانية: أعّد نور الدين محمود القوات اللازمة وأرسلها إلى مصر في شهر ربيع الأول عام 562هـ/شهر كانون الثاني عام 1167م بقيادة أسد الدين شيركوه وصحبه ابن أخيه صلاح الدين وسيَّر معه جماعة من الأمراء [603] ، وبلغ تعداد هذه القوات ألفي فارس [604] ، ورافقه نور الدين حتى أطراف البلاد خوفاً من تعُّرض الصليبيين له [605] ، وسار أفراد الحملة في طريق محفوفة بالأخطار، فالصليبيون الذين

---

[599] المصدر نفسه ص 332.

[600] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 332.

[601] المصدر نفسه ص 332.

[602] النجوم الزاهرة (348/5).

[603] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 342.

[604] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (13/2).

[605] الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 342.

كانوا على طريقهم رابضين في الكرك والشوبك قد ينقضُّون عليهم وينكِّلون بهم، وهم بعيدون عن مناطقهم، والبدو يلاحقونهم وينقلون أخبارهم إلى الصليبيين، وكان عليهم أن يغيِّروا طريق سيرهم أحياناً للتخّفي، كما عرقلت الطبيعة زحفهم، إذ أن عاصفة رملية عنيفة هبَّت عليهم وقضت على عدد من الرجال وبعض الزاد وعلى الرغم من ذلك واصلوا رحلتهم إلى مصر وتوافر لشاور من الوقت ما جعله يستنجد مجَّدداً بعموري الأول، إذ أيقن من استقراء الأحداث، أن أسد الدين شيركوه إذا قدم إلى مصر هذه المرة، فإنه سوف يبقى فيها ولا يغادرها، لذلك، فإنه لم يتوان عن الاتصال بملك بيت المقدس والتفاوض معه، موضحاً له الخطر، الذي يمثله نور الدين محمود على مملكة بيت المقدس لو نجح في امتلاك مصر. رحَّب عموري الأول بدعوة شاور طمعاً في امتلاك مصر وإبعاد نور الدين محمود وجيوشه عنها، حتى لا يتمكَّن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين محمود [606] وقبل أن تستكمل الاستعدادات وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء، فلم يسع عموري الأول إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من الجند لعرقلة تقدمه، غير أن هذا التدبير جاء [607] متأخراً. وعلى الرغم من أن جيش أسد الدين شيركوه تعرَّض لعاصفة رملية عرقلت تقدمه، وكادت تقضي على أفراده، فإنه وصل سالماً إلى برزخ السويس في شهر ربيع الآخر/أوائل شهر شباط) وعلم أسد الدين شيركوه بأن جيشاً صليبياً شرع في الزحف باتجاه مصر، عندئذ اجتاز الصحراء باتجاه الجنوب الغربي ليتفادى مواجهة مبكرة مع الصليبيين حتى بلغ نهر النيل عند إطفيح على مسافة أربعين ميلاً جنوبي القاهرة [608] ثم عبر إلى الضفة الغربية والتزمها في سيره حتى وصل إلى الجيزة وعسكر بمواجهة الفسطاط، وتصرَّف في البلاد الغربية وحكمها نيفاً وخمسين يوماً [609]

أ- حملة عموري الثالثة على مصر والمفاوضات الصليبية الفاطمية:

خرج عموري الأول من بيت المقدس في شهر ربيع الأول عام 562هـ/شهر كانون الثاني عام 1167م متوجهاً إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بلبيس وارتاع شاور من ظهوره المفاجئ وساوره القلق لعدمَ التنسيق معه، ويبدو أنه لم يكن على علم بوصول شيركوه إلى إطفيح، ولم يطمئن إلا عندما أرسله كشافته إلى الصحراء للوقوف على حقيقة الوضع، عندئذ خرج لاستقبال الملك الصليبي والتقى به، وأنزله عموري الأول في معسكره على الضفة

---

[606] مفروج الكروب (149/1) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 343.

[607] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 343.

[608] الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 343.

[609] الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 344.

الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة [610]، وأجرى مع شاور مباحثات تعهد شاور خلالها بأن يدفع أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على أن يجري دفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، واشترط أن يُقسم عموري الأول على ذلك [611]، ولدعم هذه الاتفاقية، وإعطائها صفة رسمية، أرسل عموري الأول كلاً من هيو، سيد قيسارية، وجفري، مقدم فرسان الداوية، إلى الخليفة الفاطمي للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها، فاستُقبل الرسولان استقبالاً حافلاً في القصر الفاطمي وتّم التصديق على المعاهدة [612]. وكان من الطبيعي أن يرحّب الصليبيون بهذه الاتفاقية التي تجعل منهم حماة لمصر والخلافة الفاطمية، وتبُعد أسد الدين شيركوه بوصفه المنافس الوحيد لهم في السيطرة على هذا البلد [613].

ب- معركة البابين: كان أسد الدين والعسكر النُّوري قد ساروا إلى الصَّعيد فبلغوا مكاناً يُعرف بالبابَيْن، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جُمادى الأولى وكان قد أرسل إليهم جواسيس، فعادوا وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُدَدهم، وجّدهم في طلبه، فعزم على لقائهم وقتالهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه أقرب من السَّلامة، لقلة عددهم وبُعْدهم عن بلادهم فاستشارهم، فكلُّهم أشار عليه بعبور النَّيل إلى الجانب الشَّرقي والعْود إلى الشَّام وقالوا له: إن نحن انهزمنا – وهو الذي لا شك فيه – فأين نلتجي وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوٌّ لنا، ويَوَدُّون لو شربوا دماءنا ؟ وحُقَّ لعسكر عدتهم ألفا فارس قد بَعُدُوا عن ديارهم نأى ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات الألوف مع أن كل أهل البلاد عدوٌّ لهم. فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النُّورية يقال له شرف الدين بُرْغُش – وكان من الشجاعة بالمكان المشهور – وقال : من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته والله لئن عُدْتُم إلى الملك العادل من غير غَلبة وبلاء تُعذرون فيه ليأخذنَّ إقطاعاتكم وليعودَنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين وتفُّرون عن عدوهم، وتسلمّون مثل هذه الديار المصرية يتصَّرف فيها الكُفَّار ؟ قال أسد الدين : هذا رأيي وبه أعمل. ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء

---

[610] وليم الصوري (2/896).

[611] المصدر نفسه (2/899) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 344.

[612] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 344.

[613] المصدر نفسه ص 344.

وهذا يبين هيبة نور الدين في قلب وقادة عسكره وجنوده، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة – وهنا برزت عقلية أسد الدين شيركوه وخبرته العسكرية فقد جعل الأثقال في القلب يستكثّر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه : إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون جَمْرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيهم، فقاتلهم مَنْ به قتالاً يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلفَّ من الفرنج الذين حملوا على القلب – المسلمين والفرنج – فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بَلْقعاً ليس بها منهم دَّيار، فانهزموا أيضاً وكان هذا من أعجب ما يؤرِّخ : أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج السَّاحل [614]
.

ج- حصار الإسكندرية:

ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما في طريقها من القرى والسَّواد من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فتسلَّمها من غير قتال؛ سلمَّها أهلها إليه فاستناب بها صلاح الدَّين ابن أخيه، وعاد إلى الصَّعيد وتملَّكه وجبى أمواله وأقام به حتى صام رمضان وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قُتل منهم، واستكثروا، وحشدوا، وساروا إلى الإسكندرية – وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتد الحصار وقَلَّ الطعام بالبلد، فصبر أهلها على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصُّلح [615] .

س- المفاوضات النورية – الصليبية بشأن الجلاء عن مصر: وبعد مفاوضات بين الطرفين تّم عقد صلح على الأسس التالية:

---

614 الباهر ص 132 – 133، كتاب الروضتين (13/2).

615 كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (14/2).

- رفع الحصار عن الإسكندرية.
- تبادل الأسرى.
- إطلاق سراح الجند النوري داخل الإسكندرية.
- يخرج شيركوه مع عسكره من مصر.
- عدم التعرض لهم في الطريق من قِبل القوات الصليبية.

إن قراءة متأنية لسير الوقائع، كما جرت على الأرض، والعروض المتبادلة بشأن عقد الصلح وما حدث بعد إبرام الاتفاقية يمكن رصد الملاحظات التالية: ، فقد وافق الجانبان النوري والصليبي الفاطمي على :

- خروج القوات النورية والصليبية من مصر.
- تبادل الأسرى.
- يتعهد شاور بألاّ يُعاقب رعاياه في الإسكندرية وفي غيرها من الجهات الذين ساندوا أسد الدين شيركوه [616].

ومهما يكن من أمر، فقد دخل عموري الأول مدينة الإسكندرية في شهر شوال/شهر آب) في حين غادرها صلاح الدين في موكب عسكري حافل على الرغم مما أصاب السكان من ضيق لرحيله، والتقى الرجلان وأعجب كل منهما بالآخر، حتى لقد قام ملك بيت المقدس بإمداد صلاح الدين ببعض المراكب لنقل الجرحى المسلمين إلى بلاد الشام [617] . على أن متاعب السكان لم تنته، فلم يكد أتباع شاور يدخلون المدينة حتى ألقوا القبض على كل من جرى الاشتباه في أنه تعاون مع صلاح الدين وقد احتج هذا الأخير لدى عموري الأول الذي نصح شاور بأن يطلق سراح الأسرى [618] . وكانت هذه هي المرّة الثانية التي يغدر فيها شاور وقد علَّمت صلاح الدين درساً قاسياً، حتى إنه لم يتركها تتكرر، واقتصَّ بنفسه من شاور عندما عادت القوات الشامية إلى مصر عام 564هـ/1168م [619].

616 تاريخ الزنكيين في الموصل ص 350.

617 المصدر نفسه ص 351.

618 تاريخ الفاطميين ص 494.

619 المصدر نفسه ص 495.

ك- الحماية الصليبية على مصر: غادر كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين مصر في شهر ذي القعدة/شهر أيلول) في حين تأخر عموري الأول لبضعة أسابيع، لأنه مَّر بالقاهرة ليثبَّت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور، وكانت أهم مظاهرها:

- دفع جزية سنوية قدرها مائة أف دينار للصليبيين.
- بقاء قوة من فرسانهم تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كَّرر محاولة الهجوم.
- إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة يشارك في شؤون الحكم [620].

والراجح أن فكرة تملُّك مصر كانت لا تزال ناشطة في تفكير عموري الأول السياسي، ولم يعد بوسعه أن يتخلى عنها، وهو ينوي العودة بعد إقرار الأمور في بلاد الشام، وذلك طمعاً في ثروتها وحماية لكيانه في بلاد الشام، ثم عاد الملك إلى فلسطين [621] . وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية على مصر، وترتَّب على هذا استمرار التنافس بين نور الدين محمود وعموري [622].

5- الحملة النورية الثالثة على مصر : عام 564هـ.

سبب هذه الحملة أن الفرنجة كانوا قد جعلوا لهم شحنة في القاهرة، وتسلموا أبوابها، وحكموا المسلمين حكماً جائراً، فلما رأوا أنه ليس في البلاد من يردهم، أرسلوا إلى ملكهم – عموري – في القدس، يستدعونه ليملك مصر، وهونوا عليه أمرها، فتردد خوفاً من سوء العاقبة، ثم سار مع فرسانهم على كره منه حتى وصلوا بلبيس مستهل صفر ونهبوها، وقتلوا وأسروا من فيها، ثم ساروا إلى "الفسطاط" فأمر شاور بإحراقها وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن ينهب البلد خوفاً من أن ينهب البلد وخوفاً من أن يملكها الإفرنج، فنهبت المدينة وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً ثم حاصر الفرنجة القاهرة وضيقوا على أهلها، وكان شاور هو المتولي للعساكر والقتال فضاق به الأمر وضعف عن ردهم، فأخلد إلى الحيلة وراسل ملكهم عموري ووعده بمال عظيم ألف ألف دينار مصرية يعجل بعضها الآن، ودفع لهم منها "مائة ألف دينار" وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً، وجعل يجمع لهم المال فلم يستطع أن يجمع إلا خمسة آلاف دينار حيث أن المصريين كانوا قد احترقت دورهم، ونهبت أموالهم [623].

---

[620] المصدر نفسه ص 495.

[621] النجوم الزاهرة (349/5).

[622] تاريخ الفاطميين ص 495.

[623] كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 202.

أ- العاضد يستنجد بنور الدين محمود: كان حاكم مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به ويعّرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لِتُنقِذهُنَّ من الفرنج [624] وعرض على نور الدين مقابل إنقذا البلاد من الصليبيين:

- منحه ثلث بلاد مصر.
- منح قادته الإقطاعات.
- يسمح ليشيركوه بأن يقيم في مصر [625] .

ب- أسد الدين شيركوه يزحف إلى مصر ويدخل القاهرة: قانون الفرصة:

شرع نور الدين في تجهيز الجيوش وأعدادها أعداداً قوياً وأعطى قائد الحملة (شيركوه) مائتين ألف دينار، سوى الثياب والدواب والأسلحة، وحكمه في العسكر والخزائن يأخذ حاجته فاختار من العسكر ألفي فارس، وجمع من فرسان التركمان ستة آلاف وسار نور الدين وشيركوه إلى باب دمشق، ورحلوا إلى رأس الماء [626] ، وأعطى نور الدين كل فارس منهم عشرين ديناراً، معونة غير محسوبة وأضاف إلى شيركوه جماعة أخرى من الأمراء، منهم صلاح الدين الأيوبي [627] ، وسار أسد الدين مجداً فلما قارب مصر، رحل الفرنجة إلى بلادهم بخفي حنين، خائبين مما أملوا، وسمع نور الدين بعودتهم فسره ذلك، وأمر بضرب البشائر في بلاد ولما وصل أسد الدين القاهرة، دخلها واجتمع بالعاضد، الذي خلع عليه وفرح به أهل مصر، وأجريت على عساكره الجرايات الكثيرة [628].

ج- مقتل شاور: وأما شاور فلم يفصح عما في نفسه، وشرع يماطل أسد الدين فيما وعد به من المال، ورواتب الجند، وعزم على الغدر أيضاً، فقرر أن يقيم وليمة لأسد الدين وأمرائه ثم يغدر بهم ويقتلهم، فنهاه ابنه الكامل عن ذلك وقال له : والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعرِّفَنَّ أسد الدين. فقال له أبوه. والله لئن لم أفعل لنقتلن جميعاً. فقال: صدقت، ولا نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد

---

[624] الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 202.

[625] تاريخ الفاطميين محمد سهيل طقوس ص 504.

[626] الجهاد والتجديد ص 202 رأس الماء في منطقة حوران.

[627] الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 202.

[628] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (55/2).

ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ويملكون البلاد، فترك ما كان عزم عليه (629) ، وأخير اتفق صلاح الدين وبعض الأمراء على التخلص من هذا الخائن المراوغ شاور فأسروه، وسمع العاضد بذلك فأرسل إلى شيركوه يطلب رأسه، وأذن أسد الدين بقتله فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخرة، عام 643هـ (630) .

ر- تولي أسد الدين الوزارة للعاضد: ودخل أسد الدين القاهرة، وقصد قصر العاضد فخلع عليه الوزارة، ولقبه الملك المنصور، وأمير الجيوش، واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره، وقد مدح الشعراء أسد الدين شيركوه لما حقق من انتصارات فقال العماد :

بلغـــــت بالجـــــد مـــــالا يبلـــــغ البشـــــر
ونلـــت مـــا عجـــزت عـــن نيلـــه القُـــدَر
أصـــــبحت بالعـــــدل والإقـــــدام منفـــــرداً
فقـــــل لنـــــا : أعلّـــــي أنـــــت أم عمـــــر
افخـــــر فـــــإن ملـــــوك الأرض أذهلهـــــم
مـــا قـــد فعلـــت، فكـــلٌ فيـــك مفتكِـــرُ
ســـهرت إذ رقـــدوا بـــل هُجْـــتَ إذ ســـكنوا
وصُـــلت إذ جبنـــوا، بـــل طُلـــت(631)إذ قصـــروا

س- وفاة أسد الدين: ولم تطل وزارة شيركوه، حيث توفي في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة 564هـ فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام رحمه الله رحمة واسعة وخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين (632) وكان أسد الدين من أكبر قادة نور الدين، وقد ادخره الملك العادل للخطوة الكبرى التي كان يمهد لها، وهي ضم مصر إلى بلاد الشام وكان رحمه الله كريماً على جنده، صارماً يعرف كيف يقر النظام في عسكره

629المصدر نفسه (56/2).

630الجهاد والتجديد ص 203.

631كتاب الروضتين ص 203 ، 204.

632الجهاد والتجديد ص 204.

فهابه جنده وأحبوه، وركبوا معه المخاطر في حملات عظيمة [633] ، نفع الله بها الإسلام والمسلمين وساهمت في تقوية المشروع المقاوم للغزو الصليبي الذي كان يقوده نور الدين ثم من بعده صلاح الدين وكان شيركوه شجاعاً بارعاً قوياً جلداً في ذات الله، شديداً على الكفار، وطاعته عظيمة، في ذات الله صولته، عفيفاً ديناً، كثير الخير، وكان يحب أهل الدين والعلم، كثير الإيثار، حدباً على أقاربه وأهله، وكان فيه امساك، وخلف مالاً كثيراً وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئاً كثيراً، وخلف خمسمائة مملوك، وهم الأسدية الذين ساهموا في بناء الدولة الأيوبية [634].

ثالثاً: وزارة صلاح الدين في مصر والمهام التي أنجزها:

كان صلاح الدين قد أظهر كفاءة خلال صحبته لعمه، أسد الدين شيركوه، أثناء حملاته على مصر، فتولى الوزارة بعد وفاة عمه، وهو في الحادية والثلاثين من عمره اختاره العاضد، لأنه كان أصغر الأمراء سناً ولعله يكون أكثر طواعية له، إلا أن الملك الناصر –كما لقبه العاضد – خيب ظن الفاطميين، فشرع يستميل قلوب الناس إليه كما بذل لهم من الأموال التي قد جمعها عمه، فمال الناس إليه وأحبوه وسيطر على الجند سيطرة [635] تامة، وكانت المهام التي أنجزها صلاح الدين في عهد نور الدين عظيمة وضخمة واستطاع القضاء على مراكز القوة .

1- مؤامرة مؤتمن الخلافة : جرى من الأحداث في مصر بعد تولية صلاح الدين منصب الوزارة، أن البلاد كانت تجتاز مرحلة خطيرة في تاريخها، فالدولة الفاطمية، لا زالت موجودة يساندها الجيش الفاطمي وكبار الدولة، والخطر الصليبي لا يزال جاثماً على مقربة من أبواب مصر الشرقية، فكان عليه أن يثبت أقدامه في الحكم ليتفرغ لمجابهة ما قد ينشأ من تطورات سياسية ولم يلبث أن ظهر مقدرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة هو عازم على الاستئثار بكافة الاختصاصات حتى التي تخص منصب الخلافة ونفَّذ عدة تدابير كفلت له الهيمنة التامة منها:

- استمال قلوب سكان مصر بما بذل لهم من الأموال فأحبوه.
- أخضع مماليك أسد الدين شيركوه، وسيطر بشكل تام على الجند بعد أن أحسن إليهم.

---

[633] المصدر نفسه ص 204.

[634] الموسوعة الشاملة (ج 73/24).

[635] المصدر نفسه ص 205.

- قّوى مركزه بما كان يمده به نور الدين محمود من المساعدات العسكرية وقد وصل أخوه بشمس الدولة توران شاه بن أيوب مع إحدى هذه المساعدات العسكرية [636] . وقد أدّت التدابير التي نفذَّها صلاح الدين إلى تقوية قبضته على مقدرات الدولة، وزادت من تراجع نفوذ العاضد وبالتالي مركز الإمامة وأثارت استياء كبير الطواشية، مؤتمن الخلافة، وهو نوبي، وقائد الجند السودان، وقد أدرك أن نهج صلاح الدين في الحكم سوف يقضي في حال استمراره على الدولة الفاطمية إن عاجلاً أو آجلاً ويبدو أنه كان من بين الطامعين في خلافة شاور، ولما لم يفلح راح يحيك الدسائس للإطاحة بصلاح الدين وحاول الاتصال بعموري الأول ملك بيت المقدس، لتحريضه على مهاجمة مصر، آملاً في حالة الاستجابة أن يخرج صلاح الدين إلى لقائه، فيقبض هو على من يبقى من أصحابه في القاهرة ويثبت على منصب الوزارة وتتقاسم البلاد مع الصليبيين غير أن صلاح الدين علم بخيوط المؤامرة حين ارتاب أحد اتباعه في شكل الخفين اللذين اتَّخذهما رسول مؤتمن الخلافة إلى عموري الأول، فأخذهما ونزع خياطتها، فاكتشف الرسالة بداخلها، فقبض على مؤتمن الخلافة وانتهز الفرصة للتخلص منه، غير أن أنباء اهتزاز مركزه في مصر شجعت النصارى على القيام بمحاولة أخرى لمهاجمة مصر [637] . وقد قام صلاح الدين بأبعاد جميع الخدم من السودان عن قصر الخلافة واستعمل على الجميع في القصر، بهاء الدين قراقوش، فكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بحكمه وأمره [638].

2- وقعة السُّودان : وذلك أنه لما قتل الطَّواشي [639] ، مؤتمن الخلافة الخادم الحبشيُّ، وعزل بقية الخُدَّام غضبوا لذلك واجتمعوا قريباً من خمسين ألفاً، فاقتتلوا هم وجيش الملك صلاح الدين بين القَصْرَين فقتل خلق كثير من الفريقين، وكان العاضد ينظر من القصر إلى المعركة، وقد قُذِفَ الجيشُ الشاميُّ من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهامٌ، فقيل: كان ذلك بأمر العاضد وقيل : لم يكن بأمره، ثم إن أخا الناصر — صلاح الدين — شمس الدولة تورانشاه وكان حاضراً للحرب قد بعثه نور الدين إلى أخيه ليسُدَّ أزره — أمر بإحراق منظره العاضد، ففتح الباب ونُودِي : إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السُّودان من بين أظهركم، ومن بلادِكم فقوى الشاميون وضعف جأش السودان جدَّاً، وأرسل الملك الناصر إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة التي فيها دورُهم وأهلُوهم بباب زويلة فأحرقها فولَّوا عند ذلك مُدبرين، وركبهم السيف فقتل منهم

---

[636] تاريخ الفاطميين ص 509 البداية والنهاية (433/16).

[637] الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الفاطميين ص 510.

[638] البداية والنهاية (434/16).

[639] الطواشي : جمعه طواشية وهم الخصيان الذين استخدموا في الطياق المملوكة وفي الحريم السلطاني وكانت لهم حرمة وافرة.

خلقاً كثيراً، ثم طلبُوا الأمان من الملك صلاح الدين، فأجابهم إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة، ثم خرج إليهم شمسُ الدولة تورانشاه أخو الملك صلاح الدين فقتل أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل " فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا " (النمل، آية: 52) (640) ويبدو أن حاكم مصر الفاطمي العاضد كان في ذلك الوقت على علم بمؤامرة مؤتمن الخلافة، لأنه ليس من المتصور أن يجرى ذلك في قصره وبدون علمه، ويؤكد ذلك أن قوات صلاح الدين يوسف بن أيوب تعرضت وهي تصفى أطراف المؤامرة، بهجمات بالحجارة والسهام صادرة من قصر الحاكم، بل إن العاضد كان يراقب المعركة من القصر (641) .

كان اكتشاف المؤامرة من مسؤوليات ديوان الإنشاء وبالذات القاضي الفاضل الذي كان العقل المفكر للقضاء على النفوذ الفاطمي في مصر وتثبيت المذهب السني وسيأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله في حديثنا عن الدولة الأيوبية.

كان القاضي الفاضل يراقب كتّاب ديوان الإنشاء والمسّرحين منهم بصورة خاصة، وكانت العيون مبثوثة في كل ناحية ومنطقة وزاوية، في القصور وبين العساكر، وعلى الحدود، وعلى كل محطة من محطات البريد أو محّطات الاتصال بين مصر والفرنج وقد كانت هذه العيون على اتّصال مباشر بالقاضي الفاضل تزوده بتقريرها بواسطة الرسل وعلى أجنحة حمام الزاجل (642) .

3- القضاء على الأرمن: ولم يتوقف نصر صلاح الدين بالقضاء على شوكة السودان بل أتبعه بفلّ شوكة الأرمن، وهم الفرقة التالية للسودان قوة وعدداً، فأحرق داراً للأرمن بين القصرين وفيها عدد كبير من الجنود الأرمن، معظمهم من الرماة ولهم رواتب من الحكومة، وكان هؤلاء قد حاولوا أن يعرقلوا حركة قوات صلاح الدين في أثناء المعركة مع السودان برميهم بالنشّاب فلقوا جزاءهم، وأما من تبقّى منهم فنفاهم صلاح الدين إلى الصعيد (643)، أضعف صلاح الدين بقضائه على شوكة السودان والأرمن الدولة الفاطمية إلى حد بعيد، بحيث أصبح من الواضح أن القضاء على الدولة الفاطمية نفسها لم يعد بعيداً (644) .

---

[640] البداية والنهاية (435/16).

[641] الطريق إلى القدس ص 91.

[642] القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني ص 130 ، 131.

[643] القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني العسقلاني ص 133.

[644] المصدر نفسه ص 133.

4- اهتمام صلاح الدين بتقوية جيوشه: أخذ صلاح الدين يعمل حال تولّيه الوزارة على إعداد جيش أيوبي ليكون نواة لجيش مصري جديد يدافع به عن حكمهم، وعن مصر من الغزو الإفرنجي ولم يْخفَ عليه تدهور وضع الجيش الفاطمي لأنه خبره في أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين سنة 559هـ وسنة 564هـ/1163م – 1168م وعرفه معرفة جيدة من حيث مصادره البشرية والمالية والحربية ومن حيث تنظيمه وفرقه المبنية على أساس عرقي، مثل السودان والأرمن، والمصريين والديلم والأتراك والعربان وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فرقة من هذه الفرق [645]، وكان القاضي الفاضل قد عمل في إدارة هذه القوات في عهد رزيك بن الصالح وساهم معها في بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر كما أشرنا سابقاً، وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون في شأن السلطة الأمر الذي أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز معه عن الدفاع عن استقلالها، أو حتى عن بقائها وعرف القاضي الفاضل الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش ويشرف على العيون والرسل، فألّم بهذه القوات وعرف دخائلها وأطّلع على كل فرقة منها وعلى نيات كل قائد من قوّادها، ولم يضنَّ بمعلوماته عنها على صلاح الدين، بل وجهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته، وظل طول عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، ويراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية، ويصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين ومن الشام إلى مصر لتستعد وتتجهز لحملات مقبلة ضد الفرنج وقد أنشأ صلاح الدين في بداية عهده في الوزارة جيشاً كبيراً ازداد عدداً وعّدة بمرور الوقت واتساع عملياته الحربية ضد الفرنج وكان قوام هذا الجيش في مصر الحرس الخاص، والجيش النظامي في مصر، ثم الجيوش الشعبية التي تكّونت من أمراء الإقطاع وجنودهم، ولاسيما في الشام والجزيرة بعد سنة 570هـ/1174؛ والبدو [646] ويأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى مفصلاً في الحديث عن الدولة الأيوبية وصلاح الدين.

رابعاً: التصدي للحملة الصليبية البيزنطية المشتركة وحصار دمياط 565هـ:

أدرك الإفرنج خطورة موقفهم بعد فتح مصر، وتولى صلاح الدين وزارتها، فاتفق ملك القدس "عموري" مع إمبراطور بيزنطة على غزو مصر بأساطيلهم وحاصروا دمياط تنفيذاً لذلك التحالف [647] ، وأرسل صلاح

---

[645] المصدر نفسه ص 126.

[646] القاضي الفاضل ص 127.

[647] الجهاد والتجديد ص 207.

الدين قواته بقيادة خاله شهاب الدين محمود وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخاوف ويقول: إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا من طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج امامي، فلا يبقى لنا باقية [648] . وقد قام نور الدين بالدور المتوقع منه واتخذ القرار السليم فسير إلى صلاح الدين العساكر ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية وقام بشن الغارات على حصون الفرنجة وقلاعهم ووصلت سراياه إلى المدى الذي لم تصله من قبل في بلادهم ليخفف الضغط عن مصر وفي ذلك تعزيز ودعم لصلاح الدين حتى يتمكن من إحكام السيطرة على مصر، ليتفرغ بعذ ذلك للمساعدة في تحقيق الهدف الاستراتيجي الكبير المتمثل في تحرير سواحل بلاد الشام من الاحتلال [649] الفرنجي. وقد قامت حامية دمياط بدور بطولي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت وصول السفن اليونانية إليها وأنزل المسلمون المدافعون الخسائر بالأسطول البيزنطي اليوناني، وهطلت أمطار غزيرة حولت المعسكر الصليبي إلى مستنقع فتهيأوا للعودة وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يوماً، وعندما أبحر الأسطول البيزنطي، هبت عاصفة عنيفة، لم يستطيع البحارة الذين كادوا أن يهلكوا جوعاً من السيطرة على سفنهم فعرف معظمها، ونصر الله المسلمين، نصراً مؤزراً [650].

1- أسباب فشل الحملة على دمياط:

يعود فشل الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط إلى عوامل تتعلق بالمسلمين والصليبيين والبيزنطيين وبالجانبين الصليبي والبيزنطي معاً.

أ- فيما يتعلق بالجانب الإسلامي يمكن رصد العوامل التالية:

- صمود سكان دمياط في وجه المعتدين.
- سرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن والسلاح، مما رفع معنويات سكانها المحاصرين.
- التعاون الصادق بين القوات الإسلامية في كل من بلاد الشام ومصر بهدف التصدي للمعتدين.
- القدرة القتالية للقوات الإسلامية، وحسن تخطيطها وتنظيمها الدقيق [651].
- موقف نور الدين محمود الداعم، فقد أرسل بعوث كثيرة يتبع بعضها بعضها، ثم إن نور الدين اغتنم غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد إليهم في جيوش كثيرة فجاس خلال ديارهم، وغنم من أموالهم، وقتل من

---

[648] المصدر نفسه ص 207.

[649] دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 160.

[650] الجهاد والتجديد ص 208.

[651] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 379.

رجالهم، وسبى من نسائهم وأطفالهم شيئاً كثيرا، وعندما بلغ الفرنج بدمياط ما فعله نور الدين اضطروا لترك دمياط [652] .

- استغلال المسلمين الجيد للفرص التي أتيحت لهم فقد استغلوا فرصة معاناة البيزنطيين من الجوع، فشنوا هجوماً عليهم جاء فّعالاً، كما استغلوا هبوب الرياح الجنوبية لإشعال النار في الأسطول البيزنطي بواسطة حّراقة [653] والأهم من هذا كله توفيق الله وحفظه ومعيته وأنزال نصره على عباده المجاهدين.

ب- فيما يتعلق بالجانب الصليبي:

- لقد أخَّر الملك عموري الأول الهجوم على المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي، مما أعطى فرصة طيبة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والعتاد [654] .
- إحجام القوات الصليبية عن إمداد القوات البيزنطية بالمؤن عندما تعَّرضت لهجوم المسلمين، حيث وقفت موقف المتفرج [655] .

ج- فيما يتعلق بالجانب البيزنطي فيمكن تدوين العوامل التالية:

- عدم استخدام القائد كونتوستيفانوس الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً وبدا كأنه قائد بري وليس قائداً بحرياً.
- اقتصر دور الأسطول البيزنطي على نقل القوات حتى ساحل دمياط.
- افتقر القائد البيزنطي إلى النظرة العسكرية السليمة عندما ترك السفن البيزنطية متلاصقة في النيل مما سَّهل مهمة القوات الإسلامية في إشعال النار في عدد منها.
- تراخي القيادة البيزنطية في تطبيق القواعد العسكرية التي تكفل أمن سفنها حين تركت البحارة يبيتون خارج سفنهم أيام العمليات العسكرية.
- انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية.

س – هناك أسباب مشتركة تتعلق بالجانبين الصليبي والبيزنطي، منها:

---

[652] البداية والنهاية (440/16).

[653] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 380 معالم تاريخ الأمبراطورية البيزنطية محمود سعيد عمران 330.

[654] تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 380.

[655] المصدر نفسه ص 380.

- سوء اختيار توقيت خروج الحملة، وتنفيذ الحصار الذي جرى في فصل الشتاء، حيث تعّرضت القوات المتحالفة للسيول التي أغرقت معسكراتها وللعواصف التي كانت تبعد قطع الأسطول عن الشاطئ.
- سوء اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفة، وهي المنطقة التي تمتد بطول الساحل، والبالغة حوالي الميل الواحد فلم تستوعب أفراد الحملة البالغ عددهم خمسين ألفاً حيث حشروا في هذا المكان الضيق، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للدخول في معركة ناجحة .
- أدّى سوء اختيار المكان أن أضحت القوات المتحالفة هدفاً سهلاً لمرمى المسلمين وهجماتهم.
- عدم وجود قيادة موحدة، وافتقرت القيادتان الصليبية والبيزنطية إلى التنسيق فيما بينهما، مما تسَّبب في فشل عمليات الهجوم على المدينة، وتفشي الشائعات داخل معسكراتها، واتهام كل جانب الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة [656].

2- نتائج الحملة على دمياط:

- بعد فشل الحملة الصليبية – البيزنطية المشتركة على دمياط أصبحت هذه الحادثة نقطة تحول هامة في تاريخ الشرق الأدنى، لأنه لو نجح التحالف النصراني في تحقيق غايته لكان من الممكن أن يمنع اتحاد بلاد الشام ومصر، الذي يشكل خطراً مباشراً على أوضاع الصليبيين في الشام، ويعرقل جهود المسلمين في التصدي للصليبيين، وإخراجهم من المنطقة.
- يُعُّد فشل الحملة النصرانية نقطة تحول هامة، أيضاً – في مستقبل صلاح الدين، الذي ظهر بمظهر المتمكَّن في حماية مصر، وأقنع الدولة الفاطمية، المتداعية بأنه يستطيع حماية البلد من غارات المعتدين بالإضافة إلى حماية مركزه من دسائس المتآمرين، وبذلك حاز على إعجاب الكثير.
- بات المسلمون يهَّددون، بشكل مباشر، الإمارات الصليبية بحيث شعر الصليبيون يوماً بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم، وبعد أن كانوا يحصرون نشاطهم ضد خطر نور الدين محمود من ناحية الشمال، وأضحوا يوزعون قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين محمود وصلاح الدين [657] .
- إذا كانت تولية صلاح الدين منصب الوزارة بداية النهاية للدولة الفاطمية فإن هزيمة النصارى أمام دمياط، شكّلت خطوة أخرى نحو القضاء على هذه الدولة حيث تطلع الخليفة العاضد إلى التحرر من نفوذ صلاح الدين، ولكن المصير الفاشل الذي آلت إليه، خيَّبت أمله، وأتاحت لصلاح الدين فرصة

---

[656] المصدر نفسه ص 381.

[657] تاريخ الزنكيين في الموصل ص 381.

الانفراد بالسلطة في مصر، وتوجيه اهتمامه نحو إضعاف المذهب الشيعي الإسماعيلي وفقدت الدولة الفاطمية الأمل الأخير من التخلص في قبضته القوية وأضحى سيد مصر دون منازع [658].

3- وصول نجم الدين أيوب مصر : طلب صلاح الدين من نور الدين أرسال والده إليه فوافق نور الدين على ذلك وطلب من نجم الدين أيوب أن يستعد للسفر إلى مصر وحمّله رسالة إلى صلاح الدين يأمره فيها بالتعجيل في إلغاء الخلافة الفاطمية وإعلان الخطبة للخليفة العباسي [659]. وخرج مع القافلة التي سافر فيها نجم الدين أيوب عدد كبير من التجار وأصحاب المصالح في مصر، فخشي نور الدين على القافلة من الفرنجة وسار بجيشه إلى الكرك، وحاصرها حتى أطمأن إلى اجتياز القافلة لمنطقة الخطر فتركها وعاد إلى دمشق [660] ووصل والد صلاح الدين نجم الدين أيوب إلى القاهرة في الرابع والعشرين من رجب سنة خمس وستين وخمسمائة وخرج العاضد – صاحب القصر لاستقباله وبالغ في احترامه والإقبال عليه واتفق لأيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيه ما أتفق ليعقوب مع ابنه يوسف – عليهما السلام – حين قدم على ولده ووجده متملكاً للديار المصرية وقال: "ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين" (يوسف، آية : 99). وذكر أنه لما خرج ولده الملك الناصر صلاح الدين والخليفة العاضد إلى لقائه واجتمعا به قرأ بعض المقرئين: " ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سُجَّداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل" (يوسف، آية: 100). ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته وفَّوض إليه الأمر كله، فأبى ذلك عليه أبوه وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له، فلا ينبغي أن تغير مواقع السعادة [661]، فحكَّمه في الخزائن بأسرها، وأنزله اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة [662] وفي ما حدث لصلاح الدين من اجتمع بوالده وأهله قال عمارة اليماني:

مـــــن شــــــاكر والله أعظـــــم شــــــاكر
مـــا كـــــان مــــن نعمــــى بــــني أيــــوب

طلــــب الهـــدى نصــــراً فقــــال وقــــد أتـــوا

---

[658] المصدر نفسه ص 382.

[659] دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 115.

[660] دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 116.

[661] مفرج الكروب (186/1).

[662] المصدر نفسه (186/1).

حســـــــبي فـــــأنتم غايـــــة المطلـــــوب

جلبـــــوا إلى دميـــــاط عنـــــد حصـــــارها

عـــــزّ القـــــوي وذلـــــة المغلـــــوب

جلـــــوا عـــــن الإســـــلام فيهـــــا كربـــــة

لـــــو لم يجلّوهـــــا أتـــــت بكـــــروب

فالنـــــاس في أعمـــــال مصـــــر كلهـــــا

وعُتقـــــاؤهم مـــــن نازح وغريـــــب

إن لم تظـــــن النـــــاس قشـــــراً فارغـــــاً

وهـــــم اللبـــــاب فأنـــــت غـــــيُر لبيـــــب

صـــــحت بـــــه مصـــــر وكانـــــت قبلـــــه

تشـــــكو ســـــقاماً لم يُعـــــن بطبيـــــب

عجبـــــاً لمعجـــــزة أتـــــت في عصـــــره

والـــــدهر ولاّد لكـــــلّ عجيـــــب

رد الإلـــــه بـــــه قضـــــية يوســـــف

نســـــقاً علـــــى ضـــــرب مـــــن التقريـــــب

جاءتـــــه إخوتـــــه ووالـــــده إلى

مصـــــر علـــــى التـــــدريج والترتيـــــب [663]

وحُكي أنه لم اجتمع صلاح الدين بوالده في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، ذكر نجم الدين أن صلاح ولد ليلة إخراجه من قلعة تكريت قال: فتشاءمت له وتطيرت لما جرى علي وكان معي كاتب نصراني فقال: يا مولاي من يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيماً عظيم الصيت جليل المقدار. قال فعطفني كلامه عليه. فتعجبت الجماعة من هذا الاتفاق رحمة الله عليهم أجمعين [664] وقد توفي نجم الدين أيوب في 568هـ فقد ركب نجم الدين أيوب، فشبب به فرسه بالقاهرة عند باب النَّصر وسط المحجّة يوم الاثنين الثامن

---

[663] عيون الروضتين (301/1، 302).

[664] المصدر نفسه (304/1).

عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله، وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليما وبابه مزدحم بالوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود [665] وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السَّياسة، وكان لا يمُّر أحدٌ من أهل العلم والدين إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه [666] ، وكان صلاح الدين غائباً في بلاد الكَرَك والشوبك على الغزاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت الدَّار السلطانية ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصَّلاَّة والسلام وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل [667] وقد رثاه عمارة اليماني فقال :

صــــفُو الحيـــاةِ وإن طـــال المـــدى كَـــدَرُ
وحــــادث المـــوتِ لا يُبقـــي ولا يَـــذَرُ

ومـــا يـــزال لســـانُ الـــدهر يُنـــذِرُنا
لـــو أثَّـــرَت عنـــدنا الآيات والنُّـــذُرُ

فـــلا تَغُـــل غـــرَّت الـــدُّنيا مطامعنـــا
فمـــا مـــع المـــوت لا غـــش وكـــدر

كـــأس إذا مـــا الـــرّدى حيّـــا الحيـــاة بهـــا
لم ينـــبح مـــن سُـــكرها أنثـــى ولاَ ذَكَـــرُ

كـــم شـــامخِ العـــز لاقَـــى الـــذُّل مـــن يَـــدِها
مـا أضـعف القَـدْرَ إن القَـدْرَ إن ألْـوى بـه القَـدَرُ

في كـــلَّ جيـــل وعصـــر مـــن وقائعهـــا
شـــعوا يقطـــر منهـــا النَّـــاب والظُّفُـــرُ

أودى علـــــي وعثمـــــان بمخلبهـــــا
ولم يَفُتهـــا أبـــو بكـــر ولا عمـــر

665كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (248/2).
666المصدر نفسه (252/2).
667المصدر نفسه (249/2).

ومـــــــــن أراد التأسَّــــــــي في مصـــــــــيبته

فللـــــــــورى برســـــــول الله معتـــــــبرُ [668]

وقد خلف نجم الدين من الأولاد: صلاح الدين يوسف الناصر، وسيف الدين أبا بكر العادل، وشمس الدولة توران شاه، وشاهنشاه، وسيف الإسلام طغتكين، وتاج الملوك بوري، ومن البنات ست الشام وربيعة خاتون [669].

خامساً: إلغاء الخلافة الفاطمية العبيدية:

وتعتبر هذه الخطوة من أعظم المهام التي أنجزها صلاح الدين فقد كان نور الدين حريصاً كل الحرص على إنهائها – فكتب إلى نائبه صلاح الدين يأمر بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء – فاعتذر صلاح الدين، بالخوف من قيام أهل مصر ضده لميلهم إلى الفاطميين وبأنه لم يتهيأ لذلك بعد، إلا أن نور الدين أرسل إلى نائبه : يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة فيه. وكان الخليفة العباسي قد أرسل إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الملك العادل نجم الدين أيوب، وحمّله رسالة فيها : وهذا أمر تجب المبادرة إليه، لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لاسيما وإمام الوقت – المستنجد – متطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته [670] وكان صلاح الدين متهيباً متردداً في إسقاط تلك الخلافة، حيث أن ميراث العبيديين في مصر، كان عمره أكثر من مائتي سنة وكان نور الدين يعتبر أن فتح مصر نعمة من نعم الله عليه وعلى المسلمين، من أجل توحيد البلاد على منهج أهل السنة وإزالة البدع والرفض [671]، وكان نور الدين متفهماً لظروف صلاح الدين وكان يخاطبه بالأمير (أسفهلار) ولو أراد لأرسل خطاباً بعزله عن مصر وتوليته قطراً آخر، وهذا ما صرح به نجم الدين لولده صلاح الدين في مصر: إن أراد عزلك .. يأمر بكتاب مع نجّاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد [672] . ومن دلائل احترام نور الدين لصلاح الدين ما جاء في خطابه لابن أبي عصرون يوليه قضاء مصر ويقول فيه: تصل أنت وولدك حتى أسيركم إلى مصر، وذلك بموافقة صاحبي، واتفاق منه، صلاح الدين،

---

[668] عيون الروضتين (259/1).

[669] الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (146/24).

[670] كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 209.

[671] الجهاد والتجديد ص 215.

[672] كتاب الروضتين نقلاص عن الجهاد والتجديد ص 215.

وفقه الله فأنا شاكر له كثير كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم [673] . فحقيقة العلاقة بين القائدين احترام متبادل وتقدير عظيم وسيأتي الحديث عن العلاقة بينهما بإذن الله والرد على الكتّاب الذين تلقوا روايات ابن أبي طيئ الشيعي الذي حرص على تشويه وتلطيخ العلاقة بين الرجلين والطعن في سيرتهما كلما أمكنه ذلك.

- **التدرج في إلغاء الخطبة للخليفة الفاطمي**: استفاد صلاح الدين من الرجل الفذ الكبير القاضي الفاضل، فقد ساعده على إحكام خطة مدروسة للقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي وشرع صلاح الدين في تنفيذها بدقة متناهية وبعد أن هيّأ صلاح الدين المصريين للانقلاب وقلَّم أظفار المؤسسة الفاطمية، فعزل قضاة الشيعة وألغى مجالس الدعوة وأزال أصول المذهب الشيعي، ففي سنة 565هـ/1169م أبطل الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر. ويعلق المقريزي بأن هذه أول وصمة دخلت على الدولة [674]. ثم أمر بعد ذلك، في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة 565هـ/1169 1170م بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة فكان الخطيب يقول : اللهم أصلح العاضد لدينك [675] . وولىّ القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري السني فاستناب القضاة الشافعيين في جميع البلاد وأنشأ المدارس لتدريس المذاهب السُّنية وهو في الوقت نفسه يضيق الخناق على العاضد، فيلغي مخصصاته ويحرمه من المال والخيل والرقيق ويمنع رسوم الخلافة وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها، ويحتجز الخليفة في قصره فلا يسمح له بمغادرته إلا في مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء إلى القاهرة وعمد إلى الخطة نفسها مع أمراء الجيش فأخذ يحّد من نفوذهم شيئاً فشيئاً ثم قبض عليهم في ليلة واحدة وأنزل أصحابه في دورهم وفرّق اقطاعاتهم عليهم [676] . وكان العاضد يتابع ذلك كله بقلب حزين ونفس كئيبة وقد خابت الآمال التي عقدها على صلاح الدين وانزوى في مخدعه فريسة للهّم والمرض [677]، وأدرك صلاح الدين أن الفرصة باتت مؤاتيه للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة فعقد مجلساً كبيراً حضره أمراء جيشه

---

[673] المصدر نفسه ص 215.

[674] المقريز (اتعاظ) (317/3) القاضي الفاضل ص 137.

[675] القاضي الفاضل ص 137.

[676] الخطط للمقريزي نقلاً عن صلاح الدين الأيوبي لقلعجي ص 161.

[677] صلاح الدين الأيوبي ، قدري قلعجي ص 162.

وقواده وفقهاء السُّنة ومتصوفوها وسألهم الرأي والنصيحة وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد [678] . وفي بداية سنة 567هـ/1171-1172م قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وكان قطعها بالتدريج أيضاً، ففي الجمعة الأولى من محرم 567هـ/1171-1172م حذف اسم العاضد من الخطبة، وفي الجمعة الثانية خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله: وقطعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها إلى اليوم الخطبة الفاطمية [679] والملاحظ أن الخطبة للعباسيين قد تمت بالإسكندرية قبل القاهرة ومصر بنحو أسبوعين وذلك لأنها ظلت على المذهب السني طوال العصر الفاطمي [680] وقد توفي العاضد في العاشر من محرم 567هـ/1171-1172م [681] ويقال أن صلاح الدين حين علم بوفاة العاضد الفاطمي بعد أيام ندم على أنه تعجل في قطع خطبته وقال: لو عرفنا أنه، أي الخليفة العاضد، يموت في هذا اليوم ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة، فضحك القاضي الفاضل ورد عليه: قائلاً: يا مولاي لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت [682]، فابتسم الحاضرون لهذه المداعبة الكلامية بين الوزير صلاح الدين وكاتبه ومستشاره التي انطوت فيها آخر صفحة من صفحات تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية [683] .

2- وفاة العاضد عام 567هـ: قال ابن كثير: والعاضد في اللغة القاطع: لا يعضد شجرها: فيه قطعت دولتهم واسمه عبدالله، ويكنى بأبي محمد بن يوسف الحافظ بن محمد بن المستنصر ابن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي أوَّل ملوكهم وكان مولد العاضد في سنة سِتَّ وأربعين، فعاش إحدى وعشرين سنة، وكانت سيرته مذمومة وكان شيعياً خبيثاً لو أمكنه قتل كلَّ من قدر عليه من أهل السنة [684] .

---

678 المصدر نفسه ص 162.

679 القاضي الفاضل ص 137.

680 تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص 59.

681 الفاضي الفاضل ص 139.

682 القاضي الفاضل ص 139.

683 المصدر نفسه ص 139.

684 البداية والنهاية (451/16).

3- فرح المسلمون بزوال الدولة الفاطمية: ولما انتهى الخبر إلى الملك نور الدين بالشام أرسل إلى الخليفة العباسي يعلمه بذلك مع ابن أبي عصرون، فزينت بغداد، وغلقت الأبواب وعُملت القباب وفرح المسلمون فرحاً شديد وكانت الخطبة قد قَطعت من ديار مصر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسيَّ حين تغلب الفاطميُّون عليها أيام المعزَّ الفاطمي، باني القاهرة إلى هذه الأوانِ، وذلك مائتا سنة وثماني سنين [685] وقد تفاعل الشعراء مع هذا الحدث المدوّي في أرجاء الدنيا فقد قال العماد الأصفهاني:

تـــــوفي العاضـــــد الـــــدعي ممـــــا
يفـــــتح ذو بدعـــــة بمصـــــر فمـــــا

وعصـــــر فرعونهـــــا انقضـــــى وغـــــدا
يوســـــفها في الأمـــــور محتكمـــــا

قـــــد طفئـــــت جمـــــرة الغـــــواة وقـــــد
داخ مـــــن الشـــــرك كـــــل مـــــا اضـــــطرما

وصـــــار شمـــــلُ الصـــــلاح ملتئمـــــاً
بهـــــا وعقـــــد الســـــداد منتظمـــــاً

لمـــــا غـــــدا مشـــــعراً شـــــعار بـــــني
العبـــــاس حقَّـــــا والباطـــــل اكتتمـــــا

وبات داعـــــي التوحيـــــد منتظـــــراً
ومـــــن دعـــــاة الاشـــــراك منتقمـــــاً

وظـــــل أهـــــل الضَّـــــلال في ظلـــــل
داحيـــــة مـــــن غيابـــــة وعمـــــى

وارتبـــــك الجـــــاهلون في ظُلـــــم
لمـــــا أضـــــاءت منـــــابر العُلمـــــاء

وعـــــاد بالمستضـــــيء ممتهـــــداً
بنـــــاء حـــــقَّ قـــــد كـــــان منُهَـــــدِمِا

---

[685] المصدر نفسه (450/16).

واعتلَّـــــت الدّولـــــة الــــــتي اضــــــطهدت
وانتصــــــر الــــــدين بعــــــدما اهتُضــــــما
واهتَّـــــز عطــــف الإســـــلام مـــــن جَـــــدَلٍ
وافـــــــتَّر ثغـــــــر الإيمــــــان وابتســـــــما
واستبشـــــــرت أوجــــــه الهُـــــدى فرحـــــاً
فليقـــــــرعِ الكُفُـــــــر سِـــــــنَّهُ نَـــــــدما
عـــــــاد حـــــــريمُ الأعـــــــداءِ منتهـــــــك
الحمـــــــى وفيءُ الطغـــــــاة مقتســـــــماً
قصـــــــور أهـــــــل القصـــــــور أخربهـــــــا
عـــــــامر بيـــــــت مـــــــن الكمـــــــال سَمَـــــــا

أزعـــــج بعـــــد السُّـــــكون ســـــاكنها
ومـــــــات ذُلاًّ وأنفـــــــه رَغمَـــــــا [686]

إن نور الدين محمود كان يرى إزالة الدولة الفاطمية هدفاً إستراتيجياً للقضاء على الوجود النصراني، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعين الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة فتم الله له ما أراد على يدي جنديه المخلص وقائده الآمين صلاح الدين الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة، وحق للأمة الإسلامية وزعمائها أن تفرح بهذه البشرى الكبيرة من إزالة دولة الباطنيين.

4- اعتبار واتعاظ من زوال الفاطميين من مصر: كانت مدة ملك الفاطميين مائتين وثمانين سنة وكسراً، فصاروا، كأمس الذاهب وكأن لم يَغْنَوا فيها، وكان أوّل من ملك منهم المهديَّ وكان من أهل سَلَمْية حدَّاداً اسمه سعيد، وكان يهودياً فدخل بلاد المغرب وتسمَّى بعبيد الله، وأدّعى أنَّه شريف عَلوِيٌّ فاطميٌّ، وقال: إنه المهديُّ وقد ذكر هذا غير واحد من سادات العلماء الكبُراء كالقاضي أبي بكر الباقلاَّني

686كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (195/2).

والشيخ أبي حامد الإسفراييني وغير واحد من سادات الأئمة .... والمقصود أنَّ هذا الدّعِيَّ المدَّعِيَ الكذَّاب راج له ما افتراه في تلك البلاد ووازرَهَ جماعة من جهلة العُبّاد، وصارت له دولة وصولة، فتمكن إلى بنى مدينة سّماها المهدية نسبة إليه، وصار مَلِكاً مطاعاً يظهر الرفض وينطوى على الكفر المحض، ثم كان من بعده ابنه القائم ثم المنصور، ثم المعز – وهو أوّل من دخل مصر منهم وبنيت له القاهرة – ثم العزيز ثم الحاكم، ثم الظاهر، تم المستنصر ثم المستعلي، ثم الآمر، ثم الحافظ، ثم الظافر، ثم الفائز، ثم العاضد وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر مِلِكا، ومدتهم مائتان ونيِّف وتسعين سنة ... وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أعتى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة وأخبثهم سريرة ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد وقلّ عندهم الصالحون من العلماء والعّباد وكثر بأرض الشام النُّصيريُّة والدرزية والحشيشية وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكامله، حتى أخذوا القدس الشريف ونابلس وعجلون والغَوْرَ وبلاد غَزَّةَ وعسقلان وكَرَكَ الشَّوبك وطبريه وبانياس وصور وعثليث وصيدا وبيروت وعكا وصَفَدَ وطرابلس وأنطاكية وجميع ما وَالىَ ذلك إلى بلاد آياس[687] وسيس [688] ، واستحوذوا على بلاد آمد والرُّها ورأس العين وبلاد شَتَّى، وقتلوا خلقاً لا يعلمهم إلا الله وسَبَوا من ذراري المسلمين من النساء والولدان مالا يُحَدُّ ولا يوصَفُ وكادوا أن يتغلبوا على دمشق ولكن صانها الله بعنايته وسلمَّها برعايته، وحين زالت أيامهم وانتفض إبرامهم أعاد الله هذه البلاد كُلَّها على أهلها من السادة المسلمين، ورد الله الكفرة خائبين، وأركسهم بما كسبوا في هذه الدنيا ويوم الدين [689].

سادساً: القضاء على محاولة انقلابية لإعادة الدولة الفاطمية:

كانت الدولة والمجتمع في مصر في ذلك الوقت في فترة التحول الكبرى في تاريخها من خلافة ونظم ومؤسسات ورجال حكموا البلاد قرنين من الزمان وأثّروا في كل جوانب مجتمعها إلى حكم جديد ودولة جديدة لها نظمها ومؤسساتها ورجالها والتي بدأت بإجراء التغيير بالتدريج، وحاول صلاح الدين اكتساب عامة الناس إلى جانبه ونجح إلى درجة كبيرة، لكنّ بعض مفكري الدولة الفاطميّة، ورجالها وبعض الجماعات التي فقدت نفوذها وامتيازاتها ظلت على ولائها لما كانت تمثله الدّولة السابقة من أفكار وإمتيازات [690] ، فعملت تلك القوى الموالية للفاطميين من جنود وأمراء وكتاب وموظفي دواوين، ومن عائلات الوزراء

---

687 أياس: مدينة من بلاد الآمن على الساحل البحر.

688 سيس : قاعدة بلاد الأرمن صبح الأعشى (134/4).

689 البداية والنهاية (457/16).

690 صلاح الدين القائد وعصره د. مصطفى الحيارى ص 168.

السابقين مثل بني رزيك وبني شاور، راحوا يخططون للقضاء على حكم صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية [691] . وقد وصفهم عماد الدين الأصفهاني بقوله: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المتعصّبة المتشددة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خفية وخفية واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيّة، وعيّنوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتدبير، وبيّتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل [692] ويبدو أن مؤامرتهم كانت في غاية التنظيم إذ عينوا خليفة ووزيراً ثم كاتبوا الفرنج أكثر من مرّة يدعونهم في إحداها إلى الهجوم على مصر، في وقت كان صلاح الدين غائباً في الكرك، والتفّ هؤلاء حول عمارة اليمني، الفقيه والأديب السنيّ المذهب الفاطمي الولاء الذي تولى مهمة المراسلة مع الفرنج، وظنّ المتآمرون أن سريتهم التامة ستقودهم إلى النجاح، ولكنهم لم يعلموا أن القاضي الفاضل عن طريق ديوان الإنشاء كان يراقبهم مراقبة تامة حتى تحين الفرصة المواتية لكشف سرهم، وتذكر المصادر في كشف مؤامراتهم قصتين تختلفان بعض الاختلاف في التفصيلات أولاهما أن أحد الكتاب في الديوان وهو عبد الصمد الكاتب، كان يلقى الفاصل بخضوع زائد، يخدمه ويتقرب إليه ويبالغ في التواضع إليه، فلقيه يوما، فلم يلتفت إليه فقال القاضي الفاضل: ما هذا إلا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين، فأحضر ابن نجا الواعظ وأخبره الحال، وطلب منه كشف الأمر، فلم يجد من جانب صلاح الدين شيئاً، فقصد الجانب الآخر، فكشف الحال إليه، فأرسله القاضي الفاضل إلى صلاح الدين وقال له : تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال إليه، فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع وذكر الحال، عندئذ استدعاهم صلاح الدين وقرّرهم فأقروا بمؤامرتهم، فاعتقلهم ثم أمر بصلبهم [693] وتشير الرواية الثانية إلى أن المتآمرين أدخلوا الواعظ زين الدين بن نجا بينهم، فتظاهر بمساندته لهم في البداية ثم أعلم صلاح الدين بأمرهم، وطلب منه أن يعطيه ما لابن كامل من أملاك، فوافق وأمر بمخالطتهم وتعريف شأنهم، فصار يعلمه بما يجدّ من أمرهم، ثم وصل رسول من الفرنج إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ظاهرية وبرسالة باطنية للمتآمرين، فوصل خبره إلى صلاح الدين [694] . وقد أشار القاضي الفاضل بنفسه إلى تفصيلات هذه المؤامرة في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى نور الدين بدمشق، وتنّم عن اطّلاعه الدقيق على المؤامرة، بل اشتراكه في إحباطها، فلعلّه هو الذي دسّ من أعلمه بتفصيلات المؤامرة، كما يشير في رسالته إلى عيون لديوان الإنشاء المصري من الفرنج، وأخرين بينهم على اتصال بالديوان [695]

---

[691] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (282/2).

[692] المصدر نفسه.

[693] القاضي الفاضل ص 146.

[694] المصدر نفسه ص 146 مفرج الكروب (244/1 ، 245).

[695] القاضي الفاضل ص 146.

وجاء في الكتاب الذين كتب بقلم القاضي الفاضل من صلاح الدين إلى نور الدين بعدما تّم التحقيقات التي أجراها صلاح الدين، ويخص الكاتب بتركيز وشمول : بدايات المؤامرة وتطوراتها، وكيفيّة كشفها، وصلب رؤوس المتآمرين أمام بيوتهم [696].

1– أن صلاح الدين كان لا يزال، بعد قضائه على الخلافة الفاطمية يعتبر "جند مصر .. وأهل القصر " الفاطمي أعداء لدولته وضد وجوده ويتوقع منهم القيام بعمل ضِدّه ولذلك فقد كان متحرزاً منهم، ووضع عليهم من عيونه ورجاله الموثوقين من يراقبهم باستمرار ومع ذلك فقد استمر عملهم سرياً بمختلف الوسائل التي كانت متاحة لهم.

2– وأنهم كانوا، من إعلان الخطبة العبّاسية وحتى القبض عليهم لا يمر عليهم شهر ولا سنة إلا وهم يُدَبَّرون المكائد ويعقدون الاجتماعات ويبعثون الرُّسل إلى الصليبيين لموافقتهم على ما يريدون " وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه، المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج يوسعون لهم فيها سُبُل المطامع .. ويزينون لهم الإقدام والقدوم [697]. لكن الفرنج لم يستجيبوا بداية لخوفهم من صلاح الدين، وفي ذات الوقت يؤمّلونهم بالمساعدة في الوقت المناسب.

3– ووصل الأمر إلى أنّهم كاتبوا ملك الصليبيين عندما قام صلاح الدين بحملته الثانية على بلاد الكرك والشوبك في قسم كبير من قوّاته يطلبون منه القيام بالدور المتفق عليه وقالوا في كتبهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا تقدم عموري بقواته إلى صَوْر أو أيلة، فإنه سيقطع الطريق على صلاح الدين ويمنعه من العودة وعند ذلك تثور في القاهرة "حاشية القصر، وكافة الجند الفاطمي السابق في مصر" وطائفة السودان، وجموع الأرمن، وعامّة الإسماعيلية، وتفتك بأهل صلاح الدين ومعاوينه ورجال دولته العاصمة [698] . لكّن يقظة صلاح الدين والتكتيكات والمناورات التي قام بها أربكت عموري الذي كان يحاول جاهداً معرفة حركات صلاح الدين في النقب جنوبي الأردن، وجمدته عند مياه الكرمل في جبال الخليل لخوفه من أن يستغل صلاح الدين فرصة حركة الملك الخاطئة، فيتوجه إلى المناطق غربي نهر الأردن والبحر الميت.

---

[696] صلاح الدين القائد وعصره ص 169.

[697] كتاب الروضتين (278/2).

[698] كتاب الروضتين (287/2).

4– ولم ييأس المتآمرون: فعندما وصل المدعو جِرْج (جورج أو جورجيوس)، كاتب الملك عموري، إلى القاهرة في مراسلة إلى صلاح الدين (ويبدو أن الرسائل كانت متصلة في أوقات السليم، اتصلوا به، وأرسلوا معه كتاباً إلى الملك عموري: أنّ العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاّتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور، أنهض فلانا من عنده، وبقي صلاح الدين في البلد وحده ففعلنا ما تقدم ذكره في الثورة [699]. وهذا دليل آخر على محاولة استغلالهم لكل الظروف المناسبة، ذلك أن وقت جمع الغلات من الحقول هو الوقت الذي يذهب فيه الأمراء المقطعين وأجنادهم إلى إقطاعاتهم لأخذ حصتهم من الناتج وتوزيعه، وهذه كانت حالة عادية معروفة في تاريخ المنطقة في العصور الوسطى [700].

5– أن الملك عموري كان كلما أراد التعرف على الأوضاع في مصر والاتصال بالمتآمرين والتفاوض معهم، كان يبعث بـ "جِرْج" رسولاً إلى صلاح الدين: ظاهراً إلينا، وباطنا إليهم، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه علمنا، ولأهل القصر والمصريين "الجند" في أثناء هذه المَدَد رسُل تتردد، وكتب إلى الفرنج تتجدد [701].

6– كانت سياسة صلاح الدين أثناء هذه الفترة إذا شك أعوانه بأحد من الجماعات المذكورة وقام باعتقاله ولم يتمكنوا من إثبات التهمة ضده، أطلق سراحهم، وخَلىّ سبيلهم فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة [702] .

7– واتصل المتآمرون في ذات الوقت " بشيخ الجبل " سنان [703] ، زعيم الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام، طالبين مساعدته محتجين: بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأنّ ما بين أهلها وخلاف إلا فيما يفترق به

---

[699] المصدر نفسه (288/2).
[700] صلاح الدين القائد وعصره ص 170.
[701] كتاب الروضتين (287/2).
[702] المصدر نفسه (287/2).
[703] المصدر نفسه (287/2).

كلمه ولا يجب به قعود عن نُصرة [704] . وطلبوا منه بصورة خاصة اغتيال "الملوك" كما كانت عادتهم أو نصب المكائد لهم وكان الرسول إليهم خال ابن قرجلة [705] ، أحد رجال الدولة الفاطمية السابقين، ويبدو أن الاثنين كانوا عند صاحب الجبل عند اكتشاف المؤامرة فالتجأوا إلى الصليبيين [706].

8- ولا نعرف إذا كان المتآمرون اتصلوا بملك صقليّة لإرسال الأسطول مباشرة أم عن طريق ملك الصليبيين، لكنّ الأسطول قدم بعدم فشل المؤامرة، إلى الإسكندرية، وكان مكوناً من 200سفينة ويحمل أعداداً كبيرة من الخيالة والرجالة، فمُني بخسائر كبيرة خاصة وأن الملك عموري لم يتقدم في البّر كما كان الاتفاق بسبب القضاء على المتآمرين بحزم [707].

9- وفي المرّة الأخيرة التي قدم فيها "جِرْج" برسالة إلى ديوان صلاح الدين وصل كتاب إلى الديوان "ممن لا نرتاب به من قومه "الصليبيون" يذكرون أنه رسول مخاتلة "خداع" لا رسول مجاملة" فاتخذ رجال صلاح الدين الاحتياطات المناسبة لمراقبته دون أن يشعر، ولم يظهروا له أي شكٍ فيه وقام "جرج" بالاتصال بجماعة القصر الفاطمي، ومدبري المؤامرة، وأمراء الجند الفاطمي السابقين، وجماعة من النصارى واليهود عند ذلك توصل رجال دولة صلاح الدين إلى إدخال أحد العيون إليهم من جماعتهم " فَدَسْنا إليهم من طائفتهم من داخلهم [708] ، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم [709] .

10- وبدأت تنتشر الإشاعات والأقاويل بين الناس حول المؤامرة، وخاف رجال دولة صلاح الدين من انكشاف الأمر وهرب رؤساء الفتنة، فقرروا اعتقالهم، ثم أحضروا واحداً واحداً أمام صلاح الدين: وقَرَّرَهم على هذه الحالة فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قُطعِت أرزاقهم وأخذت أموالهم [710].

---

[704]المصدر نفسه (289/2).

[705]المصدر نفسه (289/2).

[706]المصدر نفسه (289/2).

[707]صلاح الدين القائد وعصره ص 172.

[708]صلاح الدين القائد وعصره نقلاً عن كتاب الروضتين ص 172.

[709]المصدر نفسه ص 172.

[710]المصدر نفسه ص 172.

11– تبين من التحقيقات والإقرارات أنهم عَينّوا خليفة ووزيراً، وأنه وقع خلاف بينهم حول الخليفة وحول الوزير (آل رُزّيك أو آل شاور).

12– استفتى صلاح الدين العلماء في أمرهم، فأفتوا بقتلهم، وعندما تردد صلاح الدين في التنفيذ، طالب، أهل الفتوى وأهل المشورة بالإسراع في التنفيذ، فصَدَر الأمر بقتلهم وصلبهم: وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم [711]. وكان المشهورن الذين شنقوا: الشاعر عمارة بن علي اليمني، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة ابن عبد القوي. وقد حاول القاضي الفاضل صادقاً الشفاعة لدى صلاح الدين في عمارة، على الرغم من العداوة القديمة بينهما، إلا أن عمارة اعتقد أنها خدعة فرفض قبولها، فتم صلبه مثل غيره [712].

13– وأما أهل القصر فقد اعتقلوا بداية، ثُم نُقلوا إلى أماكن مختلفة وأعطى القصر إلى أخيه العادل، ذلك أن صلاح الدين رأى : فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تنحسم الأطماع عنها، فإنه "القصر" حبالة للضلال منصوب، وبيعة "مقامٌ " للبدع محجوبة [713].

14– وشُرَّدت طائفة الإسماعيلية من بلاد مصر ونُفُوا أما البقية فقد أعلن في القاهرة : بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السُّودان إلى أقصى بلاد الصعيد [714] .

15– وكشفت التحريات والبحث في هذه القضيّة عن وجود داعية يُسَميّ "قُديد القفاص" في الإسكندرية، التي كان غالبية أهلها من أهل السنة، وأن دعوته انتشرت في بلاد الشام ومصر، وأن أرباب المعايش "الحرف والصناعات" في ثغر الإسكندرية يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن [715] . كما وجُد لديه كتب ورقاع تدل على الكفر الصريح [716] . وهكذا فقد تمكن صلاح الدين بفضل

---

[711] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (289/2).
[712] صلاح الدين القائد وعصره ص 173.
[713] كتاب الروضتين (290/2).
[714] صلاح الدين القائد وعصره ص 173.
[715] كتاب الروضتين (290/2).
[716] المصدر نفسه (290/2).

الله ثم بصبره وقيادته الحازمة من القضاء على هذه المؤامرة الفتنة التي دفعته أخيراً إلى اتخاذ القرار الحاسم بالنسبة لكل بقايا الدولة الفاطمية من بيت الخلافة، وكبار رجالها، والحاشية، والجند والسودان [717].

- عمارة بن علي اليمني الشاعر:

قال عنه الذهبي: أبو محمد، عمارة بن علي بن زيدان الحكمُّي المذحجي اليمني الشافعي الفرضي، الشاعر، صاحب الديوان المشهور ولد سنة خمس عشرة وخمس مئة وتفقَّه بزبيد مدةً، وحج سنة تسع وأربعين ونفّذه أمير مكة قاسم بن فليته رسولاً إلى الفائز بمصر فامتدحه بالشعر. وكان واضح الاعتقاد في أبي بكر وعمر، فقد حكى عمارة أن الصالح بن رُزَّيك فاوضه وقال ما تعتقد في أبي بكر وعمر؟ قلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبقَ الإسلام علينا ولا عليكم، وأنّ محبتهما واجبة. فضحك، وكان مرُتاضاً حصيفاً، قد سمع كلام فقهاء النسة قال الذهبي : هذا حلم من الصالح على رفضه [718] .

وقال ابن واصل في سبب موالاة عمارة اليمني للفاطميين : وكان عمارة بن علي اليمني شديد التعصب لهم، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه وخّولوه، فرعى ذلك ووفي لهم، والإنسان —كما قيل — صنيعة الإحسان، ولم يكن على مذهبهم وإنما كان شافعياً وسنياً، فلما زال أمرهم رثاهم بأحسن الشعر وذبَّ عنهم باللسان إذ لم يمكنه الذبّ عنهم باليد؛ ثم لم تحرك جماعة في عَوْد الأمر إليهم، كان من جملة المساعدين على ذلك، شكراً لهم على إحسانهم إليه، فأدى به ذلك إلى أن شُنق [719]، كما مّر ذكره — وقد ذكر عماره مبيانته لمذهب القوم في قصيدة يقول فيها:

أفـــــاعيلهم في الجـــــود أفعـــــال سُـــــنَّةٍ

وإن خـــــالفوني في اعتقـــــاد التشـــــيع [720]

وقد علق الذهبي على هذا البيت فقال: يا ليته تشيع فقط، بل يا ليته ترفض، وإنما يقال: هو انحلال وزندقة [721] وقد قال عمارة في رثاء الفاطميين والعاضد :

---

717 صلاح الدين القائد وعصره ص 173.

718 سير أعلام النبلاء (594/20، 595).

719 مفرج الكروب (212/1).

720 سير أعلام النبلاء (596/20).

أســـــفي علـــــى زمـــــن الإمــــام العاضـــــد

أسَـــــفُ العقـــــيمِ علـــــى فِـــــراقِ الواحـــــد

جالســـــت مـــــن وزرائـــــه وصـــــحبت مـــــن

أمرائـــــــه أهـــــــل الثنـــــــاء الخالـــــــد

لهفـــــي علـــــى حُجُـــــراتِ قصـــــرِك إذ خَلَـــــت

يا ابـــــن النـــــبي مـــــن ازدحـــــام الوافـــــد

وعلـــــى انفـــــرادك مـــــن عســـــاكرك الـــــذي

كـــــانوا كـــــأمواج الخِضـــــم الرّاكـــــد

قَلَّـــــدْتَ مُـــــؤتَمِنَ الخلافـــــة أمـــــرهم

فكبـــــا وقصَّـــــر عـــــن صـــــلاح الفاســـــد

فعســـــى اللَّيـــــالي أن تَـــــرُدَّ إلـــــيكم

مـــــا عـــــوّدتكم مـــــن جميـــــل عَوائِـــــدِ [722]

وله من جملة قصيدة:

يا عـــــاذلي في هـــــوى أبنـــــاء فاطمـــــة

لـــــك الملامـــــة إن قصّـــــرت في عـــــذلي

بالله زُرْ ســـــاحة القصـــــرين وابـــــك معـــــي

عليهمـــــا لا عَلـــــى صـــــفين والجمـــــل

وقـــــل لأهلهمـــــا والله مـــــا التحمـــــت

فـــــيكم قُروحـــــي ولا جُرْحـــــي بمُنـــــدمل

مـــــاذا تـــــرى كانـــــتِ الإفـــــرنج فاعلـــــة

---

[721] المصدر نفسه (596/20).

[722] كتاب الروضتين (293/2).

في نســـــل آل أمــــير المـــؤمنين علـــــي [723]

وأنا استغرب من عمارة اليمني في نعيه لأيام الفاطميين وحنينه إلى بدعهم وأعيادهم وقصورهم وتحديه للدولة السنية الجديدة في مصر ودفاعه عن الفاطميين وأكاذيبهم في زعمهم بأنهم من النسل النبوي الكريم، فهل متاع الدنيا الزائل يفعل بالعقائد الصحيحة ما فعله بعمارة اليماني، وهل العطايا والجاه والمناصب تجعل الإنسان يترك عقيدته الصحيحة ويبكي على إطلال الدولة الفاطمية الشيعية الرافضية ؟ وينخرط في عمل تآمري ضد المشروع الإسلامي المقاوم للصليبيين في بلاد الإسلام ؟ إن هذا لشيء عجاب.

– **أمجاد أهل الإسكندرية:** إن أهل الإسكندرية ساهموا في نجاح المشروع السني بمصر، ودافعوا عن صلاح الدين عندما حوصر بها وهم يدافعون عن المدينة بشجاعة فائقة ورجولة منقطعة النظير، ومسلمي مصر عموماً وأهل الإسكندرية منهم خصوصاً دائماً وأبداً في الخندق المدافع عن قضايا الأمة قديما وحديثاً، ولهم من الطاقات الفكرية والأمكانات المادية، والأقلام السياله وصفاء الفطرة ما يجعلهم في مصاف من يتصدى للمشروع الشيعي الرافضي الباطني والمشروع الأمريكي الغربي وقد قاوم المصريون قديماً النفوذ الشيعي الباطني والحملات الصليبية وتعاونوا مع إخوانهم من أهل السنة، فكرياً وعقائدياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً وإعلامياً حتى تّم القضاء على المشروع الشيعي الباطني ولذلك نجد كتّاب الشيعة الرافضة يحقدون على مصر ويقولون عن أهلها: أبناء مصر لعنوا على لسان داود عليه السلام فجعل الله منهم القردة أبناء مصر؛ والخنازير [724] ، وما غضب الله على بني إسرائيل إلا أدخلهم مصر، ولا رضي عنهم إلا أخرجهم منها إلى غيرها [725] ، وقالوا بئس البلاد مصر، أما أنها سجن من سخط الله عليه من بني إسرائيل [726]، وقالوا : انتحوا مصر ولا تطلبوا المكث فيها لأنه يورث الدياثة [727] ، وجاءت عندهم عدة روايات في ذم مصر، وهجاء أهلها، والتحذير من سكناها، ونسبوا هذه الروايات إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى محمد الباقر، وإلى علي الباقر، وهذا رأي الشيعة الروافض في مصر في تلك العصور الإسلامية الزاهرة، وقد عقب المجلسي الشيعي الرافضي على هذه النصوص بقوله بأن مصر صارت من شر البلاد في تلك الأزمنة، لأن

---

[723] كتاب الروضتين (295/2).
[724] بحار الأنوار (208/60) تفسير القمي ص 596.
[725] تفسير العياشي (304/1) البرهان (456/1).
[726] تفسير العياشي (305/1) البرهان (457/1).
[727] بحار الأنوار (211/60) أصول الشيعة (900/2).

أهلها صاروا من أشقى الناس وأكفرهم [728] ويبدو أن هذه النصوص هي تعبير عن حقد الرافضة وغيظهم على مصر، وأهلها بسبب سقوط إخوانهم الإسماعيليين العبيديين على يد صلاح الدين، الذي طهر أرض الكنانة من دنسهم ورجسهم، وأين هذه الكلمات المظلمة في مصر وأهلها الأحبة من وصية حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم بأهل مصر [729].

وإليك أيها القارئ الكريم ما قام به أهالي الإسكندرية للدفاع عن الإسلام وعن دولته السنية الجديدة في مصر، فقد تعرضت الإسكندرية لا نزال صقلي في الأيام الأخيرة من عام 569هـ/نهاية تموز 1174م وكان الأسطول النورماندي يتكون من مئتي [730] سفينة وقيل من مائة وثمانين سفينة تحمل خمسين ألف رجل بينهم ثلاثين ألف مقاتل تنفيذا للمخطط واسع النطاق الذي اتفقت عليه العناصر الموالية للفاطميين مع ملكي بيت المقدس وصقلية بهدف إحياء الخلافة الفاطمية [731] في مصر ورد الدعوة الشيعية الرافضية إلى ما كانت عليه وقد وصلت الحملة النورماندية أمام الإسكندرية في 16 ذي الحجة بعدما انكشفت المؤامرة وقضى على المتآمرين في الداخل من جهة وبعد وفاة عموري الأول ملك بيت المقدس من جهة ثانية. وشرع النورمان في مهاجمة الإسكندرية ونجحوا في إغراق بعض المراكب المصرية التي كانت راسية على الساحل [732] وقد أبدى الجيش الأيوبي وأهالي الإسكندرية شجاعة فائقة، فأحرقوا دبابات العدو التي نصبت قرب السور " وأحسنوا القتال والصبر". وكان صلاح الدين غائباً عن الإسكندرية، وحين وصلها: زال ما بالمحاربين من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله [733] . فما كان على الصليبيين سوى التسليم وصاروا بين قتيل وأسير [734] . وهكذا وجه جيش صلاح الدين وأهالي الإسكندرية ضربة ماحقة بأصحاب فكرة غزو مصر، بحيث لم يعودوا يفكرون في إعادة التجربة مرّة ثانية في عهد صلاح الدين، على الرغم من أنهم لم يتخلوا عن الفكرة كلياً، إذ أعادوا الكرة بعد وفاة صلاح الدين بربع قرن [735] .

---

[728] بحار الأنوار (208/5).

[729] مسلم (2970/2).

[730] الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 382.

[731] تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين والمملوكية ص 80.

[732] تاريخ القبائل العربية في الدولتين الأيوبية والمملوكية ص 81.

[733] الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 383.

[734] المصدر نفسه ص 383.

[735] المصدر نفسه ص 383.

– **مؤامرة كنز الدولة:** ومن المؤامرات التي واجهها صلاح الدين في مصر مؤامرة قامت في أسوان وقوص وكان ذلك سنة 570هـ، فقد جمع كنز الدولة وإلى أسوان العرب والسودان، وقصد القاهرة، يريد إعادة الدولة الفاطمية، وأنفق في جموعه أموالاً جزيلة، وانضم إليه جماعة ممن يهوي هواهم، فقتل عشرة من أمراء صلاح الدين وخرج في قرية (طود) رجل يعرف بقياس بن شادي وأخذ بلاد (قوص)، وانتهب أموالهان فجهز صلاح الدين أخاه الملك العادل في جيش كثيف .. فسار وأوقع بشادي وبدد جمعه وقتله ثم سار فلقي (كنز الدولة) ناحية (طود)، وكانت بينهما حروب فّر منها كنز الدولة، بعدما قتل أكثر عسكره، ثم قتل (كنز الدولة)، وقدم الملك العادل إلى القاهرة في الثامن عشرة من صفر [736] . وهكذا استطاع صلاح الدين أن يقطع دابر الفتن، وأن يقضي على شراذم البغي والعدوان، ومدبري المكائد والمؤامرات، وينطبق عليه بحق قول الشاعر المتنبي:

علـــى قــــدر أهــــل العــــزم تأتي العــــزائم
وتأتي علــــــى قــــــدر الكــــــرام المكــــــارم
وتعظــــــم في عـــــين الصــــغير صــــغارها
وتصــــغر في عـــين العظـــيم العظـــائم[737]

سابعاً: الوسائل التي اتخذها صلاح الدين للقضاء على المذهب والتراث الفاطمي:

ليس من السهل اليسير أن يقتلع مذهب من المذاهب، بمجرد تغيير النظام السياسي في بلد ما من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة، وتدابير ليست من تدابير القوة والبطش فحسب [738] ، ولذلك فالملاحظ أن صلاح الدين قد استخدم وسائل وأساليب عديدة في سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر، جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والحسم الفوري المباشر، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج، واستخدم بعضها القّوى العسكرية، في حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع،

[736] سيرة صلاح الدين لابن شداد ص 47 – 48 الكامل في التاريخ، صلاح الدين، علون ص 38.

[737] صلاح الدين عبدالله علون ص 38.

[738] تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص 56.

والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية الدينية الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها [739] وإليك بعض هذه الوسائل :

1- إذلال الخليفة الفاطمي العاضد: بدأ صلاح الدين بإذلال شخص الخليفة الفاطمي العاضد، للقضاء على فكرة "الولاية" التي تبنى عليها جميع النظريات والعقائد الإسماعيلية ويستمد منها الحكام الفاطميون قداستهم، فأرغم الخليفة العاضد على الخروج بنفسه لاستقبال والده نجم الدين أيوب، عند وصوله إلى مصر، رغم ما جرى عليه العرف، وحرصت عليه الرسوم الفاطمية، من استعلاء الخليفة الفاطمي واحتجابه عن الناس لعدم، ابتذاله بكثرة ظهوره أمام الناس ولإكسابه مسحة من القداسة والتعظيم، بل يذكر أبو شامة، أن العاضد قد خرج لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح، ولم يجر بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهده الناس [740] ، بل اضطر العاضد إلى مخالفة التقاليد والعرف وقواعد ورسوم الدولة، فمنح صلاح الدين ألقاب وزراء السيوف، إذ خلع عليه، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا [741] ، ثم ما فتيء صلاح الدين يعمل على الاستهانة بالخليفة وابتذال مكانته الروحية بين أتباعه وأنصار دولته، فأخذ يستولي على موجوداته وممتلكاته الشخصية وخيوله، بحجة شدة الحاجة إليها في أمور الجهاد، حتى أن الخليفة في آخر الأمر، عرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن فرسه الخاص الذي لا يملك غيره، فأجاب صلاح الدين بالاعتذار عن الحاجة [742] ، ولا يخفى أن هذا الابتذال المتكرر المتعمد الموجه للخليفة على الاعتزال، وتجنب الظهور في المناسبات العامة، حتى ينساه المصريون [743] .

2- وضعه من مكانة قصر الخلافة الفاطمي : عمل صلاح الدين على وضع مكانة قصر الخلافة الفاطمية، بأن أسكن فيه أمراء دولته الأكراد وكان هذا العمل تأكيداً لسقوط الدولة الفاطمية، إذا ظلت الدولة الفاطمية تعرف طوال عصور ازدهارها "بالدولة القصرية " [744] نسبة لسكن خلفاء الفواطم لقصور عاصمتهم القاهرة ففي سنة 566هـ/1170م قبض صلاح الدين على القصور الفاطمية وسلمها

---

[739] المصدر نفسه ص 56.

[740] كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 56.

[741] المصدر نفسه ص 57.

[742] المصدر نفسه ص 57.

[743] المصدر نفسه ص 57.

[744] المصدر نفسه ص 57.

لمملوكه قراقوش الخادم، ثم أسكنها لجنوده وأهله وأسكن أباه بقصر اللؤلؤة على الخليج وقد سكن القصور الفاطمية الملك العادل إبان نيابته للسلطان بمصر عن أخيه صلاح الدين [745].

3- قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به: ما لبث صلاح الدين في سنة 567هـ/1171م أن وجه الدعوة الفاطمية بمصر، طعنة قاتلة، كانت كفيلة ولا ريب بالإجهاز عليها، وذلك بقطعه للخطبة الجامعة من الجامع الأزهر الذي اتخذه الفاطميون جامعة لنشر علوم الدعوة الشيعية الإسماعيلية [746] وذلك بعد أن قلد وظيفة القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبه، وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة في بلد واحد، كما هو مذهب الإمام الشافعي، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمي من أجل أنه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام من ذلك التاريخ، إلى أن أعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس [747] ، وأيد صلاح الدين هذه الخطوة الجريئة، بإزالة الشعائر الشيعية، التي أدخلها الفاطميون إلى مصر، واستمرت بها طول عصر دولتهم، من الآذان، وإبان إقامة الصلاوات، فأبطل من الأذان قول " حي على خير العمل " واستمر الآذان في مصر على المذهب السني [748] ومنع صلاح الدين ما كان قد تعود عليه المؤذنون في العصر الفاطمي، من السلام على الخليفة الفاطمي في الآذان [749]، وأقيمت الخطبة الجامعة بجامع الحاكم على نحو يأخذ الخطيب فيها مأخذاً سنياً يجمع فيه الدعاء للصحابة رضي الله عنهم، وللتابعين ومن سواهم، ولأمهات المؤمنين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، ولعميه حمزة والعباس رضي الله عنهما، ويأتي للخطبة لابساً السواد على رسم العباسية [750] . ومما لا شك فيه أن قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وما صاحب هذا من تعطيل دراسة مذاهب الشيعة بالأزهر، الذي ظل طوال العصر الفاطمي أضخم مراكز الدعوة الإسماعيلية بمصر في العالم [751] ، ثم تحويل الأزهر إلى جامعة سنية لتدريس علوم السنة وهو ما

---

745 تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص 60 ، 61.

746 المصدر نفسه ص 93.

747 الخطط للمقريزي (53/4).

748 الخطط للمقريزي (46/4) تاريخ مصر الإسلامية ص 93.

749 تاريخ مصر الإسلامية ص 93.

750 المصدر نفسه ص 94.

751 تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص 97.

استمر عليه الحال حتى اليوم – مع هجرة علماء أهل السنة للتدريس فيه قد أدى إلى نشر علوم السنة بمصر وفي أغلب أرجاء العالم الإسلامي [752] .

4- إتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية : عمد صلاح الدين إلى الآلآت الملوكية الفاطمية، وكنوز القصر الفاطمي، فعمل على إفسادها وأهدى بعضها إلى نور الدين زنكي، والبعض الآخر إلى الخليفة العباسي، ثم طرح باقيها للبيع، بحيث دام البيع فيها مدة عشر سنين [753] وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين [754] ، واستولى على كتب الدعوة الإسماعيلية، التي احتوت عليها مكتبة القصر الفاطمي، فأحرقها وألقاها على جبل المقطم، ثم فرق الكتب غير المذهبية التي صودرت من مكتبة القصر، على كبار علماء وأنصار دولته، مثل العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل، وأبي شامة الأصفهاني، مما يؤكد أن هدف صلاح الدين كان إحراق كتب الدعوة الشيعية الرافضية فقط [755] وفي الحقيقة كانت كتب الدعوة الشيعية الإسماعيلية من أهم وسائل التأثير التي يتخذها دعاة الفاطميين للترويج لدعوتهم وقامت السلطات الأيوبية بإحراق كتب الإسماعيلية، بحيث لم يتبق من كتب الدعوة الإسماعيلية إلا الكتب التي احتفظ بها أنصار الفاطميين باليمن والهند بعد سقوط دولتهم بمصر [756] .

5- ألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين : لم يغب عن فكر صلاح الدين، خطورة أثر الأعياد والمآتم والحسينيات المذهبية للشيعة في الترويج لمذهبهم وترسيخ معتقداتهم في نفوس المصريين، فألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين مما أدى إلى إنقراضها من مصر منذ ذلك الوقت، وبدهاء سياسي – ومنطلق عقائدي مبني على محاربة البدع الشيعية الرافضية تمّ القضاء على الأعياد المذهبية المخالفة للكتاب والسنة، واستكمالاً لهذه الخطوة، أقدم الأيوبيون على صبغ الأعياد والمواسم الدينية بمصر، بصبغة سنية، بقيت إلى اليوم [757]

---

[752] المصدر نفسه ص 97.

[753] كتاب الروضتين (210/2) تاريخ مصر الإسلامية ص 61.

[754] تاريخ مصر الإسلامية ص 61.

[755] المصدر نفسه ص 62.

[756] المصدر نفسه ص 62.

[757] تاريخ الشعوب الإسلامية ص 63 ، 64 ، 65.

6- محو رسوم الفاطمية وعملاتهم: واقترن بمحو الرسوم الفاطمية بمصر، أبطال التعامل بالعملات الفاطمية، خاصة وأنهاكانت تحمل نفشي العقيدة الفاطمية المؤيدة لحقهم في الخلافة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله علي ولي الله" كما أنها كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين، وصيغ عقائديه فاطمية، كما أن بعضها كانت عملات تذكارية تفرق في المواسم والأعياد المذهبية الشيعية على المقربين، استمالة لهم لعقيدة الدولة [758].

7- الحفاظ على أفراد البيت الفاطمي: احتاط السلطان صلاح الدين على أهل العاضد وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد وقَرَّر لهم ما يكفيهم وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفَّرق بين الرجال والنساء ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم [759] ، فكان من دواعي السياسة وطبائع الملك أن يحتفظ الأيوبيون على جميع أفراد البيت الفاطمي، خشية أن يظهر من دعاتهم من يجمع حولهم الأتباع والمريدين والراغبين في إعادة دولتهم[760].

8- اضعاف العاصمة الفاطمية: بعد أن نقل الأيوبيين مقر الحكم بمصر إلى قلعة الجبل، التي كانت عملاً عسكرياً بعيد المدى يهدف إلى تحصين مصر ضد هجمات الفرنج، انتهزوا هذه الفرصة لابتذال مدينة القاهرة، عاصمة الفواطم، التي ظلت طوال مدة دولتهم، مدينة ملكية، خاصة بسكن الخلفاء، وطوائف العسكر ورجال البلاد، وأرباب الدواوين، كما كانت في نفس الوقت حصناً عسكرياً بحيث كان أغلب أهل مصر، يسكنون مدينة الفسطاط [761] ، وقد علق المقريزي على ابتذال عاصمة الفاطميين بقوله: فصارت القاهرة مدينة سكنى، بعدما كانت حصناً يعتقل به، ودار خلافة يلتجأ إليها، فهانت بعد العز، وابتذلت بعد الاحترام، وهذا شأن الملوك، ما زالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم [762] ولكن ما فعله صلاح الدين في سبيل الله ونصرة نبيه صلى الله عليه وسلم.

---

[758] المصدر نفسه ص 66.

[759] كتاب الروضتين (210/2).

[760] تاريخ الشعوب الإسلامية ص 66.

[761] العمارة العربية في مصر الإسلامية ص 324 - 326.

[762] تاريخ مصر الإسلامية ص 68.

9- أحياء الأيوبيين لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي: ارتبط بإبادة الأيوبيين لجميع التراث الفاطمي، إحياءهم لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي وبيان أن الفاطميين ينحدرون من نسل يهودي أو مجوسي، والاستمرار في هدم السند الشرعي — المزيف للخلافة الفاطمية ولقد قام العلماء المعتمدون بجهود مشكورة في فضحهم، مثل ابن خلكان، وابن أبي شامة وابن واصل وغيرهم وأطلقوا على الفاطميين اسم " بني عبيد " إشارة إلى انتسابهم إلى عبيد الله بن ميمون القَّداَّح المجوسي، بل نجد أبو شامة، يخبرنا بأنه ألف كتاباً منفرداً يدلل فيه على زيف نسب الفاطميين [763]، ولقد خصص أبو شامة في كتابه الروضتين، صفحات طوال في بيان ادّعاهم للنسب النبوي الشريف [764].

10- الاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن:

هكذا قضى أهل السنة بزاعمة نور الدين محمود على الدولة الفاطمية، وأبادوا تراثها، وتتبعوا أتباعها في مصر وانكمش التشيع ودخل في طور التخفي والتَستر وبدأ زوال المذهب الشيعي الإسماعيلي في مصر مع استقرار عساكر نور الدين في مصر عام 564هـ/1168م واستمر الأيوبيون بقيادة صلاح الدين بمواصلة القضاء على الدعوة الإسماعيلية في مصر واليمن والشام واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكيون في محاربة الدعوة الشيعية الإسماعيلية ونشر الدعوة السنية في إيران والشام وظل التشيع يضعف في مصر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت تدين بمذهب أهل السنة والجماعة [765].

والحقيقة أن التدابير التي اتخذها زعماء أهل السنة، كنور الدين وصلاح الدين في محاربة المد الشيعي الرافضي أتت أكلها فانقرض من مصر المذهب الشيعي الرافضي بشكل كامل وهو فقه عميق والأمة في أشد الحاجة إليه والدرس الكبير أن اجتثاث البدع من المجتمعات الإسلامية تحتاج لرؤية شاملة ومشروع متكامل بين الأحياء الإسلامي الصحيح والتصدي للفكر الباطني، وتربية الأمة على انتزاع حقوقها، ومقاومة الغزاة الصليبيّن وفيما مضى تحدثنا عن بعض وسائل صلاح الدين في القضاء على المذهب والتراث الفاطمي العبيدي.

---

[763] كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 70.

[764] كتاب الروضتين (214/2 إلى 223).

[765] تاريخ مصر الإسلامية ص 76.

وقد استفاد صلاح الدين والأيوبيون من تجارب نور الدين في الإحياء السني والتصدي للتشيع الرافضي، وإعداد الأمة للمقاومة وانتزاع حقوقها من أعدائها، ولذلك لم يبدأ صلاح الدين من الفراغ وإنما استفاد من الوسائل النورية والتي من أهمها استحداث المدارس السنية، ودور الحديث، وجعل القضاء على المذهب السني وبسط إشرافه على المدارس، واستخدام الحسبة لإعادة مذهب أهل السنة، وتشجيع التصوف السني ورصد الأوقاف لمؤسسات المجتمع المدني، ونشر عقائد أهل السنة وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله عند حديثنا عن الدولة الأيوبية وقد قام الباحث محمد حمدان خالد القيسي بتقديم رسالة لاستكمال المتطلبات لدرجة الماجستير في جامعة اليرموك بالأردن حول أثر جهود صلاح الدين التربوية في تغير واقع المجتمع المصري يمكن الاستفادة منها في هذا الموضوع عام 569هـ/1174م شملت مملكة نور الدين السودان والحجاز واليمن، فأصبح المشرق الإسلامي كله دولة واحدة تأمر بأمر زعيم واحد ينظر بشوق ولهفة إلى الهدف الاستراتيجي الذي سعى لتحقيقه، منذ بداية حكمه، وهو تحرير بلاد الشام من الفرنجة المحتلين [766] ، وقد أصبح هذا الهدف يلوح في الأفق فأمر بصنع منبر فخم للمسجد الأقصى لكي يأخذه معه عندما يتوجه لفتح القدس [767]، وكتب إلى صلاح الدين يأمره بالمسير على رأس جيش مصر ليلقاه على قلعة الكرك الفرنجية [768] ، سار صلاح الدين كما أمره نور الدين وحاصر قلعة الشوبك "جنوب الكرك" فلم علم نور الدين بذلك خرج من دمشق نحو الجنوب ليلقى صلاح الدين ولكنه تلقى رسالة منه قبل وصوله إليه يبلغه فيها أن الأمور اضطربت بمصر وأنه يخشى استيلاء المعارضين على الأمور فيها، ولابد له من العودة إليها لضبط الأمور وأنه سيعود في العام القادم للجهاد مع نور الدين [769] ، كان نور الدين مهتماً اهتماماً كبيراً بقلع الكفار من بلاد الشام وعندما وصله شيء من ذخائر قصور الفاطميين، وغرائب المصنوعات من الذهب واللؤلؤ : قال : والله ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ولا نسد به خلة الإقلال – فهو صلاح الدين – يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في مصر وبنا إلى الذهب فقر .. لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى الإمداد بالمال والرجال والمعونة .. لقلع الكفار من بلاد الشام [770] . أي أنه لا يريد من المال والرجال إلا قلع الكفار من سواحل البلاد [771] وأما صلاح الدين فقد كان يتفق مع نور الدين في الأهداف الاستراتيجية إلا أنه خاف من اضطراب

---

[766] دور نور الدين في نهضة الأمة ص 118.

[767] هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص 118.

[768] دور نور الدين في نهضة الأمة ص 118.

[769] الباهر ص 158 دور نور الدين في نهضة الأمة ص 118.

[770] كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 213.

[771] الجهاد والتجديد ص 213.

مصر، فكان يهمه ترتيب شؤون مصر أولاً وصرف همه لهذا، ولذلك اضطر للرجوع ويبدو أن نور الدين فكر بدخول مصر بجيوشه والألتفاف على الصليبيين منها بقيادته وأحس صلاح الدين بنية نور الدين فجمع أهله في مصر وكان من بينهم أبوه نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي [772]، وبعض قادة الجيش وشاورهم فيما سمعه عن نية نور الدين التوجه لمصر وعزله عنها، فأشار عليه أحد أبناء إخوته ويدعى عمر بأن يتم الاستعداد لمقاتلة نور الدين إذا حضر لمصر، ووافقه بعض الحاضرين على رأيه، فبادر نجم الدين والد صلاح إلى زجرهم واستنكار قولهم وقال لصلاح الدين : أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، ووالله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم يمكننا إلا أن نقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا والرأي أن تكتب كتابا مع نجاب تقول فيه : " بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأي حاجة إلى هذا، يرسل المولى نجابا يصنع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك، وما ها هنا من يمتنع عليك [773] وقال للجماعة كلهم: قومُوا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريد، فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر [774]، ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير، وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهمَّ الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تَر معك من هذا المعسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتبون إليه ويعّرفونه قولي وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول : أي حاجة إلى قصدي ؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يصنعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بما هو أهمّ عنده [775] وكان نجم الدين أيوب شديد الحب والولاء والطاعة لنور الدين زنكي ففعل صلاح الدين ما أشار به والده، فلما رأى نور الدين – رحمه الله تعالى – الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين [776] .. وفي بداية عام 1173/568م وبعد عودة نور الدين من أذربيجان وأرمينية، تسلم منشوراً من الخليفة بالموصل والجزيرة وإربل وخلاط والشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر وفي شهر شوال من نفس العام خرج صلاح الدين بجيشه إلى الكرك وحاصرها وأعلم نور الدين بخروجه

---

[772] دور نور الدين في نهضة الأمة ص 118.
[773] كتاب الروضتين (228/2).
[774] المصدر نفسه (228/2).
[775] المصدر نفسه (229/2).
[776] كتاب الروضتين (228/2).

تنفيذاً لما تمّ الاتفاق عليه في العام السابق، فخرج نور الدين في دمشق بدوره ليلقاه فلما وصل إلى الرقيم (في وسط الأردن) تلقى رسالة من صلاح الدين يبلغه فيها أن والده بمصر مريض، ويخشى عليه الموت فيستغل المصريون الفرصة ويستولوا على البلاد ويمتنعوا فيها وأنه مضطر للرحيل إلى مصر [777] . وعندما علم نور الدين بذلك قال : إن حفظ مصر أهم عندنا من غيره [778] ثم لم تلبث أن جاءت الحوادث مصدقة لمخاوف صلاح الدين فقامت عليه ثورة كبيرة بقيادة مؤتمن الخلافة جوهر، كما قامت بعدها مؤامرة ضخمة شارك فيها عمارة اليمن وبقية أنصار المذهب الشيعي الرافضي وقد بينت ذلك فيما مضى وفي عام 568هـ شن نور الدين الغارات على الصليبيين وكان العماد الأصفهاني راكباً مع الملك العادل وهو يقول له كيف تصف ما جرى ؟ فمدحه بقصيدة : وكان ذلك في دفاع نور الدين عن حوران فقال:

عُقِـــــدت بنصـــــرك رايـــــة الإيمـــــان
وبَـــــدَت بِعَصْـــــرِكَ آيـــــة الإحســـــان

يا غالـــــب الغُلْـــــبِ الملـــــوك وصـــــائد
الصـــــيد اللُّيـــــوث وفـــــارس الفُرســـــان

يا ســـــالبَ التَّيجـــــان مـــــن أربابهـــــا
حُـــــزت الفخـــــار علـــــى ذوي التَّيجـــــان

محمـــــود المحمـــــود مـــــا بـــــين الـــــورى
في كـــــلِّ إقلـــــيم بكـــــلِّ لســـــان

يا واحـــــداً في الفضـــــل غـــــير مُشَـــــارَكٍ
أقســـــمت مالـــــك في البســـــيطة ثان

أحلـــــى أمانيـــــك الجهـــــاد وإنّـــــه
لـــــك مـــــؤذِنٌ أبـــــداً بكـــــلِّ أمـــــان

كـــــم بكـــــر فـــــتح ولَّدتـــــه ظُبـــــاك مـــــن
حَـــــرْبٍ لقمـــــع المشـــــركين عَـــــوان

---

[777] المصدر نفسه (228/2).

[778] المصدر نفسه (228/2).

كـــم وقعـــةٍ لـــك بالفـــرنج حـــديثها
قـــد ســـار في الآفـــاق والبلـــدان

قَمَّصـــت قُـــومَهُم رداء مـــن ردّى
وقرنـــت رأس برنســـهم بســـنان

وملكـــت رِقَّ ملـــوكهم وتـــركتهم
بالـــذُّل في الأقيـــاد والأســـجان

وجعلـــت في أعنـــاقهم أغلالهـــم
وســـحبتهم هـــوناً علـــى الأَذقـــان

إذ في الســـوابغ تحُطـــمُ السُّـــمرُ القنـــا
والبـــيض تخُضـــبُ بالنَّجيـــع القـــاني

وعلـــى غِنَـــاءِ المشـــرفَّية في الطُّلـــى
والهـــام رَقـــصُ عـــواليَ المـــرَّان

وكـــأن بـــين النَّقـــع لَمْـــعَ حديـــدها
نارٌ تألَّـــقُ مـــن خـــلال دُخـــان

في مـــأزق وردُ الوريـــد مُكَّفَّـــلُ
فيـــه بـــرِيِّ الصَّـــارم الظمـــان

غطّـــى العجـــاج بـــه نجـــوم سمائـــه
لتنـــوب عنهـــا أنجُـــمُ الخُرصـــان

أو ماكَفـــاهم ذاك حـــتى عـــاودوا
طُـــرُق الضَّـــلال ومركـــب الطُّغيـــان

ومنها

وجلـــوت نـــور الـــدين ظُلمـــةَ كفُـــرهم
لمـــا أَتيـــت بواضـــح البُرهـــان

وهـــــزمتهم بالـــــرَّأي قبـــــل لقـــــائهم
والــــرأي قبــــل شــــجاعة الشــــجعان

أصــــبحت للإســــلام ركنــــاً ثابتــــاً
والكُفُــــر منــــك مضعضــــع الأركــــان

قَوَّصــــت أســــاس الضَّــــلاَل بعزمــــك
الماضــــي وشِــــدت مبــــاني الإيمــــان

قــــل أيــــن مثلُــــك في الملــــوك مجاهــــدٌ
لله في ســــــــــرَّ وفي إعــــــــــلان

لم تَلْقَهــــم ثقــــة بقــــوة شــــوكة
لكــــن وثِقــــت بنصــــرة الرّحمــــان

مــــا زال عَزمُــــك مســــتقلاً بالــــذي
لا يَســــــتَقِلُّ بثقلــــــه الــــــثَّقلان

وبلغــــت بالتَّأييــــد أقصــــى مَبْلَــــغ
مــــا كــــان في وسُــــع ولا إمكــــان

دانــــت لــــك الــــدُّنيا فقاصــــيها إذا
حقَّقتــــــه لنفــــاذ أمــــــرك داني

فمــــن العــــراق إلى الشّــــاَم إلى ذُرا
مصــــــر إلى قُــــــوص إلى أُســــــوان

لم تَلْــــهُ عــــن باقــــي الــــبلاد وإنمــــا
ألهــــاك فــــرض الغــــزو عــــن هَمَــــذان

للــــرُّوم والإفــــرنج منــــك مصــــائب
بالــــــترك والأكــــــراد والعــــــربان

أذعنــــــت لله المهــــــيمن إذ عنــــــت
لــــك أوجــــه الأمــــلاك بالإذعــــان

أنــــت الــــذي دون الملــــوكِ وجدتــــه

مَـــــلاَن مـــــن عُـــــرْفِ ومـــــن عرفِـــــان

في بأس عمـــــــرو في بســـــــالة حيـــــــدر

في نطـــــق قُسَّـــــى في تُقَـــــى ســـــلمان

سِـــــرٌ لـــــو أنَّ الـــــوحي يَنْـــــزل أنُزلـــــت

في شـــــأنها سُـــــوَرَةٌ مـــــن القـــــرآن

فأســـــلم طويـــــلَ العُمْـــــر ممتـــــدَّ المـــــدى

صـــــافي الحيـــــاة مُخَلَّـــــدَ السُّـــــلطان [779]

1- ضم المغرب الأدنى: عمل صلاح الدين على تحصين إنجازاته التي حققها في مصر وذلك بتأمين حدود بلاده حتى لا يؤخذ على غرة واسفرت جهوده عن ضم المغرب الأدنى فقد كانت شمال إفريقة مرتبطة عضويا بمصر منذ الفتوحات الإسلامية الأولى، فكان من الطبيعي أن تتجه أنظار صلاح الدين إلى ضَّم بلدانها للاستفادة من ثرواتها من جهة، وبفضل موقعها الجيد في حماية حدود مصر الغربية من جهة أخرى ففي عام 568هـ/1173م أرسل صلاح الدين قوة عسكرية إلى المغرب الأدنى بقيادة شرف الدين قراقوش، غلام المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فدخل طرابلس وبرقة وبعض بلاد المغرب الأدنى حتى قابس، باستثناء المهدية وسفاقس، وقفصة، وتونس [780].

2- ضم اليمن : يدخل ضم اليمن المخطط النوري الهادف إلى توحيد جبهة إسلامية واحدة لمقاومة الغزو الصليبي [781] وقد حققت سياسة صلاح الدين في ضم اليمن إلى :

أ- التضييق على أنصار الفاطميين وبخاصة أن والي اليمن عبد النبي بن مهدي كان شيعياً رافضياً ينتمي إلى خليفة مصر الفاطمي.

ب- استطاع صلاح الدين تأمين حدود مصر الجنوبية، لأن ضم اليمن، الذي يُعدُّ مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب، يؤمن له السيطرة العسكرية والتجارية على الأقاليم الجنوبية ويُبعد احتمال حدوث تقارب بين الصليبيين الذين يتطلعون للسيطرة على البحر الأحمر وبين الحبشة التي تدين بالديانة النصرانية، حتى لا يقع

---

779 كتاب الروضتين (243/2، 244).

780 تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 46.

781 تاريخ اليمن الإسلامي د.محمد عبده السروري ص 211.

بين فكي الكماشة الصليبية على سواحل البحر المتوسط في الشمال، والأحباش على سواحل البحر الأحمر في الجنوب.

ج- كانت اليمن آنذاك تمر بمرحلة عدم استقرار تتنازعها الأهواء السياسية والدينينة والمذهبية وبخاصة بين زبيد وصنعاء، كما ظهر دعيٌّ زعم أنه المهدي المنتظر هو عبدالنبي بن مهدي وتغلبَّ على اليمن، وخطب لنفسه بعد أن قطع الخطبة للعباسيين، وتسَّمى بالإمام، وبنى على قبر أبيه قبَّة عظيمة، وأمر أهل اليمن بالحج إليها ومنعهم من الحج إلى مكة.

د- أراد صلاح الدين وضع حد لهذه التجاوزات والمساويء التي تهدد وحدة المسلمين وبخاصة بعد أن أرسل إليه أهل اليمن يستنجدون به لإنقاذهم [782] . ومهما يكن من أمر، فقد : وجه صلاح الدين سرية بقيادة أخيه الأكبر شمس الدولة توران شاه الذي ورد مكة فاعتمر بها وسار منها إلى زبيد، فامتلكها كما سار إلى عدن وامتلكها ومنع الجيش من نهبها وقال : ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لعمارتها وملكها، ثم سار إلى بقية الحصون والمخالف والمعاقل فملكها، واستوثق له ملك اليمن بحذافيره وخطب للخليفة العباسي [783] . وقتل الدعي المسمى بعبد النبي، وصفت اليمن من أكدارها، وعادت إلى ما سبق من مضمارها [784] ، وكتب شمس الدولة إلى أخيه الملك الناصر صلاح الدين يخبره بما فتح الله عليه وأحسن إليه، فكتب الملك صلاح الدين بذلك إلى نور الدين، فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة يبشره بفتح اليمن والخطبة بها له [785] .

3- فتح بلاد النوبة: وكانت النوبة وقتها مملكة نصرانية عاصمتها مدينة دنقلة تقع في أعالي النيل، وتربطها بمصر روابط متينة بشكل عام منذ الفتح الإسلامي ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر أراد صلاح الدين فتح بلاد النوبة لحماية مصر من التعدي عليها من ناحية الجنوب وأرسل أخاه تورانشاه في شهر جمادى الأخرة عام 568هـ/شهر كانون الثاني عام 1173م إلى بلاد النوبة، ففتح إبريم، وسبى وغنم، ثم عاد إلى قوص، ودخل الإسلام إلى أماكن لم تطرقها سنابك خيل المسلمين من قبل وعين إبراهيم الكردي والياً عليها [786] ، وكان هذا الفتح سبباً في إزالة الحواجز التي كانت تؤول دون انتشار الإسلام [787] فيها.

---

782 تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 48.

783 الطريق إلى بيت المقدس ص 96.

784 المصدر نفسه ص 96.

785 المصدر نفسه ص 96.

786 تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 49

خامساً: حقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين:

تحدث المؤرخون عن علاقة نور الدين بصلاح الدين، فقد روى ابن الأثير وذكر أبو شامة نقلاً عن ابن أبي طي أسباب الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين التي ابتدأت سنة سبع وستين وخمسمائة وذلك عندما اتفقا على حصار الكرك ورجع صلاح الدين إلى مصر، قبل أن يلتقي بنور الدين [788] ، وأخذ عن ابن الأثير وابن أبي طي عدد من المؤرخين [789]، وتبعهم بعض المؤلفين المعاصرين دون تمحيص، وغالوا في تعليلاتهم وتفسيراتهم لأسباب الوحشة ونتائجها، فوصفوا العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين وكأنها علاقة عدائية، ومن ذلك أن كل واحد منهما يخاف صاحبه وأن صلاح الدين أصبح يسعى للتخلص من سيادة نور الدين ويحبذ أن تظل منطقة الكرك فاصلاً بينه وبين نور الدين، ونور الدين فكر في أنه أخطأ في انفاذ أسد الدين وصلاح الدين إلى مصر ووصف نور الدين بأنه خصم خطير لصلاح الدين إلى ما ذلك [790] وهذا التصورات الباطلة لا أصل لها إلا عند ابن طيء وابن الأثير :

فأما ابن أبي طي: فقد حاول بما أتقنه من الدس والكذب أن يطعن في العلاقة بين الرجلين وهو متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين كان قد أَذلَّ الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم وقوَّى أهل السنة، وكان والد أبي طيّ من رؤوس الشيعة فنفاه من حلب ولذلك نجد أن ابن أبي طيّ كثير التحامل على نور الدين ويحاول أن يلطخ العلاقة بين الرجلين العظيمين بأكاذيبه النتنه[791].

فأما ابن الأثير: فهو متهم فيما يكتبه عن صلاح الدين، فهو يلتمس المناسبات أحياناً لنقد صلاح الدين وتجريحه وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين [792] ، فمؤرخ البيت الزنكي في كتابيه الكامل في التاريخ والباهر في تاريخ الدولة الأتابكية قد ذكر الآراء في كتابيه والتي نقلها عنه عدد من المؤرخين، وفحواها أن صلاح الدين لم يكن وفياً لأستاذه نور الدين، بل كان يجتهد منذ استقرار نفوذه في مصر إلى الاستقلال

---

[787] جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول د. فرستا ص 52.

[788] الباهر ص 158، 159) كتاب الروضتين (227/2).

[789] نور الدين زنكي في الأدب العربي ص 116.

[790] نور الدين محمود في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية ص 117.

[791] كتاب الروضتين (117/2، 118).

[792] دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 62.

عنه، ومزاحمته السيادة السياسية ببلاد الشام، فكل هذه الأراء [793] ، كتبها ابن الأثير بعد وفاة صلاح الدين، واضطرار صلاح الدين إلى الخروج على رأس عساكره إلى بلاد الشام، وضم ممتلكات أستاذه نور الدين بها إلى ممتلكاته بمصر إذ أن خروج صلاح الدين إلى الشام كان من أجل إعادة الجبهة الإسلامية الموحدة، التي كان عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين قد أجهد نفسيهما طويلاً في تكوينها، وكانت بعد وفاة نور الدين على وشك أن تنفصم، وترجع الأوضاع إلى ما كانت عليه سابقاً من سوء وتشرذم وضعف، بعد انقسام البيت الزنكي، حزب في دمشق وحزب في حلب، ولم يستطع ابنه الطفل الصالح إسماعيل إعادة توحيد مملكة والده [794] ، ولقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، وإلى ابن نور الدين يخبره أن خروجه للشام، هو لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج [795] ، وأغلب الظن أن هذه الأقوال التي رددها ابن الأثير، ونقلها عنه بعض المؤرخين بخصوص عدم ولاء صلاح الدين للبيت الزنكي، والروايات التي قيلت حول هذا الموضوع، قد صاغها المؤرخون وعلى رأسهم ابن الأثير لتعليل مسلك صلاح الدين بعد وفاة نور الدين وكان وراءها ولاء ابن الأثير للبيت الزنكي، ثم عدم تعاطفه مع صلاح الدين، الذي قضى على هذا البيت وممتلكاته من ناحية أخرى خاصة وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن ابن الأثير قد تحامل على صلاح الدين في تاريخه الكامل والباهر، وتلمس له مواضع الزلل، وأسباب الخطأ [796]. وفي الحقيقة أن صلاح الدين كان نعم الجندي في السمع والطاعة لقائده نور الدين زنكي وإليك الأدلة على ذلك.

1. **قال العماد الأصفهاني:** أن صلاح الدين كان : لا يخرج عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين [797].
2. **وأما أبو شامة:** فقد عمد إلى تفنيد اتهامات ابن الأثير لصلاح الدين بخصوص خروجه عن طاعة نور الدين، وفي رأي أبي شامة، أن نور الدين لم ينتقد على صلاح الدين إسرافه في تفريق الأموال وصرفها واستبداده بذلك من غير مشاورته [798] ويؤكد أبو شامة رأيه، بوثيقة وقف عليها بنفسه، بخط نور الدين، يقرر فيها للقاضي شرف الدين بن أبي عصرون، الذي تولى القضاء له بالشام ثم لصلاح

[793] تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص 22.

[794] المصدر نفسه ص 22.

[795] مرآة الزمان (327،328/8) تاريخ مصر الإسلامية ص 22.

[796] التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ص 38 - 49.

[797] كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 23.

[798] المصدر نفسه.

الدين بمصر، وإعجابه الشديد بما قام به صلاح الدين من نصرة المذهب السني بمصر، والقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي، ويطلب من أبي عصرون مساندة صلاح الدين في هذا الأمر الجلل [799].

3. **والواقع أن جميع الخطوات الحاسمة:** التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الدولة الفاطمية بمصر والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بها، جاءت بأمر مباشر من نور الدين، ولم تتم إلا بعد أن وصل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من طرف نور الدين إلى مصر، ليشرف بنفسه ويساعد ابنه للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية [800] .
4. وليس أدل على التبعية الكاملة لصلاح الدين تجاه نور الدين وكونه نائباً عنه في حكم مصر من كونه كان يخطب له على المنابر في أرجاء الدولة الفاطمية، إبان وزارته للخليفة الفاطمي العاضد [801] وأثر نقل الخطبة للعباسيين، كان الخطيب بمصر وأعمالها، يدعو لنور الدين بعد الخليفة، وقُررَّت السكة باسم المستضيء بأمر الله وباسم الملك العادل نور الدين فنُقش إسم كل منهم في وجه [802] .
5. وكان مجيء ابن القيسراني وزير نور الدين إلى مصر سنة 568هـ - 569هـ لكشف البلاد وارتفاعها ومراجعة حساباتها لتقرير القطيعة أو الوظيفة السنوية التي يدفعها صلاح الدين لنور الدين، أمراً طبيعياً يؤكد تبعية مصر لنور الدين [803].
6. لقد أدركت الخلافة العباسية، هذه الحقيقة الجوهرية، فميزت بوضوح بين الخِلعّ الخليفية لنور الدين وبين الخِلَع الخليفية لصلاح الدين وجَعلت خِلع صلاح الدين أقل من خلع نور الدين في حين قلّدت نور الدين بالسيفين، إشارة إلى تقليده لقطري الشام ومصر، وفي نفس الوقت أرسل نور الدين من قبله خَلَعّ سيّرها من بلاد الشام إلى صلاح الدين وأهله وأمرائه بمصر [804] ، تأكيداً لتبعيتهم المباشرة له.

---

[799] كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 23.

[800] تاريخ مصر الإسلامية ص 24.

[801] كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 24.

[802] السلوك للمقريزي (45/1) تاريخ مصر الإسلامية ص 24.

[803] تاريخ مصر الإسلامية ص 24.

[804] مفرج الكروب (219/1) تاريخ مصر الإسلامية ص 25.

7. كان صلاح الدين يراعي التأدّب في رسوم الملك، فلا يساوي نفسه بسيده نور الدين، فقد أرسل الرُّسل من القاهرة إلى نور الدين لتخبره بلبس صلاح الدين للخلع وباستجابة صلاح الدين على مداومة إرسال ما قُرِّر عليه من مال إلى نور الدين في كل سنة [805].

8. وإذا كانت جميع الإجراءات التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية والخطبة لبني العباس والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر قد تمَّت بتوجيه مباشر من نور الدين وبعد إرساله لنجم الدين والد صلاح الدين فإن ضَّم صلاح الدين لليمن تمّ بإذن نور الدين للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية هناك — وضم اليمن لجبهة المقاومة بحيث أرسل نور الدين هذه البشارة بنفسه للخليفة العباسي وكذلك في ضم المغرب الأدنى وغزو مملكة النوبة وبشر الخليفة العباسي بقرب فتح القسطنطينية وبيت المقدس [806] . فقد كتب نور الدين إلى الخليفة العباسي : وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمَد الفتوح في مضمار المنافسة والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفاتحين لأهل الإسلام ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإمام ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة، ما تيسر في هذه النَوْبَة من افتتاح بعض بلاد النُوبَة، والوصول إلى مواضع منها، لم تَطرُقها سنابك الخيل الإسلامية في العصور الحالية، وكذلك استولى عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها.. حتى بلغوا إلى حدود المغرب [807].

9. ومنذ استقرار صلاح الدين بمصر، حتى وفاة نور الدين دوام صلاح الدين على إرسال تحف القصر الفاطمي إلى سيده نور الدين رمزاً للولاء والتبعِّية، وداوم صلاح الدين على إطلاع نور الدين على كل صغيرة وكبيرة داخل مصر، فنجده مثلاً يرسل إليه كتاباً يتضمن ذكر ثورة بقايا الفاطميين والتي كان من ضمنها عمارة اليمني [808] ، وليس أذلّ على تعاون كل من صلاح الدين ونور الدين من تفاهمهما الاستراتيجي في قتال الفرنج، فيذكر أبو شامة أنه في سنة 568هـ/1172م : تولى السلطانان نور الدين في الشام وصلاح الدين من مصر في هذه السنة جهاد الصليبيين، ولقد وصف العماد هذا الحدث بـ "جهاد السُّلطانين للفرنج" [809] ، وهذا ما أكَّده صلاح الدين في كتاب له للخليفة العباسي بقوله أنه:

---

805 السلوك للمقريزي (47/1) تاريخ مصر الإسلامية ص 26.

806 مفرج الكروب (235/1) تاريخ مصر الإسلامية ص 27.

807 مفرج الكروب (235/1) تاريخ مصر الإسلامية ص 27.

808 مفرج الكروب (235/1) تاريخ مصر الإسلامية ص 27.

809 مفرج الكروب (228/1) المصدر نفسه ص 27.

كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله، في أن يتجاذبا طرفيّ الغزاة من مصر والشام، والمملوك (أي صلاح الدين) بعسكره وبرّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره [810].

10. ولقد أبدى صلاح الدين تبعيته لبيت نور الدين حتى بعد وفاته سنة 569هـ/1173م، بحيث خطب صلاح الدين لابنه الصالح إسماعيل، وضرب السكة باسمه [811]، ووافى إرسال الرسائل في العزاء بنور الدين [812] ، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول أنَّه حتى وفاة نور الدين، كانت مصر والشام قد توحدتا تحت زعامة نور الدين [813] وما كان صلاح الدين إلا عاملاً له على مصر، وهذا ما عبر عنه العماد الأصفهاني حين امتدح نور الدين فقال :

بملـــك مصـــر أهـــنيء مالـــك الأمـــم
فثـــق وأبشـــر بنصـــر الله عـــن أمـــم

فملـــك مصـــر وملـــك الشـــام قـــد نُظِمَـــا
في عقـــد عـــز مـــن الإســـلام منـــتظم [814]

وفي كل الأحوال لم تصل علاقة نور الدين بصلاح الدين إلى درجة العداء ولا مسّوغ لاعتبار الاختلاف في الرأي وحشة ونفرة كما يقرر ذلك. عدد من المؤرخين والكتاب وكل ما هنالك أنّ نور الدين كان يتطلع إلى مصر على أنها مصدر للواردات ويسّد بها نفقات الجهاد ضد الصليبيين في الشام، وأنها مصدر للطاقة البشرية المجاهدة وكان صلاح الدين أكثر معرفة من نور الدين لما يجري في مصر من أخطار ناجمعة على استعداد أنصار الفاطميين للانضمام إلى الفرنج فوجه اهتمامه إلى بناء جيش قوي، بحيث يستطيع السيطرة على مصر، ورأى أن تثبيت كيان الدولة الجديدة في مصر أولى من الانشغال بمسائل الشام [815] ، وهذا

---

[810] كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ الشعوب الإسلامية ص 27.

[811] السلوك (55/1) تاريخ مصر الإسلامية ص 28.

[812] كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 28.

[813] تاريخ مصر الإسلامية .

[814] كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 28.

[815] نور الدين زنكي في الأدب العربي في الحروب الصليبية ص 119.

يتفق مع ما قاله نور الدين للرسول الذي بعثه صلاح الدين يعتذر عن موقفه من حصار الكرك، حيث قال: حفظ مصر أهم عندنا من غيرها [816] .

إن صلاح الدين سار على نهج نور الدين في التمكين للمشروع السني والقيادة في الإسلام ليست حكراً على الأسرة الزنكية ولا الأيوبية أو عائلة معينة مهما على شأنها ولكّن من تقدمه أعماله بعد توفيق الله له — ويلقى من المسلمين المحبة والتقدير والدعم والتأييد فهو المقدم، فأبو بكر رضي الله عنه قدمته الأمة بعد نبيها وبايعته وكذلك عمر فأكمل المسيرة وسار عثمان من بعده وعلي رضي الله عنهم فخدمة الدين والمسلمين مقدمة على كل شيء في ثقافة صلاح الدين.

عاشراً: وفاة نور الدين محمود: قال العماد الأصفهاني: وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير (ختان) ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلقَّت محالُّ دمشق أياما. قال: ونظمت للهناء بالعيد والطُّهر قصيدة منها:

عيـــــــــدان : فطـــــــــرٌ وطُهـــــــــرُ
فـــــــــتح قريـــــــــب ونصـــــــــر
كلاهمـــــــــا لـــــــــك فيـــــــــه
حقـــــــــاً هنـــــــــاء وأجـــــــــر
وفيهمـــــــــا بالتَّهـــــــــاني
رســـــــــمٌ لنـــــــــا مســـــــــتمر

طهـــــــــارة طـــــــــاب منهـــــــــا
أصـــــــــل وفـــــــــرع وذكـــــــــر [817]

---

[816] زبدة حلب (339/2) نور الدين زنكي في الأدب العربي في الحروب الصليبية ص 119.

[817] كتاب الروضتين (308/2).

قال : وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرّسم المعتاد محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطب له القاضي شمس الدين ابن القَّراشي قاضي العسكر، بعد أن صليَّ به وذِكَّر، وعاد القلعة، طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب سِماطه العام على رَسْم الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خوانه الخَاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص [818] ، .. وفي يوم الاثنين والعظماء يسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدَّين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوّل دولته والي حلب وقد حّرب الدهر بحنكته .. فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغتر بأيامه : هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في العام القابل ؟ فقال نور الدين : قل هل نكون بعد شهر، فإنَّ السنة بعيدة، فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السَّابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرُة مع خّواصه، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يَرَنْقُش وقال له : باش [819] ، فأحدث الغيظ والاستيحاش واغتاظ على خلاف مذهبه وخلقه الحليم، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل، فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولا بنازله، مغلوباً عن عاجله بحديث آجله والنَّاس من الختان لاهون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجود بروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلاَّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصالح [820] . قال : واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء ولقد كان من أولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين[821]، وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته عجز الأطباء عن علاجها [822] " وقد توفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شّوال سنة تسع وستين وخمسة مئة" ودفن بقلعة دمشق ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رحمه الله جوار الخَّواصين في الشارع الغربي رحمه الله تعالى [823] . وكان رحمه الله حريصاً على الشهادة وكان يقول : طالماً تعرضت للشهادة فلم أُدْرِكْها وقال الذهبي :

---

[818] المصدر نفسه (308/2).

[819] كتاب الروضتين (308/2).

[820] المصدر نفسه (309/2).

[821] المصدر نفسه (310/2).

[822] المصدر نفسه (313/2).

[823] المصدر نفسه (313/2).

قد أدركها على فراشه وعلى ألسنة الناس: نور الدين الشهيد [824] ، وقد رثاه الشعراء بقصائد رائعة من أحسنها ما قاله العماد الأصفهاني:

الـــــــدَّين في ظُلـــــــم لغيبـــــــة نـــــــوره
والـــــــدهُر في غُمـــــــم لفقـــــــد أمـــــــيره
فلينـــــــدُبِ الإســـــــلامُ حـــــــاميَ أهلـــــــه
والشـــــــام حـــــــافظ ملكـــــــه وثغـــــــوره
مـــــــا أعظـــــــم المِقـــــــدار في أخطـــــــاره
إذ كـــــــان هـــــــذا الخطـــــــب في مقـــــــدوره
مـــــــا أكثَـــــــر المتأسَّـــــــفين لفقـــــــد مـــــــن
قـــــــرَّن نـــــــواظرُهُم بفقـــــــد نظـــــــيره
مـــــــا أغـــــــوصَ الإنســـــــانَ في نســـــــيانه
أو مـــــــا كفـــــــاه المـــــــوت في تـــــــذكيره
مـــــــن للمســـــــاجد والمـــــــدارس بانيـــــــا
لله طوعـــــــاً عـــــــن خُلُـــــــوصِ ضَـــــــمِيره
مـــــــن ينصـــــــر الإســـــــلام في غزواتـــــــه
فلقـــــــد أصـــــــيب بزُكنـــــــه وظهـــــــيره
مـــــــن للفـــــــرنج ومـــــــن لأســـــــر ملوكهـــــــا
مـــــــن للهُـــــــدى يبغـــــــي فكـــــــاك أســـــــيره

مـــــــن للخطـــــــوب مـــــــذلَّلاَ لجماحهـــــــا
مـــــــن للزمـــــــان مُســـــــهَّلاً لـــــــو عُـــــــوره
مـــــــن كاشـــــــفٌ للمعاضـــــــلات برأيـــــــه
مـــــــن مُشـــــــرقٌ في الـــــــدَّاجيات بنـــــــوره

---

[824] سير أعلام النبلاء (537/20).

مـــــن للكــــريم ومـــــن لـــــنعش عِثـــارِه

مـــــن لليتـــــيَم ومـــــن لجـــــبر كســـــيره

مـــــن للـــــبلاد ومـــــن لنصـــــر جيوشـــــها

مـــــن للجهـــــاد ومـــــن لحفـــــظ أُمـــــوره

مـــــن للفتـــــوح محـــــاولاً أبكارهـــــا

برواحـــــــــه غـــــــــزوه وبكـــــــــوره

مـــــن للعُـــــلا وعهُودهـــــا مـــــن للنَّـــــدَى

ووفـــــوده مـــــن للحِجـــــا ووفـــــوره

مـــا كنـــت أحســـب نـــورَ ديـــنِ محمـــدٍ

يخبـــــو وليـــــلُ الشـــــرك في دَيْجُـــــوره

أعـــزز علـــيَّ بليـــث غـــاب للهُـــدى

يخلـــــو الشَّـــــرى مـــــن زوره وزئـــــيره

أَعْـــــــزِز علـــــــيَّ بأن أراه مُغيَّبـــــــا

عـــــن محفـــــل متشـــــرِّقٍ بحضـــــوره

لهفـــي علـــى تلـــك الأنامـــل إنَّهـــا

مُـــــذ غُيِّبـــــت غـــــاض النَّـــــدَى ببحـــــوره

ولقـــد أتـــى مـــن كنـــت تُجـــري رسمـــه

فضـــــع العلامـــــة منـــــك في منشـــــوره

ولقـــد أتـــى مـــن كنـــت تكشـــف كُرْبَـــه

فـــــارفع ظلامتـــــه بنصـــــر عشـــــيره [825]

ولقـــد أتـــى مـــن كنـــت تـــؤمن سِـــرْبَهُ

وقِّـــــع لـــــه بالأمـــــن مـــــن محـــــذُوره

ولقـــد أتـــى مـــن كنـــت تُـــؤثر قُرْبَـــه

فـــــأَدِم لـــــه التَّقْرِيْـــــبَ في تقريـــــره

825كتاب الروضتين (369/2).

والجـــيش قـــد ركـــب الغَـــدَاة لعَرْضِـــهِ
فأركــــــب لتـــــبُصِرَهُ أوان عبـــــوره

أنــــت الـــذي أحييـــت شـــرع محمـــد
وقضـــيت بعـــد وفاتـــه بنشـــوره

كـــم قـــد أقمـــت مـــن الشَّـــريعة مَعْلمـــاً
هـــو مُنْـــذ غبـــتَ مُعَّـــرضٌ لِـــدُ ثـــوره

كـــم قـــد أمـــرت بحفـــر خنـــدق مَعْقِـــل
حـــتى ســـكَنت اللَّحْـــدَ في محفـــوره

كـــم قيصـــرٍ للـــروم رُمْـــتَ بقســـره
إرواء بـــيض الهنـــد مـــن تامـــوره[826]

أُوتيـــت فـــتح حصـــونه وملكـــت
عَقَـــر بـــلاده وســـبيتَ أهـــل قصـــوره

أَزَهِـــدْتَ في دار الفنـــاء وأهلهـــا
ورَغبـــت في الخُلْـــدِ المقـــيم وحُـــوره

أوَمَـــا وعـــدت القُـــدْسَ أنـــك مُنجـــزٌ
ميعـــاده في فتحـــه وظهـــوره

فمـــتى تجـــير القُدْسَـــى مـــن دَنسِـــى العِـــدَى
وتقـــدَّس الـــرحمن في تطهـــيره

يا حـــاملين ســـريره مهـــلاً فمـــن
عَجَـــبِ نهوضـــكم بحمـــل ثبـــيره [827]

يا عـــابرين بنعشـــه أنشـــقتُمُ
مـــن صـــالح الأعمـــال نشـــر عبـــيره

نزلـــت ملائكـــة الســـماء لدفنـــه

826التامور: النفس ومهجتها.

827ثبير: من أعظم جبال مكة المكرمة.

ومِــــــنَ الجفـــــاءَ لـــــه مقـــامي بعــــده | مســـــــتجمعين علـــــى شـــــفير حضـــــيره
حَيَّـــــاك مُعْتـــــلُّ الصــــبَّا بنســــــيمه | هــــلاَّ وفيـــــتُ وســـــرتُ عنــــد مســــيره
ولبسْـــــتَ رضـــــوان المهـــــيمن ســـــاِحباً | وســـــــقاك مُنْهَـــــــلُ الحيـــــا بـــــــدروره
وســــــــكنت علِّيَّــــــــين في فِرْدَوْسِـــــــهِ | أذيال سُـــــــــندس خـــــــــزَّه وحريـــــــــره
| حِلــــــفَ المسَـــــرَّة ظـــــافراً بأجـــــوره [828]

وبعد وفاة نور الدين حمل راية الجهاده تلميذه الذكي وجنديه المخلص صلاح الدين الأيوبي الذي بنى جهاده على ما أسَّسه نور الدين من جهاد المشركين وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها.

الفصل الثاني
قيام الدولة الأيوبية

---

[828] المصدر نفسه.

المبحث الأول: أسرة صلاح الدين ونشأته

أولاً: نسب صلاح الدين : ينتمي صلاح الدين إلى عائلة كردية، كريمة الأصل، عظيمة الشرف، وتنتسب هذه العائلة إلى قبلية كردية تعد من أشراف الأكراد نسباً وعشيرة، وهذه العشيرة تعرف بالرّوادية [829]، وهي تنحدر من بلدة دوين الواقعة عند آخر حدود أذربيجان بالقرب من مدينة تفليس في أرمينية وينتسب الأيوبيون إلى أيوب بن شادي، ويعتبرهم ابن الأثير أشرف الأكراد لأنهم لم يجر على أحد منهم رق أبدا [830] كما أن والد صلاح الدين، نجم الدين أيوب، وعمه أسد الدين شيركوه، عندما قدما إلى العراق بلاد الشام لم يكونا من الرعاة وإنما كانا على درجة عالية من الخبرة في الشؤون السياسية والإدارية [831]، غير أن بعض الأيوبيين حاول أن ينكر أصلهم الكردي والألتصاق بالدم العربي عامة، وبنسل بني أمية خاصة [832] ومهما كان أصل البيت الأيوبي، فإن ظهورهم على مسرح الأحداث في المشرق الإسلامي وضع منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي حين تولى شادي، جدهم الأكبر، بعض الوظائف الإدارية في قعلة تكريت، التي كانت إقطاعاً لبهروز الخادم أحد أمراء السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه [833] وكانت تكريت، الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة شمالي سامراء، تتحكم في أغلب الطرق الرئيسية المارة بين العراق وبلاد الشام، وكان أغلب سكانها من الأكراد، وقد انتقل إليها شادي مع ابنيه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، وتدرج في المناصب الإدارية فيها حتى ولي وظيفة الشحنة، ولما توفي خلفه ابنه نجم الدين أيوب [834]، ومن العجب أن بعض المؤرخين يتمحلون في بحثهم لينسبوا أسرة صلاح الدين في سلسلة من الآباء تنتهي عند مُضَر الذي ينتمي إلى عدنان، وكأنهم يريدون من وراء هذا البحث الذي لا يتفق مع منهج البحث العلمي ولا مع الحقيقة المجردة، أن يلحقوا كل شخصية فذة ليست عربية بسلسلة من النسب العربي، وكأن الفضائل كلها، والمكارم جميعها مقصورة على العرب وخاصة بهم، وكأن المسلم غير العربي — في نظرهم القاصر — لا يمكن بحال أن يبني مجداً، أو يشيد حضارة، أو يخلد ذكراً [835]، أو ينصر دينه بالسنان واللسان، ونحن لو استقرأنا التاريخ، وبحثنا عن عظمائنا في بناء الحضارة الإسلامية، لوجدناً أن القوميات

---

[829] التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص 119.

[830] المصدر نفسه ص 119.

[831] الخطط للمقريزي (404/3).

[832] تاريخ بيت المقدس د.محمد الحافظ النقر ص132.

[833] المصدر نفسه ص 132.

[834] المصدر نفسه ص 132.

[835] صلاح الدين الأيوبي، عبد الله علوان ص 17.

المتعددة التي دخلت في دين الإسلام ساهمت في الحضارة الإسلامية، فهذا محمد الفاتح ونور الدين وعماد الدين من الترك وذلك نظام الملك من الفرس، وهذه الأسرة الأيوبية من الكرد، وذاك يوسف بن تاشفين من البربر وقد أكرم الله العرب بنشر الرسالة الإسلامية، وقد أعز الله من أخلص لدينه، فنحن ضد التعصب الأعمى، والعنصرية الممقوتة، فمبدأ الإسلام (إنما المؤمنون إخوة) (الحجرات، آية:10) ومنهجه ثابت لا يتحول [836] (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات آية: 13).

وقد قام نجم الدين بخدمة السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه " فرأى منه أمانة وعقلاً وسداداً وشهامة، فولاه قلعة تكريت، فقام في ولايتها أحسن قيام، وضبطها أكرم ضبط، وأجلى عن أرضها المفسدين وقطاع الطرق حتى عمرت أرضها وحسن حالها [837]. وكذلك يذكر أبو شامة بأن أسد الدين شيركوه كان من الأمراء المقدمين عند السلاجقة الذين اقطعوه اقطاعاً كبيراً في تكريت وما حولها حتى إن إقطاعه كانت تقدر قيمته بحوالي تسعمائة دينار سنوياً [838] ، وهو مبلغ كبير بمقياس ذلك العصر [839].

ثانياً: ولادة صلاح الدين : ولد صلاح الدين الأيوبي عام 532هـ/1137م في قلعة تكريت بلدة قديمة أقرب إلى بغداد منها إلى الموصل، وقد قامت في طرفها الأعلى قلعة حصينة راكبة على دجلة، بناها ملوك الفرس منذ القدم على حجر عظيم، وجعلوها مخازن للذخيرة، ومرصداً لمراقبة العدو، ثم افتتحها المسلمون في السنة السادسة عشرة من الهجرة أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه [840] ، ومن عجائب القدر أن ولادة صلاح الدين كانت في اليوم الذي أمر فيه "مجاهد الدين بهروز" وإلى بغداد نجم الدين أيوب وأخاه شيركوه بمغادرة مدينة تكريت لقتل شيركوه عم صلاح الدين أحد قواد القلعة، وذلك من أجل امرأة آذاها القائد في شرفها، فانتقم "شيركوه" للشرف والمروءة حين استغاثت به فقتله ولكن بهروز وقع في حيرة من نفسه هل يبقيهما عنده ؟ أم يأمر بمغادرتهما فإن أبقاهما يخشى عليهما من انتقام القواد أن يصيبهما الأذى، فلم يجد بُدّاً سوى أن يأمرهما بالمغادرة، فجاء بهما مظهراً الخوف عليهما، وطلب إليهما أن يخرجا في ليلتهما من تكريت، فخرج الرجلان يقصدان (الموصل) وقد حملا أسرتيهما، وفي رحل نجم الدين يوسف ابنه

---

[836] المصدر نفسه ص 18.

[837] كتاب الروضتين (252/2).

[838] المصدر نفسه (257/2).

[839] تاريخ بيت المقدس، محمد الحافظ النقر ص 133.

[840] معجم البلدان (491/2).

الطفل المولود صلاح ويذكر صاحب وفيات الأعيان " أن أيوب قد تشاءم بمولوده الجديد صلاح الدين، وقد همّ أيوب بقتل ولده عندما كان يصيح وهو طفل وهم خارجون من المدينة، ولكن أحد أتباعه حذره من هذه العمل قائلاً: يا مولاي، قد رأيت ما حدث عندك من الطيرة والتشاؤم بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب ؟ وبم استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئاً، وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله سبحانه وقدر، ثم ما يدريك أهذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت، جليل المقدار، ولعل الله جاعل له شأناً، فاستبقه فهو طفل، ليس له ذنب ولا يعرف ما أنت فيه من الكدر والغّم [841] . ولقد أثرت هذه الكلمات في نفس أيوب، وسرعان ما رجع إلى الحق، وثاب إلى الرشد، واتبع طريق الإسلام الصحيح [842] .

ثالثاً: نشأة صلاح الدين: هاجر الأخوان نجم الدين أيوب وشيركوه من بغداد إلى الموصل، حيث نزلا عند (عماد الدين زنكي) الذي رحب بالأخوين ترحيباً عظيماً، وأجرى عليهما المنح والعطايا وما هذا الترحيب والإكرام إلا مكافأة على موقفهما المخلص من إنقاذهما له من القتل أو الأسر ذلك لأن عماد الدين زنكي صاحب الموصل قد حارب السلجوقية عند "تكريت" أيام كان "بهروز" والياً على بغداد من قبل السلجوقيين، وسبق أن ذكرنا أن نجم الدين أيوب، وشيركوه كانا قائمين على تكريت وقلعتهما من قبل بهروز، وكان من نتيجة حرب عماد الدين للسلجوقيين أن أنهزم جيشه أما جيش السلطان السلجوقي، وفي أثناء انسحابه ورجوعه إلى الموصل مّر بتكريت وأصبحت حياته هو وجيشه في يد نجم الدين أيوب والي تكريت يومئذ إن شاء أبقاهم أحياء، وإن شاء قتلهم، ففضل نجم الدين الإحسان على الإساة فقام هو وأخوه شيركوه بمساعدة عماد الدين وسهلاً له أمر النجاة والسلامة حتى وصل إلى الموصل، فكان لهذه المعاملة الحسنة والموقف النبيل أكرم الأثر، وأحسن النتائج في بناء ملك أيوب، وإقامة مجد الإسلام على يد صلاح الدين [843] ولما وصل الرجلان إلى الموصل لقيهما عماد الدين، كما ذكرنا بالترحاب وجازاهما على ما صنعا معه من الجميل له في تكريت، فأقطعهما أرضاً ليعيشا عنده معزّزين مكرمين [844]، وفي رحاب عماد الدين تطورت الأسرة الأيوبية، فقد أصبح نجم الدين وأخوه شيركوه من خيرة القادة، وقتل عماد الدين بعد ذلك وأصبح نور الدين صاحب اليد الطولى وكان ذلك بمساعدة الأيوبيين واستطاع أن يضم دمشق لملكه

---

[841] كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، صلاح الدين لعلوان ص 20.

[842] صلاح الدين لعلوان ص 21.

[843] صلاح الدين، علون ص 21 الموسوعة الشاملة (ج 142/24).

[844] صلاح الدين، علوان ص 21.

وفي دمشق ترعرع صلاح الدين وتلقى علومه الإسلامية ومارس فنون الفروسية والصيد والرمي بالسهام وغيرهما من ضرورات البطولة [845] وعندما فتح نور الدين محمود زنكي بعلبك سنة 534هـ ولي عليها نجم الدين أيوب إلا أن صاحب دمشق مجير الدين، قام بحصار نجم الدين أيوب في بعلبك، وكاتب نجم الدين نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وطلب منهما النجدة، فاشتغلا عنه، وبعد حصار طويل تم الصلح بين الطرفين على حال، وانتقل إلى دمشق وصار من كبار أمرائها [846] ، وهكذا عاش صلاح الدين طفولته الأولى في بعلبك سنة (534هـ/1140م) وكان يشاهد ويسمع بين حين وآخر، اعتداء الصليبيين على البلاد الإسلامية، ولما قام الصليبيون بالهجوم على سهل البقاع المجاور لبعلبك سنة 546هـ تصدى لهم نجم الدين وأسد الدين شيركوه وهزمهما وأخذ منهم أسارى [847] ، وفي السنة نفسها التحق صلاح الدين في خدمة عمه أسد الدين شيركوه وهزمهما وأخذ منهم أسارى [848] وكان أسد الدين مرافقاً لنور الدين الذي تولى قيادة الزنكيين بعد مقتل والده، ويبدو أن نور الدين كان قد أدرك قدرات صلاح الدين العسكرية والإدارية، فقد ذكر أبو شامة أن صلاح الدين تقدم بين يدي نور الدين فقبله وأقطعه اقطاعاً حسناً [849] ، وعول عليه ونظر إليه، وقربه، وخصصه، ولم يزل يتقدم تقدما تبدو منه أسباب تقضي تقديمه إلى ما هو أعلى [850] . وكان نور الدين يكلفه بالذهاب إلى عمه لاستشارته في قضايا، تخص الدولة والمكوس، والضمانات، فقد كان نور الدين يهتم بمشاورة كبار قواده [851] . وتسمى هذه الوظيفة لصلاح الدين في العصر الحديث كاتم الأسرار ضابط الركن الشخصي لنور الدين [852] . وأما عن كيفية تبؤ صلاح الدين الأيوبي أعماله الرسمية فقد فصل لنا ابن الفرات ذلك بقوله : ولم يزل صلاح الدين في كنف والده حتى ترعرع، فلما تملك الملك العادل نور الدين دمشق لازم الأمير نجم الدين أيوب ولده يوسف بخدمته، وكانت مخائيل السعادة على صلاح الدين لائحه، ومنه تعلم صلاح الدين طريق الخير، وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد حتى ظهر للسير مع عمه أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية، ولم يزل أسد الدين آمراً ناهياً بالديار المصرية،

---

[845] موسوعة التاريخ الإسلامي، شلبي (ج187/5).

[846] النجوم الزاهرة (5/6) مفرج الكروب (8/1).

[847] كتاب الروضتين (48/1).

[848] المصدر نفسه (48/1) الفكر السوقي الأيوبي ص 82.

[849] النوادر السلطانية ص 6 الفكر السيوقي الأيوبي ص 82.

[850] الكواكب الدرية في السيرة النورية ص 43.

[851] الفكر السوقي الأيوبي ص 83.

[852] المصدر نفسه ص 83.

وابن أخيه صلاح الدين يباشر الأمور بنفسه بكل عناية وحسن رأي وسياسة فقد [853] ، وفي ولاية أبيه على بعلبك درس صلاح الدين العلوم الإسلامية، وفنون القتال، فضلاً عن فنون لعب الكرة والفروسية، وغيرها من فنون الطبقات الحاكمة إلى جانب براعته في لعبة الجوكان، وهي لعبة رياضية أصلها شرقي يمارسها اللاعبون وهم على ظهور الخيل التي ورثها عن أبيه، فضلاً عن اهتمامه بالعلوم الدينية [854] ، ونستنتج من ذلك واستناداً إلى ما تقدم أن المرحلة التي عاش فيها صلاح الدين في الشام، وقبل أن يتبوء منصباً عسكرياً مهما، كان يراقب التطورات السياسية والعسكرية الموجودة على الساحة الإسلامية وأبرزها الصراع مع الصليبيين واعتماد نور الدين على والده وعمه شيركوه وكان لابد أن يتأثر بهذه الأحداث وإن لم يشارك فيها، ولابد أيضاً أن ينمو لديه شعور يحتم عليه أن يعد نفسه للمستقبل ولاسيما للمناصب المتقدمة في الدولة [855] ، ويمكن القول أن صلاح الدين نشأ وتربى بين أحضان أسرته، وأخذ عن أبيه نجم الدين براعته في السياسة واكتسب من عمه شيركوه شجاعته في الحروب، فنشأ متشبعاً بالدهاء السياسي والروح الحربية، كما تعلم علوم عصره فحفظ القرآن ودرس الفقه والحديث، وتتلمذ على أيدي كبار العلماء وأساتذة منطقة الشام والجزيرة منهم الشيخ قطب الدين النيسابوري [856] ، وقد تأثر صلاح الدين بالسلطان نور الدين محمود الذي قدّم النموذج الرائع للإخلاص المتفاني والشعور الحادّ بالمسؤولية الدينية وتعلم منه الإخلاص والفداء وكيف يناجي ربه في صلوات خاصة في محاربه يأخذ منها زاده القوي على الجهاد، وورث عنه قيادة المشروع الإسلامي وتعلم منه كيفية التصدي للمد الشيعي الرافضي، والغزو الصليبي وقد بينت ذلك مفصلاً في كتابي عن الدولة الزنكية وسيرة نور الدين محمود الشهيد.

لقد درج صلاح الدين على طريق العز، ونشأ على الفروسية، وتدرب على الحرب والجهاد ومارس السياسة وتدبير الأمور، وكما يقول الشاعر:

وينشـــــــأ ناشـــــــئ الفتيـــــــات فينـــــا
علـــــى مـــــا كـــــان عـــــوده أبـــــوه

---

[853] الشرق الأدنى في العصور الوسطى ص 54.

[854] الفكر السوقي الأيوبي ص 83.

[855] المصدر نفسه ص 84.

[856] القدس تاريخ وحضارة عبلة المهتدي ص 182.

وفي المدة التي قضاها في دمشق بعد استيلاء نور الدين بن عماد الدين زنكي عليها ظهرت شخصية صلاح الدين الفذة، فكان محل احترام وتقدير، بل كان له من الاعتبار والمكانة ما لابن حاكم دمشق نفسه، وقد ظهر أمام المجتمع بمظهر الشاب الهادئ المهذب المتدين، المتقد غيرة على الإسلام والمسلمين بما طبع في نفسه من أخلاق نور الدين الذي أنزله لديه منزلة خاصة، ومن المناصب التي أسندت إليه في دمشق — في عهد نور الدين — منصب رئاسة الشرطة وقد قام بهذا المنصب أحسن قيام، واستطاع أن يطهر دمشق من عبث اللصوص، ومن شرور المفسدين، فأعاد الأمن والاستقرار في ربوع الشام، وبات الناس يأمنون على أنفسهم وأموالهم وينعمون بنعمة الحياة الهادئة المطمئنة الكريمة، ولعل حسان بن نمير المعروف "بعرقلة" الدمشقي يوضح في فرحته بيوسف صلاح الدين لتسلمه رئاسة شرطة بلده، وذلك حيث يقول :

رويـــــــــدكم يا لصـــــــــوص الشـــــــام
فـــــــإني لكـــــــم ناصـــــــح في المقـــــــال

أتاكـــــــم سمـــــــي النـــــــبي الكـــــــريم
يوســـــــف رب الحجـــــــا والجمـــــــال

فـــــــذاك يقطـــــــع أيـــــــدي النســـــــاء
وهـــــــذا يقطـــــــع أيـــــــدي الرجـــــــال [857]

وأما المدة التي قضاها صلاح الدين في مصر فتعد من أعظم الأيام التي أظهرت بطولته الفائقة وحنكته الحربية النادرة، فقد لازم عمه أسد الدين شيركوه في حملاته الثلاثة على مصر، وكان من ضمن رجاله الأفذاذ، فقد أظهر البراعة العظيمة والعبقرية الفذة في فنون الحرب والقتال، فبتدبيره وذكائه وحسن تصرفه استطاع مع عمه أسد الدين أن يضم مصر إلى الدولة النورية بعد تخليص الشعب المصري العظيم من براثين الدولة الفاطمية الشيعية الرافضية، وتلخص مما تقدم أن صلاح الدين نشأ في السنين الأولى من طفولته، وفي العقد الثاني والثالث من شبابه على الفضائل الكريمة، والخصال الحميدة، واكتسب في مجالسته للأمراء، ومن مصاحبته للقادة العادات الأصيلة، والمهارة الحربية، والغيرة الإسلامية، والشجاعة المادية والأدبية وهذا ما أهله — باستحقاق وجدارة [858] — لأن يكون من الشخصيات الفذة التي هزت الدنيا وساهمت في صناعة حقبة مهمة من التاريخ الإسلامي العظيم.

---

[857] صلاح الدين، عبد الله علوان ص 22.

[858] صلاح الدين، علوان ص 23.

رابعاً: متى بدأت الدولة الأيوبية: يختلف المؤرخون حول تاريخ ابتداء الدولة الأيوبية، فالبعض يجعله منذ تولي صلاح الدين الأيوبي الوزارة من الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله سنة 564هـ/1169م [859]، والبعض الآخر يجعله مع إعادة الخطبة في مصر للخليفة العباسي التي تلاها وفاة العاضد لدين الله وانتهاء الخلافة الفاطمية 567هـ/1171م، صحيح أن سلطة صلاح الدين بدأت منذ تولية الوزارة، ليدعمها بخطوة القضاء على الدولة الفاطمية، لكنه من الناحية الشرعية كان لا يزال تابعاً لسلطة نور الدين محمود الذي ما لبث وأن توفي سنة 569هـ/1174م، ولذلك فإن سنة الوفاة هذه هي برأينا تاريخ ابتدأ الدولة الأيوبية التي اعترف بها الخليفة العباسي المستضيء بالله سنة 570هـ/1175م [860].

المبحث الثاني : الرصيد الخلقي لصلاح الدين:

تميزت شخصية السلطان صلاح الدين الأيوبي برصيد أخلاقي كبير ساعده على تحقيق أهدافه العظيمة والتي من أهمها؛ الشجاعة، والكرم، والوفاء والتسامح، والحلم، والعدل والعفو، والمروءة، وشدة لجوه إلى الله، ومحبته للجهاد، وصبره واحتسابه، وحرصه على العلم، والتواضع .. إلخ. وإليكم أظهر هذه الصفات وأميز هذه الأخلاق:

أولاً: تقواه وعبادته: قال تعالى : " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا ...) (الأعراف، : 96) وتقوى الله وتحقيق العبودية الشاملة لله تحفظ العبد من كيد الأعداء ومكرهم قال تعالى : "وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط" (آل عمران، 120)، ولا شك أن تقوى الله وعبادته والخشية منه، وحسن الظن به والاعتماد عليه هي أول ما يجب أن يمتاز به المسلم، وأفضل ما ينبغي أن يتصف به، لئن ذلك يجعل المسلم أسداً كاسراً لا يعرف الهزيمة، وبطلاً مقداماً لا يهاب المنية، وشجاعاً كراراً لا يخشى جباراً، ولا يهاب عدواً، وهذه السمة من الإيمان والعبادة قد تحققت في القائد البطل صلاح الدين [861]، وإليكم ما كتبه القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد الذي عاصره اجتمع به وعرف أخباره، فحدثنا عن ما رأى:

---

[859] السلاطين في المشرق العربي د.عصام شبارو، الأيوبيون ص 139.

[860] المصدر نفسه ص 140.

[861] صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرّر القدس، علوان ص 139.

1. **عقيدتـه:** وكـان رحمـه الله – حسـن العقيـدة، كثـير الـذكّر لله تعـالى، قـد أخـذ عقيدتـه عـن الـدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، فتحصَّل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التَّشبيه، غير مارق سهم النظَّر فيها إلى التَّعطيل والتَّمويه، جارية على نمط الاستقامة، موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند أكابر العلماء، وكان – رحمه الله – قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدِّين النَّيسـابوري – رحمـه الله – عقيـدة تجمـع جميـع مـا يحتـاج إليـه في هـذا البـاب، وكـان مـن شـدة حرصـه عليهـا يعلمَّهـا الصَّـغار مـن أولاده حـتى ترسـخ في أذهـانهم في الصّـغر، ورأيتـه وهـو يأخـذ علـيهم وهـم يقرؤونها من حفظهم بين يديه، رحمه الله.
2. **الصلاة:** وأما الصلاة : فإنه – رحمه الله –كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صليّ إلا جماعة، وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده ويكلّف نفسه القيام، ويصليّ جماعة، وكان يواظب على السنّن الرَّواتب، وكان له ركعات يصليها إذا استيقظ بوقت في الليل، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبُّح، وما كان يترك الصُّلاة ما دام عقله عليه، ولقد رأيته – قَّدس الله روحه – يصلّي في مرضه الذي مات فيه قائماً، وما ترك الصلاة إلا في أيام الثلاثة التي تغيّب فيها ذهنه وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلّى [862].
3. **الزكاة:** وأما الزكاة، فإنه مات – رحمه الله تعالى – ولم يحفظ ما وجبت به عليه من الزكاة وأما صدقة النَّقل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال، فإنه مَلَك ما ملك ومات ولم يخلّف في خزانته من الذَّهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وجُرماً واحداً ذهباً صُورياً، ولم يخلفَّ مُلكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك، رحمة الله عليه.
4. **صوم رمضان:** فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعَّددة، وكان القاضـي الفاضـل قـد تـولّى ثبـت تلـك الأيام، وشـرع – رحمـه الله – في قضـاء تلـك الفوائـت ذلـك بالقدس الشَّريف في السّنة التي توفي فيها، وواظب على الصَّوم مقداراً زائداً على شهر، فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراض ومُلازمة الجهاد عن قضائها وكان الصَّوم لا يوافق مزاجه، فألهمه الله تعـالى الصَّـوم بقضـاء الفوائـت [863] فكـان يصـوم وأنا أُثبـتُ الأيام الـتي يصـومها، لأن القاضـي كـان

---

[862] سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ابن شداد ص 58.

[863] المصدر نفسه ص 59.

غائباً، والطبيب يلومه وهو لا يسمع، ويقول : (لا أعلم ما يكون) فكأنه كان مُلهماً ببراءة ذمته – رحمة الله عليه – ولم يزل حتى قضى ما كان عليه[864].

5. **وأما الحج :** فإنه كان لم يزل عازماً عليه، وناوياً له، سيما في العام الذي توفي فيه، فإنه صَّمم العزم عليه، وأمر بالتأهب وعُملت الرِّفادة ولم يبق إلا المسير، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت، وفراغ اليد عما يليق بأمثاله، فأخَّره إلى العام المستقبل، فقضى الله ما قضى، وهذا شيء اشترك في العلم به الخاصُّ والعام [865] .

6. **سماعة للقرآن الكريم:** وكان رحمه الله – يحب سماع القرآن العظيم، حتى أنه كان يستخير، إمامه، ويشترط أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم، متقناً لحفظه وكان يستقرئ من يحضره في الليل وهو في بُرجه [866] – الجُزئين والثلاثة والأربعة وهو يسمع وكان يستقريء – في مجلسه العام – من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته فقَّربه، وجعل له حظاً من خاصِّ طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جُزءاً من مزرعة، وكان – رحمه الله تعالى – رقيق القلب، غزير الدمعة، إذا سمع القرآن يخشع قلبُه، وتدمع عينه في معظم أوقاته [867] .

7. **سماعه للحديث الشريف:** كان – رحمه الله تعالى – شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممّن يحضر عنده استحضره وسمع عليه، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه، والمختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له؛ وإن كان ذلك الشيخ مَّمن لا يطرق أبواب السَّلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سَعى إليه وسمع عليه، تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية – حرسها الله تعالى – وروى عنه أحاديث كثيرة وكان رحمه الله – يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، وكان يستحضرُني في خلوته، ويحضر شيئاً من كتب الحديث، ويقرأ هو، فإذا مّر بحديث فيه عبرة رقَّ قلبه ودمعت عينه [868].

---

[864] المصدر نفسه ص 59.

[865] سيرة الناصر صلاح الدين لابن شداد ص 59.

[866] المصدر نفسه ص 59.

[867] المصدر نفسه ص 60.

[868] المصدر نفسه ص 61.

8. **تعظيمه لشعائر الدِّين:** وكان – رحمة الله عليه –كثير التعظيم لشعائر الدين، قائلاً ببعث الأجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنّة والمسيء بالنار، مصّدقاً بجميع ما وردت به الشرائع، منشرحاً بذلك صدره مبغضاً للفلاسقة والمعطِّلة، والدَّهرية ومن يعاند الشّريعة. ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر، بقتل شاب نشأ كان يقال له السَّهروردي، قيل عنه إنه كان معانداً للشرائع ومبُطلاً وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره، وعرَّف السُّلطان به، فأمر بقتله وصلبه أياماً فقتله.

9. **حسن ظنه بالله:** وقال ابن شداد : وكان – قدس الله روحه – حسن الظن بالله، كثير الاعتماد عليه، عظيم الإنابة إليه، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه: وذلك أن الفرنج – خذلهم الله – كانوا نازلين ببيت نوبة، وهو موضع قريب من القدس الشريف – حرسها الله تعالى – يكون بينها بعض مرحلة وكان السلطان بالقُدس، وقد أقام يَزَكاً [869] على العدو محيطاً به، وقد سير إليهم الجواسيس والمخُبرين، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصُّعود إلى القدس ومحاصرته، وترتيب القتال عليه، واشتد خوف المسلمين بسبب ذلك فاستحضر الأمراء وعرَّفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة، وشاورهم في الإقامة بالقدس، فأتوا بمجاملة باطنها غيرُ ظاهرها، وأصّر الجميع أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه، فإنها مخاطرة بالإسلام وذكروا أنهم يقيمون هم، ويخرج هو – رحمه الله – بطائفة من العسكر يكون حول العدوّ كما كان الحال بعكّا، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدَّفع عنه وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصُّر على أن يقيم بنفسه، علماً منه إن لم يُقم ما يقيم أحد. فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء من عندهم من أخبر أنهم لايقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذين يأتمرون بأمره، فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة، وضاق صدره، وتقسّم فكره، واشتّدت فكرته. ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة – وكان الزمان شتاء، وليس معنا ثالث إلا الله تعالى، ونحن نُقسَّم أقساماً ونرتِّب على كل قسم مقتضاه، حتى أخذني الإشفاق عليه، والخوف على مزاجه فإنه كان يغلب عليه اليُبس [870] ، فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة، فقال رحمه الله – : لعلك جاءك النوم ؟ ثم نهض، فما وصلت إلى بيتي وأخذت لبعض شأني إلا وأذّن المؤذن، وطلع الصبح، وكنت أصلّي معه الصبح في معظم الوقت، فدخلت عليه، وهو يمُّر الماء

---

[869] سيرة السلطان الناصر صلاح الدين 61 . يَزَكَاً : طلائع.

[870] يبدو أن صلاح الدين كان يعاني من ارتفاع ضغط الدم الشرياني.

على أطرافه، فقال: ما أخذني النو أصلاً، فقلت : قد علمتُ، فقال: من أين ؟ فقلت: لأني ما نمت، وما بقي وقت للنوم، ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه، فقلت له: قد وقع لي واقع وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى، فقال : وما هو ؟ فقلت له : الإخلاد إلى الله تعالى والإنابة إليه، والاعتماد في كشف هذه الغُمَّة عليه فقال : وكيف نصنع ؟ فقلت : اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرَّواح، ويصلي على العادة وبالأقصى، موضع مَسْر النبي صلى الله عليه وسلم – ويقدَّم المولى التصُّدق بشيء خفية على يد من يَثِق به ويصلِّي المولى ركعتين بين الأذان والإقامة، ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح، وتقول في باطنك : يا إلهي، قد انقطعت أسبابي الأرضية في نُصرة دينك، ولم يبقَ إلا الإخلاد إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل، فإن الله أكرم من أن يخّيب قصدك، ففعل ذلك كله، وصليت إلى جانبه على العادة، وصلّى الركعتين بين الأذان والإقامة، ورأيته ساجداً، ودموعه تتقاطر على شيبته وعلى سّجادته، ولا أسمع ما يقول. فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جُرْدِيك – وكان على اليَزَك – يُخبر فيها أن الفرنج مختبطون، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء، ووقفوا إلى قائم الظهيرة، ثم عادوا إلى خيامهم. وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك. ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا، فذهبت الفرنسيسّية [871] إلى أنهم لابّد لهم من محاصرة القدس، وذهب الأنكتار [872] وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم في هذا الجبل مع عُدْم المياه فإن السُّلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه وأنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهر الخيل، وأنهم قد نصُّوا على عشرة أنفس منهم وحكّموهم فبأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم ولما كانت بُكرة الاثنين جاء البشير يخُبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرَّملة، فهذا ما شاهدته من آثار استنابته وإخلاده إلى الله تعالى، رحمه الله [873].

ثانياً: عدله: قال تعالى : "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" (النحل، آية:90) وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه قال تعالى : "يا أيها الذين ءامنوا كونوا قّوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلُوُا أو تعرضوا فإن الله

---

[871] أي الصَّليبيون اللاتين من الفرنسيين، الذين تألفت منهم غالباً الحملتان الصَّليبيتان الأولى والثانية.

[872] المقصود بالأنكتار الملك ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلتر.

[873] سيرة السلطان صلاح الدين لابن شداد ص 64.

كان بما تعلمون خبيراً " (النساء: 135). وقد كانت صفة العدل من أبرز صفات صلاح الدين الأيوبي القيادية، وكان يؤمن بأن العدل أحد نواميس الله في كونه وكان يقينه بأن العدل ثمرة من ثمرات الإيمان وكان تعلم ذلك من استاذه الكبير الذي جّدد معلم العدل وسار عليه صلاح الدين السلطان نور الدين محمود زنكي، فقد كان صلاح الدين عادلاً، ناصراً للضعيف على القوي وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة، وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً، على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لما يعرض عليه من القصص، كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم وكان يجمع القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل، ولم يردّ قاصداً للحوادث والحكومات، ثم يجلس مع الكاتب ساعة، إما في الليل أو النهار، ويوقّع على كل قصة بما يُطلق الله على قلبه، ولم يردّ قاصداً أبداً ولا منتحلاً وطالب حاجة، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة، ولقد كان رؤوفاً بالرعيّة، ناصراً للدين، مواظباً على تلاوة القرآن العزيز، عالماً بما فيه، عاملاً به، لا يعدوه أبداً، رحمة الله عليه، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته، وكشف ظلامته، وأخذ قصته، ولقد اشتغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له: ابن زُهير على تقي الدين – ابن أخيه – فأنفذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم، فما خلصَّه إلى أن أشهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول أنه وكّل القاضي أبا القاسم أمين الدين – قاضي حماة – في المخاصمة والمنازعة، فحضر الشاهدان، وأقاما الشهادة بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة، وإنكار الخصم [874] ، قال القاضي ابن شداد. فلما ثبتت الوكالة أمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه – وكان من خواص السلطان – رحمه الله – ثم جرت المحاكمة بينهما، واتجهت اليمين على تقي الدَّين، وانقضى المجلس على ذلك، وقطعنا عن إحضاره دخول الليل، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه، وأعظمهم عنده، ولكنه لم يُحابه في الحق [875] . ومما يدل على عدله أنه كان يقف بجانب خصمه أمام القضاء دون أن يرى في ذلك حرجاً أو غضاضة لأن الحق في نظره أحق أن يتّبع، وقد حدث أن أدعى تاجر يدعى (عمر الخلاطي) على صلاح الدين أنه أخذ منه أحد مماليكه ويدعى "سنقر" واستولى على ما كان لهذا المملوك من ثروة طائلة بدون وجه حق، وعندما تقدم التاجر المدعي بظلامته إلى القاضي ابن شداد، أظهر صلاح الدين حلماً كبيراً ورضي أن يقف موقف الخصم من صاحب الدعوى، وأحضر كلٌّ من الطرفين من لديه من شهود وما لديه من أدلة يثبت بها رأيه، حتى اتضح في النهاية – عند القاضي كذب الرجل وإدعاءه الباطل على صلاح الدين ومع كل هذا رفض صلاح الدين أن يترك

[874] سيرة السلطان الناصر لابن شداد ص 66.

[875] المصدر نفسه ص 66.

المدعي يخرج من عنده خائباً فأمر له بخلعة ومبلغ من المال ليدلل على كرمه في مواضع المؤاخذة مع القدرة [876] ومما يدل على عدله سهره على مصالح الرعية إزالته بعض المكوس والضرائب تخفيفاً عن الناس، ورفعاً للظلم عن كواهلهم وقد ذكر ابن جبير من مناقب صلاح الدين وآثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا وأنه أزال كثيراً من المكوس والضرائب التي كانت مفروضة على الناس على كل ما يباع ويشترى مما دقّ أو جلّ، حتى كان يؤدى على شرب ماء النيل المكس، فألغى صلاح الدين هذا كله [877] ، وقد كانت هناك ضريبة قدرها سبعة دنانير ونصف تفرض على كل حاج في طريقه إلى الحجاز لتعمير مكة والمدينة، ومساعدة الناس هناك وقد اشتطّ الفاطميون في جمع هذه الضرائب، ومن يعجز عن دفعها يعذب عذاباً أليماً، ولكن صلاح الدين ألغى ذلك المكس، واستعاض عنه معونة مالية تعادل قيمة ما يؤخذ من الحجاج تدفع كل عام لأهل الحجاز، وبذلك أراح الحجاج من عنت الجباة، ولاسيما أن نسبة كبيرة منهم كانوا فقراء لايستطيعون دفع ما يؤخذ منهم، فكفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطاباً أليما [878] ، إن العدل أشرف أوصاف الملك وأقوم لدولته، لأنه يبعث على الطاعة ويدعو إلى الألفة، وبه تصلح الأعمال وتنمي الأموال وتنتعش الرعية وتكمل المزّية وقد ندب الله عز وجل الخلق إليه وحثهم عليه [879].

ثالثاً: شجاعته: إن الشجاعة من أحمد الأوصاف التي يلزم الملك أن يتصف بها ضرورة وأن تكون له طبعاً فيتطبع بها ليحسم بهيبته مواد الأطماع المتعلقة بقلوب نظرائه، ويحصل منه حماية (البيضة ورعاية) المملكة والذب عن الرعية [880]، ولقد كان صلاح الدين – من عظماء الشجعان، قويَّ النفس، شديد البأس عظيم الثبات، لا يهوله أمر، ولقد رأيته – رحمه الله – مرابطاً في مقابلة عِّدة عظيمة من الفرنج، ونُجُدُهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيّف وسبعون مركباً على عكّا وأنا أعّدها من بعدة صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لا يزداد إلا قّوة نفس، ولقد كان – رحمه الله – يعطي دستوراً في أوائل ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدّتهم الكثيرة، يقول ابن شّداد وقد سألت باليان بن بارزان، وهو من كبار ملوك الساحل – وهو جالس بين يديه، رحمه الله، يوم انعقاد الصلح – عن عِدتّهم، فقال الترجمان عنه إنه يقول : كنت وصاحب صَيْدا – وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم –

---

876 المصدر نفسه ص 69، صلاح الدين، علوان ص 143.

877 رحلة ابن جبير نقلاً عن صلاح الدين، علوان ص 143.

878 المصدر نفسه، صلاح الدين صلا 144.

879 النهج المسلوك في سياسة الملوك ص 103.

880 المصدر نفسه ص 103.

قاصدين عسكرنا من صُوْر، فلّما أشرفنا عليه تحازرناه، فحزره هو بخمسمائة ألف، وحزرتهم أنا بستمائة ألف، أو قال عكس ذلك، فقلتُ: فكم هلك منهم ؟ فقال: أما بالقتل فقريب من مائة ألف، وأما بالموت والغرق فلا نعلم، وما رجع من هذا العالم إلا الأقل، وكان لابدّ له من أن يطوف حول العدوّ في كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم، وكان صلاح الدين، إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفيّن ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويرتّب الأطلاب، ويأمرهم بالتقدّم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدوّ ويجاوره [881] ، قال ابن شّداد : ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين وذلك أني قلت له: قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشَّريفة ولم يُنْقل أنه سمع بين الصفّين، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً، فأذن في ذلك، فأحضر جزءٌ وهناك أحضر من له به سماع، فقُرئ عليه ونحن على ظهور الّدواب بين الصفّين، ونمشي تارة، ونقف أخرى، وما رأيته استكثر العدو أصلاً، ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير، يذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدَّة ولا غضب يعتريه، رحمه الله، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ الأكبر بمرج عكّا، حتى القلب ورجاله، ووقع الكُوس [882] والعَلَم [883] وهو – رضي الله عنه – ثابت القدم في نفر يسير قد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردَّهم ويخجَّلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى نُصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس [884]، ولم يزل مصابراً لهم، وهم في العدة الوافرة، إلى أن ظهر له ضعفُ المسلمين، فصالح وهو مسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النُّجد، ونحن لا نتوقعها، وكانت المصلحة في الصُّلح، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية والأقدار ما كان في مكنونها [885] .

رابعاً: كرمـه: والكرم لباب الأخلاق الفاضلة، ومدارج الفضيلة وُصِفَت الأخلاق به وشرفت بالانتساب إليه من باب إضافة الصَّفة للموصوف، فكُلُّ شيء يشرف في بابه يوصف به [886] ، وعن أنس رضي الله

[881] سيرة السلطان الناصر صلاح الدين لابن شداد ص 73.

[882] الكُوس: ضوجات من نحاس شبه الترس الصغير.

[883] كان العلم السلطاني الخاص بصلاح الدين أصفر وفي وسطه رسُم نسر أحمر.

[884] المصدر نفسه.

[885] سيرة الناصر صلاح الدين، لابن شداد ص 74.

[886] الأخلاق بين الطبع والتطبيع ص 157.

عنه قال : كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم : أحسن النَّاس، وأجود الناس، وأشجع النَّاس(887) ، وعن جابر رضي الله عنه قال: ما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء – قَطُّ. فقال : لا (888) . وقال الشافعي :

وإن كثـــــــرت عيوبـــــــك في الـــــــبرايا
وسّـــــــرك أن يكـــــون لهـــــا غِطـــــاء

تســـــتر بالسَّــــخَاء فكـــــل عَيْـــــبِ
يُغَطيـــــه، كمـــــا قيـــــل السَّـــخاء (889)

ولقد كان كرم السلطان صلاح الدين الأيوبي أظهر من أن يُسطّر، وأشهر من أن يُذكر، لكن نُنَبَّه عليه جملة، وذلك أنه مَلَكَ ما مَلَك ومات، ولم يوجد في خزائنه من الفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصرية، ومن الذهب إلا جُرم واحدي صُوْري (890) وقد اشتهر صلاح الدين بالكرم ووزع ما احتوته قصور الفاطميين من جواهر وأموال على أمرائه وأصحابه، ولم يحتفظ لنفسه بشيء، وكان يهب الأقاليم، فعندما فتح آمد طلبها منه قرأ أرسلان، فأعطاها إياه (891) . يُعطي في وقت الشدة كما يُعطي في وقت السعة. وقال مرة وهو يُعبِّر عن كرمه: والله لو وُهِبَتْ الدنيا للقاصد الآمل، لما كنت استكثرها له، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي، لما كان عوضاً مما أراقه من حُرَّ ماء وجهه في استمناحه إياي (892).

وكان من شدة كرمه: أنه إذا علم أن في خزائنه مالاً، لا يستطيب تلك الليلة حتى يفَّرق هذا المال جوداً، وإذا منح إنساناً مالاً ثم قيل له إن هذا القدر لا يكفيه زاده الضعف (893) ولا يرى شيخاً إلا ويرق له ويعطيه

887البخاري رقم 3040.

888البخاري رقم 6034.

889الأخلاق بين الطبع والتطبيع ص 159.

890سيرة الناصر صلاح الدين لابن شداد ص 70.

891سيرة الناصر صلاح الدين ص 70.

892تاريخ الأيوبيين في مصر، محمد سهيل طقوش ص 221.

893تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 221.

ويحسن إليه، وما أُحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على والديه، وجبر قلبه ومصابه، وأعطاه، وإن كان له من أهله كبيرة يعتمد عليه سلّمه إليه، وإلا أبقى له من الخير ما يكفي حاجته، وسلمّه إلى من يعتني بتربيته ويكفلها. وقد وصف العماد الأصفهاني كرمه فقال : كان بإخراج ما يدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرماً. وكان يجود بالمال قبل الحصول ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول، فإذا عرف بالوصول حمل، وقع عليه، بأضعافه، ولاجيه أحد بالرد إذا سأله، بل يلطف له كأنه استمهله ويقول ما عندنا شيء الساعة [894] . ويعطي فوق ما يؤمِّل الطالب، ويبسط وجهه للمعطي بسط من لم يعطه شيئاً [895] ، وقد قُدَّر ما وهبه من الخيل للحاضرين معه في الجهاد مدة ثلاث سنين، منذ أن نزل الفرنج على عكا في رجب سنة 585هـ إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة 588هـ، باثني عشر ألف رأس من حصان وحجر [896] ، وإكديش طمر [897] . ويعلقّ ابن شداد على ذلك بقوله : ومن شاهد عطاياه يستقل هذا القدر. هذا بالإضافة إلى ما كان يطلقه من المال من أثمان الخيل المصابة في القتال، لأنه ما عُقر في سبيل الله فرس أو جُرح إلا وعوَّض مالكه بمثله، ولم يكن له فرس يركبه غلا وهو موهوب أو موعود به، وصاحبه ملازم في طلبه [898] . وقد توفي ولم يحفظ عنده ما يجب فيه الزكاة، لأن صدقة التطوع استنزفت جميع ما ملكه من الأموال. وقد ملك ما ملك ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً، وديناراً واحداً ذهباً، ولم يخلف داراً ولا عقاراً، ولابستاناً، ولا قرية، ولا مزرعة، ولا شيئاً من أنواع الأملاك وهذا دليل واضح على شدة كرمه [899] وقال القاضي ابن شداد: وسمعت منه يوماً يقول في معرض حديث جرى: يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كمن ينظر في التُّراب، فكأنه أراد بذلك نفسه [900] .

خامساً: اهتمامه بالجهاد: كان صلاح الدين شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد لصدق وبرّ في يمينه، ولقد كان الجهاد وحبّه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان

---

[894] الفتح القسي في الفتح القدسي ص 629.

[895] سيرة السلطان الناصر ص 49 لابن شداد.

[896] حجر : الأنثى من الخيل.

[897] الطمر: الفرس الجواد الطويل القوائم الخفيف أو المستعد للعدو.

[898] تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 222.

[899] تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 222.

[900] سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ص 71.

له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا على من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه [901] ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريح على مرج عكا، فلو لم يكن من البرج وإلا قتلته، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً وكان الرّجل إذا أراد يتقرب إليه يحثّه على الجهاد أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد، ولقد أُلّف له كتب عّدة في الجهاد، قال ابن شداد: وأنا ممّن جمع له فيه كتاباً جمعتُ فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث رُوي فيه، وشرحتُ غريبها؛ وكان كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل وقال ولأحكين عنه ما سمعته منه: وذلك أنه كان قد أخذ كوكب، في ذي القعدة، سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وأعطى العساكر دستوراً، وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر وكان مقَّدمه أخاه الملك العادل فسار معه ليودّعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف وسرنا في خدمته، ولما صلّى العيد في القدس وقع له أنه يمضي معهم إلى عَسْقَلان ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق السّاحل يتفقد البلاد السّاحلية إلى عكّا، ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لا يفعل، فإن العساكر إذا فأرقتنا نبقى في عّدة يسيرة، والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت وودَّع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا في خدمته على السّاحل طالبين عكّا، وكان الزمان شتاءً عظيماً والبحر هائجاً هيجاناً شديداً، وموجه كالجبال كما قال الله تعالى وكنت حديثَ عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خُيَّل إلي أنني لو قال لي قائل إن جُزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا، لما كنت أفعل واستسخفت رأي من ركب البحر رجاءً لكسب دينار أو درهم، واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتمّوجه فبينما أنا في ذلك إذ التفت إلي رحمه الله وقال: أما أحكي لك شيئاً ؟ قلت : بلى قال : في نفسي؛ أنه متى يسَّر الله تعالى فتح بقية السّاحل قسَّمتُ البلاد، وأوصيت وودَّعتُ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبّعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت. فعظمُ وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي، وقلت له : ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى، ولا أقوى نيّة منه في نُصرة دين الله. فقال: وكيف ؟ فقلت : أما الشجاعة فلأن مولان ما يهوله أمر هذا البحر وهوله، وأما نُصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم ... ثم قلت ما هذه إلا نية جميلة، ولكن المولى يُسيَّر في البحر العساكر، وهو سُور الإسلام ومنعته لا ينبغي له أن يخاطر بنفسه. فقال : أنا أستفتيك : ما أشرف الميتات ؟

---

[901] المصدر نفسه ص 76.

فقلت : الموت في سبيل الله. فقال غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات [902] ، ومن رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين وهو بالشام يريد الجهاد وطرد العدو من ديار المسلمين، ولكنّ أموراً عاقت صلاح الدين عن المبادرة إلى الجهاد فتألم السلطان لذلك ألماً شديداً، فكتب إليه القاضي الفاضل يخفف عنه وَقْعَ هذا الألم، ومما كتبه إليه: وأما تأسف المولى على أوقات ينقضي عاطلها من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، ويجّدد العوائق التي لا يُوصل إلى آخر حبلها فللمولى نيّة رِشده. أو ليس الله العالم بعبده، وهو سبحانه لا يَسْأل الفاعل عن تمام فِعْله لأنه غير مقدور له، ولكن عن النية لأنَّها محلُ تكليفِ الطاعةِ، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة وإذا كان المولى آخذاً في أسباب الجهاد وتنظيف الطُّرُق إلى المداد فهو في طاعة قد امتنَّ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أصل في نُجْح موعدها، والثواب على قدر مشقته، وإنما عَظُم الحج لأجل جهده وبعد شُقته؛ ولو أنَّ المولى فتح الفتوح العظام في أقلّ الأيام؛ وفصل القضية بين أهل الإسلام، وأعداء الإسلام؛ لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت، وصحائف البّر المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت [903] .

سادساً: حلمه : فالحلم أية حسن الخلق، وعنوان عُلُوَّ الهمة، فهو من أشرف الأخلاق، وأحقَّها بذوي الألباب، لما جعل الله فيه من الطُّمأنينة، والسَّكينة، والحلاوة وسلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد ورفعة النفس عن تشفيها بالانتقام؛ فلا ينبل الرَّجلُ حتى يكون متخلقاً بهذا الخلق العظيم [904] قال تعالى : "خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين " (الأعراف: 199).
وقال الشاعر:

صـــــــفوح عـــــــن الإجــــــــرام كأنــــــــه
مـــن العفـــو لم يعـــرف مـــن النـــاس مجرمـــاً
ولــــــيس يبــــــالي أن يكــــــون بــــــه الأذى
إذا مـــا الأذى لم يغشَـــى بالكـــره مســـلماً [905]

[902] سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ص 79.
[903] بيت المقدس والمسجد الأقصى، محمد سُرّاب ص 112.
[904] الأخلاق بين الطبع والتطبع ص 138.
[905] المصدر نفسه ص 140.

فقد كان السلطان صلاح الدين الأيوبي حليماً كثيراً ما يعفو عن أصحاب الذنوب، حسن الخلق صبوراً على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه، وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموزه – أي حذاء – فأخطأته ووصلت إلى السلطان ووقعت بالقرب منه فالتفت إلى الجهة الأخرى يتغافل عنها [906] ، وقال القاضي شهاب الدين : نفرت بغلتي يوماً من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت ركبته حتى أقلقته من الوجع وهو يبتسم، وكذلك سرق من خزانته كيسان من الذهب المصري وأبدلا بكيسين من الفلوس فلم يعمل للمباشرين سوى صرفهم [907] ، قال القاضي ابن شداد : ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الإفرنج إلى عكّا، وكان من عادته أن يركب في وقت الركوب. ثم ينزل، فيُمدُّ الطعام، ويأكل مع الناس ثم ينهض إلى خيمة خاصه له ينام فيها، ثم يستيقظ من منامه، ويصليّ، ويجلس خلوة وأنا في خدمته، نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه، ولقد قرأ عليَّ كتاباً مختصراً لسليم الرّازي [908] ، يشتمل على الأرباع الأربعة في الفقه، فنزل يوماً على عادته، ومُدَّ الطعام بين يديه، ثم عزم على النهوض، فقيل له : إن وقت الصلاة قد قرب، فعاد إلى الجلوس. وقال : نصليَّ وننام ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أُخلي المكان إلا ممّن لزم، فتقّدم إليه مملوك كبير محترم عنده، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجران، أخَّرها ساعة، فلم يفعل، وقّدم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده، وفتحها بحيث يقرأها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه فقال: رجل مُستحق فقال: يوّقع له المولى، ها هي . فقال: ليست الدّواة حاضرة الآن، وكان جالساً في باب الخَرْكاه [909] بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها، والدَّواة في صدرها، فقال له المخاطب : هذه الدواة في صدر الخَرْكَاه ! وليس لهذا المعنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير، فالتفت فرأى الدَّواة، فقال: والله لقد صَدَق. ثم امتّد على يده اليسرى، ومّد يده اليمنى فأحضرها، ووقع له، فقلت: قال الله تعالى في نبيه صلى الله عليه وسلم " وإنك لعلى خلق عظيم " وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق، فقال : ما ضَّرنا شيء، قضينا حاجته وحصل الثواب ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غاية الإحسان والحلم والله لا يضيع أجر المحسنين [910].

---

[906] الموسوعة الشاملة (449/24).

[907] الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (449/24).

[908] سيرة الناصر صلاح الدين ص 85.

[909] الخَرْكَاه : الخيمة الكبيرة الفارسية أو نوع من الخيام.

[910] سيرة الناصر صلاح الدين ص 86.

لقد كان صلاح الدين يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول وهذه حكاية يندر أن يُسطر مثلها: وذلك أنه كان قد اتجه أحد ملوك الإفرنج – خذلهم الله بيافا، فإن العسكر كان قد رحل عنهم، وبَعُدَ وتراجع إلى النّطرون، وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجّد وثلاث معتادة، وجرد العسكر ومضى إلى قيساريه يتلقّى نجدتهم، عساه يبلغ منها غرضاً، وعلم الإفرنج الذين كانوا بيافاً ذلك، وكان بها الأنكتار [911] ومعه جماعة، فجّهز معظم من كان عنده في الرّكب إلى قيسارية، خشية على النجدة أن يتم عليها أمر، وبقي الأنكتار في نفر يسير لعلمهم ببعده عنهم وبُعد العسكر، ولما وصل – صلاح الدين – إلى قَيْسَاريَّة، ورأى النجدة قد وصلت إلى البلد واحتمت به، وعلم أنه ما ينال منهم غرضه، سرى من ليلته من أول الليل إلى آخره حتى أتى يافا صباحاً، والأنكتار في سبعة عشر فارساً وتقدير ثلاثمائة راجل، نازلاً خارج البلد في خيمة له، فصبَّحه العسكر صباحاً، فركب الملعون، وكان شجاعاً باسلاً صاحب رأي في الحرب، وثبت بين يدي العسكر، ولم يدخلها البلد فاستدار العسكر الإسلامي، بهم إلا من جهة البلد، وتعبّى العسكر تعبية القتال. وأمر السُّلطان العسكر بالحملة انتهاز الفرصة، فأجابه بعض الأكراد الأمراء بكلام فيه خشونه، حاصلة، تعتّبُ، لعدم التوفير في إقطاعه، فعطف عنان فرسه كالمغُضبَ، لعلمه أنهم لا يعملون في ذلك اليوم شيئاً وتركهم وانصرف راجعاً، وأمر بخيمته التي كانت منصوبة أن قُلعت، وانقضّ الناس عن العدوّ، متيقّنين أن السلطان في ذلك اليوم ربما صلب وقتل جماعة ... ولم يزل السلطان – سائراً حتى نزل بيازور وهي مرحلة لطيفة، فضرُبت له خيمة لطيفة هنالك، ونزل بها، ونزل العسكر في منازلهم تحت صايوانات [912]، لطيفة كما جرت العادة في مثل ذلك الوقت، وما من الأمراء إلا من يرعد خيفة، ومن يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه. قال: ولم تحدّثني نفسي بالدخول عليه خيفة حتى استدعاني. قال : قد خلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة، فقال: أطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئاً. قال : فسُرّي عني ما كنت أجده، وطلبتُ الأمراء، فحضروا وهم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطُّمأنينة والأمن والسَّرور، وانصرفوا عنه على عزم الرحيل، كأن يجر شيءٌ أصلاً [913] ، ولم يكن حلمه – رحمه الله – قاصراً على أتباعه ورعيته وجنده، وإنما تعدى ذلك إلى الأعداء الذين كانوا يحاربونه ويحاربهم [914] ، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

---

[911] الأنكتار : المقصود الملك ريتشارد قلب الأسد.

[912] الصايوانات : مفرد صيوان –كلمة فارسية تعني القاء والخيمة.

[913] سيرة الناصر صلاح الدين ص 88.

[914] صلاح الدين الأيوبي، علوان ص 149.

سابعاً: محافظته على أسباب المروءة : فالمروءة : هي جِماع مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وكمال الرُّجولة، فهي تبعث على إجلال صاحبها، وامتلاء الأعين بمهابته وحقيقة المروءة قوة للنفس، مبدأ لصدور الأفعال الجميلة عنها، المستتبعة للمدح شرعاً، وعقلاً وعُرْفا [915]، وقال ابن القيم : وحقيقة المروءة: تجنُّبُ للدّنايا والرَّذائل من الأقوال، والأخلاق، والأعمال فمروة اللسان : حلاوته وطيبه، ولينه، واجتناء الثَّمار منه بسهولة ويسر، ومروءة الخلق: سعته وبسطه للحبيب والبغيض، ومروءة المال: الإصابة ببذله في مواقعة المحمودة عقلاً، وعُرفاً، وشرعاً، ومروءة الجاه: بذله للمُحتاج إليه. ومروءة الإحسان: تعجيله، وتيسيره وتوقيره وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه، فهذه مُرُوءَة البذل وأما مروءةُ الترك: فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة، والمماراة [916] .

قال الشاعر:

إني لتُطـــرِ بُـــني الخِـــلاَلُ [917]كريمـــة
طـــرب الغريـــب بأوبـــه وتـــلاق
وتَهُـــزّني ذِكـــرى المـــروءةِ والنَّـــدى
بـــين الشـــمائل هِـــزَّة المشـــتاق [918]

ولقد كان السلطان صلاح الدين كثير المروءة، نديَّ الوجه، كثير الحياء، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده، وما يخاطبه في شيء إلا وينجزه وكان يكرم الوافد

---

[915] التعريفات للجُرجاني ص 111.

[916] تهذيب مدارج السالكين (2/697 –699)

[917] الخلال : جمع خاَّة وهي الخَصْلةُ والصَّفة.

[918] .ديوان المروءة لأحَّمد بركات، الأخلاق بين الطبع والتطبع ص 196

عليه، وإن كان كافراً، يقول القاضي ابن شداد: ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صَيْدا بالنَّاصرة، فاحترمه وأكرمه، وأكل معه الطعام، ومع ذلك عرض عليه الإسلام فذكر له طرفاً من محاسنه وحثَّه عليه، وكان يُكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمَّن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه، ولقد مّر بنا سنة أربع وثمانين وخمسمائة رجل جمع بين العلم والتصّوف وكان من ذوي الاقتدار، وكان مشتغلاً بالعلم، وحجّ ووصل زائراً لبيت الله المقّدس. ولما قضى لبُانته منه، ورأى آثار السُّلطان فيه، وقع له زيارته، فوصل إلينا في العسكر المنصور، وما أحسست به إلا وقد دخل عليّ في الخيمة، فلقيتُه ورحبتُ به، وسألته عن سبب وصوله، فأخبرني بذلك وأنه يؤثر زيارة السُّلطان لما رأى من الآثار الحميدة الجميلة فعرَّفت السُّلطان تلك الليلة وصول هذا الرّجل، فاستحضره وروى عنه حديثاً، وشكره عن الإسلام وحثّه على الخير، ثم انصرفنا، وبات عندي في الخيمة، فلّما صلَّينا الصبح أخذ يودّعني فقَّبحت له المسير بدون وداع السُّلطان، فلم يلتفت ولم يَلوِ على ذلك. وقال : قضيتُ حاجتي منه، ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته، وانصرف من ساعته، ومضى على ذلك ليالٍ، فسأل السُّلطان عنه، فأخبرته بفعله، فظهر عليه آثار التعتّب، كيف لم أخبره برواحه، وقال : وكيف يطرقنا مثل هذا الرّجل وينصرف عنا من غير إحسان يمُّسه منا ؟ وشدد النكير علي في ذلك، فما وجدت بُدَّاً من أن أكتب كتاباً إلى محي الدين – قاضي دمشق –كلفته فيه السؤال عن حال الرّجل، وإيصال رقعة كتبتها إليه طيّ كتابي، وأخبرته فيها بإنكار السُّلطان رَوَاحه من غير اجتماعه به وحسنَّتُ له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك، فما أحسست به إلا وقد عاد إليّ، فكتبت رقعة وأعلمته بذلك، فكتب إلي يقول: تحضره معك ففعلت ذلك، فرحب به وانبسط معه واستوحش له، وأمسكه أياماً، ثم خلع عليه خلعة حسنة، وأعطاه مركوباً لائقاً وثياباً كثيرة، يحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأيامه[919] قال ابن شداد : ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي وقد هابه، بحيث ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع، فقال له الترجمان: من أي شيء تخاف؟ فأجرى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه، أيقنت أني ما أرى إلا الخير، فرق له، ومَّن عليه، وأطلقه [920] . ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج وقد وصل بعض اليَزَكيَّة [921] ، ومعه امرأة شديدة التحرُّق، كثيرة البُكاء، متواترة الدَّقَّ على صدرها، فقال اليَزَكي: إنّ هذه خرجت من عند الفرنج، وسألت الحضور بين يديك، وقد أتينا بها فأمر الترجمان أن يسألها عن قضّيتها،

---

[919] سيرة الناصر صلاح الدين ص 91.

[920] المصدر نفسه ص 91.

[921] طلائع الجيش.

فقالت: إن اللُّصوص المسلمين دخلوا البارحة إلى خيمتي، وسقوا ابنتي، وبتُّ البارحة أستغيث إلى بكرة النهار، فقيل لي: الملك هو رحيم. ونحن نُخُرجك إليه تطلبين ابنتك، فأخرجوني، وما أعرف ابنتي إلا منك فّرقَّ لها، ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب إلى سُوق العسكر، يسأن عن الصغيرة : من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه، فما كان إلا أن وقع نظرها عليهما، فخَّرت إلى الأرض تمَّرر وجهها في التراب، والناس يبكون على ما نالها، وترفع طرفها إلى السماء، ولا نعلم ما تقول : فُسلَّمت ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم [922] .

ولقد دخل عليه البْرْنس أرناط – صاحب الكَركَ مع ملك الإفرنج بالسّاحل لما أسرهما في وقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، والواقعة مشهوره تجيء مشروحة في موضعها – إن شاء الله تعالى – وكان قد أمر بإحضارها، وكان هذا أرناط اللعين كافراً لعيناً جبّاراً شديداً، وكان قد اجتازت به قافلة من مصر، حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة، فغدرها، وأخذها، ونكَّل بهم، وعذَّبهم، وأسكنهم المطامير والحُبوس الحرجة، وذكرّوه بحديث الهدنة، فقال: قولوا لمحمّدكم يخلّصكم، فلما بلغه – رحمه الله – ذلك عنه، نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه، فلما مكّن الله منه في ذلك اليوم، قوي عزمه على قتله – وفاءً بنذره – فأحضره مع الملك، فشكا الملك العطش، فأحضر له قدحاً من شراب، فشرب منه، ثم ناوله أرْنَاط، فقال السُّلطان للترجمان : قل للملك : أنت الذي سقيته، وأما أنا فما أسقيه من شرابي، وأطعمه من طعامي. فقال رحمه الله – أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لا أوذيه. ثم ضرب عنقه بيده وفاءً بنذره وأخذ عكّا، وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير، وأعطى كلاً منهم نفقة توصله إلى بلده وأهله [923] ، ويروى القاضي ابن شداد هذه القصة التي تنبئ عن تسامحه الكبير ومروءته النادرة يقول ابن شداد: لما مرض الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد – أكبر خصوم صلاح الدين – بعث إليه صلاح الدين ورقَّه عنه بأن أرسل إليه الفواكه والثلج، وكان الصليبيون يعجبون من هذا التسامح الكريم الصادر عن أعدائهم من المسلمين نحوهم [924] . لقد كان صلاح الدين حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طيِّب الفكاهة، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضره منه مالا يسمع من غيره، وكان حسن الخُلق يسأل

[922] سيرة الناصر صلاح الدين ص 92.

[923] المصدر نفسه 93.

[924] صلاح الدين الأيوبي، علوان ص 151.

الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلّبات أحواله وكان طاهر المجلس، لا يُذكر بين يديه أحد إلا بالخير وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير، طاهر اللسان، قال ابن شداد : فما رأيته ولع بشتم قط؛ وطاهر القلم، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قط [925] وكان حسن العهد والوفاء، فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفيه، وجبر قلبه، وأعطاه خبز مخلفه وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمّه إليه، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته، وسلّمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته، وكان ما يرى شيخاً إلا ويرقُّ له ويعطيه ويُحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله [926].

ثامناً : صبره واحتسابه: الصبر سيد الأخلاق، ورفيق الدَّرب والطريق إلى الإمامة في الدَّين، والفوز العظيم، وما من خُلقُ من الأخلاق الفاضلة إلاَّ وهو يرجع إلى الصبَّر، فالصبر أساس الأخلاق الحميدة، وبذر الخير، وجماع الأمر وأصل كلمة الصَّبر هي المنع والحسن، فالصبر حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكيَّ، والجوارح عن لطم الخدود، وشقَّ الجيوب وحقيقة الصبَّر، وخُلقٌ فاضل من أخلاق النفس يُمتنع به من فعل مالا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها [927] ، وقيل: الصبر : هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب [928] ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى: الصبَّر في كتابه العزيز في نيَّف وتسعين موطناً تدل على وجوبه، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبَّر، وجعلها ثمرة له، وجمع للصابرين بين أمور يجمعها لغيرهم قال تعالى : "أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون" (البقرة، آية : 157) وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشُّد بلاءً ؟ قال : الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل يُبتلى العبد على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلْباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّة ابتليَ على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة [929] .

وقال الشاعر:

اصـــــــبر قلــــــيلاً وكــــــن بالله معتصـــــــماً

---

[925] سيرة الناصر صلاح الدين ص 93.

[926] المصدر نفسه ص 93، 94.

[927] الأخلاق بين الطبع والتطبع ص 197.

[928] المصدر نفسه ص 197.

[929] صحيح الجامع للألباني (992/1) السلسلة الصحيحة رقم 143

لا تعجلـــــن، فــــإن العجـــــز بالعجـــــل

الصــــبر مثـــــلُ اسمـــــه في كـــــل نائبـــــة

لكـــــن عواقبــــه أحلــــى مــــن العَسَـــلِ (930)

وكان صلاح الدين رحمه الله صابراً على مُرَّ العيش وخشونته، مع القدرة التامة على غير ذلك، وكان مثلاً رائعاً في الصبر والاحتساب في ميادين الجهاد، وتلقى الصدمات، والمصائب يقول القاضي ابن شداد: ولقد رأيته، بمرج عكّا، وهو على غاية من مرض اعتراضه بسبب كثرة دمَاميل، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئاً على جانبه إذا كان في الخيمة، وامتنع من مدَّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يُفَّرق على الناس وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو، وقد رتّب الناس ميمنة وميسرة وقلباً تعبية القتال. وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شّدة الألم وقوّة ضَرَبان الّدمامل، وأنا أتعجب من ذلك، فيقول: إذا ركبتُ يزول عني ألمها حتى أنزل، وهذه عناية ربانية. ولقد مَرض – رحمه الله – ونحن على الخرّوبة وكان قد تأخر عن تلّ الحَجَل بسبب مرضه، فبلغ ذلك الفرنج، فخرجوا طمعاً في أن ينالوا من المسلمين شيئاً – بسبب مرضه، رحمه الله، وهي نوبة النهر، فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التلّ، فأمر هو – رحمه الله – بالثَّقْل حتى تجهز للرحيل، والتأخر إلى جهة النّاصرة، وكان عماد الدين صاحب سنجار متمرضاً أيضاً، فأذن له، حتى يتأخر مع الثَّقل، وأقام هو. ثم رحل العدوّ في اليوم الثاني يطلبنا، فركب على مَضَض، ورَتّب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب، وجعل طرف الميمنة الملك العادل، وطرف الميسرة تقي الدين، وجعل ولده الملك الظاهر في القلب والملك الأفضل، ونزل هو وراء القوم، وأوّل ما نزل من التلّ أحضر بين يديه إفرنجي قد أسر من القوم، فأمر بضرب عنقه، فضُرب عنقه بين يديه، بعد عرض الإسلام عليه وإبائه عنه، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح، ويتظلّل بمنديل على رأسه من شّدة وقع الشمس عليه، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً، ولم يزل كذلك حتى نزل العدّو برأس النهر، ونزل هو قبالتهم على تلَّ مطلَّ عليهم إلى أن دخل الليل، ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت إلى محال المصابرة، وأن يبيتوا تحت السَّلاح، وتأخر هو ونحن في خدمته، إلى قمة الجبل، فضربت له خيمة لطيفة، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى، وأحدقت بالعدو، ورحل العدو عائداً إلى

930 الأخلاق بين الطبع والتطبع ص 197.

خيامهم من الجانب الغربي من النهر، وضايقه المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة وفي ذلك اليوم قّدم أولاده بين يديه احتساباً : الملك الظاهر والملك الأفضل والملك الظافر، وجميع من حضر منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظن الرائي لها عن بُعد أن تحتها خَلْقاً عظيماً، وليس تحتها إلا واحد يُعّد بخلق عظيم، ولم يزل العدو سائراً والقتل يعمل فيهم، وكلما قتل منهم شخص دفنوه، وكلما جُرح منهم رجل حملوه، حتى لا يبقى بعدهم مَنْ يُعلم قتله وجرحه، وهم سائرون ونحن نشاهدهم، حتى اشتّد بهم الأمر، ونزلوا عند الجسر، وكان الإفرنج متى ما نزلوا إلى الأرض أيس المسلمون من بلوغ غرض منهم؛ لأنهم يحتمون في حالة النزول حماية عظيمة، وبقي في موضعه، والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدوّ إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه، وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية، فبتنا على ما بتنا عليه إلى الصباح من مضايقة العدوّ ورحل العدّو، وسار على مضض من القتل والقتال، حتى دنا إلى خيامه، وخرج إليه منها من أنجده حتى وصلوا إلى خيامهم، فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب، إلى أي غاية بلغ هذا الرجل [931] قال القاضي ابن شداد : ولقد رأيته – وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسّمى إسماعيل، فوقف على الكتاب ولم يُعرَّف أحداً ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه [932] ، ولقد رأيته ليلة على صَفَد وهو يحاصرها، وقد قال: لا ننام الليلة حتى تُنصب لنا خمسة مناجيق [933] ، ورتَّب لكل منجنيق قوماً يتولّون نصبه، وكنا طول الليل في خدمته – قَّدس الله روحه – في ألذّ فكاهة وأرغد عيشه، والرُّسُل تتواصل فتخبره بأن قد نُصب من المنجنيق الفلاني كذا، ومن المنجنيق الفلاني كذا، حتى أتى الصباح وقد فُرغ منها، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها، وكانت أطول الليالي وأشّدها برداً ومطراً، ولقد رأيته وقد وصل إليه خبر وفاة تقي الدين عمر – ابن أخيه – ونحن في مقابلة الإفرنج جريدة على الرَّمله، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام والناس تقف على ظهر إلى الصباح ونحن بالرّملة [934] ، والعدو بيازور، بيننا وبينها شوط فرس لا غير، فأحضر الملك العادل، ولعم الدَّين سُليمان ابن جندر وسابق الدَّين بن الدّاية، وعز الدين المقدَّم؛ وأمر بالناس فطُردوا من قريب من الخيمة، بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سَهْم، ثم أظهر الكتاب، ووقف عليه، وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا، من غير أن نعلم السبب ثم قال – رحمه الله

---

[931] سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ص 82.

[932] سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ص 83.

[933] آلة من خشب له دفّتان قائمتان بينهما سهم طويل.

[934] سيرة السلطان الناصر صلاح الدين ص 84.

والعبرة تخنقه: توفي تقي الدِّين [935] ، فاشتّد بكاؤه وبكاء الجماعة، ثم عدت إلى نفسي فقلت: استغفروا الله تعالى من هذه الحالة، وانظروا أين أنتم، فيم أنتم، وأعرضوا عما سواه [936] . فقال – رحمه الله – : نعم، أستغفر الله. وأخذ يكّررها، ثم قال : لا يعلم بهذا أحد، واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه، ثم استحضر الطعام وحضر الناس، ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدوّ إلى يافا، وعدنا نحن إلى النّطرون، وهو مقر ثقلنا [937] .

تاسعاً: الوفاء : والوفاء من الأوضاف العلية والشيم السنية، أمر الله تعالى الخلق به ومدحهم على فعله قال تعالى: " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود" (المائدة، آية : 1) وقال تعالى "يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شُّره مستطيراً" (الإنسان، آية : 7). قال الشاعر:

إذا قلت في شيء نعم فاتمه
فإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا تسترح وترح بها
لئلا يقول الناس إنك كاذب [938]

وكان صلاح الدين الأيوبي مضرب المثل في الوفاء بالعهود، وكان إذا عقد الصلح التزم به، وإذ عاهد وفّ بعهوده، وقد ذكر ابن واصل عن بطرك القدس حين خرج بعد استعاده صلاح الدين للمدينة ومعه من أموال البيع مالا يعلمه إلا الله تعالى كما يقول ابن واصل، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له صلاح، وحين قيل له خذ ما معه لتقوي به المسلمين، أجاب بقوله: لا أغدر به، ولم يأخذ منه إلا ما كان قد فرضه على كل رجل عادي من الفرنج وهو مبلغ عشرة دنانير ثم سيّر مع البطرك والذين خرجوا معه من المدينة من يحميهم ويوصلهم إلى مدينة صور، التي أصبحت معقل الفرنج ومكان تجمعهم بعد هزيمتهم في حطين واستعادة ما كانوا يسيطرون عليه من مدن ومواقع في بلاد الشام [939].

---

[935] المصدر نفسه ص 84.

[936] سير السلطان الناصر صلاح الدين ص 84.

[937] المصدر نفسه ص 84.

[938] النهج المسلوك في سياسة الملوك ص 117.

[939] مفرج الكروب (211/2) حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها ص 46.

عاشراً: التواضع: صفة من صفات عباد الرحمن قال الله تبارك وتعالى: "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً" (الفرقان، آية: 63) والتواضع علامة حب الله للعبد، كما قال الله سبحانه وتعالى "يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم" (المائدة، 54) قال ابن كثير هذه صفات المؤمنين الكُمَّل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليِّه، متعزَزاً على خصمه[940]، وقد اتصف السلطان صلاح الدين الأيوبي بصفة التواضع، وكان قريباً من الناس، كثير الاحتمال، والمداراة، لم يتكبَّر على أحد من أصحابه، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوبه وأصحابه، يسمع مع أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه، وكان بساطه يُداس عند التزاحم عليه لَعرض القصص، وهو لا يتأثر بذلك، ويذكر ابن شداد أنه نفرت بغلته يوماً من الجمال وهو راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يبتسم [941] وكان صلاح الدين قدوة حسنة لأتباعه، يبدأ العمل بنفسه ثم يدعو غيره للاقتداء به، وينُّم تصرفه هذا عن إدراك سليم، وما ذلك إلا لأنه فَهِمَ أن المكان الأسمي في أي مجتمع إنما هو للعاملين والعمل هو أسَاس التقييم للأفراد والجماعات، وهو محور كل العلاقات الاجتماعية، وبسبب هذا فقد أحبه الناس العامة منهم والخاصة، وتفانوا في خدمته والتعاطف معه وكانت هذه المحبة هي سر نجاحه، وقوته، لأن ما كسبه غيره باستعمال أساليب القسوة والترهيب، حصل عليه هو بالمحبة والتعاطف والسلوك السليم [942] وكان أصحابه، يتشبَّهون به، ويتسابقون إلى المعروف، كما قال تعالى : "ونزعنا ما في صدورهم من غِلَّ" (سورة الحجر، آية: 47)، فعندما قرَّر بناء سور القدس وحفر خندقه، تولى ذلك بنفسه، ونقل الأحجار على عاتقه، وتأسى به جميع الناس الفقهاء والأغنياء والأقرباء والضعفاء، فاحترمه الناس من أجل ذلك، وفي عام 587هـ/1191م، قدم معز الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم، إلى السلطان صلاح الدين، فأكرمه وزوَّجه بابنة أخيه العادل، ولما ركب صلاح الدين ليودعه ترجَّل معز الدين له، فترجَّل صلاح الدين، ولما ركب السلطان، عضده معز الدين وأركبه وكان علاء الدين بن عز الدين صاحب الموصل مع السلطان آنذاك، فسَّوى ثيابه أيضاً، فقال بعض الحاضرين هامساً وهو يتعجب من هذا الاحترام الشديد

---

940 تفسير ابن كثير (73/2).

941 النوادر السلطانية ص 63.

942 تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 225.

لصلاح الدين : ما تُبالي يا ابن أيوب أي موتة تموت، يُرَكَّبك ملك سلجوقي، وابن أتابك زنكي [943] وفهذا شيء موجز عن الرصيد الخلقي لمؤسس الدولة الأيوبية.

وقد اتصف صلاح الدين بمجموعة من الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة، من علو الهمة، والحزم، والإدارة القوية، والقدرة على حل المشكلات، وعلى التخطيط والتوجيه والتنظيم والمراقبة، وغير ذلك من الصفات، وبسبب ما أودع الله فيه من الصفات الربانية استطاع أن يوحد الشام والموصل ومصر، وغيرها من البلدان تحت زعامته وأن يحقق الانتصار الكبير على الصليبيين في حطين وأن يسترد بيت المقدس، فقد توجب جهوده الفذة بنتائج كبيرة على مستوى الفرد، والمجتمع، والدولة وأصبح مشروعه المقاوم للتغلغل الباطني والغزو الصليبي مناراً للعاملين على مجد الإسلام وقد كشف صلاح الدين يوماً عن مصدر قوته في حديثه مع ابنه الملك الظاهر غازي، وهو في بيت المقدس بعد أن أجرى الصلح مع ريتشارد قلب الأسد، وقبل أن يأذن له بالذهاب إلى حلب إذ أوصاه قائلاً: أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك، واحذَّرك من الدماء والدخول فيها والتقلُّد لها فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم، فأنت أميني وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمدارة الناس، ولا تحقد على أحد، فإن الموت لا يُبقي أحداً، وأحذر ما بينك وبين الناس، فإنه لا يغفر إلا برضاهم وما بينك وبين الله يغفره بتوبتك إليه، فإنه كريم [944].

المبحث الثالث: عقيدة الدولة الأيوبية :

كانت العودة إلى هوية الأمة المسلمة، وإلى عقيدة أهل السنة والجماعة، من أبرز معالم التجديد في العهد الزنكي والأيوبي ولقد طال الانحراف وانتشرت البدع، تحميها دولة ظالمة وهي الدولة الفاطمية العبيدية بمصر، فكانت العودة إلى تحكيم الكتاب والسنة من أضخم منجزات الدولتين النورية والصلاحية فقد أقيم العدل وقمعت البدع، وصبغت الدولة بالصبغة الإسلامية الصافية وقد سار صلاح الدين الأيوبي على نهج نور الدين زنكي بتطبيق الشرع في سائر أمور الدولة، وتنفيذ العدل وقضى على المظالم، وكان يشرف بنفسه لرفع المظالم واعتمد في ذلك على القضاة والفقهاء، كان صلاح الدين قد اتصف بالإيمان والعبادة والتقوى والخشية من الله والثقة به، والالتجاء إليه، وكان حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، وصبغ دولته بعقيدة

---

[943] الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 225.

[944] النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص 352،353.

أهل السنة والجماعة التي بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار على نهجها الخلفاء الراشدون واستمر الأيوبيون بعد وفاة صلاح الدين على هذه العقيدة وكان صلاح الدين كثير التعظيم لشعائر الدين، وكان مبغضاً للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة، وإذا سمع عن معاند ملحد في مملكته كان يأمر بقتله، ولقد حارب المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي واستطاع أن ينفذ المخطط الذي وضعه نور الدين زنكي للقضاء على الدولة الفاطمية العبيدية الرافضية وعمل على محاربة العقائد الفاسدة في مصر، وإعادة الفكر الإسلامي الصحيح إليها عبر استراتيجية واضحة وقد استفادت الدولة الأيوبية من الجهود العلمية والوسائل الدعوية من الدولة السلجوقية والزنكية والغزنوية فالدولة الأيوبية جاءت بعد دول سنية ساهمت في نشر الكتاب والسنة في الأمة الإسلامية وقد اهتم صلاح الدين الأيوبي بالمحافظة على أصول العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة ونهجوا نهج المذهب الأشعري وحرصوا على محاربة أي انحراف عنها، والقضاء على مظاهره وكان معظم الأيوبيين علماء بأصول هذه العقيدة [945]، يقول ابن شداد عن صلاح الدين : وكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ العلم، وأكابر الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه، غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه ... وقد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع ما يحتاج إليه في هذا الباب وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده، حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر، ورأيته وهم يقرؤنها بين يديه [946] ، ولقد سعت الدولة الأيوبية إلى نشر عقيدة أهل السنة في مصر وكافة أرجائها، وقد حرص صلاح الدين على أن تكون عقيدة أهل السنة هي ذات النفوذ في المؤسسات الفكرية التي أنشأها [947] .

أولاً: توسع الإيوبيين في إنشاء المدارس السنية: بدأت هذه المرحلة في عام 572هـ/1176م أي بعد تمكن صلاح الدين من إخضاع معظم الشام لسلطانه ثم عوده إلى مصر لتدبير شؤونها ففي هذا العام أمر ببناء مدرستين: إحداهما للشافعية عند قبر الإمام الشافعي عرفت بالمدرسة الصلاحية والثانية للحنفية وتوالى بعد ذلك إنشاء المدارس السنية في أماكن متعددة من القاهرة وغيرها من البلاد من قبل أمراء الأيوبيين وأعوالهم، ولن نستطيع الحديث عن كل هذه المدارس لكثرتها، إذ أصبح إنشاء المدارس سنة متبعة

---

[945] التاريخ السياسي والفكري ص 246.

[946] النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص 7.

[947] التاريخ السياسي والفكري ص 246.

من قبل أعيان الدولة في هذه الفترة رجالاً ونساء [948]، وإنما سنركز حديثنا حول أشهر المدارس .. التي كان لها دور في عملية التحويل الكبير للبيئة المصرية من المذهب الشيعي إلى المذهب السني [949] .

1. **المدرسة الصلاحية:** بدأ بناء هذه المدرسة في عام 572هـ/1176م عند ضريح الإمام الشافعي وكان وقفاً على الشافعية ويصفها السيوطي بقوله: إنها تاج المدارس، ثم يذكر أن التدريس بها أسند للعالم الزاهد نجم الدين الخبوشاني وقد زار ابن جبير هذه المدرسة في أواخر ذي الحجة من عام 578هـ/1183م، وكان العمل في توسعتها ما يزال مستمراً وذكر ابن جبير أن هذه المدرسة لم يعمر مثلها في هذه البلاد وليس لها نظير في سعة المساحة والحفاوة بالبناء : يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته والنفقة عليها لا تحصى. تولى ذلك بنفسه الشيخ الخبوشاني، وسلطان هذه الجهات: صلاح الدين يسمح له بذلك ويقول: زد احتفالا وتأنقا، وعلينا القيام بمئونة ذلك وذكر ابن جبير أنه حرص على لقاء الخبوشاني، لأن أمره كان مشهوراً بالأندلس [950]، ولعل في إشارة ابن جبير ما يؤكد أن صلاح الدين كان يتخير أساتذة مدارسه من أهل العلم والفضل والصلاح، ومن بين من ظهرت شهرتهم في العالم الإسلامي، حتى تتحقق على أيديهم الأهداف التي يسعى إليها، وحتى يكونوا عنصر جذب لطلاب العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي [951].
2. **مدرسة المشهد الحسيني:** وبنى صلاح الدين مدرسة بالقاهرة بجوار المشهد المنسوب – ظلماً وزوراً – إلى الحسين، وجعل عليها وقفاً كبيراً [952]، كما أشار المقريزي إليها أثناء حديثة عن المشهد الحسيني فقال: ولما ملك السلطان الناصر جعل به حلقة تدريس وفقهاء، فوضها للفقيه: البهاء الدمشقي وكان يجلس عند المحراب الذي الضريح خلفه، فلما وزر معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ (للملك الكامل) .. جمع من أوقافه ما بنى به إيوان التدريس الآن، وبيوت الفقهاء العلوية [953] وإذا كان الهدف العام الذي ابتغاه صلاح الدين من زرع المدارس

---

948 المصدر نفسه ص 233.

949 المصدر نفسه ص 233.

950 رحلة ابن جبير ص 21.

951 التاريخ السياسي الفكري للمذهب السني ص 234.

952 الوفيات لابن خلطان (206/6).

953 المواعظ والاعتبار (427/1 – 428).

السنية في مصر هو التمكين لمذهب السنة والقضاء على المذهب الشيعي، فإن لإنشاء هذه المدرسة في داخل المشهد الحسيني مغزى خاصاً، فقد كان من المعاقل الأخيرة التي يلجأ إليها بقايا الشيعة في مصر، ومن استطاع الفاطميون أن يستميلوا عواطفهم من عوام السنة، ولذا كان من الضروري أن توجد مدرسة في هذا المكان لتعليم الدين الصحيح، ومحاربة ما نشره الفاطميون من بدع [954] .

3. **المدرسة الفاضلية:** ومن المدارس الهامة التي أنشئت في هذا العصر المدرسة الفاضلية التي بناها القاضي الفاضل سنة 580هـ/1184م ووقفها على الشافعية والمالكية، وخصص إحدى قاعاتها لإقراء القرآن الكريم وتعليم علم القراءات على الإمام القاسم أبي محمد الشاطبي (صاحب الشاطبية ت 596هـ/1294) ووقف على هذه المدرسة عدداً كبيراً من الكتب قيل إنها بلغت مائة ألف كتاب، وجعل إلى جانبها كتاباً وقفه على تعليم الأيتام، ووصف المقريزي هذه المدرسة بقوله: وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها [955] ، كما بنى السلطان العادل: أخو صلاح الدين مدرسة للمالكية وكذلك فعل وزيره صفي الدين عبد الله بن شكر (ت 630هـ/1232) إذ أقام مدرسة للمالكية في موضع دار الوزير الفاطمي يعقوب بن كلّس، وكان ابن شاكر عالماً متفقهاً على مذهب الإمام مالك[956].

4. **دار الحديث الكمالية:** وكان للملك الكامل بن العادل شغف بسماع الحديث الشريف، كما كان معظماً للسنة وأهلها، راغباً في نشرها، فأنشأها بالقاهرة أول دار لتدريس الحديث، وهي: المدرسة الكاملية وذلك في عام 622هـ/1225م [957]، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوي، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، وأسند مشيختها إلى الحافظ عمر بن حسن الأندلسي (المعروف بابن دحية) ت 633هـ/1235م وكان بصيراً بالحديث معتنياً به، وتأدب الملك الكامل على يديه [958] .

5. **المدرسة الصالحية:** أما المدرسة التي بناها الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل فقد أقامها مكان قصر الفاطميين الشرقي، وشرع في إنشائها في عام 639هـ/1241م مستوحياً فكرتها من

---

[954] التاريخ السياسي الفكري ص 235.

[955] المواعظ والاعتبار (366/2).

[956] المصدر نفسه (365/2 ، 371).

[957] المصدر نفسه (375/2).

[958] التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 236.

المدرسة المستنصرية، حيث وقفها على المذاهب الأربعة ورتب فيها دروساً لهذه المذاهب في عام 641هـ/1243م يقول المقريزي عنه وهو أول من عمل بديار مصر دروساً أربعة في مكان [959] . وتأتي أهمية هذه المدرسة في أنها أتاحت الفرصة للحنابلة كي يسهموا بجهودهم في حركة الإحياء السني في مصر، ذلك أنهم حتى تاريخ إنشاء هذه المدرسة كانوا الفئة الوحيدة — من بين طوائف السنة — التي لم يهتم الأيوبيون الأولون بإنشاء مدارس لها، ولعل السر في عدم الاهتمام بأمرهم أنهم كانوا قلة نادرة، يؤكد هذا ما يقوله السيوطي عنهم وهو بصدد ذكر فقهائهم في مصر : هم بالديار المصرية قليل جداً، ولم أسمع بخبرهم فيها إلا في القرن السابع وما بعده. ويوضح السر في هذا بقوله: إن مذهب أحمد لم يبرز خارج العراق إلا في القرن الرابع الذي ملك فيه العبيدون مصر، وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة: قتلاً ونفياً وتشريداً، وأقاموا مذهب الرفض والشيعة، حتى إذا ما سقطت دولتهم تراجع العلماء إليها من سائر المذاهب [960] . ولم تكن جهود الأيوبيين — في إنشاء المدارس — مقصورة على القاهرة وحدها وإنما امتدت إلى مدن أخرى في مصر، ففي الفيوم أنشأ تقي الدين عمر مدرستين : إحداهما للشافعية، والأخرى للمالكية [961] ، وأنشأ صلاح الدين مدرسة للشافعية بمدينة الإسكندرية في عام 577هـ/1181م [962] ، وكانت الأوقاف الكثيرة وتيسير سبل المعيشة في هذه المدارس للأساتذة والطلاب إحدى الوسائل الهامة التي أسهمت في جذب العلماء وطلاب العلم إلى مصر وقد كان من المتبع عند تأسيس أي مدرسة أن يوقف عليها ما يكفى لاستمرار الحياة العلمية بها، يقول ابن جبير: ومن مفاخر هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخره العائدة إلى سلطانه : المدارس والمحارس [963] الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الإقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه، ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، وإجراء يقوم به في جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم [964] . وأشار ابن جبير إلى كثرة مساجد الإسكندرية

---

959 المصدر نفسه ص 236.

960 حسن المحاضرة (480/1).

961 المواعظ والاعتبار (365/2).

962 الحافظ السلفي، محمود زيتون ص 140.

963 المحارس : الواحد : محرس : مأوى مخصص للزهاد والمسافرين والفقراء انظر : التاريخ السياسي والفكري ص 237.

964 رحلة ابن جبير ص 15.

حتى إن المكان الواحد به أربعة أو خمسة مساجد وربما كانت المساجد مركبة، (أي مكونة من مسجد ومدرسة) وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان؛ فمنهم من له خمسة دنانير مصرية في الشهر، ومنهم من له فوق ذلك، ومنهم من له دونه، وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان [965] . وهذه الصورة المشرقة التي رسمها ابن جبير لجهود صلاح الدين في الإسكندرية توحي بعظم جهوده في هذا المجال بالنسبة لبقية البلاد، ذلك أن الإسكندرية ظلت معقلاً لأهل السنة في العصر الفاطمي، وكان بها في أواخر هذا العهد مدرستان سنيتان إحداهما للمالكية: وهي مدرسة الحافظ بن عوف الزهري، والأخرى للشافعية: وهي مدرسة الحافظ السلفي واستطاعت هاتان المدرستان أن تقوما بدور كبير في الحفاظ على التراث السني في مصر الفاطمية، حتى أن القاضي الفاضل قد ذكر هذه الحقيقة في إحدى الرسائل التي بعث بها صلاح الدين إلى نور الدين إثر اكتشافه لأحد دعاة الفاطميين في الإسكندرية، فيقول: ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة [966] . فإذا كانت أوقاف صلاح الدين في الإسكندرية التي حافظت على سنيتها بهذه الكثافة فلا شك أنها في البلاد الأخرى التي لقيت دعوة الفاطميين فيها رواجاً كانت أكثر وأكبر، يدلنا على ذلك ما قرره صلاح الدين لنجم الدين الخبوشاني مدرس الصلاحية، فقد خصص له أربعين ديناراً في الشهر عن التدريس، وعشرة دنانير عن النظر في أوقاف المدرسة، وستين رطلاً من الخبز في كل يوم وراويتين من [967] ماء النيل وقد أكمل ابن جبير لنا الصورة حينما تابع رصده لجهود صلاح الدين في القاهرة، كي ييسر أسباب العلم للراغبين فيه فيقول: ومن العجيب أن القرافة كلها مساجد مبنية، ومشاهد معمورة يأوي إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء، والإجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان في كل شهر، والمدارس التي بمصر والقاهرة كذلك، وحقق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيف على ألفي دينار مصرية في الشهر [968] . ومن هذا يتضح أن صلاح الدين وهو يتابع مسيرة الإحياء السني في مصر لم يكتف بإنشاء المدارس، وإنما كان حريصاً أيضاً على جذب علماء السنة إليها من جميع أنحاء العالم الإسلامي كي يشاركوا بجهودهم في هذا الإحياء الفكري، بعد أن كرس الفاطميون جهودهم للقضاء على علماء السنة في مصر، وقد مر بنا قبل قليل ما سجله

---

[965] المصدر نفسه ص 16 ، 17.

[966] كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 238.

[967] حسن المحاضرة (57/2).

[968] رحلة ابن جبير ص 22.

عليهم السيوطي من أنهم أفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة؛ قتلا ونفياً وتشريداً، حتى إذا سقطت دولتهم تراجع العلماء من سائر المذاهب السنية إليها، وكانت جهود صلاح الدين أكبر مشجع لهذه الهجرات التي قام بها العلماء السنيون إلى مصر، وكما اهتم صلاح الدين بجذب العلماء إلى مصر فإنه اهتم كذلك بجذب الصوفية، فأنشأ لهم أول "خانقاه" للصوفية في مصر، وجعلها " برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة" ووقف عليهم أوقافاً جليلة، وولى عليهم شيخاً يدبر أمورهم عرف بشيخ الشيوخ، ويذكر المقريزى. أن سكانها من الصوفية كانوا معروفين بالعلم والصلاح، وأن عدد من كان بها بلغ الثلاثمائة، وقد رتب لهم السلطان الخبز واللحم والحلوى في كل يوم، وأربعين درهما من العام ثمن كسوة، وبنى لهم حماماً بجوارهم، ومن أراد منهم السفر أعطي نفقة تعينه على بلوغ غايته [969] وهذه العناية الزائدة بأمور الصوفية كانت تستهدف – في ظني – غرضاً معيناً يتعلق بحركة الإحياء السني، فعلى الرغم من أن التصوف المعتدل كان اتجاها له احترامه من قبل الحكام وعامة الناس في هذا العصر، إلا أن الاهتمام به على هذا النحو في مصر بالذات كان عملاً مقصوداً، ويهدف إلى تحقيق غاية معينة ولعل السر في هذا هو أن الفاطميين في مصر قد عجزت أساليبهم المتعددة – في الدعوة إلى مذهبهم – عن أن تتسلل إلى عقائد معظم المصريين، ولكنها بسهولة أثرت في عواطفهم، فمظاهر الحزن والبكاء على الحسين، والإحتفال بموالد أهل البيت، واحتفاء الفاطميين بهذه الاحتفالات وغيرها، كل ذلك ترك تأثيره في عواطف المصريين، وما تزال بقية من آثاره موجودة إلى اليوم، وإذا كان صلاح الدين حاول جذب علماء السنة إلى مصر في كل مكان، ليشاركوا بعلومهم، وفكرهم في حركة الإحياء السني فإن هناك جانباً هاماً كان لابد من العمل على إشباعه وتحويله من الوجهة التي اتجه بها الفاطميون إلى وجهة أخرى، هذا الجانب الهام هو الجانب العاطفي في الناس والذي سيطر عليه الفاطميون بسهولة، وكان الصوفية من الفئات القادرة على إشباع هذا الجانب يومها : بأخلاقهم السهلة السمحة، وزهدهم في متاع الدنيا، وقدرتهم على مخاطبة عواطف الناس عن طريق مجالس الوعظ والذكر وغير ذلك، وفعلاً نجح الصوفية في العصر الأيوبي في لفت أنظار الناس إليهم وإلى رسومهم، وطقوسهم. فيحكى المقريزي: أن الناس كانوا يأتون من مصر إلى القاهرة ليشاهدوا صوفية خانقاه "سعيد السعداء" وهم متوجهون إلى جامع الحاكم لأداء صلاة

---

[969] المواعظ والاعتبار (2/415 – 416).

الجمعة، حتى تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم [970]. وقد تمكن صلاح الدين وخلفاؤه بفضل جهودهم في جذب علماء السنة إلى مصر من أن يخرجوها من عزلتها الفكرية، وأن يعيدوا صلتها الوثيقة بمراكز الثقافة السنية في العالم الإسلامي : كبغداد ودمشق وقرطبة بعد أن قطع الفاطميون كل صلة لها بهذه المراكز، وتخلف عطاء مصر في مجال الفكر السني ما يزيد عن القرنين ونصف من الزمان [971].

ثانياً: جهود الأيوبيين في الشام والجزيرة: وهذه العناية الزائدة بحركة البعث السني في مصر لا تعني أن الأيوبيين أهملوا البلاد الأخرى التابعة لهم والتي لم تمر بظروف مصر، بل وجدناهم لا يألون جهداً في نشر الثقافة السنية في كل بلد يحلون به سواء في هذا السلاطين، والأمراء من الرجال والنساء، والأعوان من الوزراء والقواد والعلماء والكتاب .. وحرص كثير من هؤلاء على بناء المدارس وتشييدها في بلاد الشام والجزيرة : فصلاح الدين أنشأ مدرسة للشافعية بمدينة القدس وبنى مدرسة للمالكية بدمشق وجعل داره في دمشق عندما انتقل إلى مصر خانقاه للصوفية وأنشأ تقي الدين عمر مدرسة بمدينة الرها وأتم العزيز عثمان بن صلاح الدين مدرسة بدمشق كان أخوه الأفضل قد شرع في عمارتها، وعرفت بالمدرسة العزيزية، وشيد المعظم عيسى ابن العادل مدرسة للحنفية بدمشق عرفت بالمعظيمة[972] ، وأوقف سيف الإسلام أخو صلاح الدين على الحنابلة مدرسة بدمشق [973] وأقام الأشرف موسى بن العادل دار الحديث الأشرفية بهذه المدينة [974] ، وأنشأ القاضي الفاضل دار الحديث الفاضلية قرب الجامع الأموي [975] ، وبنت ست الشام (أخت صلاح الدين) مدرسة للشافعية بدمشق [976] ، وكذلك فعلت أختها ربيعة خاتون فبنت مدرسة وقفتها على الحنابلة بدمشق أيضاً [977] ، إلى غير ذلك من المدارس التي كثرت وانتشرت حتى إن عز الدين بن شداد عد منها في دمشق وحدها ثنتين وتسعين مدرسة، موزعة بين المذاهب السنية الأربعة، وذلك عدا من الأماكن الأخرى

---

[970] المواعظ والاعتبار (415/2).

[971] سيرة القاهرة، التاريخ السياسي والفكري ص 240.

[972] الدارس في تاريخ المدارس (579/1).

[973] التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 241.

[974] الدارس في تاريخ المدارس (19/1).

[975] التاريخ السياسي والفكري ص 241.

[976] المصدر نفسه ص 241 نقلاً عن مرآة الزمان.

[977] المصدر نفسه ص 241.

التي كانت تشغل في التعليم والدرس: كالجامع [978] الأموي وقد نقل ابن جبير – أيضاً – صورة عن الحياة العلميـة في دمشـق، وخاصـة داخـل مسـاجدها، ومشـاهدها وذلـك عنـدما زار هـذه المدينـة في عـام 580هـ/1184م فيقول عن الجامع الأموي: وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيه إجراء واسع وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي، يجتمع فيها طلبة المغاربة، ولهم إجراء معلوم، ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة [979] ويقول عن المشاهد: ولك مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه وكل مسجد يستحدث بناؤه، أو مدرسة، أو خانقة (خانقاه) يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها، والمتلزمين لها .. ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتنفق فيها الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف. ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة [980] ، وحظيت حلب هي الأخرى بقسط كبير من جهود الأيوبيين وأعوانهم، فأنشأ بها الظاهر غازي بن صلاح الدين مدرسة مشتركة للشافعية والحنفية، وتولي النظر والتدريس بها القاضي بهاء الدين بن شداد الذي وكل إليه الظاهر النظر في أوقاف حلب كلها [981] ، وبنى ابن شداد المدرسة الصاحبية للشافعية، وبجوارها أقام داراً للحديث ظلت مجمعاً لأهل الحديث يسكنون بها، ويقرءون، ويسمعون ويكتبون حتى محنة التتار، ووقف عليها قرية من قرى حلب وبالقرب من هذه الدار بنى داراً للصوفية [982] وبقيت حلب طيلة عهد الأيوبيين منارة للعلم، يقصدها الطلاب من أنحاء شتى بفضل الله ثم الجهود العلمية التي نهض بها ابن شداد، حيث اعتنى بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها فعمرت في أيامه المدارس الكثيرة وقصدها الفقهاء من البلاد المختلفة، وكثر الاشتغال بالعلم والإفادة منه، ويذكر ابن خلكان أنه التحق بالمدرسة التي أنشأها ابن شداد هو وأخوه وكان ابن شداد يدّرس فيها بنفسه، ويرتب معه أربعة من الفقهاء الفضلاء للإعادة، كما يشير ابن خلكان إلى أن العلماء بحلب في أيام ابن شداد كانت لهم حرمة تامة ورعاية كبيرة وخصوصاً جماعة مدرسته فإنهم كانوا يحضرون مجالس السلطان، ويفطرون في رمضان على سماطه، وكان للقاضي عقب صلاة الجمعة درس

---

[978] المصدر نفسه ص 241.

[979] رحلة ابن جبير ص 220.

[980] رحلة ابن جبير ص 223.

[981] أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (4/355 – 356).

[982] التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 242.

في الحديث يسمعه المصلون [983] ويذكر ابن واصل أنه توجه إلى حلب في أواخر عام 627هـ/1230م لَيْدرس الفقه والأصول والنحو واللغة ويتبرك بلقاء ابن شداد، وكان نزوله بالمدرسة الصاحبية [984] .

ثالثاً: عناصر الثقافة السنية في العهد الأيوبي: كانت عناية صلاح الدين الأيوبي والسلاطين الذين جاءوا بعده للتمكين لمذهب أهل السنة في البلاد التي حكموها عناية شاملة ومكثفة في المدن التابعة لهم، كالقاهرة والإسكندرية، ودمشق، وحلب، وغيرها ومن أهم عناصر الثقافة السنية التي اهتم بها الأيوبيون :

1- القرآن الكريم: اهتم الأيوبيون بتلقين القرآن الكريم للصغار، وتحفيظهم إياه في البلاد التابعة لهم، فابن جبير يذكر: أن صلاح الدين أمر بعمارة أماكن متعددة في مصر، ورتب فيها معلمين للقرآن الكريم: يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة، وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم [985] ، ويصور القاضي بهاء الدين بن شداد مدى عناية صلاح الدين بالقرآن فيذكر أنه مر يوماً على طفل صغير يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته، فقربه إليه، وجعل له حظاً من خاص طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جزءاً من مزرعة. وكان يشترط في إمامه، أن يكون عالماً بعلوم القرآن، متقناً لحفظه [986] ، وقد مر بنا أن القاضي الفاضل جعل إلى جانب مدرسته في القاهرة كُتاباً وقفه على تعليم الأيتام القرآن الكريم، وأنه خصص إحدى قاعات هذه المدرسة لإقراء القرآن وتدريس علم القراءات، وعندما زار ابن جبير دمشق وجد الجامع الأموي لا يخلو من تلاوة القرآن الكريم لا صباحاً ولا مساءاً ولهولاء القراء إجراء يومي يعيش منه أكثر من خمسمائة إنسان وعند فراغ القراء من التلاوة الصباحية يجلس أمام كل منهم صبي يلقنه القرآن الكريم، وللصبيان على قراءاتهم جراية معلومة أيضاً تصل إليهم عدا أبناء ذوي اليسار فإن آباءهم ينزهونهم عن أخذها [987] ، كما رأى ابن جبير مكاناً آخر بدمشق، يتعلم فيه الصبيان القرآن الكريم، وعليه وقف كبير يأخذ منه المعلمون ما يفي بحاجات الصبيان وكسوتهم

---

[983] وفيات الأعيان (6/87 – 89).

[984] مفرج الكروب (4/311 – 312).

[985] رحلة ابن جبير ص 25.

[986] سيرة صلاح الدين ص 9 التاريخ السياسي والفكري ص 243.

[987] رحلة ابن جبير ص 220.

وينفقونه عليهم [988] ، وكان علم القراءات يدرس بدار الحديث الأشرفية بدمشق [989]، وبالمدرسة القاهرية بحلب [990]

2- الحديث الشريف: واهتم الأيوبيون بالحديث الشريف اهتماماً عظيماً، وكان هذا الاهتمام تلبية لحاجتين ملحتين واجههما المجتمع الإسلامي في مصر والشام، إحداهما عامه، والأخرى خاصة ببعض البيئات. أما العامة فهي أن المسلمين كانوا يواجهون عدواً يتربص بهم الدوائر، ويعبث بمقدساتهم، وكان الاهتمام بتحريض المؤمنين على قتالهم يتطلب عناية كبيرة بالحديث الشريف، وخاصة، ما يتعلق منه بهذا الباب، لذا وجدنا صلاح الدين شغوفاً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يردده ويسمعه بل ويسعى لسماعه، ويشجع على التأليف فيه، ويذكر العماد الأصفهاني أنه تردد معه أثناء زيارته للإسكندرية في عام 572هـ/1176م على الحافظ السلفي، وسمعوا منه الحديث الشريف [991] ، كما سمع هو وأولاده موطأ مالك من فقيه الإسكندرية : ابن عوف الزهري، وذلك في عام 577هـ/1181م [992] ، ويصف بها الدين بن شداد صلاح الدين : بأنه كان شديد الرغبة في سماع الحديث وأنه كان يسعى إلى علمائه إذا كانوا ممن ينزهون أنفسهم عن حضور مجالس الحكام ويستطرد ابن شداد قائلاً : أنه كان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، ويستحضرني في خلوته، ويحضر بعضاً من كتب الحديث ويقرؤها [993] ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه حثه على الجهاد أو ذكر له شيئاً من أخباره يقول ابن شداد : ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً، جمعت فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث ورد في فضله، وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل [994] ، ولم تكن العناية بالحديث مما اختص به صلاح الدين، بل إن كثيراً من أمراء الأيوبيين سعى إلى سماع الحديث وروايته، ومنهم تقي الدين عمر الذي سمع من السلفي بالإسكندرية [995] ، والملك الكامل الذي نهج سبيل نور الدين وأنشأ بمصر أول دار الحديث الشريف

---

[988] المصدر نفسه ص 220 التاريخ السياسي والفكري ص 243.

[989] حسن المحاضرة (506/2).

[990] أعلام النبلاء (355/4 – 356) التاريخ السياسي والفكري ص 244.

[991] كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 245.

[992] طبقات الشافعية (226/4).

[993] سيرة صلاح الدين ص 10 التاريخ السياسي والفكري ص 245.

[994] التاريخ السياسي والفكري ص 245.

[995] المواعظ والاعتبار (265/2).

ووصفه السيوطي بأنه كان معظماً للسنة وأهلها، وأنه سمع من السلفي وأجازه [996] ، كما وصفه سبط ابن الجوزي بأنه كان يتكلم في صحيح مسلم بكلام مليح [997] ، أما الأشرف بن العادل فقد سمع صحيح البخاري في دار الحديث الأشرفية التي أنشأها بدمشق [998] ، هذه الجهود التي نهض بها الأيوبيون للعناية بالحديث كانت استجابة لحاجة عامة تتعلق بمتطلبات الجهاد في سبيل الله والحض عليه، ورفع إمكانات المسلمين عن طريق تربيتهم، وتثقيفهم بعنصر هام من عناصر الثقافة السنية وأما الحاجة الخاصة التي تطلبت مزيداً من الحفاوة بالحديث الشريف، فكانت، تتعلق بالبيئات التي ساد فيها النفوذ الشيعي فترة من الزمن، ذلك أن الشيعة لا يصححون من الأحاديث إلا ما رواه أهل البيت فقط وما ينسبونه إلى أهل بيت لا يخلوا من الوضع والأكاذيب، كروايات زرارة وجابر الجعفي وغيرهم من الكذبة، ويطعنون فيما سواه ويتخذون من ذلك وسيلة إلى الطعن في رواتها [999] ، ولذا كانت العناية بالحديث الشريف في مصر إحياء لهذا الجانب من جوانب الثقافة السنية [1000].

4- أصول العقيدة السنية: اهتم الأيوبيون بالمحافظة على أصول العقيدة على مذهب الإمام الأشعري، فقد كان رحمه الله من العلماء الذين حملوا لواء العلم في كل ميادينه وصنوفه ويعد من العلماء الذين جمعوا بين شتى المعارف والعلوم [1001] والفنون قال عنه الذهبي: العلامة إمام المتكلمين أبو الحسن .. وكان عجباً في الذكاء وقوة الفهم، ولما برع في معرفة الاعتزال كره وتبرأ منه، وصعد للناس، فتاب إلى الله تعالى منه، ثم أخذ يرد على المعتزلة ويهتك عوارهم [1002] وذكر الذهبي أيضاً : ولأبي الحسن ذكاء مفرط، وتبحر في العلم، وله أشياء حسنة وتصانيف جمة تقضي له بسعة العلم [1003]، ويقول: رأيت لأبي الحسن أربعة تواليف في الأصول يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات وقال فيها: تمر كما جاءت، ثم قال: وبذلك أقول وبه أدين، ولا تؤول [1004].

---

996 حسن المحاضرة (33/2 – 34) التاريخ السياسي والفكري ص 245.

997 التاريخ السياسي الفكري ص 245.

998 الدارس في تاريخ المدارس (19/1 – 21).

999 التاريخ السياسي والفكري ص 246.

1000 المصدر نفسه ص 246.

1001 شعبة العقيدة لأبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه ص 21.

1002 سير أعلام النبلاء (86/15).

1003 المصدر نفسه (87/15).

1004 المصدر نفسه (86/15).

وقال عنه القاضي عياض: وصنف لأهل السنة التصانيف، وأقام الحجج على إثبات السنة وما نفاه أهل البدع من صفات الله تعالى ورؤيته وقدم كلامه وقدرته، وأمور السمع الواردة من الصراط، والميزان، والشفاعة، والحوض وفتنة القبر التي نفت المعتزلة، وغير ذلك من مذاهب أهل السنة والحديث، فأقام الحجج الواضحة عليها من الكتاب والسنة والدلائل الواضحة العقلية، ودفع شبه المبتدعة ومن بعدهم من الملحدة الرافضة، وصنف في ذلك التصانيف المبسوطة التي نفع الله بها الأمة [1005]، وأما ابن عساكر فقد أفرد كتاباً في الدفاع عنه، ومدحه كثيراً، وجعله من المجددين، وذكر الروايات الواردة في مدح قومه وأسرته [1006] وكذلك السبكي في طبقات الشافعية، وكان مما قال فيه : شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري شيخ طريقة أهل السنة والجماعة، وإمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين والذاب عن الدين، والساعي في حفظ عقائد المسلمين، سعياً يبقى أثره إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، إمام حبر، تقي بّر، حمى جناب الشرع من الحديث المفترى، وقام في نصرة الإسلام فنصره نصراً مؤزراً [1007] . وغيرهم من العلماء الذين مدحوه وأثنوا على ما قام به من نصر السنة والرد على المبتدعة من المعتزلة وغيرهم [1008].

أ- المراحل التي مّر بها: مرّ أبو الحسن الأشعري بأطوار ثلاثة في حياته الاعتقادية

الطور الأول: تكاد أن تجمع كل المصادر التي ترجمت للأشعري على أنه عاش طوره الأول في ظل المعتزلة والاعتزال وأنه بقي فيه ملازماً شيخه وزوج أمه الجبائي حتى بلغ أربعين سنة من عمره [1009].

الطور الثاني: بعد خروجه على المعتزلة، سلك طريق عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري [1010]، وبدأ يرد على المعتزلة معتمداً على القوانين والقضايا التي قالها عبد الله بن كلاب [1011] ، يقول ابن تيمية رحمه

[1005] ترتيب المدارك (24/5).

[1006] موقف ابن تيمية من الأشاعرة (339/1).

[1007] طبقات السبكي (347/3).

[1008] موقف ابن تيمية من الأشاعرة (340/1).

[1009] شعبة العقيدة بين أبي الحسن والمنتسبين إليه ص 39.

[1010] سير أعلام النبلاء (174/11).

[1011] شعبة العقيدة بين أبي الحسن والمنتسبين إليه ص 42.

الله: وكان أبو الحسن الأشعري لما رجع من الاعتزال سلك طريق أبي محمد بن كلاب [1012] ، وهذا الطور يمثله كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع [1013] وكان ابن كلاب يرد على المعتزلة والجهمية ومن تبعهم بطريقة يميل فيها إلى مذهب أهل السنة والحديث، ولكن لما كثر جداله معهم ورده عليهم ومناظرته لهم بالطرق القياسية، سلَّم لهم أصولا هم واضعوها، فمن هنا دخلت البدعة في طريقته [1014] ، وكان ابن كلاب قد أحدث مذهباً جديداً، فيه ما يوافق السلف وفيه ما يوافق المعتزلة والجهمية [1015] ، وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله : كان الناس قبل أبي محمد بن كلاب صنفين :

فأهل السنة والجماعة يُثبتون ما يقوم بالله تعالى من الصفات والأفعال التي يشاؤوها ويقدر عليها، والجهمية من المعتزلة وغيرهم تنكر هذا وهذا، فأثبت ابن كلاب قيام الصفات اللازمة به، ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها [1016] ، ووافقه على ذلك أبو العباس القلانسي وأبو الحسن الأشعري [1017] ، وهذا الأصل الذي أحدثه ابن كلاب دفع الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السلف إلى أن يحذروا منه ومن أتباعه الكلابية [1018] ، وهذه الطريقة التي أحدثها ابن كلاب البصري لم يسبقه إليه غيره، ووافقه عليها الأشعري وردَّ من خلالها على الجهمية والمعتزلة [1019] .

الطور الثالث: مكث الأشعري زمناً على طريقة ابن كلاب يرد على المعتزلة وغيرهم من خلال ما اعتقده في هذه الطريقة ولكن الله تعالى مَنَّ عليه بالحق فنَّور بصيرته وذلك بالرجوع التام إلى مذهب أهل السنة والجماعة، والتزام طريقتهم، واتباع منهجهم ومسلكهم وكان هذا هو الذي أراد أن يلقى الله تعالى عليه، متبرئاً من المذاهب التي عاشها، وداعياً إلى طريقه السلف ومذهبهم، ومنتسباً إلى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وهذا الطور نظراً لأهميته في المجتال الاعتقادي فقد أثبتناه له – بعد توفيق الله بثلاثة وجوه [1020] :–

[1012] الفتاوى (556/5) (103/3).

[1013] شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه ص 42.

[1014] المصدر نفسه ص 43.

[1015] المصدر نفسه ص 44.

[1016] الفتاوى (131/13 – 154).

[1017] موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول (4/2 – 5) على هامش منهاج السنة.

[1018] مجموع الفتاوى (368/12).

[1019] شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري ص 45.

[1020] شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه ص 47.

الوجه الأول : أقوال العلماء: لقد شهد كثير من العلماء والأئمة برجوع الأشعري الرجوع التام إلى مذهب السلف الصالح، وهؤلاء الأئمة ما قالوا هذه الشهادة إلا بعد أن سبروا حياته وعرفوا ما كان عليه وما استقر عليه. ومن هؤلاء العلماء [1021] .

- شيخ الإسلام ابن تيمية [1022] .
- تلميذه الحافظ ابن القيم [1023] .
- الحافظ الذهبي [1024] .
- الحافظ ابن كثير، وقد قال رحمه الله : ذكروا للشيخ أبي الحسن الأشعري ثلاثة أحوال:

أولها : حال الاعتزال التي رجع عنها لا محالة.

الحال الثاني : إثبات الصفات العقلية السبع: وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام. وتأويل الصفات الخبرية، كالوجه واليدين والقدم والساق ونحو ذلك.

الحال الثالث: إثبات ذلك كله من غير تكييف ولا تشبيه جرياً على منوال السلف وهي طريقته في الإبانة التي صنفها آخراً [1025] .

- الشيخ نعمان الألوسي [1026] .
- الشيخ أبو المعالي محمود الآلوسي [1027] .
- العلامة محب الدين الخطيب. وقال رحمه الله في بيان أطوار الأشعري ورجوعه التام إلى مذهب السلف: أبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل من كبار أئمة الكلام في الإسلام، نشأ أول أمره على الاعتزال، وتتلمذ فيه على الجبائي. ثم أيقظ الله بصيرته وهو في منتصف عمره وبداية نضجه، فأعلن رجوعه عن ضلالة الاعتزال، ومضى في هذا الطور نشيطاً يؤلف ويناظر ويُلقي الدروس في الرد على المعتزلة، سالكاً طريقاً وسطاً بين طريقة الجدل والتأويل، وطريقة السلف، ثم محض طريقته وأخلصها لله بالرجوع الكامل

[1021] المصدر نفسه ص 47.

[1022] الفتاوى (53/6).

[1023] اجتماع الجيوش الإسلامية ص 112.

[1024] سير أعلام البنلاء (86/15).

[1025] اتحاف السادة المتقين للمرتضى الزبيدي ص 48.

[1026] جلاء العينين ص 213.

[1027] غاية الأماني في الرد على النبهاني (408/2).

إلى طريقة السلف في إثبات كل ما ثبت بالنص من أمور الغيب التي أوجب الله على عباده إخلاص الإيمان بها. وكتب بذلك كتبه الأخيرة ومنها في أيدي الناس كتاب "الإبانة" وقد نص مترجموه على أنها آخر كتبه، وهذا ما أراد أن يلقى الله عليه، وكل ما خالف ذلك مما يُنسب إليه، أو صارت تقول به الأشعرية، فإن الأشعري رجع عنه إلى ما في كتاب الإبانة وأمثاله [1028].

الوجه الثاني: التقاؤه الحافظ زكريا الساجي: بعد خروجه من الاعتزال ومن التخلص من طريقة ابن كلاب لجأ إلى الأئمة من أهل الحديث ممن عُرفوا بسلامة عقيدتهم وصفاء منهجهم ليأخذ منهم مقالة السلف وأصحاب الحديث ومن أشهرهم الحافظ الثبت محدث البصرة زكريا الساجي [1029] ، يقول ابن تيمية عن الأشعري: وأخذ عن زكريا الساجي أصول الحديث بالبصرة، ثم لما قدم بغداد أخذ عن حنبلية بغداد أموراً أخرى، وذلك آخر أمره، كما ذكره هو وأصحابه في كتبهم [1030] ، وقال الذهبي عندما ترجم للحافظ الساجي يقول : وعنه أخذ أبو الحسن الأشعري الأصولي تحرير مقالة أهل الحديث والسلف [1031]، وقال في مكان آخر عن الساجي: أخذ عنه أبو الحسن الأشعري مقالة السلف في الصفات واعتمد عليها أبو الحسن في عدة تآليف [1032] ، ومن الذين أثبتوا للأشعري هذا اللقاء مع المحدث الحافظ زكريا الساجي، وجعلوه نقطعة تحول كبيرة عند الأشعري [1033] : الإمامان : ابن القيم [1034] وابن كثير [1035] ، وغيرهما [1036] .

الوجه الثالث : تأليفه كتاب الإبانة وإثباته له: إن آخرً الكتب التي ألفها الأشعري رحمه الله هو كتاب الإبانة وقد ذكر في هذا الكتاب إنتسابه للإمام أحمد رحمه الله، والتزامه بعقيدة السلف الصالح، واتباع أئمة الحديث، وذكر بعد هذا عقيدة السلف الصالح في أمور الدين، ولقد أثبت هذا الكتاب للأشعري جمع

1028 انظر المنتقى للذهبي تعليق محب الدين رقم 2 ص 41.

1029 شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه ص 49.

1030 الفتاوى (288/3).

1031 تذكرة الحافظ الذهبي (709/2).

1032 سير أعلام النبلاء (198/14).

1033 شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه ص 50.

1034 اجتماع الجيوش الإسلامية ص 97.

1035 البداية والنهاية (131/11).

1036 شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري ص 50.

كثير من الأئمة، من المتقدمين والمتأخرين [1037] ، وأقرب العلماء زمناً بزمن الأشعري هو ابن النديم ت 385هـ فقد ذكر في كتابه الفهرست ترجمعة للأشعري وذكر جملة من كتبه التي ألفها، ومنها كتاب "التبيين عن أصول الدين" وجاء بعده ابن عساكر وانتصر للأشعري، وأثبت له كتاب "الإبانة" ونقل منها كثيراً في كتابه "التبيين" للإشادة بحسن عقيدة الأشعري. قال ابن عساكر عن الأشعري: وتصانيفه بين أهل العلم مشهورة معروفة، وبالإجادة والإصابة للتحقيق عند المحققين موصوفة، ومن وقف على كابه المسمى "الإبانة عرف موضعه من العلم والديانة [1038] ثم جاء ابن درباس ت 659هـ، وألف كتاباً في الذب عن الأشعري وأثبت له كتاب الإبانة. وقال : أما بعد .. فاعلموا معشر الإخوان وفقنا الله وإياكم للدين القويم وهدانا جميعاً للصراط المستقيم بأن كتاب "الإبانة عن أصول الديانة" الذي ألفه الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، هو الذي استقر عليه أمره فيما كان يعتقده، وبما كان يدين الله سبحانه وتعالى بعد رجوعه عن الاعتزال بِمَنَّ الله ولطفه، وكل مقالة تُنسب إليه الآن مما يخالف ما فيه، فقد رجع عنها، وتبرأ إلى الله سبحانه وتعالى بها. وروى وأثبت ديانة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث الماضين، وقول أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين، وأنه ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله، فهل يسوع أن يُقال : أنه رجع إلى غيره ؟ فإلي ماذا يرجع تراه، يرجع عن كتاب الله وسنة نبي الله، خلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون، وأئمة الحديث الماضيين، وقد علم أنه مذهبهم ورواه عنهم. هذا لعمري مالا يليق نسبته إلى عوام المسلمين كيف بأئمة الدين وقد ذكر هذا الكتاب، واعتمد عليه وأثبته عن الإمام أبي الحسن رحمه الله وأثنى عليه بما ذكره فيه، وبرأه من كل بدعة نسبت إليه، ونقل منه إلى تصنيفه، جماعة من الأئمة الأعلام من فقهاء الإسلام، وأئمة القراء وحفاظ الحديث وغيرهم [1039] ثم ذكر رحمه الله جماعة من هؤلاء الأئمة الذين أثبتوا كتاب "الإبانة" للأشعري ومنهم:

- إمام القراء أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم الفاسي ت 446هـ.
- الحافظ أبو عثمان الصابوني (ت 449هـ).
- الفقيه الحافظ أبو بكر البيهقي (ت458هـ).
- الإمام الفقيه أبو الفتح نصر المقدسي ت 490هـ.
- الفقيه أبو المعالي مجلي صاحب كتاب الذخائر في الفقه ت 550هـ [1040] .

[1037] كتب الشيخ حماد الأنصاري رسالة أثبت فيها رجوع الأشعري إلى مذهب السلفِ.

[1038] تبيين كذب المفتري ص 28.

[1039] رسالة الذب عن أبي الحسن الأشعري لابن درباس ص 107 تحقيق د. علي ناصر الفقيهي.

[1040] شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه ص 52.

وهناك جمع كثير من العلماء ممن أثبت كتاب "الإبانة" للأشعري، غير الذين ذكرهم ابن درباس ومنهم.

- الإمام ابن تيمية رحمه الله ت 728هـ.
- الحافظ الذهبي ت 748هـ وقال : وكتاب الإبانة من أشهر تصانيف أبي الحسن، شهره الحافظ ابن عساكر واعتمد عليه ونسخه بخطه الإمام محي الدين النووي [1041] .
- الإمام ابن القيم ت 571هـ [1042].
- الحافظ ابن كثير ت 774هـ.
- العلامة ابن فرحون المالكي ت 799هـ [1043]. وهناك جمع كثير لا يُحصى عددهم من العلماء والأئمة من الذين أثبتوا كتاب الإبانة للأشعري وأنه آخر ما صنف [1044] .

وقد ذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب في سبب رجوع أبي الحسن إلى مذهب أهل السنة وترك الاعتزال وأهمها رحمة الله به وهدايته له.

ب- سّر عظمة الأشعري في التاريخ: نهض أبو الحسن الأشعري بعد هذا التحول العظيم، يدعو إلى عقيدة أهل السنة، ويدافع عنها في حماسة وإيمان، ويرد على المعتزلة ويتبَّعهم في مجالسهم ومراكزهم يحاول إقناعهم بما اقتنع به أخيراً من عقائد أهل السنة، ومذاهب السلف، وكان نشاطه في ذلك أعظم من نشاطه في السابق، وكان يقصدهم بنفسه يناظرهم، فكَلُّم في ذلك فقد قيل له : كيف تُخالط أهل البدع وتقصُدهم بنفسك وقد أمرت بهجرهم ؟ فقال : هم أولو رياسة، منهم الوالي والقاضي، ولرياستهم لا ينزلون إليَّ، فإذا كانوا هم لا ينزلون إلي، ولا أسير أنا إليهم، فكيف يظهر الحق، ويعلمون أن لأهل السنة ناصراً بالحجة [1045] ؟ وهذه الجهود العظيمة والمثابرة الصابرة في مناصرة مذهب أهل السنة تستحق الثناء والتقدير وكان أبو الحسن الأشعري مستواه العقلي أعلى من مستوى معاصريه وأقرانه، وكان صاحب نبوغ وابتكار في العقليات وكان يرد على حُجج المعتزلة وعقائدهم في سهولة وينقُضها بمقدرة وثقة، كما يرد الأستاذ الكبير

[1041] مختصر العلو ص 239.

[1042] اجتماع الجيوش الإسلامية ص 113.

[1043] الديباج المذهب ص 195.

[1044] شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري ص 53.

[1045] تبيين كذب المفتري ص 116.

على شبه تلاميذه، ويحل مشاكلهم، وقد كان أبو الحسن الأشعري إماماً مجتهداً في علم الكلام، وأحد مؤسسيه وقد خضع كلٌّ من جاء بعده من المتكلمين لعبقريته، وعمق كلامه، ودقة نظره وإصابه فكره [1046] .

ج- أبو الحسن الأشعري يشرح عقيدته التي يدين بها: فيقول: وقولنا الذي نقول به، وديانتنا التي نَدين بها، التمسك بكتاب ربنا عز وجل، وبسنة نبينا عليه السلام، وما رُوي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل — نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته — قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ورفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشَكَ الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مُقَدَّم، وخليل معظم مضخَّم [1047] . ولم تقتصر خدمة الأشعري على تأييد عقائد أهل السنة والسلف تأييداً إجمالياً، فقد كان الحنابلة والمحدثون قائمين به غير مقصَّرين فيه، إن عبقريته تتجلى في أنه أقام البراهين والدلائل العقلية والكلامية على هذه العقائد، وناقش المعتزلة والمتفلسفة عقيدة عقيدة، وذلك كله في لغة يفهمونها، وأسلوب يألفونه ويُجلونه وبذلك أثبت أن هذا الدين وعقيدته الواضحة مؤيَّدان بالعقل، وأن العقل الصحيح يؤيد الدين الصحيح، ولا صراع بينهما [1048] ولا تناقض.

- مصدر العقيدة عن أبي الحسن الأشعري: كان الأشعري مؤمناً بأن مصدر العقيدة والمسائل التي تتصل بالإلهيات وما وراء الطبيعة هو الكتاب والسنة، وما جاء به الأنبياء وليس العقل المجرد والمقياس والميتافيزيقا اليونانية، ولكنه لم يكن يرى السكوت والإعراض عن المباحث التي حدثت بتطورات الزمان، واختلاط هذه الأمة بالأمم والديانات والفلسفات الأجنبية، حتى تكونت على أساسها فرق ونحل، وكان يرى أن السكوت عن هذه المباحث يضُّر بالإسلام، ويفُقد مهابة السنة ويحمل على ذلك ضعف السنة العلمي والعقلي، وعجز علماء الدين وممثليه عن مواجهة هذه التيارات ومقاومة هذه الهجمات، ويَهتبلهُ أهل الفرق الضالة، فينفذون في أهل السنة والعقيدة الصحيحة، فينفُثون فيهم، ويزرعون الشكوك، ويستميلون شبابهم الذكي المثقف إلى أنفسهم، وكان الأشعري مؤمناً بأن مصدر العقيدة هو الوحي والنبوة المحمدية، والطريق إلى

[1046] رجال افكر والدعوة في الإسلام (143/1، 144).

[1047] المصدر نفسه ص 5.

[1048] رجال الفكر والدعوة في الإسلام (147/1).

معرفته هو الكتاب والسنة وما ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم، وهذا مُفترق الطريق بينه وبين المعتزلة، فإنه يتجه في ذلك اتجاهاً معارضاً لاتجاه المعتزلة، ولكنه رغم ذلك يعتقد مخلصاً أن الدفاع عن هذه العقيدة السليمة، وغَرسها في قلب الجيل الإسلامي الجديد، يحتاج إلى الحديث بلغة العصر العلمية السائدة، واستعمال المصطلحات العلمية، ومناقشة المعارضين على أسلوبهم العقلي، ولم يكن يسوغ ذلك فقط، بل يَعدُّه أفضل الجهاد وأعظم القربات في ذلك العصر، وهذا مفترق الطرق بينه وبين — بعض — من الحنابلة والمحدَّثين الذين كانوا يتأثَّمون ويتحرجون من النزول في هذا المستوى [1049]

س – بعض مؤلفات أبي الحسن الأشعري: لم يقتصر أبو الحسن الأشعري على المناظرة والمعارضة، بل خلَّف مكتبة كثيرة من مؤلفاته في الدفاع عن السنة، وشرح العقيدة الحسنة وقد ألَّف تفسيراً للقرآن، أقل ما قيل في أجزائه أنه في ثلاثين مجلداً وقد ذكر بعض المؤلفين أن مؤلفاته تبلغ إلى ثلاثمائة مؤلف [1050] ، أكثرها في الرد على المعتزلة، وبعضها في الرد على مذاهب وفرق أخرى ومنها كتاب "الفصول" الذي رد على الفلاسفة والطبيعيين، والدهرية، والبراهمة، واليهود، والنصارى، والمجوس، وهو كتاب كبير يحتوي على اثني عشر كتاباً، وقد ذكر ابن خلكان من مؤلفاته كتاب "اللمع" "وإيضاح البرهان" والتبيين عن أصول الدين" و "الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل". وله — عدا العلوم العقلية والكلام — مؤلفات في علوم الشريعة منها: "كتاب القياس " "كتاب الاجتهاد" و "خبر الواحد" وكتاب في الرد على ابن الراونديِّ في إنكاره للتواتر، وقد ذكر في كتابه "العمد" مؤلفاته التي فرغ منها سنة 320هـ يعنى قبل وفاته بأربع سنوات، وهي ثمان وستون مؤلفاً، وكثير منها يقع في عشرة مجلدات أو أكثر، وقد ألفَّ في آخر حياته كتباً كثيرة ويدل كتابه "مقالات الإسلاميين" على أنه لم يكن متكلماً، فحسب، بل كان مؤرّخاً أميناً لعلم العقائد، وقد اعترف بدقته وأمانته وتحرَّيه للصدق في النقل المستشرقون [1051] ، وكتب الفرق والديانات تدلُّ على أمانته ودقته في النقل [1052] .

ش– اجتهاده في العبادة: لم يكن أبو الحسن الأشعري رجل علم وعقل وبحث ونظر فحسب، بل كان — مع وصوله إلى درجة الإمامة والاجتهاد في العلم والعقل — مجتهداً في العبادات متحلياً بالأخلاق الفاضلة،

[1049]رجال الفكر والدعوة (148/1).

[1050]تبيين كذب المفتري ص 136.

[1051]رجال الفكر والدعوة (150/1).

[1052]المصدر نفسه (150/1).

وذلك ما يمتاز به العلماء الأقدمون؛ فإن اشتغالهم بالعلم لم يكن مانعاً عن الاجتهاد في العبادات والحرص على الطاعات وكانوا يجمعون بين الدراسة والإفادة والعبادة والزهادة. قال أحمد بن علي الفقيه : خدمت الإمام أبا الحسن بالبصرة سنين، وعاشرته ببغداد إلى أن توفي رحمه الله فلم أجد أورعَ منه، وأغضَّ طرفاً، ولم أر شيخاً أكثر حياءً منه في أمور الدنيا، ولا أنشط منه في أمور الآخرة [(1053)]. ويحكي أبو الحسين السَّروي من عبادته في الليل واشتغاله، ما يدل على حرصه وقوته في العبادة [(1054)] ، قال ابن خلكان : وكان يأكل من غَلِةِ ضيعة وقفَها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى على عَقَبهِ، وكانت نفقته في كل يوم سبعة عشر درهماً، هكذا قاله الخطيب [(1055)] .

ع- عقيدة أبي الحسن الأشعري التي مات عليها:

قال أبو الحسن الأشعري هذه حكاية جملة ما عليه أهل الحديث والسنة:

1. الإقرار بالله وملائكته ورسله وأن محمداً عبده ورسوله.
2. وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القور.
3. وأن الله سبحانه وتعالى على عرشه كما قال "الرحمن على العرش استوى" (طه، آية:5).
4. وأن له يدين بلا كيف كما قال : "خلقت بيديَّ " (طه، آية: 75).
5. وأن له عينين بلا كيف كما قال "تجري بأعيننا" (القمر، آية :14).
6. وأن له وجهاً كما قال : "ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام" (الرحمن الآية:27).
7. وأن أسماء الله لا يقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج.
8. وأقروا أن الله سبحانه عالماً كما قال: "أنزله بعلمه" (النساء، آية: 166) وقال: "وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه" (فاطر، آية : 11).
9. وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة.
10. وأثبتوا لله القوة كما قال : "أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة" (فصلت، آية:15).
11. وقالوا : إنه لا يكون في الأرض من خير ولا شر إلا ما شاء الله.

[1053] تبيين كذب المفترى ص 141.

[1054] رجال الكفر والدعوة (150/1).

[1055] وفيات الأعيان (412/1).

12. وأن الأشياء تكون بمشيئة الله، كما قال عز وجل : " وما تشاؤون إلا أن يشاء الله " (التكوير، آية : 29). وكما قال المسلمون : ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون.
13. وقالوا: إن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله أو يفعل شيئاً علم الله أنه لا يفعله.
14. وأقروا أنه لا خالق إلا الله وأن سيئات العباد يخلقها الله وأن أعمال العباد يخلقها الله عز وجل وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً.
15. ويقولون إن القرآن كلام الله غير مخلوق.
16. والكلام في الوقت واللفظ من قال باللفظ أو الوقف فهو مبتدع عندهم لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق.
17. ويقولون إن الله سبحانه يرُى بالأبصار يوم القيامة كما يُرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون لأنهم عن الله محجوبون، قال الله عز وجل : "كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون" (المطففين، آية: 15) وأن موسى عليه السلام سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا وأن الله سبحانه تجلى للجبل فجعله دكا فأعلمه أنه لا يراه في الدنيا بل يراه في الآخرة.
18. ولا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كنحو الزنا والسرقة وما أشبه ذلك من الكبائر ومعهم بما هم من الإيمان مؤمنون وإن ارتكبوا الكبائر.
19. والإيمان عندهم هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره حلوه ومره وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم وما أصابهم لم يكن ليخطئهم.
20. والإسلام هو أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله على ما جاء في الحديث، والإسلام عندهم غير الإيمان.
21. ويقرون بأن الله سبحانه مقلب القلوب.
22. ويقرون بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها لأهل الكبائر من أمته، وبعذاب القبر، وأن الحوض حق والصراط حق، والبعث بعد الموت حق.
23. والمحاسبة من الله عز وجل للعباد حق والوقوف بين يدي الله حق.
24. ويقرون بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق.
25. ويقولون : أسماء الله هي الله.
26. ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار ولا يحكمون بالجنة لأحد من الموحدين، حتى يكون الله سبحانه ينزلهم حيث شاء ويقولون : أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء

غفر لهم، ويؤمنون بأن الله سبحانه يخرج قوماً من الموحدين من النار على ما جاءت به الروايات عن رسول الله.

27. وينكرون الجدال والمراء في الدين والخصومة في القدر والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ويتنازعون فيه من دينهم بالتسليم للروايات الصحيحة والآثار التي رواها الثقات عدلاً عن عدل حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يقولون كيف ولا لم لأن ذلك بدعة.

28. ويقولون : إن الله لم يأمر بالشر بل نهى عنه وأمر بالخير ولم يرض بالشر وإن كان مريداً له.

29. ويعرفون حق الذين اختارهم الله سبحانه لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ويأخذون بفضائلهم ويمسكون عما شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم.

30. ويقدمون أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليا رضوان الله عليهم.

31. ويقرون أنهم الخلفاء الراشدون المهديون أفضل الناس كلهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

32. ويصدقون بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله سبحانه ينزل إلى السماء الدنيا فيقول هل من مستغفر ؟ كما جاء الحديث عن رسول الله.

33. ويأخذون بالكتاب والسنة كما قال الله عز وجل : "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول".

34. ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين لا يبتدعون في دينهم ما لم يأذن به الله.

35. ويقرون أن الله سبحانه يجيء يوم القيامة كما قال : "وجاء ربك والملك صفا صفا" (الفجر، آية: 22).

36. وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال: "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" (ق، آية:16).

37. ويرون العبد والجماعة خلف كل إمام بر وفاجر.

38. ويثبتون المسح على الخفين سُنة ويرونه في الحضر والسفر.

39. ويثبتون فرض الجهاد للمشركين منذ بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلى آخر عصابة تقاتل الدجال وبعد ذلك.

40. ويرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف وأن لا يقاتلوا في الفتنة.

41. ويصدقون بخروج الدجال وأن عيسى بن مريم يقتله.

42. ويؤمنون بمنكر ونكير والمعراج والرُويا في المنام.
43. وأن الدعاء لموتى المسلمين والصدقة عنهم بعد موتهم تصل إليهم.
44. ويصدقون بأن في الدنيا سحرة وأن الساحر كافر كما قال الله، وأن السحر كائن موجود في الدنيا.
45. ويرون الصلاة على كل من مات من أهل القبلة برهم، وفاجرهم وموارثتهم.
46. ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان.
47. وأن من مات مات بأجله وكذلك من قتل قتل بأجله.
48. وأن الأرزاق من قِبل الله سبحانه يرزقها عباده حلالاً كانت أم حراما.
49. وأن الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويخبطه.
50. وأن الصالحين قد يجوز أن يخصهم الله بآيات تظهر عليهم.
51. وأن السنة لا تنسخ القرآن [1056].
52. وأن الأطفال أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء فعل بهم ما أراد.
53. وأن الله عالم ما العباد عاملون وكتب أن ذلك يكون وأن الأمور بيد الله.
54. ويرون الصبر على حكم الله والأخذ بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه وإخلاص العمل والنصيحة للمسلمين، ويدينون بعبادة الله في العابدين والنصيحة بجماعة المسلمين، وإجتناب الكبائر والزنا وقول الزور والعصبية والفخر والكبر والأزراء على الناس والعجب.
55. ويرون مجانبة كل داع إلى بدعة.
56. ويرون التشاغل بقراءة القرآن وكتابة الآثار والنظر في الفقه مع التواضع وحسن الخلق وبذل المعروف وكف الأذى وترك الغيبة والنميمة والسعاية وتفقد المأكل والمشرب.
57. فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه وبكل ما ذكر من قولهم نقول وإليه نذهب وما توفيقنا إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل وبه نستعين وعليه نتوكل وإليه المصير [1057].

هذه عقيدة الإمام الأشعري التي استقر عليها وصرح بها، وهي من الآثار التي تركها بعد وفاته وقد ساهمت بلا شك في توعية الأمة وتربيتها على أصول أهل السنة والجماعة سواء في المدارس النظامية في عهد

[1056] مسألة فيها خلاف يطول عند أهل السنة.

[1057] اعتقاد أهل السنة أصحاب الحديث شرح جملة ما حكاه عنهم أبو الحسن الأشعري وقرّره في مقالاته د.محمد عبدالرحمن الخميس ص 11 إلى 171 وقد قام الدكتور بشرح هذه الأصول.

السلاجقة أو في عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين وإلى يومنا هذا ومن الإنصاف العلمي القول بأن المذهب الأشعري لم يستقر على ما مات عليه الإمام أبو الحسن الأشعري بل حدث تطور في المذهب الأشعري بحيث أن أقوال الأشاعرة تعددت واختلفت في مسائل عديدة ومن أشهر الذين اجتهدوا وخالفوا أبا الحسن الأشعري، في بعض المسائل، أبي بكر الباقلاني وابن فورك وعبد القاهر البغدادي، والبيهقي والقشيري، والجويني والغزالي وغيرهم على درجات متفاوت بينهم في ذلك وقد قام الدكتور عبدالرحمن بن صالح بن صالح المحمود بتتبع هذا التطور بنوع من التفصيل في كتابه القيم موقف ابن تيمية من الأشاعرة.

– **وفاته :** وكانت وفاته سنة 324هـ ودفن ببغداد في مشروع الزوايا [1058] ، ونودي على جنازته: اليوم مات ناصر السنة [1059]. هذه هي العقيدة السنية التي سارت عليها الدولة الأيوبية، ولقد قام علماء السنة بتفنيد فكرة النص التي قال بها الشيعة الرافضة وبنوا عليها مذهبهم في الإمامة، وأوضحوا تهافتها اعتماداً على ما تم من اختيار أبو بكر ومبايعة المسلمين له في يوم السقيفة [1060]. وفي نفس الوقت، راح دعاة السنة يؤكدون شرعية خلفاء بني العباس السنيين في الخلافة، وحكم جميع بلاد المسلمين، ويظهرون مثالب الفكر الباطني الإسماعيلي وما انطوى عليه من مغالطات وتدليس، ويبينون بطلان النسب الفاطمي وانتسابهم لعلي بن أبي طالب ولقد استفاد الأيوبيون من السلاجقة والزنكيين في وسائل نشر العقيدة السنية الإسلامية بمصر وفي أنحاء الدولة الأيوبية وقد كانت العقيدة الإسلامية السنية ووسائل نشرها من ناحية والفقه الشافعي السني من ناحية أخرى كانت تمثل في العصر الأيوبي، إحدى شقي الدعوة السنية التي نشرها الأيوبيون بعد قضائهم على الدعوة الشيعية الإسماعيلية [1061] .

5– الداراسات الفقهية: اهتم الأيوبيون بهذا الفرع من فروع الثقافة السنية اهتماماً كبيراً، وذلك من خلال المدارس الكثيرة التي أنشؤوها، وجعلوها وقفاً على فقهاء مذهب بعينه أو وقفاً مشتركاً بين أكثر من مذهب، كما هو الحال في المدرسة الفاضلية التي أوقفت على الشافعية والمالكية، والمدرسة الظاهرية بحلب التي أوقفت على الشافعية والحنفية وكذلك المدرسة الصالحية بالقاهرة التي وقفها الصالح نجم الدين أيوب على المذاهب الفقهية السنية الأربعة، إلا أن عناية الأيوبيين بمدارس الشافعية كانت أكثر على اعتبار أن مذهب

[1058] وفيات الأعيان (412/1).

[1059] رجال الفكر والدعوة (151/1).

[1060] تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص 150.

[1061] المصدر نفسه ص 136 ، 163.

الشافعي كان المذهب الرسمي للدولة، وهو الذي عليه القضاء ويعتنقه جميع الأيوبيين لم يشذ عنهم في ذلك سوى الملك المعظم عيسى بن العادل الذي كان حنفي المذهب واقتدى به بنوه في اتباعه ويضاف إلى هذا أن الذين تولوا المناصب الرئيسية في دولة صلاح الدين كانوا من الشافعية، منهم على سبيل المثال: القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، ويؤكد هذا ما أشرنا إليه من قبل وهو أن نور الدين الحنفي المذهب كان معظم رجاله من الشافعية وكثير، منهم تخرج من المدارس النظامية، كالقاضي كمال الشهرزوري، وابن أبي عصرون [1062]، وغيرهما.

هذه هي العناصر الأساسية للثقافة السنية التي حفلت بها المؤسسات الفكرية في عصر الأيوبيين. اعتنى الأيوبيون بنشرها، والتمكين لها وبخاصة في مصر، نتيجة لظروفها التاريخية السابقة، حيث كانت المعقل الرئيسي للدعوة الشيعية الإسماعيلية فقد تركزت عناصر الثقافة السنية حول القرآن الكريم، والحديث الشريف والدراسات الفقهية السنية، وأصول العقيدة، ثم تعدث ذلك إلى كل ما يخدم هذه الثقافة من نحو، وأدب، وعلوم لغة، ولم تكن للدراسات العقلية الفلسفية فيها نصيب بل إن من كانوا يسعون لتحصيل هذا النوع من الثقافة كانوا يحصلونه على استحياء، بسبب استهجان الإشتغال بهذه العلوم من الأوساط العلمية السنية وكان المشتغلون بها لا يلقون تقبلاً اجتماعياً ومرفوضين من البيئات العلمية السنية وكان المشتغلون بها لا يلقون تقبلاً اجتماعياً ومرفوضين من البيئات العلمية السنية التي يحلون بها [1063] ، والأمثلة على هذا كثيرة منها: أن صلاح الدين كان : مبغضاً للفلاسفة والمعطلة والدهرية [1064] . وعلى ما يبدو أن العداء للعلوم الفلسفية في هذه البيئة كان له سببان :

الأول: أن هذا الموقف كان رد فعل ضد المذهب الشيعي الذي اعتمد اعتماداً كبيراً على الفلسفة في تكوين عقائده وفي الدعوة إليها، ومن ثم أنكرها علماء السنة، إيمانا منهم بأن المذهب السني واضح بسيط يسهل على الناس فهمه وإدراكه دون حاجة إلى الاستعانة بالفلسفة أو المنطق كما ذهب إلى ذلك ابن الصلاح في فتواه [1065].

1062 التاريخ السياسي والفكري ص 244.

1063 المصدر نفسه ص 248.

1064 سيرة صلاح الدين ص 10.

1065 الحياة العلمية في مصر والشام ص 6.

الثاني: أن الفلسفة كانت فقدت بريقها، ونزلت من عليائها منذ أن وجه إليها الإمام الغزالي وابل سهامه في كتابه : تهافت الفلاسفة، وكان تأثير الغزالي ما يزال قوياً مسيطراً على البيئات السنية في العصور التي تلت عصره [1066].

رابعاً : إحياء الأيوبيين لدولة الخلافة العباسية:

استطاعت الدولة الأيوبية في نهاية القرن السادس الهجري ومطلع القرن السابع الهجري إحياء النفوذ السياسي لدولة الخلافة العباسية في أغلب أرجاء بلاد المشرق الإسلامي؛ فنعد قضاء الأيوبيين على الخلافة الفاطمية بمصر سنة 567هـ/1171م وقد نجحوا في سنة 569هـ/1173م، في فتح بلاد اليمن وكانت تعد من أقدم وأقوى معاقل الدعوة الفاطمية، واستطاعوا القضاء على الداعي الفاطمي بها عبد النبي بن مهدي، وخطبوا لبني العباس على منابر اليمن؛ ومن اليمن مدوا نفوذهم إلى الحرمين الشريفين، وخطبوا على منابرهما لخليفة بغداد [1067]، الذي أكتمل له بهذا الأمر مظاهر نفوذه الروحي في العالم الإسلامي لكونه أصبح حامي حمى الحرمين الشريفين، بعد تفرد الخلافة الفاطمية بهذا الأمر دون بني العباس لفترة طويلة [1068] ، وثمة عدة إشارات ذكرها المؤرخون المصريون واليمنيون والشوام المعاصرين للفتح الأيوبي لليمن [1069]، توضح أن هذا الفتح كان خطوة أيديولوجية للإجهاز على الدعوة الفاطمية هدف إليها السلاجقة، ثم الزنكيين ونفذها بنو أيوب، ولم يكن بحال من الأحوال تأييداً لاستقلال الأيوبيين عن نور الدين زنكي [1070] ، وقد حرص الأيوبيون عند فتحهم لليمن على إدخال كتب الدعوة السنية مع جيوشهم، والعمل على نشرها في بلاد اليمن، وذلك للقضاء على كتب الدعوة الشيعية هناك، مثل كتب المعتزلة والزيدية والفاطميين التي كانت قد اجتلبت إلى بلاد اليمن من بلاد الديلم في عهد ائمة اليمن الزيدية وأبان النفوذ الفاطمي على بلاد اليمن [1071]، ومن ناحية أخرى حاول الأيوبيون ضم المغرب الإسلامي وانتزاعه من الموحدين لصلاح العباسيين، ولقد حرص صلاح الدين على احترام الخلفاء العباسيين وكان منهجه امتداداً لمنهج نور الدين الذي وصفه

1066 التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 251.

1067 رحلة بن جبير ص 73 تاريخ مصر الإسلامية زمن بني أيوب ص 183.

1068 النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، جمال سرور ص 183.

1069 تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص 183.

1070 المصدر نفسه ص 183.

1071 المصدر نفسه ص 183.

سبط ابن الجوزي بأنه : كان يتدين بطاعة الخليفة [1072] ، وكان هذا الاحترام نابعاً من إيمانه بوجوب الطاعة للخلفاء العباسيين ويظهر هذا بوضوح في إحدى رسائل القاضي الفاضل إلى الخليفة الناصر بعد استيلاء صلاح الدين على حلب إذ جاء فيها : وهذه المقاصد الثلاثة : الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمة من الدنيا إذا منحها، والله العالم أنه لا يقاتل لعيش ألين من عيش ولا يريد إلا هذه الأمور التي توسم أنها تلزم [1073]، وعندما أرسل الخليفة الناصر لدين الله إلى صلاح الدين يعاتبه في تلقيه بالملك الناصر مع أنه لقب أمير المؤمنين أرسل إليه يعتذر بأن ذلك كان من أيام الخليفة المستضيء وأنه إن لقبه أمير المؤمنين بلقب آخر فهو لا يعدل عنه : وتأدب مع الخليفة غاية الأدب [1074] . وسار على هذا النهج – تجاه الخلفاء – معظم الأيوبيين [1075].

خامساً: حماية سلاطين بني أيوب لطريق الحج والحرمين الشريفين :

يرجع الفضل بعد الله إلى عودة السيادة العباسية على الحجاز إلى مساعي السلاجقة لنزع الأماكن المقدسة من هيمنة الدولة الفاطمية الشيعية وفي عهد نور الدين زنكي ظهرت جهوده الميمونة في الإحسان لأهل مكة والمدينة، وبعث العساكر لحفظ المدينة النبوية، وأقطع أمير مكة إقطاعاً، وأقطع أمراء العرب إقطاعات لحفظ الحج فيما بين دمشق والحجاز، وأكمل سور المدينة النبوية، واستخرج لها العين، فدعي له بالحرمين على منبريهما بعد اسم الخليفة العباسي [1076]، وثمة معلومة على جانب كبير من الأهمية لدارس تاريخ الأسرة الأيوبية ونشأتها، تشير إلى أن تولي مؤسس هذه الأسرة، لإمارة لواء الحج الشامي، إبان خدمتها لنور الدين زنكي، وكان من أهم عوامل استقواء هذه الأسرة الطموحة، فنعرف أن نجم الدين أيوب، كبير البيت الأيوبي، كان قد تولى إمارة الحج الشامي لنور الدين زنكي منذ سنة 551هـ/1156م وقد ورثه في هذا المنصب أخوه أشد الدين شيركوه الذي وصف أنه قد تقدم عند نور الدين زنكي، وبعثه أمير الحاج من دمشق [1077] . وكان شيركوه في حياته قد أنفق من أمواله المبالغ الضخمة، في سبيل إقامة الشعائر الدينية والخيرية بالحرمين هو وصديقه الوزير جمال الدين وزير صاحب الموصل، وأوصى صديقه بأن يدفن في تربة بجوار المسجد النبوي

[1072] مرآة الزمان (213/8) التاريخ السياسي والفكري ص 251.

[1073] كتاب الروضتين (48/2) التاريخ السياسي والفكري ص 252.

[1074] حسن المحاضرة (20/2) طبقات الشافعية (341/4).

[1075] التاريخ السياسي والفكري لمذهب أهل السنة ص 252.

[1076] الذهب المسبوك نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 203.

[1077] تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص 204.

بالمدينة المنورة [1078] ، وقد حرص ملوك بني أيوب على تحقيق هذه الأمنية والوصية، فقاموا بنقل رفاة نجم الدين أيوب وأخيه شيركوه بعد دفنهما بمصر، وأعادوا دفنهما بالمدينة، طبقاً لوصيتهما [1079] واستمرت السيادة العباسية على الحجاز، على يد سلاطين وملوك الدولة الأيوبية، وتبدت مظاهر عودة هذه السيادة في الخطبة للخليفة العباسي بالحرم المكي، قبل أمير مكة، وقبل السلطان الأيوبي صاحب مصر، وملك اليمن من بني أيوب، وفي إرسال التقاليد الخليفتية بالإمارة لكل من أمير مكة والمدينة، صُحبة أمير الحاج العراقي، وكان تقليد أو عزل أمير المدينة ومكة أو أولياء عهدهما يقرأ بجوار المسجد النبوي [1080]، وإرسال كسوة الكعبة كل سنة بشعار بني العباسي وهو السواد وبُطرُز حمراء تحمل اسم الخليفة العباسي وعبارات دعائية له [1081] ، كما تولى خلفاء بني العباس، عمارة الحرم المكي، والمسجد النبوي. كذلك كان الخليفة العباسي وحده، هو صاحب الحق في رفع لواءه يوم الوقوف بعرفات [1082]، وتأكيداً لإشراف الخلافة العباسية على الحرم المكي، كان أمير الحج العراقي يقوم بنفسه بكسوة الكعبة مع خواصه [1083]، كما كانت خلع الخليفة شعار السواد العباسي، ترسل من بغداد إلى خطيب الحرم المكي، شأنه شأن خطباء البلاد التابعة للخلافة العباسية على حد قول ابن جبير، وذلك كي يلبسها عند صعوده للخطبة الجامعة [1084].

1- صلاح الدين الأيوبي خادم الحرمين الشريفين : ورث صلاح الدين الأيوبي عن استاذه نور الدين زنكي، السلطنة العامة، ورسالته في توحيد الجبهة الإسلامية لجهاد الصليبيين، عن طريق إحياء الخلافة العباسية، ونصرة الدعوة السنية، ووث عن استاذه أيضاً مهمة الحجاج وتأمين طريق الحج، فأمر في سنة 572هـ بأبطال الغفارة، التي كانت تؤخذ بجدة من المسافرين على طريق البحر الأحمر، وعوض صاحب مكة في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمح تحمل إليه في البحر، ويحمل مثلها فتفرق في أهل المارستان بمكة، كما أوقف على الحجاج وعلى الحرمين الأوقاف [1085]، وذلك للصرف على مؤنتهم إبان أداء الفريضة [1086] ،

[1078] مرآة الزمان (250/8) تاريخ مصر الإسلامية ص 204.

[1079] مرآة الزمان (278/8) تاريخ مصر الإسلامية ص 204.

[1080] مرآة الزمان (524/8، 611) تاريخ مصر ص 205.

[1081] تاريخ مصر الإسلامية ص 205.

[1082] النجوم الزاهرة (105/6) تاريخ مصر الإسلامية ص 205.

[1083] تاريخ مصر الإسلامية ص 206، رحلة بن جبير ص 157 - 158.

[1084] المصدر نفسه ص 206.

[1085] مرآة الزمان (338/8) تاريخ مصر الإسلامية ص 207.

[1086] تاريخ مصر الإسلامية ص 207 رحلة ابن جبير ص 30 - 31.

كما أقطع أمير مكة الإقطاعات بصعيد مصر وباليمن [1087]، وأيضاً أوقف على أمير المدينة الأمير جماز وأولاده أوقافاً بصعيد مصر، لم تذكرها المصادر الأيوبية وإن أكدتها وثائق المحكمة الشرعية، المحفوظة اليوم بسجلات، مصلحة الشهر العقاري [1088]؛ وقد شفع صلاح الدين ذلك برفع جميع المكوس، وهي ضرائب غير شرعية كانت تجبى من التجار، عن الحجاج، فتسهل سبيل الحج بعد أن كاد أن ينقطع، ولم يعد في استطاعت الحجاج أداء فريضة الحج [1089] ، وكل هذه الأيادي البيضاء التي أسدها صلاح الدين لحجاج بيت الله الحرام جعلت منه، حامي حمى الحرمين الشريفين، وهو مظهر من مظاهر الزعامة السياسية في العالم الإسلامي كله [1090].

وقد تأثر العالم الإسلامي بجهود صلاح الدين ولذلك عندما يذكر صلاح الدين بالدعاء على منابر الحرمين بعد الخليفة العباسي وأمير مكة، تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان، وإذا أحب الله يوماً عبده، ألقى عليه محبة الناس، وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم، وحسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم [1091] ، ويقول ابن جبير بعد ذكره لدعاء الخطيب لصلاح الدين : أنه ذي المآثر الشهيرة، والمناقب الشريفة، فإذا انتهى ذكره بالدعاء، ارتفعت أصوات الطائفتين بالتأمين، بألسنة تمدها القلوب الخالصة والنيات الصادقة، وتخفق الألسنة بذلك خفقاً، يذيب القلوب خشوعاً، لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل، وألقى عليه من محبة الناس، وعباد الله شهدائه في أرضه [1092] . يقول ابن جبير: أعلمنا بأن كتابه (صلاح الدين) وصل إلى الأمير مكثر، وأهم فصوله، التوجيه بالحاج والتأكيد في مبرتهم وتأنيسهم، ورفع أيدى الاعتداء عنهم وإلا يعاز في ذلك إلى الخدام والاتباع. وقال : إنما نحن وأنتم متقلبون في بركة الحاج، فتأمل هذا المنزع الشريف والمقصد الكريم. وإحسان الله يتضاعف إلى من أحسن إلى عباده وأعتناؤه موصول لمن جعل همه الاعتناء بهم، والله عز وجل كفيل بجزاء المحسنين [1093] . والواقع أن صلاح الدين لم يدخر وسعاً لاستمرار تأمين طريق الحج بحيث جعل هذا الأمر هجيراه، ودام على مكاتبة أمير مكة

[1087] المصدر نفسه ص 207.
[1088] المصدر نفسه ص 208.
[1089] المصدر نفسه ص 208.
[1090] المصدر نفسه ص 209.
[1091] رحلة ابن جبير ص 73 تاريخ مصر الإسلامية ص 210.
[1092] المصدر نفسه ص 80 تاريخ مصر الإسلامية ص 210.
[1093] رحلة ابن جبير ص 74.

يوصيه برعاية الحجاج عند وصولهم إلى الحرم المكي [1094] ، كما كاتب أمير برقة من قبله، يوصيه بحماية الحجاج المغاربة والأندلسيين المارين بولايته [1095] ، كما حرص على تبادل السفارات الودية مع أمير المدينة النبوية وتعظيم رسوله والاعتزاز بهداياه، لكونها من قبل أمير المدينة النبوية الشريفة [1096] .

2- حماية صلاح الدين لطريق الحج البري لحجاج مصر والمغرب، والأندلس:

أدرك الصليبيون خطورة فريضة الحج، كركن أساسي من أركان الإسلام يحقق للمسلمين الوحدة الروحية، ويوثق بينهم روابط اجتماعية وفكرية كفيلة بتعضيد شعورهم بالولاء إلى أمة واحدة، وكيان اجتماعي واحد؛ فعمدوا أحياناً إلى مهاجمة قوافل الحج والتجارة المصرية، المارة عبر صحراء سيناء، وفي طريق الحجاج الشهير ونهبها [1097] ، مما أدى إلى تعطيل الطريق البري للحجاج، الوافدين من الأندلس والمغرب ومصر، واضطرارهم إلى سلوك طريق طويل يبدأ من الإسكندرية إلى الفسطاط، إلى مدينة قوص بصعيد مصر ثم منها يخترق الحجاج صحراء عيذاب، حتى يصلوا إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر، ومنها يركبون السفن الصغيرة المعروفة بـ "الجلاب" حتى ميناء جدة؛ وكانت هذه الرحلة طويلة شاقة عانى منها الحجاج الأمرّين [1098] ، وكان قطع الصليبيين لطريق الحج البري عبر سيناء، قد تم لهم بعد استيلائهم على حصن الكرك؛ مما جعل استرداد هذا الحصن من أهم أهداف نور الدين زنكي [1099] ، ثم صلاح الدين الأيوبي حين كان نائبه بمصر، قبل استقلاله بالسلطنة؛ لذلك عمد نور الدين إلى محاصرة الكرك حصاراً مزدوجاً من ناحية الشام ومن ناحية مصر في نفس الوقت، وكاد يتم له [1100] استرداده وحين استقرت السلطنة لصلاح الدين، جعل الكرك هدفاً لأول غزوة من مغازيه للفرنج ليصل طريق القوافل والتجارة عبر سيناء، بين مصر والشام، ويؤمن طريق الحج المصري البري بعد انقطاعه ولا شك أن حملة أرناط البحرية على البحر الأحمر ومحاولتها الوصول إلى الأراضي الحجارية، واختطاف جثمان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، كانت على علم تام بأهمية حج المسلمين إلى الأراضي الحجازية، وزيارة المدينة النبوية والمسجد النبوي الشريف. ولم يقصر لؤلؤ قائد الأسطول

[1094] تاريخ مصر الإسلامية ص 210.

[1095] المصدر نفسه ص 210.

[1096] صبح الأعشى (1/59 – 61) تاريخ مصر ص 210.

[1097] مرآة الزمان (8/415 إلى 416).

[1098] رحلة ابن جبير ص 38 - 53.

[1099] الباهر ص 158 تاريخ مصر الإسلامية ص 212.

[1100] تاريخ مصر الإسلامية ص 212.

المصري في أسر هؤلاء الفرنج، وإدخالهم إلى القاهرة في هيئة مزرية، وعلى صورة من الذلة والمهانة وصفها لنا ابن جبير؛ ثم أرسل لؤلؤ بعض هؤلاء الأسرى إلى المدينة المنورة، حيث ذبحوا ذبحاً[1101]، فلا غرو أن لقب صلاح الدين بـ "خادم الحرمين الشريفين" و "ومنقذ بيت المقدس من أيدي المشركين " [1102]؛ وليس أدل على الأهمية العظمى التي أولاها العالم الإسلامي، لتأمين طريق الحجاج المسلمين إلى مكة وحرص الأيوبيين على إنجازها مما صرح به العماد الأصفهاني مؤرخ صلاح الدين، من أن تأمين طريق الحج إلى مكة من أهم دوافع صلاح الدين، لفتح بيت المقدس واسترداده من الصليبيين [1103].

3- الإشراف المباشر لملوك بني أيوب على موسم الحج :

داوم ملوك بني أيوب، على حماية طريق الحج وتأمينه، وحماية لواء الحج العراقي، الممثل لسيادة الخليفة الروحية على العالم الإسلامي، وكان هذا عادة ما يكون من حظ أيوبي اليمن وذلك حتى في حياة صلاح الدين، فكان يخطب لهم بالحرمين بعد صلاح الدين سلطان مصر [1104] ، ففي سنة 582هـ/1186م وصل سيف الإسلام طشتكين ملك اليمن الأيوبي بنفسه إلى الكعبة، ليمنع الآذان الشيعي بها بحي على خير العمل، وليمنع العبيد الموالين لأمير مكة الذين يأخذون الحجاج؛ وطلب مفتاح الكعبة من أمير مكة، ليكون هو الحامي للحرم المكي من الناحية الفعلية؛ وذلك بعد أن حاول أمير مكة إغلاق باب الكعبة، وإعطاء مفتاحه لسدنته من بني شيبة، الذين ذكر الرسول، أنه سيبقى في أيديهم إلى يوم الدين، حتى يرغم طشتكين على العودة دون طلب مفتاح الكعبة، فهدد طشتكين بأخذه قصراً، وهنا أذعن أمير مكة، وسلم المفتاح لطشتكين، الذي سلمه بدوره لبني شيبة [1105] ومما يؤكد اهتمام سلاطين بني أيوب بموسم الحج ما ذكره مؤرخو سيرة صلاح الدين من استحداثه رسوماً خاصة باستقبال موكب الحج الشامي، وذلك خلال إقامته بدمشق فكان صلاح الدين يركب ركوباً عسكرياً، مرتدياً الزي العسكري الكامل، ويخرج في احتفال عام، ويقطع به شوارع دمشق، سالكاً طرقاً محددة [1106]، وإذا كان المؤرخون قد لاحظوا، أن أحداً من سلاطين مصر الأيوبية، لم يحج بنفسه لإنشغالهم الدائم بجهاد الصليبيين، فقد حج من أيوبي اليمن الملك المعظم شمس

[1101] مفرج الكروب (127/2 – 132).

[1102] النوادر السلطانية نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 213.

[1103] الفتح للعماد ص 191 تاريخ مصر الإسلامية ص 213.

[1104] رحلة ابن جبير ص 80.

[1105] مرآة الزمان (388/8) تاريخ مصر الإسلامية ص 213.

[1106] النوادر السلطانية نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 226.

الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين، وفاتح اليمن، وأول ملوكها [1107]؛ ثم الملك المسعود المعروف باقسيس، ابن الملك الكامل سلطان مصر [1108]، وحج من أيوبي الشام، الملك المعظم عيسى ابن العادل أبي بكر، صاحب دمشق، والملك الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب الكرك [1109]، لقد حاز الأيوبيون منذ عصر صلاح الدين، شرف حماية فريضة الحج والإشراف على الحرمين الشريفين وتعضيد النفوذ السياسي لأمير لواء الحج العراقي على بلاد الحجاز، كما أصبحت السلطنة الأيوبية هي حامية الدعوة العباسية والعاملة على نشر دعوتها في جميع ديار الإسلام، سواء في ممتلكات الدولة الفاطمية في نفوذ دولة الموحدين بالمغرب، وفوق ذلك في البلاد الإسلامية بالشام التي يتم استردادها من الصليبيين، ولا ريب أن تفرد سلاطين بني أيوب بالنهوض بأعباء الدعوة العباسية، وحماية الخليفة العباسي، وإلزام ملوك الأطراف إظهار الطاعة والتبعية له قد أمد السلطنة الأيوبية بسند شرعي، جعلها تتصدر الزعامة السياسية للعالم الإسلامي [1110] والجدير بالملاحظة أن أول السلاطين السنيين الذين اضطلعوا بحماية فريضة الحج، قبل نور الدين زنكي وتلامذته سلاطين بني أيوب، كان السلطان محمود الغزنوى أول السلاطين السنيين وأقدمهم ظهور في تاريخ المشرق الإسلامي [1111]، ثم ورثه السلاجقة، فالسلطان ملكشاه السلجوقي، كان أول من استن وسائل حماية هذه الفريضة لمن بعده من السلاطين، فبنى أحواض الماء على طريق الحجاز، ورفع المكوس ورسوم الحفاوة عن طريق الحج، وأقطع أمراء الحرمين نظير ذلك الإقطاعات والأموال، وكانوا يأخذون قبل ذلك من كل حاج سبعة دنانير ذهبية، وأنعم كذلك على عرب البادية وعلى مجاوري الكعبة بالإنعامات الطائلة [1112].

خامساً: محاربة الأيوبيين للتشيع في مصر والشام واليمن:

ليس من السهل اليسير أن يقتلع مذهب من المذاهب بمجرد تغير النظام السياسي في بلد من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة وإلى تدبير ليست من تدابير القوة والبطش فحسب، لذلك فالملاحظ أن صلاح الدين قد استخدم وسائل وأساليب عديدة في سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر جاءت

1107 الذهب المسبوك ص 70 – 73، تاريخ مصر ص 227.

1108 تاريخ مصر ص 227.

1109 الذهب المسبوك ص 76 -79.

1110 تاريخ مصر الإسلامية ص 232.

1111 تاريخ مصر الإسلامية ص 232.

1112 المصدر نفسه ص 233.

بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والحسم الفوري المباشر، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج، واستخدم بعضها القّوى العسكرية، في حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية والدينينة الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها [1113] وكان للقاضي الفاضل دور بارز في رسم هذه الاستراتيجية، وقد تحدثت عن هذه الوسائل عند حديثنا عن زوال الدولة الفاطمية والتي كان من أهم أسبابها؛ إذلال الخليفة الفاطمي العاضد، ووضعه من مكانته وهيبة قصر الدولة الفاطمية، وقطع الجمعة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية، وألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين، ومحو رسوم الفاطمية وعملاتهم، والحفاظ على أفراد البيت الفاطمي وإضعاف عاصمة الدولة الفاطمية، وأحياء قضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي، والاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن [1114] ويبدوا أن الشيعة وأنصار الفاطميين بمصر، قد فروا إلى صعيد مصر، والتفوا حول أحد أمراء العرب المتحمسين للدولة الفاطمية، كان يلقب كنز الدولة إلا أن صلاح الدين بعث أخاه الملك العادل، على جيش، استطاع القضاء على هذه الفتنة [1115]، وكانت الدولة الأيوبية تتصدى بحزم، لكل المحاولات الفاطمية لإرجاع مصر إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي واستمر الأيوبيون في الانتصار للعقيدة السنية وإبادة التراث الشيعي الرافضي، وتتبعوا اتباعه في القاهرة والصعيد، حتى لم يجسر أحد على التظاهر بمذهبها، فانقرضت دعوتها من مصر [1116]، واستمروا في ملاحقة اتباع الدعوة في الشام واليمن حتى استطاعوا القضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر واليمن والشام، واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكيون في محاربة الدعوة الشيعية الإسماعيلية ونشر الدعوة السنية في إيران والشام [1117] ولقد أدركت الإسماعيلية أن دعوتهم لم تصب طول تاريخها على يد السلاطين السنيين مثل الغزنويين والسلاجقة بمثل النكبة التي نكبوا بها بسقوط الدولة الفاطمية وهي أعظم دولة شيعية قامت في التاريخ الإسلامي استحوذت الخلافة وكادت تضم العالم الإسلامي، كله تحت لوائها حين خطب لها ببغداد سنة 450هـ/1058 [1118] فلا غرو أن نظر الشيعة الإسماعيلية كلهم إلى صلاح

[1113] المصدر نفسه ص 181.

[1114] المصدر نفسه ص 53 إلى 77.

[1115] تاريخ مصر الإسلامية ص 75.

[1116] المصدر نفسه ص 77.

[1117] المصدر نفسه ص 78.

[1118] المصدر نفسه ص 75.

الدين على أساس أنه هو الذي أزال دولتهم الكبرى من مصر [1119] ولهذا فالأقلام الشيعية الرافضية عبر التاريخ لا تكل ولا تمل في تشويه سيرة الناصر صلاح الدين الأيوبي. ولقد ظل التشيع في مصر يضعف شيئاً فشيئاً، حتى كاد يمحى منها، وأصبحت مصر تدين بمذهب أهل السنة والجماعة.

سادساً: من العوامل التي ساعدت الأيوبيين على حركة الإحياء السني:

من العوامل التي ساعدت على نجاح الأيوبيين في حركة الإحياء السني عوامل متعددة منها، لم يكن المذهب الشيعي الإسماعيلي راسخ القدم، وكان للمصريين تجاهه موقفان، الأول: موقف الإعجاب بأصحاب هذا المذهب نتيجة ما بذلوه من جهود في الدعوة إلى مذهبهم، كان من بينهم : الإكثار في الاحتفالات والدعوات والولائم، والسخاء في منح الهدايا والأعطيات، ومظاهر النزف والبذخ التي كانت تحيط بهم في شتى مناشط الحياة ومظاهر الأبهة والعظمة التي كان يحرصون دائماً على الظهور بها [1120] والموقف الثاني : موقف من قبل دعوتهم وانخرط في سلكها ومعظم هؤلاء دخلوا في الدعوة إما طمعاً في المال أو الجاه والمنصب وإما خوفاً من التنكيل والعقاب وكلا الفريقين لم يعتنق المذهب عن عقيدة وإيمان. وقد سلك الفاطميون طريق الترغيب والترهيب في الدعوة إلى مذهبهم ضمن ما سلكوا من الأساليب والوسائل: فيعقوب بن كلس لما تولى الوزارة للعزيز رتب في داره العلماء وأجرى لجميعهم الأرزاق [1121] وألزم الفاطميون جميع الموظفين – بعد فترة من استقرارهم في مصر – بأن يعتنقوا مذهب الدولة، فأصبح الحفاظ على المنصب أو الترقي في سلكه يتطلب التظاهر باعتناق عقيدتهم، ويلوح لنا أن الرغبة في الحصول على مناصب الدولة هي التي دفعت بفريق من السنيين إلى التحول إلى المذهب الشيعي [1122] ، أما مواقف الإرهاب التي اتبعها الفاطميون لفرض المذهب على الناس فكثيرة :ففي عام 381هـ/991هـ ضرب رجل بمصر وطيف به في المدينة، لأنه وجد عنده موطأ مالك [1123]، واضطهد السنة في عهد الحاكم بأمر الله سنة 395هـ/1004م وألزموا بكتابة سب الصحابة على دورهم، فانضاعوا للأمر مكرهين [1124] ، وترتب على هذه الموجة من الاضطهاد في عهد الحاكم أن الناس سارعوا إلى الدخول في الدعوة خوفاً، فجلس لهم قاضي القضاة ...

1119 المصدر نفسه ص 77.

1120 تاريخ التربية الإسلامية ص 412 – 413.

1121 المواعظ والاعتبار (341/2) التاريخ السياسي والفكري ص 254.

1122 تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ص 218.

1123 المواعظ والاعتبار (341/2) التاريخ السياسي والفكري ص 254.

1124 المواعظ والاعتبار (341/2) التاريخ السياسي والفكري ص 254.

فقدموا من سائر النواحي والضياع وازدحم الناس .. فمات عدة من الرجال والنساء [(1125)] وفي عهد الظاهر كان نفوذ المالكية ما يزال قويا، فاضطر الخليفة إلى إخراج فقهائهم من مصر في عام 416هـ/1025م وأمر الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب دعائم الإسلام في أصول العقيدة الإسماعيلية وغيره من كتبهم وجعل لمن يحفظ ذلك مالاً [(1126)] ومن هذا، يتضح لنا أن هذا المذهب لم يقم على دعائم راسخة في مصر، ولذلك عندما جاء صلاح الدين، وأنشأ المدارس السنية، وفوض القضاء للشافعية، ثم اتبع ذلك بإسقاط الخلافة الفاطمية استعاد الشافعية والمالكية نفوذهم في مصر واختفى مذهب الشيعة الإسماعيلية والإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها [(1127)] : ولله الحمد والمنة، ولا يزال الشيعة الروافض يسعون لإيجاد موطن قدم في مصر الحبيبة العزيزة إلا أن حب المصريين الأبطال لدينهم العزيز، وثباتهم المستميت على مر العصور على ثوابته من عقيدة سنية صحيحة، وفهم سليم لكتاب الله، ومحبة صادقة لسنة رسول الله، واقتداء رشيد بهدي الخلافة الراشدة جعلت محاولات الشيعة تضيع في مهب الرياح ولقد كانت المدارس السنية تعين الأمة على التمسك بالكتاب والسنة وتحذرها من البدع والابتداع، وتذكرها بما ثبت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في النهي عن البدع والتحذير منها، منها كتلك الآيات المصرحة بإطاعة الله ورسوله [(1128)] قال تعالى: " قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنمّا عليه ما حُمّل وعليكم ما حُملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين" (النور، آية : 54) وقوله تعالى : " فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يُصيبهم عذاب أليم" (النور:63).

ومما ساعد الأيوبيين على تحقيق أهدافهم : - أيضاً – في مصر أنها أصبحت في عهدهم منطقة جذب ونشاط لعلماء السنة على اختلاف مذاهبهم، فأسهموا إسهاماً رائعاً في العودة بمصر إلى رحاب السنة، وذلك عن طريق التدريس في المدارس التي أنشئت، أو عن طريق الوعظ أو تأليف الكتب التي تنتصر للسنة، وظلت هذه الجهود مستمرة تلاحق الجيوب المتبقية للشيعة الإسماعيلية في مصر، وكان معظم العلماء الذين شاركوا الأيوبيين في جهودهم على مستوى المسؤولية التي القيت على عاتقهم: علماً وخلقاً وديانة، كما كان للكثير منهم مشاركة في الحياة السياسية الاجتماعية، كالقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، وشرف الدين بن أبي عصرون، والعز بن عبد السلام، بل كان لبعضهم مشاركة فعالة في

[1125] المواعظ والاعتبار (341/2) التاريخ السياسي ص 254.

[1126] المصدر نفسه (341/2 – 342).

[1127] المصدر السابق (343/2) التاريخ السياسي ص 255.

[1128] تحذير المسلمين من الابتداع والبدع في الدين ص 25.

ميادين الحرب والجهاد، كالفقيه : عيسى الهكاري، وكان كثير منهم على قدر كبير من الشجاعة في مواجهة الحكام، والنصح لهم، فكانوا نماذج رائعة لعامة الناس، ومن ثم فإن تأثيرهم فيهم كان قوياً مؤثراً [1129] كما أن كثيراً من الأيوبيين كانوا علماء وأسهموا في التمكين للمذهب السني – سيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى.

سابعاً: مضامين تربوية في توجهات صلاح الدين : من هذه المضامين التي نلمسها في توجيهات صلاح الدين في رسائله كقائد سياسي وزعيم إسلامي الآتي :

1- التدين بطاعة ولي الأمر: يقول في صدد الحديث عن طاعته للخليفة العباسي: ونحن لا نتدين إلا بطاعة الإمام ولا نرى ذلك إلا من أركان الإسلام ويقول : وقد عرف ما فضلنا الله تعالى به عليهما في نصر الدولة وقطع من كان ينازع رداؤها [1130]

2- تصفية الرموز البدعية من منابر الدعوة :

ويقول حول تطهير المنابر من دعاة الشيعة : وتطهير المنابر من رجس الإدعياء ولم نفعل ما فعلنا لأجل الدنيا، فلا معنى للاعتداد بما الجزاء عنه بالحسنى فتوقع في العقبى غير أن التحدث بنعم الله واجب [1131].

3- النهى عن التعصب للمذاهب : حيث قال في رسالة إلى أخيه العادل الذي كان نائباً عنه في مصر وقد حصل بعض الشغب من بعض الأفراد : انتهى إلينا بالديار المصرية والحضرة العلية أن جماعة من الفقهاء، قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف وأنشأوا من العصبية ما أطاعوا فيه القوى البغيضة وأحيوا بها ما أماته الله من أصل حمية الجاهلية والله سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعاً مطيعاً (واعتصموا بحبل الله جميعاً) "آل عمران، آية : 103". ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل

1129 التاريخ السياسي والفكري ص 255 ، 256.

1130 مضمار الحقائق ص 62 – 65 أثر جهود صلاح الدين التربوية في تغير واقع المجتمع المصري ص 82.

1131 أثر جهود صلاح الدين التربوية ص 83.

الوفاق إلا أن يقال أحسنها وما علمنا أن في ذلك نية تنجد ولا مصلحة توجد وليس يسع الخلف ما وسع السلف من الأدب، وليعلم العبد أن يكتب كتاباً إلى ربه، فليفكر فيما كتب وإلى من كتب [1132] .

4- الحث على فضيلة العدل والإحسان للرعية: وكان يحرص على توجيهه ولاته بقوله: فليعدل في الرعية الذين هم عنده ودائع ليجاوز بهم درجة العدل إلى إحسان الضائع فإذا أسند هذا الأمر إلى ولاته، فليكونوا نقاة لا يجد الهوى عليهم سبيلاً ولا يجد الشيطان عندهم مقيلاً وإذا حملوا ثقلاً لا يجدون حمله ثقيلا [1133] ، حيث يقول : وقد فشا في هذا الزمن أخذ الرشوة وهي محق أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنبذه ونهى عن أخذه وعن الرغبة في تداوله وهو كأخذ الربا الذي قرنت اللعنة بمؤلكه وآكله [1134] .

5- الاهتمام بأمر القضاء : حيث يقول : وأما القضاة الذين هم للشريعة أوتاد ولا مضاء حكامها أجناد ولحفظ علومها كنوز لا يتطرق إليها النفاذ فينبغي أن يعول فيهم على الواحد دون الاثنين وأن يستعان بهم في الفصل بذي الأيدي وفي اليقظة بذي اليدين وأمر الحكام لا يتولاه من سأله وإنما يتولاه من غفل عنه وأغفله [1135] لقد حرص صلاح الدين على العودة إلى الأصول المتمثلة بالكتاب والسنة، وحافظ على هذه الأصول من خلال الجهود وذلك بتصفية البدع والمخالفات الشرعية وقام بصيانة المناهج وعمل على وحدتها، ونشر مبدأ تكافوء الفرص التعليمية وربط الأمة بواقعها من خلال عقيدتها الصحيحة فأنطلقت لتحقيق الانتصارات العظيمة والرائعة: من تحرير البيت المقدس وغيرها من الفتوحات.

المبحث الرابع: مكانة العلماء والفقهاء عند صلاح الدين الأيوبي:

استوعب صلاح الدين الأيوبي أن من أسباب تحقيق الانتصار ضد المد الشيعي الباطني والغزو الصليبي وجود القيادة الربانية، فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية، فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر، فصلاح الدين الأيوبي يعرف أن تحرير البلدان وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكريا، فحسب،

[1132] كتاب الروضتين (178/2).

[1133] صبح الأعشى القلقشندي (144/3 – 148).

[1134] المرجع السابق (148/144/3) أثر جهود صلاح الدين ص 84.

[1135] المصدر نفسه.

بل أنه أوسع بذلك بكثير إنه مواجهة المذهب الشيعي الرافضي الباطني والذي كان خطر داخلياً يهدد عقيدة الأمة وسلامة دينها والصراع الحضاري مع الغرب الأوروبي النصراني وإنه بدون تأصيل "الذات العقائدية" للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمالاً جزئية موقوته معرضة دوماً للمد والجزر وللتغيير والتبّدل كما يحدث دائماً وما يقتضيه "الموقف" هذا، ليس مجر انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن، إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع وحينذاك سوف يتحول كل عنصر عسكري أو كسب سياسي إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالة وتماسكاً لا مجرد تكديس شيء لا بشده الرباط تكديس كمي يثبت للضربة والضربتين، ولكنه في الثالثة أو الرابعة ينهار – فتذهب مع انهياره هدراً جهود السنين الطوال وعرفها [1136] فالنشاط العلمي وفي عهد صلاح الدين والاهتمام بالعلماء في حقيقته امتداد طبيعي لعهد نور الدين محمود، ولم يكن النشاط العلمي أبداً ترفاً فكرياً، لا إفرازاً تقليداً لأجهزة الدولة ولكنه تصميم هادف يسعى إلى عملية التأصيل العقائدي وقد كان الأيوبيون يهتمون بالعلماء وأسهموا في حركة التمكين للمذهب السني، فقد كان صلاح الدين الأيوبي : قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم، وأكابر الفقهاء، وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وإن لم يكن بعبارة الفقهاء [1137] وكان يحرص على أن يختلي ببضع المقربين إليه من العلماء فيقرأ عليه شيئاً من الحديث أو الفقه، ويشارك الفقهاء في مجلس القضاء [1138] ، وقد مر بنا في مناسبات عدة حرصه على سماع الحديث الشريف، وسعيه إلى كبار المحدثين ليأخذ عنهم وحرص صلاح الدين على أن يشب أبناؤه على احترام العلم والعلماء، فكان يصطحبهم معه إلى مجالس العلم، ويأخذهم بدراسة بعض الكتب الدينية، فشاؤا محبين للعلم مكرمين لأهله [1139] ، وقد احتفظ صلاح الدين بعلماء العهد الزنكي وأكرمهم وتعاون معهم وكان الوزراء والأمراء في دولته من كبار العلماء ومن أشهرهم وزيره وكاتبه ومستشاره القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي الذي قال صلاح الدين عنه : لم أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي القاضي الفاضل. ولقد كان القاضي الفاضل يجمع إلى حنكته السياسية ورعاً فائقاً، فكان كثير الصيام والصلاة وقراءة القرآن. وكان متواضعاً يكثر عيادة

[1136] عصر الدولة الزنكية للصَّلاَّبي ، ص 249 نور الدين محمود الرجل والتجربة ص 249.

[1137] سيرة صلاح الدين لابن شداد ص 256.

[1138] سيرة صلاح الدين ص 13 ، 28.

[1139] التاريخ السياسي والفكري ص 256.

المرضى والإحسان للفقراء [1140] وإليك ترجمة أهم العلماء ودورهم السياسي والعلمي والجهادي والتربوي في عهد صلاح الدين:

أولاً: القاضـــي الفاضــل: الإمام العلاّمة البليغ، القاضي الفاضل، محي الدين، يمين المملكة، سيد الفُصَحَاء، أبو علي عبدالرحيم بن علي بن الحسن العسقلاني، صاحب ديوان الإنشاء الصلاحيَّ ولد في الكهولة من أبي الطاهر السَّلفَّي، وأبي محمد العثماني، وأبي القاسم بن عساكر، وأبي الطاهر بن عوف، وعثمان بن فرج العبدري [1141] .. انتهت إلى القاضي الفاضل براعة الترسُّل وبلاغة الإنشاء، وله في ذلك الفَنَّ اليُد البيضاء، والمعاني المبتكرة، والباع الأطول، لا يُدْرَكُ شأوه، ولا يُشَقُّ غُبَارُهُ، مع الكثرة [1142] . أخذ الصنعة عن الموفَّقِ يوسف بنِ الخلاَّل صاحب الإنشاء للعاضد، ثم خدم بالثغر مدة، ثم طلبهُ ولد الصالح بن رُزَّيْك واستخدمه في ديوان الإنشاء [1143] قال العماد: قضى سعيداً، ولم يُبق عملاً صالحاً إلا قَّدمه، ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه، ولا عقد برَّ إلا أبرمه، فإن ضائعه في الرقاب وأوقافه متجاوزة الحساب، لاسيما أوقافه لفكاك الأسرى وأعان المالكية والشافعية بالمدرسة، والأيتام بالكتّاب، كان للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، والسلطان له مطيع، ما افتتح الأقاليم إلاَّ بأقاليد آرائه ومقاليد غِناه وغنائه، وكنت من حسناته محسوباً، وإلى آلائه منسوباً، وكانت كتابتُهُ كتائب النَّصر، ويراعاته رائعة الدهر، وبراعته بارية للبرّ، وعبارته نافثة في عُقِدَ السحر، وبلاغته للدولة مُجَمَّلةً وللمملكة مُكَمَّلة، وللعصر الصلاحيَ على سائر الأعصار مُفَضلة، نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب، وأعربه من الإبداع، ما ألفيته كرّر دعاء في مكاتبة، ولاردَّد لفظاً في مخاطبة [1144] وقال عنه في كتابه الخريدة. وقبل شروعي في أعيان مصر أُقدَّم ذكر من جميع أفاضل العصر كالقطرة في بحره المولى القاضي الفاضل. إلى أن قال: فهو كالشريعة المحمدية نسخت الشَّرائِعَ، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، هو ضابط الملك بآرائه، ورابط السَّلك بآلائه إن شاء، أنشأ في يوم مالو دوَّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة، أين قُسُّ من فصاحته، وقيس في حصافته ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته [1145] ، لا منَّ في فعله، ولا مَيْنَ في قوله، ذو الوفاء والمروءة والصفاء والفتُّوة، وهو من

[1140] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 262.

[1141] سير أعلام النبلاء (339/21).

[1142] المصدر نفسه (339/21).

[1143] المصدر نفسه (339-21).

[1144] سير أعلام النبلاء (340/21).

[1145] المصدر نفسه (342/21).

الأولياء خُصُّوا بالكرامة، لا يفتر مع ما يتولاه من نوافل صَلاَته ونوافل، صِلاِته [1146] . وقال عنه الحافظ المنذري : ركن إليه السلطان ركوناً تاما، وتقدم عنده كثيراً، وكان كثير البَّر، وله آثار جميلة [1147] . وقال الموفق عبد اللطيف: القاضي الفاضل كان ذا غرام بالكتابة وبالكتب أيضاً، له الدين، والعفاف والتُّقى، مواظب على أوراد الليل والصيام والتلاوة، بما تملك أسد الدين أحضره، فأعجب به، ثم استخلصه صلاح الدين لنفسه، وكان قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجُّد، يشتغل بالتفسير والأدب، وكان قليل النحو، لكنه له دُربة قوية، كتب من الإنشاء مالم يكتبه أحد، أعرف عند ابن سناء الملك من إنشائه اثنين وعشرين مجلداً، وعند ابن القطّان عشرين مجلداً، وكان مُتَقَّللاً في مَطْعَمه ومَنْكِحِه وملبسه، لباسه البياض، ويركب معه غلام وركابيُّ، ولا يمُكَّنُ أحداً أن يصحبه، ويكثر تشيع الجنائز، وعيادة المرضى، وله معروف معروف في السَّرَّ والعلانية، ضعيف البنية، رقيق الصورة، له حَدْبَةٌ يغطيَّها الطيلسان، وكان فيه سوء خلق يُكْمِد به نفسَهُ ولا يضُّر أحداً به، ولأصحاب العلم عنده نفاق، يُحسنُ إليهم، ولم يكن له انتقام من أعدائه إلا بالإحسان أو الإعراض عنهم، وكان دخله ومعلومه في العام نحواً من خمسين ألف دينار سوى متاجر الهند والمغرب [1148] ، توفيَّ مسكوتا [1149] ، أحوج ما كان إلى الموت عند توليَّ الإقبال، وإقبال الإدبار، وهذا يدل على أن لله به عناية [1150] وقال عنه أبو شامه: كان ذا رأي سديد وعقل رشيد، معظماً عند السلطان صلاح الدين، يأخذ برأيه ويستشيره في الملمات، والسلطان له مطيع وما فتح السلطان الأقاليم إلا بأقاليد آرائه، وكانت كتابته كتائب النصر [1151] وقد تولى القاضي الفاضل وساهم في أعمال كثيرة في عهد صلاح الدين والتي منها.

1- رئاسة ديوان الإنشاء: عندما كان صلاح الدين وزيراً للدولة الفاطمية في مصر كان يعتبر بمنزلة السلطان ويُلقَّبَ بلقبه، بينما كان القاضي الفاضل رئيساً لديوان الإنشاء ويعتبر بمثابة وزيره [1152] ، ظل القاضي الفاضل يعمل في ديوان الإنشاء رئيساً له مع أنه حافظ على لقب نائب رئيس ديوان الإنشاء

[1146] المصدر نفسه (342/21).

[1147] المصدر نفسه (342/21).

[1148] سير أعلام النبلاء (343/21).

[1149] يُعني : فجاءة ، وهو ما يعرف في عصرنا بالسكتة القلبية.

[1150] سير أعلام النبلاء (343/21).

[1151] كتاب الروضتين (241/2).

[1152] القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ص 124.

احتراماً لأستاذه وراعيه ورئيسه الشيخ الموفق أبي الحجّاج يوسف بن الخلال. ولم يُشِعر ابن الخلال يوما بأنه حل محّله، مع أن ابن الخلال ربما رغب في ذلك لتقديره للقاضي الفاضل وتعلقّه به، وتطلّعه إلى الاستمرارية في الأسلوب والآراء. ولم يخب ظنه في تلميذه الذي عامله في أواخر سني حياته معاملة الابن البارّ للوالد [1153] . وكانت رئاسة ديوان الإنشاء أقصى ما تمّناه القاضي الفاضل من مناصب، فبعد صراع دام واحداً، وعشرين عاماً في مصر تعرّض خلالها لشتى أنواع المعاناة، توصّل إلى المنصب الذي كان بعض الكتّاب المصريين يحاول الحيلولة دونه. وقد أصبح بعدما تولى المنصب يلقب بالسيد الأجل وبالشيخ الأجل، كاتب الدّست الشريف، وصاحب ديوان الإنشاء [1154] وغلب عليه لقب القاضي الفاضل، الذي أصبح يعرف به أكثر من اسمه الأصلى عبد الرحيم البيساني العسقلاني، الذي يشير إلى موطنه ومسقط رأسه، ولا سيّما في الكتابات عنه، وهو وإن تقّبل اللقب شكليا ورسميا، فقد تبنّى الصراع المستمّد من موطنه ومسقط رأسه وتولى القاضي الفاضل ديوان الإنشاء في مصر، وعلى الرغم من وجود كتّاب أكبر منه سناً قابلهم عند أول دخوله الديوان تلميذاً، وتدّرب على يد بعضهم، مثل القاضي الأثير بن بيان، وعاصرهم، ثم عمل معهم وهو يقفز في ترقّعه وهم ثابتون في أماكنهم وهو ما أثار حفيظة بعضهم وواضح أن شخصية القاضي الفاضل الجّياشة وقدرته على التكيّف، وذكاءه الحادّ، وحدسه الشديد في معرفة مواطن القوة والضعف في القادة، من العوامل التي أدّت إلى اتقائه السريع، ولكنّ أسلوبه الفني فسح أمامه مجالات وآفاقاً وهذا يدلّ على أهمية الأدب في السياسة، وعلى تقدير رجالات الدولة في ذلك العصر للأدب والأدباء، ورعايتهم لذوي المواهب منهم [1155] وحالما تولّى القاضي الفاضل رئاسة ديوان الإنشاء، راح يعمل مع صلاح الدين على الإعداد المتدرج للقضاء على الدولة الفاطمية، وكانت أولى الخطوات في هذا الاتجاه إعداد جيش أيوبي ينفّذ به مخطّط الانقلاب [1156] .

2- القاضي الفاضل وجيش صلاح الدين: أخذ صلاح الدين يعمل حال توليّه الوزارة على إعداد جيش أيوبي ليكون نواة لجيش مصري جديد يدافع به عن مصر من الغزو الإفرنجي ولم يْخفَ عليه تدهور وضع الجيش الفاطمي لأنه خبره في أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين سنة 559هـ وسنة 564هـ وعرفه معرفة جيدة من حيث مصادرة البشرية والمالية والحربية ومن حيث تنظيمه وفرقه المبنية على أساس عرقي، مثل

[1153] القاضي الفاضل ص 125.

[1154] المصدر نفسه ص 125.

[1155] المصدر نفسه ص 125.

[1156] المصدر نفسه ص 126.

السودان والأرمن والمصريين والديلم والأتراك والعربان، وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فرقة من هذه الفِرقَ [1157] وكان القاضي الفاضل قد عمل في إدارة هذه القوات في عهد رزّيك بن الصالح وساهم معها في بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر، وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون في شأن السلطة الأمر الذي أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز معه عن الدفاع عن استقلالها، أو حتى عن بقائها، وعرف القاضي الفاضل الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش ويشرف على العيون والرسل؛ فألّم بهذان القوات، وعرف دخائلها وأطّلع على كل فِرقة منها، وعلى كل قائد من قّوادها، ولم يضنّ بمعلوماتهَ عنها على صلاح الدين، بل وجّهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته وظل طوال مدة عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، يراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية، يصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين، ومن الشام إلى مصر لتستعّد وتتجّهز لحملات مقبلة ضد الفرنج [1158] ومع أن القاضي الفاضل كان رئيساً لديوان الإنشاء ووزيراً لدولة صلاح الدين، إلا إنه كان يلّم بكل صغيرة وكبيرة في الجيش بحكم علاقة ديوان الإنشاء بديوان الجيش وكان يساهم في إعداد الخُطط الحربية، ويُشرف على تمويل الجيش والأسطول وتزويدهما، وتجهيزهما للجهاد، وقد واظب على هذه المسؤوليات طوال مدة عمله مع صلاح الدين [1159].

3- القاضي الفاضل والقضاء على المعارضة الفاطمية: استمد القاضي الفاضل أسس تحّركاته السياسية في بداية وزارة صلاح الدين، من خبرته في القصور الفاطمية، وضمن الجيوش، ومع الوزراء والمديرين. وأدرك أن هذه المؤسسات وما تضّمه من شخصيات وَكْرٌ للمؤامرات التي لا تنتهي، ومعينٌ للدسائس التي لا تنضب، وقد تعامل معها جميعاً وشاهدها من قبل، وأيقن أيضاً أنها لن تتوانى عن الاستنجاد بالفرنج على الرغم من كل ما مّر بها وبالشعب المصري من مصائب ومِحَن، في سبيل الحفاظ على نفوذها، ولا سيّما إذا رأت في سلطة صلاح الدين، أو في سلطة الأيوبيين عامّة، خطراً عليها، ومن ثَمَّ فإنه أخذ، حالماً خّوله صلاح الدين ما خوّله من مسؤوليات مطلقة في الإدارة يبثّ عيونه ضمن هذه المؤسسات والمجموعات والأفراد الذين عرفهم وخاف شّرهم. وأمّا المؤسسات والمجموعات هذه فقد أخذت تخطّط بدورها

[1157] القاضي الفاضل ص 126.

[1158] المصدر نفسه ص 127.

[1159] المصدر نفسه ص 129.

للقضاء على حكم صلاح الدين، وقد تزعّم مؤتمن الخلافة تلك المجموعات وبدأ تحرّكاته مُذ تولّى صلاح الدين. وقد كان اكتشاف المؤامرة من مسؤوليات ديوان الإنشاء، وبالذات القاضي الفاضل الذي ظل يراقب كتّاب ديوان الإنشاء، والمسرّحين منهم بصورة خاصة وقد ساهمت جهود القاضي الفاضل في كشف مؤامرة مؤتمن الخلافة وتمَّ القضاء على شوكته وفلّ صلاح الدين شوكة الأرمن، وهم الفرقة التالية للسودان قوة وعدداً، فأحرق داراً للأرمن بين القصرين وفيها عدد كبير من الجنود الأرمن، معظمهم من الرماة ولهم رواتب من الحكومة، وكان هؤلاء قد حاولوا أن يعرقلوا حركة قوات صلاح الدين في أثناء المعركة مع السودان برميهم بالنشَّاب فلقوا جزاءهم، وأما من تبقى منهم فنفاهم صلاح الدين إلى الصعيد [1160] . ولقد تّم إضعاف شوكة الفاطميين، بل كسرها، خلال أشهر خلال الأشهر الخمسة الأولى من وزارة صلاح الدين، ثم تلاها عامان ثّم خلالهما تغيير النظام الإداري المصري وتحويله إلى نظام أيّوبي جديد سنّي، ولقد ساهم القاضي الفاضل في هذا التغيير الذي مهّد لحكم صلاح الدين المطلق في مصر، وتوليته هو (القاضي الفاضل) وزارة صلاح الدين، والقضاء على الخلافة الفاطمية [1161].

4- إعادة التنظيم الإداري في مصر : شرع القاضي الفاضل في تنفيذ مخطّط قلب نظام الحكم الفاطمي بالتخلصّ من أصحاب الدواوين والكتّاب الموالين للفاطميين، وكان بحكم عمله في الدواوين على علم برجالات الدولة وأصحاب دواوينها وكتّابها، وبولاءاتهم السياسية وميولهم المذهبية، ولقد صاحب بعضاً منهم وعادى أو نافس بعضاً آخر، وقد وأتته الفرصة للتخلص ممّن يستطيع التخلصّ منه ففعل، وتخلص من عدد كبير من الكتّاب الشيعة الإسماعيلية والمسيحيين واليهود وغيرهم خوفاً من أن يتآمروا مع الفلول الفاطمية، أو أن يتّصلوا بالفرنج باسم الدواوين التي يعملون فيها. ولقد أشار إلى خطر هؤلاء الكتّاب في أكثر من رسالة رسمية إلى الخليفة العباسي وإلى نور الدين. ففي إحدى رسائله عن صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء (570هـ/1174 – 1175م) يصف أحوال مصر في ظل الفاطميين بقوله : ولهم "للفاطميين" حواشٍ لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله وتصيب القلوب مخالته، ومن بين كتّاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل. ولقد ثبت صدق ظنّه فميا بعد عندما راح هؤلاء يدبُرون مؤامرة لإحباط حكم صلاح الدين. وكما أنه سّرح الكتّاب والإداريين الذين شك في ولائهم فإنه أبقى الإداريين الذين ضمن ولاءهم، والذين كان بحاجة إلى إدارتهم ومعلوماتهم ومساعدتهم في تطبيق مخطط الانقلاب، وكان في مقدم هؤلاء

[1160]القاضي الفاضل ص 130 إلى 133.

[1161]القاضي الفاضل ص 134.

الخطير بن مماتي رئيس ديوان الجيش وأحد أصدقاء القاضي الفاضل، فقد خدم ابن مماتي في ديوان الجيش في عهد شاور، ودخل المذهب السنّي على يد أسد الدين شيركوه، وظل قريباً من القاضي الفاضل محبّبا إليه حتى وفاته سنة 578هـ [1162] ، وعين بعده ابنه الأسعد بن مماتي في الديوان، ولقد أخلص الأسعد كوالده للقاضي الفاضل الذي كان يعتمد على إدارته وولائه في أثناء غيابه عن مصر ورعى القاضي الفاضل أيضاً الأثير بن بيان، صاحب ديوان النظر، وأبقاه في منصبه وهو سني أيضاً، وابن بيان هذا أكبر من القاضي الفاضل سنّاً، وكان يعمل في ديوان الإنشاء عندما دخله القاضي الفاضل طلباً للعلم فيه، ودافع عنه عندما عاد من الإسكندرية إلى القاهرة، وظلّ القاضي الفاضل يعمل مع ابن بيان ويعتمد عليه حين تقّدم ابن بيان في السنّ وعجز عن العمل، فقرّر له القاضي الفاضل معاشاً يستعين به [1163] ، وأبقى أبا الحسن المخزومي، وهو سنّي، ناظراً لديوان المجلس، بينما أمسك هو برئاسة ديوان الإنشاء بالإضافة إلى الإدارة العامة كوزير، وشرع القاضي في توجيه هذه الدواوين بمساعدتهم إلى خدمة أهداف صلاح الدين ودولته[1164] ومشروعه الإسلامي الكبير.

5- القاضي الفاضل والإحياء السني في مصر: كانت الإسكندرية مركزاً للإحياء السني في مصر، وقد تمّ ذلك على يد علماء قصدوها من المغرب مثل أبي بكر الطرطوشي، ومن المشرق مثل السلفي، وأسسوا فيها مدارس كان لها أثر كبير في الإحياء السني وفي حركة الجهاد ضد الفرنج وهذا يفسر مساندة أهالي الإسكندرية لأسد الدين — وصلاح الدين — وأمّا القاهرة فلم تحظ كالإسكندرية بمدارس وفقهاء للسنّة، ولكن الوضع تغير مع ظهور صلاح الدين على المسرح السياسي. فمع أن نور الدين وأسد الدين كان قد استفاد من بعض أهل السنة قبل وزارة صلاح الدين للحصول على مؤازرة شعبية لحركتهما داخل مصر، فإن هذه العناصر وحدها لم تكن كافية، وكان هناك حاجة إلى ثورة ثقافية في مصر يتم من خلالها إعادة مصر إلى المذهب السني بالتدريج، وقد بدأ صلاح الدين إصلاحاته في مصر، وحتى قبل القضاء النهائي على الفاطميين بتأسيس عدد من المدارس على المذاهب الأربعة بني أولها للمذهب الشافعي على أنقاض حبس المعونة، السجن الذي ضم الكثير من قادة مصر سنة 566هـ/1170-1171م ولعلها أصبحت أول مدرسة من نوعها في مصر، كما أنشأ سنة 566هـ/1170م مدرسة للمالكية في جوار جامع عمرو بن

[1162] النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ص 80 - 93.

[1163] القاضي الفاضل ص 135.

[1164] المصدر نفسه ص 135.

العاص عُرفت بالقمحية، وأسس تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ابن أخي صلاح الدين، مدرسة للشافعية أوقف عليها عدة أماكن [1165]. كانت هذه المدارس بداية حركة بنائية سنية ساهم فيها كثيرون من الأيوبيين وأمرائهم خلال حكم صلاح الدين في مصر فيما بعد، كما ساهم فيها القاضي الفاضل بمدرسة من أغنى هذه المدارس، إذ رصد فيها قسماً كبيراً من خزانة كتب الفاطميين وإن تكن فكرة إنشاء المدارس السنية مستوردة من الشام على غرار ما فعله نور الدين فيها من إنشاء مدارس شبيهة بمناهجها وموضوعات تدريسها في المدرسة النظامية ببغداد، فإن تمويل هذه المدارس واختيار المدرسين فيها كان ضمن مسؤوليات القاضي الفاضل، فمن ضمن إصلاحاته الإدارية في فترة وزارة صلاح الدين فصلُ ديوان الأحباس الفاطمي الذي كان يشرف على إدارة المؤسسات الدينية وتمويلها وتزويدها عن ديوان الأموال، وجعله ديوانا مستقلاً تحت إدارة الوزير مباشرة، أي صلاح الدين، قبل القضاء على الفاطميين وتحت إدارته هو بعد القضاء عليهم، ومن ثم فقد كان المسؤول الأكبر عن إدارة هذه المؤسسات المهمة، وعن اختيار المدرسين فيها وقّراء القرآن والحديث والوّعاظ والأئمة [1166]، وكان هؤلاء جميعاً من وسائط التغيير وكان من المعروف أن صلاح الدين كان يعتمد على خبرة القاضي الفاضل في اختيار هؤلاء وهو في مصر، وظل على ذلك عندما انتقل إلى الشام، إذ كان يستشيره في الناحيتين التربوية والدينينة وبعد أن هيّأ صلاح الدين المصريين للانقلاب وقلّم أظفار المؤسسة الفاطمية، كما ذكرنا، بدأ بالأعداد للقضاء نهائياً على شعائر الخلافة الفاطمية — ففي سنة 565هـ/1169م أبطل الأذان "بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر" ويعلق المقريزي بأن هذه أول وصمة دخلت على الدولة [1167].

- تم أمر بعد ذلك في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة 565هـ/1169 – 1170م، بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي [1168].
- وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك [1169].

[1165] الخطط (364/2).

[1166] القاضي الفاضل ص 136.

[1167] اتعاظ الحنفاء (317/3).

[1168] اتعاظ الحنفاء (317/3).

[1169] المصدر نفسه (318/3.

- وولىّ القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري، وهو كردي من أقرب المقّربين إلى صلاح الدين وقد فعل هذا كبداية لتحويل الولاء في القاهرة التي كان أغلب أهلها من الإسماعيلية [1170] .
- كما عزل قضاة مصر من الشيعة، واستولى بعدها على ممتلكات العاضد وعلى القصور وسلّمها إلى الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي، فتحكم في مصر وصار يراقب كل صغيرة وكبيرة فيه، حتى أصبح الخليفة العاضد كالمعتقل في قصره [1171].
- وفي بداية سنة 567هـ،1171 – 1172م قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وكان قطعها بالتدريج أيضاً، ففي الجمعة الأولى في محرم 567هـ/1171 – 1172م حذف اسم العاضد من الخطبة، وفي الخطبة الثانية خُطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله. وقطعت الخطبة الفاطمية [1172]. وقد توفي العاضد في العاشر من محرم 567هـ/1171 – 1172م [1173] .

وقد اختلفت هذه العاشوراء عما تعود المصريون عليه من أشراف الدولة الفاطمية على البدع في يوم عاشوراء، من خطب مدمية للقلوب وينعتون إلى مراث مؤثرة في آل عليّ رضي الله عنه تشير في نفوسهم الكثير من الأحقاد بواسطة القصص الموضوعة والأكاذيب المفضوحة ويسبون الخلفاء من راشدين وأمويين، ثم يتصرفون إلى بيوتهم ليأكلوا القمح المسلوق والعدس وغيرها من المأكولات التي توارثتها أجيال بعدهم، وعرفت بعاشوراء حتى وقتنا الحاضر، ثم يصبحون في اليوم التالي ليبدأ عاماً جديداً من حياتهم، وأنظارهم موجهة إلى حكامهم وكان الخليفة يحتجب في قصره يوم عاشوراء وعند الضحى يركب قاضي القضاة والشهود في لباس خاص ويذهبون إلى مشهد الحسين المزعوم، فيجلسون ومعهم قرّاء القصر، والخطباء، فيدخل الوزير في صدر المجلس وعلى جانبيه القاضي والداعي، ويشرع القّراء في تلاوة القرآن نوبة نوبة والجميع خشوع، وما أن ينتهون من قراءتهم حتى يقوم الشعراء، وهم عادة من غير شعراء القصر، فينشدون أشعاراً أعدّوها لهذه المناسبة المهمة وكانت أشعارهم رثاء أهل البيت، فإن كان الوزير رافضياً تغالوا، وإن كان سنّياً اقتصدوا. ويظلون على هذه الحال مدة ثلاثة ساعات، وبعد الانتهاء من القراءة والإنشاد كانت تأتيهم رسل الخليفة تستدعيهم، فيغادر أول من يغادر الوزير وهو بمنديل صغير إلى بيته وأما قاضي القضاة والداعي ومن رافقهما فيذهبون إلى باب الذهب من القصر، حيث يرون منظراً يختلف عمّا تعوّدوا عليه، فالسجاجيد الثمينة قد طويت لتحل محلّها حصر بسيطة، وصاحب

[1170] القاضي الفاضل ص 137.

[1171] اتعاظ الحنفاء (325-326/3).

[1172] المصدر نفسه (325/3

[1173] القاضي الفاضل ص 137.

الباب جالس ينتظرهم. فيجلسون، والناس من وجهاء البلد والعلماء والفقهاء والعسكر حولهم أو بجانبهم، فيقرأ قّراء القرآن ثانية، كما ينشد المنشدون فيُكون الحاضرين ثانية ثم يفرش سماط الحزن وفيه نحو ألف زبدية من العدس والملوحات والمخلّلات والأجبان والألبان وأعسال النحل والفطير والخبز المغير لونه بالقصد. ووقت الظهر يقف صاحب الباب وصاحب المائدة فيُدخلان الناس للأكل، فيكون أول الداخلين القاضي والداعي ويجلس بقربهما صاحب الباب نيابة عن الوزير، ثم يدخل من يريد أن يأكل من الناس، وبعد الانتهاء من الأكل يغادر الجميع القاعدة ويطوف النائحون في القاهرة، ويغلق التجّار حوانيتهم حتى العصر ثم يفتحونها [1174]. وتعود الحياة إلى طبيعتها بعد هذه البدع. ولكم اشترك القاضي الفاضل في هذه الاحتفالات بحكم عمله وقربه من المؤسسة الفاطمية، لكنَّ هذه العاشوراء اختلفت عما تعود المصريون عليه، فليس، هناك قاضي قضاة، ولا داعي دعاة لأنهما عُزلا، وليس هناك منشدون ولا نائحون يطوفون في شوارع القاهرة، لأن اليوم كان معّداً لنوع آخر من الاحتفال، وهو الاحتفال بالقضاء على هذه الطقوس والمراسيم التي مارسها المصريون أكثر من مائتين عام، والقضاء على واضعي هذه الطقوس والمراسيم بشتى رموزها ومفاهيمها، ولم يذهب صلاح الدين إذا إلى المشهد الحسيني – المزعوم – كعادة الوزير، بل ذهب إلى جامع عمرو بن العاص للصلاة فصلّى ومعه عدد من أهالي الشام ومصر، وجلس بعد الصلاة جانباً وبقربه القاضي الفاضل يتباحثان فيما أنجزاه منذ الجمعة السابقة التي تّم فيها إلغاء الخلافة الفاطمية، وأثبتت فيها الدعوة للخليفة العباسي فدخل أحد الجنود مسرعاً وتوجّه إليهما وقال لهما شيئاً وخرج، فنظر كل من صلاح الدين والقاضي الفاضل أحدهما إلى الآخر فغمز القاضي الفاضل إليه وابتسما ابتسامة ارتياح وحبور، ثم سرعان ما غيّر صلاح الدين تعبير وجهه، وقال: لو عرفنا أنه، أي الخليفة العاضد، يموت في هذا اليوم ما عصضاه برفع اسمه من الخطبة. فضحك القاضي الفاضل وردّ عليه قائلاً : يا مولاي لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت [1175] ، فابتسم الحاضرون لهذه المداعبة الكلامية، بين الوزير صلاح الدين وكاتبه أو مستشاره التي انطوت فيها آخر صفحة من صفحات تاريخ الدولة الفاطمية فقد توفي العاضد آخر الخلفاء في هذا اليوم، يوم عاشوراء سنة 567هـ/1171م أي يوم ذكر مقتل الحسين بن علي [1176] .

[1174] الخطط (431-432-490/1).

[1175] أخبار الدولتين نقلاً عن القاضي الفاضل ص 139.

[1176] القاضي الفاضل ص 139.

6- القاضي الفاضل والقضاء على الدولة الفاطمية:

لقد أشار المؤرخ المصري المقريزي إلى الدور الذي قام به القاضي الفاضل في الانقلاب على الفاطميين بقوله: واستعان صلاح الدين به (أي بالقاضي الفاضل) على ما أراد من أزالة الدولة الفاطمية حتى تمّ مراده، فجعله وزيره ومستشاره [1177]. وإن كلمة استعان تشير إلى دور القاضي الفاضل في تنفيذ مخطّط صلاح الدين في القضاء على الدولة الفاطمية، كما أن أختيار صلاح الدين القاضي الفاضل وزيراً له ما هو إلا تعبير عن تقدير صلاح الدين لدور القاضي الفاضل في هذا المخطّط الخطير، وفي تأسيس قواعد الدولة الأيوبية التي سبقت هذا المخطط وهذا الاختيار يشير أيضاً إلى اعتراف واضح من صلاح الدين بدور القاضي الفاضل في إطاحة الفاطميين، وبأهمية القاضي الفاضل لخطط صلاح الدين المستقبلية، ولقد ظل صلاح الدين يجني ثمرة اختياره القاضي الفاضل وزيراً له حتى وفاته، ولقد كانت أعمال القاضي الفاضل في الإدارة المصرية منذ عهد أسد الدين، وأقواله في كتاباته في عهد صلاح الدين تشير إلى دوره الكبير في دعم الوجود السني في مصر، ولقد سعى من خلال مخطط سنّي واسع للقضاء على عوامل الانقسام الديني في العالم الإسلامي وحماية مصر من الاجتياح الفرنجي واستعادة فلسطين وقد واتته الفرصة لتحقيق هذه الأهداف مع صلاح الدين وسارع إلى تحقيقها [1178] ، فقد رأى في صلاح الدين مثالاً للقائد القادر على أن ينقذ مصر من الخطر الفرنجي من ناحية وأن يقدم لأمته الكثير – ولذلك منح صلاح الدين مصادره الوافرة من معلومات وتجربة وإدارة وأدب وشعر وأسس بمساعدته والتعاون معه شيئاً من الاستقرار الداخلي لمصر، بعد كل ما دهاها ودهى شعبها من محن ومصائب، وأدرك صلاح الدين أن القاضي الفاضل إنسان عظيم عقلاً وعلماً ومكانة وفي إمكانه أن يوصله إلى أهدافه في مصر من خلال مصادره الوافرة، وهكذا تضافر الرجلان على تحقيق غاية كبرى أحسّا بها، كل في ميدانه، على تحقيقها [1179] . لقد كان القاضي الفاضل سياسياً ورجل دولة عظيماً، جمع بين واقعه السياسي ومرونته ودهائه وبين هدف كبير نذر نفسه له وصبر مع الأيام لتحقيقه، واستنشق رياح التاريخ حين هبّت واعتقد أن طريق الإسلام هو طريق أهل السنُّة، وكل طريق غيره لا يوصل إلا إلى الخلاف وتبديد الإيمان والقوى، وما غابت أرض فلسطين عن باله، وعندما لاحت فرصة استعادتها، وأيقن بصدق صلاح الدين في الجهاد من أجلها، اشتدّت عزيمته وشدّت رحاله، ولئن أوصله اختياره إلى سدّة عالية، فأصبح في دولة صلاح الدين وزير الدولة والرجل الثاني فيها، فإنه حقق بذلك كل ما يطمح رجل السياسة

[1177] الخطط (266/2).

[1178] القاضي الفاضل ص 141.

[1179] المصدر نفسه ص 157.

إليه من نجاح أهدافه وقضيته، بمساهمته في التخطيط والعمل، كما حقَّق نجاحه هو وعلوَّ أمره، وتلك مطابقة تشهد له بالمواهب العريضة والدهاء الفائق (1180) .

كان القاضي الفاضل المتحدث الرسمي بلسان السلطان صلاح الدين في الداخل والخارج، وكان على حد قول ابن كثير: أعز عليه من أهله وولده (1181) ، وكان السلطان يشيد بفضله فيقول: لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل (1182) ، وقد بلغ القاضي الفاضل مكانة سامية في الدولة، فكان الساعد الأيمن لصلاح الدين، إذ جعله : وزيره، ومشيره بحيث كان لا يصدر أمراً إلا عن مشورته، ولاينفذ شيئاً إلا عن رأيه، ولا يحكم في قضيته إلا بتدبيره (1183) . إن هذا العالم الرباني يعلمنا دورساً مهمة منها، عدم الانعزال عن الشأن العام والعمل الاجتماعي والحكومي والحرص على كسب الخبرات وأهمية التميز في أداء العمل والتمسك بمنهج أهل السنة والتعاون مع إخوانه في العقيدة الصحيحة وتوظيف القدرات والأمكانات لخدمة المشروع السني وقّدم لصلاح الدين النماذج السنية القيادية والخطط العملية ولم يبخل عليه برأي ولا مشورة ولا تجربة، كما أن حياة هذا الرجل مدرسة في فهم مقاصد الشريعة وفقه المصالح والمفاسد، وبناء الدول وزوالها كما نتعلم منه وهو الرجل المفكر والمفتي، الكبير في دولة صلاح الدين، أهمية معاملة عامة الشيعة بقوانين العدل ومحبة الخير لهم وعدم سفك دمائهم والحرص على تعليمهم وإنما يكون استخدام القوة ضد المؤامرات والتكتلات العسكرية ومع من لا يجدي معهم إلا استخدام القوة.

7- القاضي الفاضل والجهاد: صحب القاضي الفاضل صلاح الدين في جميع غزواته ببلاد الشام، ثم أقام بمصر ليشرف على الإدارة المالية ويعمل على تجهيز الجيش والأسطول، وبعدئذ عاد إلى بلاد الشام بجوار صلاح الدين وظل بالقرب منه حتى مرضه الأخير ووفاته مع القاضي ابن شداد سنة 589هـ/1193م (1184) وهناك مواقف حاسمة للقاضي الفاضل تؤكد مكانته وعلو منزلته في الدولة الصلاحية، فعندما كان السلطان صلاح الدين مقيماً على مرج الصفر في بلاد الشام عام 571هـ/1176م طلب الصليبيون الهدنة منه فأجابهم إلى ذلك مضطراً "لأن الشام كان مجدباً" ثم أرسل جيشه في صحبة القاضي الفاضل إلى الديار

1180القاضي الفاضل ص 159.

1181البداية والنهاية نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص 132.

1182النجوم الزاهرة (157/6).

1183الخطط (366/2) دور الفقهاء والعلماء ص 132.

1184وفيات الأعيان (202،203/7).

المصرية، حتى يستريح أفراد الجيش بها من ناحية ولخوفه من حدوث أي اضطرابات في مصر أثناء غيابه عنها من ناحية أخرى، ولذلك كان إرساله للجيش بصحبة القاضي الفاضل: غاية الحزم والتدبير، ليحفظ ما استجد من الممالك خوفاً عليه ممن هنالك [1185] ، وإلى جانب ذلك كان القاضي الفاضل دائماً يلازم السلطان صلاح الدين في جهاده، ولعل ما يؤكد ذلك تلك الرسالة التي بعث بها إلى السلطان صلاح الدين يعتذر فيها عن عدم مشاركته في الجهاد ضد الصليبيين على حارم سنة 573هـ/1177م، لرغبته في أداء فريضة الحج فيقول ابن واصل: وتخلف القاضي الفاضل بمصر بنية الحج في السنة القابلة، ووصل منه كتاب إلى السلطان يذكر فيه : وأما تأسف المولى على أوقات تنقضي عاطلة من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدد العوائق التي لا يوصل إلى آخرها حبلها، فللمولى نية رشده، أو ليس الله بعالم بعبده، وهو سبحانه لا يسأل الفاعل عن تمام فعله، لأنه غير مقدور له، ولكن عن النية لأنها محل تكليف الطاعة وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب الاستطاعة، وإذا كان المولى آخذاً في أسباب الجهاد، وتنظيف الطرق إلى المراد، وهو في طاعة قد منَ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أمل في نجح موعدها، والثواب على قدر مشقته، وإنما عظم الحج لأجل جهده وبعد شقته، ولو أن المولى فتح الفتوح العظام في أول الأيام، وفصل القضية بين أهل الشرك وأهل الإسلام، لكانت تكاليف الجهاد قد قضيت وصحائف البر المكتسبة بالمرابطة والانتظار قد طويت [1186] .

8- القاضي الفاضل والأديب: برز القاضي الفاضل في عصره كأديب، ونُسبت إليه مدرسة نثرية عُرفت بمدرسة القاضي الفاضل في النثر، خلّدته بين الأدباء، وكإداري قدير، وضعته إدارته في صفّ الوزراء النابغين؛ وكأنسان كرّس حياته لخدمة الشعوب التي احتكّ بها، وفي الجهاد لتحرير مناطق إسلامية اغتصبتها شعوب غربية قسراً وقد أجاد القيام بأدواره العديدة كل الإجادة، حتى أن المؤرخّين اعتبروه نموذجاً للإنسان المثالي في عصره ويقف الكثيرون في حيرة أمام أسلوب القاضي الفاضل، وإن صعب على البعض فهمه، يدلّ على ثقافة واسعة وإطلاع دقيق على الأدب، والحديث والفقه وغيرها من العلوم، وعلى فهم عميق للقرآن، فالقاضي الفاضل كان يملك أكبر مكتبة في عصره، تغنّى المؤرخون بها وأشادوا بمحتواها، كما ذكروا أن ما فيها بلغ المئة الف، فكيف يوصف إنسان أو عصره بانحطاط التعبير ؟ وهذا الإنسان لم يكن إدارياً أو سياسياً، فحسب، بل كان أيضاً أستاذاً كبيراً من أساتذة عصره، أمضى فترة تقاعده في التدريس وتثقيف

[1185] الكامل في التاريخ (79/10).

[1186] مفرج الكروب (68/2) القاضي الفاضل ص 349.

الأجيال المقبلة، يمثل أسلوب القاضي طريقة ثالثة في التعبير اختصت اللغة العربية بها، إلى جانب الطريقتين الشائعتين في الآداب الأخرى، وهما الشعر والنثر المرسل، لكن التعبير الأدبي العربي يحتوى على ثلاثة نماذج : أولها وأقدمها، النموذج الشعري الذي تصل منابعه إلى الشعر الجاهلي ويمتد تدفّقه إلى عصرنا الحالي والأسلوب الثاني أسلوب النثر المرسل، وهو الذي كُتبت به كتب التاريخ والفلسفة والفقه والأصول والتفسير والعلوم، وغيّرها ممّا أبدعه العقل العربي والإسلامي وأما الأسلوب الثالث فهو أسلوب النثر الفني ونجد في هذا الباب، أدب المقامات، وأدب الرسائل الذي يعود إلى بداية التغيير الأدبي النثري متمثّلاً في عبد الحميد الكاتب وكان هذا الأسلوب في عصر القاضي الفاضل وأمثاله من أبناء عصره هو الأسلوب المقبول في التعبير لا من ناحية بلاغته فحسب، بل من ناحية تأثيره أيضاً. فالرسائل التي كتبها القاضي الفاضل وأمثاله من أبناء عصره كانت بيانات سياسية واجتماعية، ومقامات تحمل مختلف المعاني [1187] ، ومما ينفي عن هذه الرسائل أية شبهة بالنسبة إلى مستوى الأسلوب والتعبير اللغوي، ما تحتويه في صلبها من إشارات إلى الأدب والحِكم والأمثال والأحاديث الشريفة، واقتباس من كتاب الله، فضلاً عن الصور التي تستخدمها لتواكب الأحداث [1188] .

9- دعوته إلى الوحدة بعد وفاة صلاح الدين : ظلّ القاضي الفاضل محافظاً على مكانته المعنوية في البلاد بعد وفاة صلاح الدين فاهتم العزيز عثمان ملك مصر بأمره وأكرمه، واتّخذ منه ناصحاً ومشيراً إلا إن القاضي الفاضل لم يظهر تهافتا أو اندفاعاً على التدخل في أمور الدولة، فقد آثر الانعزال عن العالم السياسي وتكريس الأعوام الباقية من حياته لمدرسته الفاضلية، ولا شكّ في أن اعتزاله السياسة في هذه الفترة يعود إلى أسباب عدة منها: أنه فقد بوفاة صلاح الدين الرجل الذي فيه وضع كل آماله وتوصل في عهده إلى مركز عالٍ لم يكن غيره يحلم بالوصول إليه في عهده، كما كرس قسماً كبيراً من حياته في نصحه وإرشاده ووهبه كل ما في وسعه من محبة وإخلاص، حتى أصبح لا يطيق الابتعاد عنه في حياته، فكيف بعد موته وافتقاده صلاح الدين ويأسه من الحياة بعد موته ظاهرات في عدد من رسائله التي أشار فيها إلى أمنيته بلقاء صلاح الدين في الآخرة : وما بايعنا الدنيا على أنّا خالدون فيها مع الأحبّة ولا أن الموت غير زايرنا وإن أطال الغبّة، والأحبّة الراحلون عنّا، إن اشتقنا إليهم فإنّ الأيام مراحلنا التي تدينا منهم، والأنفاس خطواتنا التي تخطو بنا نحوهم، فنحن في كل يوم سايرون إليهم، وفي كل يوم قادمون عليهم، فكيف لا ينقص الحزن بمقدار

[1187] القاضي الفاضل ص 349 ، 350.

[1188] القاضي الفاضل ص 350.

ما ينقُص من المسافة [1189] ، ولم يترك مناسبة تمر من دون ذكر صلاح الدين، فقد كان إذا رأى معارفه تذكّره، وإذا رأى الناس من حوله وردت صورته لخاطره، ذكر لعماد الدين في إحدى رسائله قوله: وَلِسَلْوة الأيام موعد هو الحشر، وأن ليلة لقائه هي ليلة القدر، ولقد حيَي فطابت الحياة، وتوفاه الله فطابت الوفاة وإن امرءاً يحسن به الضدان وَهُما ما هما، ومولى يطيب به الطوران، والحياة بالطيب أولاهما، لمعزوره فيه القلوب إذا خضعت تحت وطأة الخفقان، والجفون إذا أمردت عليها مؤرة الهملان [1190] . كما أنه لم يعد المحرك السياسي للدولة بعد وفاة صلاح الدين، فقد تقسمت الدولة وتقسمّ العمل الذي كان يقوم به زمن صلاح الدين بين أشخاص عديدين، بينهم أشخاص لم يكن راضياً عن تصرفاتهم، زمن تنفّذه، كصفي الدين بن شكر وزير الملك العادل، وضياء الدين وزير الملك الأفضل، الذي حاول أن يبعده عن أصحاب أبيه ومستشاريه منذ البداية، ولقد أدرك القاضي الفاضل نهاية مسيرته بوفاة صلاح الدين، وعبّر عن مشاعره ببعض رسائله الإخوانية، يذكر في إحداها: وقد تبرّمت بالحياة، فبعد أن كنت ممن أخدمه بمكان العين صرت بمكان القذاة، والأعمار أكثرها الأكدار إلاّ إن أشدّها مؤونة ما كان في أواخر المدد حيث يكون المرء في أواخر الجلد [1191] . ويمكن القول أنه تبّدد بوفاة صلاح الدين حلم كبير كرّس القاضي الفاضل له قسطاً كبيراً من حياته، فقد تقسّمت البلاد التي طالما سعى لتوحيدها وتقويتها بين أبناء صلاح الدين الذين راحوا يتنافسون في شأنها ويتناحرون مدفعين بأنانيتهم مُغفلين أمر العدوّ الرابض على حدودهم، فراح يدعوهم إلى التحالف ويحاول التقريب بينهم، ولم يترك مناسبة تمر دون أن يذكّرهم بضرورة توحيد الصف " فكتب للملك الظاهر بن صلاح الدين ضمن رسالة عزاء بوالده يقول : وأمّا لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما عدتم إلا شخصه الكريم وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته وهو الهول العظيم [1192] وقد قام القاضي الفاضل بدور في الصلح بين العزيز عثمان بن صلاح الدين ملك مصر، والأفضل بن صلاح الدين ملك الشام [1193] وعمل على شّد أزر العادل أبي بكر أخي صلاح الدين، أكبر أقارب صلاح الدين وأكثرهم خبرة لكي يقف وقفات صامده كأخيه ضد الخطر الصليبي فكتب له في إحد رسائله سنة 593هـ/1196م : وما تجدّد من وصول العدو اللعين إلى جانب بيروت وخطر البلاد ما أذهل كل مرضعة وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعة، وللإسلام اليوم قدم وإنْ زلّت زلّ وهمّة وإن ملّت فإن النصر منه

[1189] المصدر نفسه ص 344.

[1190] المصدر نفسه ص 344.

[1191] القاضي الفاضل ص 345.

[1192] وفيات الأعيان (205/7) القاضي الفاضل ص 345.

[1193] القاضي الفاضل ص 345.

ملّ، وتلك القدم قدم العادلية وتلك الهمّة الهمّة السابقة السيفية، فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد ودقّوا ذلك المهاد، واسهروا في الله، فليست بليلة رقاد، ودقّوا ذلك المهاد، واسهروا في الله، فليست بليلة رقاد، ولا يُنظر في حديث زيد ولا عمرو، ولا أن فلانا نفع وضر، ولا أن من الجماعة من جاء ولا أن فيهم من مر أنظروا إلى أنكم الإسلام كله برز إلى الشرك كله، وأنكم ظل الله، فإن صّممتم تلك النسبة فإن الله لا ناسخ لظلّه، واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تهونوا، وإن ذهب الناصر فإن الله خير الناصرين، فما هي إلا غمرة وتنجلي وهَيْعة وتنقضي وليلة وتصبح، وتجارة وتربح [1194] . لكنّه شاهد بعض المدن يسقط ثانية في يد الفرنج، فراح يتحسّر على انفراط العقِد الذي جمعه مع صلاح الدين، ويزداد بأساً وانعزالا وكان للأمراض التي تراكمت على القاضي الفاضل أثر في ابتعاده عن الجّو السياسي، فقد كان ضعيف البنية كثير المرض، وكان هذا يؤخّره عن الاشتراك في بعض الغزوات عندما كان صلاح الدين حياً، وفي رسائله كثير من الإشارة إلى مرضه وضعفه اللذين ازدادا بعد وفاة صلاح الدين [1195]، وقد ذكر في إحداها إلى صديقه العماد الأصفهاني قوله : وسيدنا يعلم كيف حال الكبير إذا فقد الصغير، والضعيف المتثاقل إذا نودي للنفير، ما كأني عرفت الأيام، إلا في هذه الأيام، ولا كأن الدنيا لبستها إلا على أن يخلعني الحِمَام، فقد توقعت أمر الله أن يطرقني بياتاً وأنا نائم، أو ضحى وأنا هائم [1196] ، كما كتب إليه في إحدى رسائله يصف حالته الجسمانية قائلاً : وأصدرت هذه الخدمة ورجلاي قد عام النقرس إلى تقييدهما وتصفيرهما بالألطخة وتسويدهما، جنبي طريح، وما فيّ صحيح إلا سقمي فإنه صحيح وإذا خلوت إلى شيطان المرض أصيح [1197] . وكتب إليه رسالة أخرى قائلاً : وأما أحوالي في جسمي فلا تسأل عن تداعي البنية، المفاصل مذهبة، والأسنان مضمدة والنقرس يغلي، وزيادة كالنقص زيادة العصا في ظليّ [1198] . ووصف أوجاعه في آخر حياته للعماد أيضاً بقوله : وأخلاق الغلمان وما أدراك ما هيه نار حامية، وقد صرت أرى الصبر على الضرورة أولى من الابتلاء بهم في الخدمة، فأجوع ولا أقول أطعموني، وأظمأ ولا أقول اسقوني، وألقيت بيدي وقلت مرّوا، ومددت رجلي وقلت جرّوا [1199] .

[1194] كتاب الروضتين نقلاً عن القاضي الفاضل ص 346.

[1195] القاضي الفاضل ص 346.

[1196] المصدر نفسه ص 347.

[1197] المصدر نفسه ص 347.

[1198] المصدر نفسه ص 347.

[1199] القاضي الفاضل ص 347.

10- وفاته: توفي القاضي الفاضل بعد كل هذه الآلام الجسمية والمعنوية في السادس من ربيع الأول 596هـ/1199م. قال العماد الأصفهاني في حوادث هذه السنة ناعياً إيّاه : تمت الرزية الكبرى والبليّة العُظمى وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء في داره بالقاهرة [1200] وذكر في وفاته أنه عمل ليلة العشاء السابقة لوفاته في مدرسته، وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدّرسها وتحّدث مع ما شاء وشوهد من كل ليلة أبش وأبسم وأهش، وقد طابت المحاضرة وطالت المسامرة وانفصل إلى منزله صحيح البدن فصيح اللسان، وقال لغلامه : رتّب حوائج الحمّام وغّرفتي حين أفضى مني المنام، فوافاه سحراً للإعلام، فما أكترث بصوت الغلام، ولم يدر أن كَلِم الحِمام حَمى من الكلام، وأن وثوقه بطهارته من الكوثر أغنَاه من الحمّام، فبادر إليه والده فألفاه وهو ساكت باهت، فعرف أن القدر له باغت فلبث يومه لا يُسمع له إلا أنينٌ خفيّ علم منه أنه بعهد الله وفي، ثم قضى سعيداً [1201] وعلق عماد الدين الأصفهاني على وفاته بقوله: ومضى شهيداً حميداً، فوفّاه الله تعالى الوصية، فكانت له بسيد الأولّين والآخرين أسوة، وإن تردّى عن ردء العمر فله من حُلل البقاء في عليين كسوة، ولأنه لم يبقى في مدّة حياته عملاً صالحاً إلا قدّمه ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه، ولا عَقداً في البّر إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سُبُل الخيرات متجاوزة على الحساب لا سيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يوم الحساب، وأعان طلبة الشافعية والمالكيّة عند داره بالمدرسة والأيتام بالكتُاَّب والخيرات الدارّة على الأيام، فكانت له حياة ثانية إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام إلى أن قال : والسلطان رحمه الله — أي صلاح الدين — من مفتتحات فتوحه ومختتماتها، مبادئ أمور دولته وغاياتها، ما افتتح الأقاليم إلاّ بأقاليد آرابه وآرائه، ومقاليد غِناه وغَناه [1202].

ثانياً : الحافظ السلفي: هو الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السَّلفي الأصبهاني [1203] وهو من علماء المشارقة الذين هاجروا إلى مصر واستقروا بالإسكندرية ونفع الله بهم نفعاً عظيماً في نشر مذهب أهل السنة.

[1200] كتاب الروضتين نقلاً عن القاضي الفاضل ص 347.

[1201] المصدر نفسه ص 347.

[1202] المصدر نفسه ص 348.

[1203] وفيات الأعيان (225/1) الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 16.

1- قدومه إلى الإسكندرية: نزل السَّلفي الإسكندرية سنة 511هـ وكان عمره قد بلغ السادسة والثلاثين عاماً وكان تجمع لديه خبرات واسعة وحصل على علم وفير، وبلغ من النضج الفكري والتخصصي في ميدان علم الحديث مبلغ العلماء المتخصصين، فهو قد رحل إلى بلاد كثيرة، فأتيح له أن يلتقي بأعداد كثيرة من العلماء وكبار المحدثين أتقن على أيديهم الرواية وقواعد التحديث وعلوم المصطلح، وانتخب من كتبهم كثيراً من المختارات الجيدة والفوائد النادرة، ونسخ بخطه السريع الأجزاء الكثيرة [1204] وكان أيضاً ذا خبرة وتجربة في الكتابة والتأليف فقد سبق له أن ألف معجماً لشيوخه في أصبهان، ومعجماً آخر لشيوخه في بغداد [1205] . وكانت له دراية سابقة بالتحديث والتعليم، فهو قد زاول ذلك فعلاً في أوائل سنة 492هـ في بلده بأصبهان، .. وكذلك أثناء إقامته في دمشق حيث اشتغل بالتدريس من سنة 509هـ إلى 511هـ ولم تكن ثقافة "السلفي" حين قدومه مقتصرة على الحديث وحده، وإنما كان أيضاً فقيها على مذهب الإمام الشافعي، فهو قد درس الفقه في نظامية بغداد على يد شيخه ألْكيا الهرّاسي وفخر الإسلام الشاشي ويوسف ابن علي الزنجاني وكان السلفي أيضاً متقناً لعلم القراءات عارفاً بحروفها ووجوهها، قد تتلمذ في ذلك على علماء القراءات المشهورين في عصره [1206] ، يقول الذهبي : نقلت من خط الحافظ عبد الغني المقدسي نقل خطوط المشايخ "للسلفي بالقراءات وأنه قرأ بحرف عاصم [1207] ، على أبي سعد المطرز، وقرأ برواية حمزة [1208] ، والكسائي على محمد بن أبي نصر القصار وقرأ لقانون [1209] على نصر بن محمد الشيرازي وقرأ برواية قُنبل [1210] على عبد الله بن أحمد الخرقي، وقد قرأ على بعضهم في سنة 491هـ وفضلاً عن إلمام السلفي بالحديث ومعرفته بالفقه وعلم القراءات قبل أن يستقر في الإسكندرية، فقد كان ملماً أيضاً بالأدب واللغة العربية فقد درس ذلك كله أيام كان في بغداد على يد العالم اللغوي المشهور أبي زكريا يحي بن علي التبريزي شيخ الأدب في "النظامية" وكان شاعراً ينظم الشعر ويتذوقه ويحب سماعه ويختم كل مجلس من مجالسه التي أملاها على طلاب الحديث في سَلَماس بأبيات من شعر الحكمة النصيحة [1211] أحب السلفي

[1204] سير أعلام البنلاء نقلاً عن الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 16.

[1205] أبو الطاهر السلفي ص 96.

[1206] المصدر نفسه ص 97.

[1207] هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود توفي 127هـ وفيات الأعيان (224/2).

[1208] هو حمزة بن حبيب بن عمارة المعروف بالزيات.

[1209] هو عيسى بن وردان الزرقي الملقب بقانون قارئ المدينة.

[1210] هو قُنبل عبد الرحمن بن خالد المكي، كان يلي الشرطة بمكة.

[1211] الحافظ أبو الطاهر السَّلفي ص 99.

الإسكندرية وأهلها، فقد أكرموا وفادته، ورأى أنها المكان المناسب لإقامته حيث يمكنه فيها أن يفيد ويستفيد، فأقلع – مؤقتاً – عن نية مغادرتها إلى بلاد الأندلس، وقرر أن يتخذها دار إقامته، ولو إلى حين وكان قراره هذا يرجع في حقيقته إلى عدة أسباب بالإضافة إلى إكرام وحب أهل الإسكندرية له – منها ما يلي:

- موقع الإسكندرية الجغرافي المتوسط لبلدان العالم الإسلامي – وبخاصة بين الحجاز في المشرق وبين المغاربة والأندلس في المغرب – جعلها أشبه بملتقى الحجاج الأندلسيين والمغاربة الذين كانوا يستريحون فيها من وعثاء السفر أياماً أثناء توجههم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وكذلك أثناء عودتهم منه إلى بلادهم، فكانوا ينتهزون فرصة استراحتهم فيها فيلتقي علماؤهم وأدباؤهم بعلمائها وأدبائها فُيسمعون ويَسمعون منهم، ويتبادلون معهم ضروباً من المعرفة والثقافة فيفيدون ويستفيدون.
- كانت الإسكندرية في مطلع القرن السادس الهجري ملتقى كثير من علماء الشام الذين كانت بلادهم مسرحاً للحروب الصليبية، والتي سقط بعض مدنها في أيدي الصليبيين كالقدس والرملة وكثير من مدن الساحل الفلسطيني [1212] مما اضطر أولئك العلماء إلى هجرتها والنزوح عنها.
- نزوح عدد كبير من علماء صقلية المسلمين إلى الإسكندرية بعد أن احتل النورمان جزيرتهم في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ونزوح عدد آخر من علماء الأندلس على أثر الهزات السياسية المتلاحقة التي أصيب بها بعض المدن الأندلسية مما دفع الكثيرين من العلماء إلى الهجرة وطلب الأمن كما فعل الفقيه المالكي المشهور أبو بكر الطرطوشي وغيره.
- تمتع أهل الإسكندرية بحرية الاعتقاد الديني – إذا قورنوا بأهل القاهرة – رغم انطوائهم رسمياً تحت نفوذ الخلافة الفاطمية الشيعية، فقد كانوا سنيين على مذهب الإمام مالك، وهذه الحرية النسبية جعلت الوافدين إلى مصر يتوجهون إلى الإسكندرية – بدلاً من القاهرة – للإقامة فيها بعيدين عن ضغوط المذهب الفاطمي الشيعي الذي يتنافى مع اعتقادهم السني هذه الأسباب وغيرها رغبت الحافظ السَّلفي في البداية أن يقيم في الإسكندرية، ثم ما لبث أن رسخت فيها قدمه، وتقدمت به سنة، وأخيراً تزوج – وقد قارب الستين عاماً – من "ست الأهل" الإسكندرانية، فثقل بذلك حمله، ثم ألقى عصا الترحال بعد ذلك نهائياً عندما بنى له والي الإسكندرية العادل ابن السلار "مدرسته العادلية" وعهد إليه

[1212] المصدر نفسه ص 100.

بالإشراف عليها والتدريس فيها، فاستقر به المقام وطاب له الحال، ولم يبرح تلك المدينة التي أحبها إلى أن توفاه الله تعالى [1213].

2- نشاطه العلمي ومدرسته : بدأ الحافظ السَّلفي تدريسه للحديث منذ وصل إليها سنة 511هـ حتى إذا ما توفي – محدث الإسكندرية آنذاك – الشيخ أبو عبد الله الرازي المعروف بابن الخطاب سنة 525هـ، جلس مكانه وأصبح بذلك شيخ الإسكندرية ومحدثها المتفرد دون منازع ثم أخذت شهرته وسمعته تتزايد يوماً بعد يوم، وراح حجاج الأندلس يتناقلون أخباره في كل مكان نزلوا به، فتسامع به طلاب الحديث في مصر وخارجها، فشدوا إليه الرحال، وتوافدوا على الإسكندرية من كل حدب وصوب ليلتقوا بمحدثها الكبير وحافظها المتقن فنشطت بذلك درسة الحديث وروايته فيها، وأصبحت لها مكانتها المرموقة في هذا الميدان من الدراسة، يقول: والإسكندرية تبع لمصر، ما زال بها الحديث قليلاً حتى سكنها "السلفي" فصارت مرحولاً إليها في الحديث والقراءات [1214] .

3- المدرسة العادلية "السَّلفية ": ظل السَّلفي يلقي دروسه في المسجد حيناً وفي منزله حيناً آخر، زهاء ربع قرن إلى أن ولي المدينة أبو الحسن علي بن السلار الملقب بالملك العادل، فاحتفل به وزاد في إكرامه وبنى له مدرسة سميت "المدرسة العادلية" نسبة إلى منشئها "العادل" ثم عرفت بعد ذلك بالمدرسة السَّلفية نسبة إلى مدرسها السلفي [1215] وقد بين الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه أعلام الإسكندرية، أنها أنشئت في سنة 544هـ [1216] وكذلك ذكر الدكتور حسن عبد الحميد صالح بأن المدرسة بينت سنة 544هـ [1217] وقد أشارت المصادر التاريخية إلى أن ابن السلار كان سنياً من أصل كردي [1218] وأنه أظهر اعتناقه لعقيدة أهل السنة أثناء ولايته لثغر الإسكندرية، ثم أخذ يراسل نور الدين محمود حاكم حلب طمعاً في مساندته ضد السلطة الفاطمية، فتوطدت بينهما صداقة وود، وأمده بالعون المادي لأن ابن السلار كان

[1213] الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 101.

[1214] الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص 294.

[1215] الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 104.

[1216] أعلام الإسكندرية ص 137.

[1217] الحافظ أبو الطاهر ص 105.

[1218] وفيات الأعيان (76/2).

سنياً مثله ولأن نور الدين كان يطمع أن يفتح مصر أيضاً [1219] وربما أشار نور الدين محمود على ابن السلار في مراسلتهما أن يطبق نفس التجربة التي طبقت في سوريا بشأن تقويض المذهب الفاطمي الشيعي والقضاء عليه عن طريق بناء المدارس فبنى ابن السلار هذه المدرسة، ووكل رعايتها والتدريس فيها إلى محدث الإسكندرية السني الحافظ "السلفي" [1220] ، وكان طبيعياً أن يكون هذا كله أثناء ولاية ابن السلار على الإسكندرية وقبل أن يستولي على الوزارة في 15 شعبان سنة 544هـ وقد تخوف الخليفة الفاطمي "الظافر" وأحس بخطورة ابن السلار وأثر مدرسته السنية واستقطاب أهل السنة حوله فتخوف منه وأخذ يكيد له، وعهد بالوزارة إلى نجم الدين ابن مصال الوزير الشيعي، الذي ينحدر من أصل مغربي، فأغضب ذلك ابن السلار الرجل السني، فجمع أنصاره من أهل الإسكندرية السنيين وسار بهم إلى القاهرة، فدخلها بعد أن هزم ابن مصال عند الجزيرة في 14 رمضان سنة 544هـ [1221] ، وقد لا نكون مغالين إذا قلنا إن السبب الحقيقي بين ابن السلار وبين ابن مصال إنما هو نزاع بين عقيدة أهل السنة التي يساند الدعوة إليها نور الدين محمود، وبين المذهب الفاطمي الشيعي الذي يمثله الخليفة الفاطمي [1222] . لقد كان لإنشاء هذه المدرسة فرحة عظيمة في نفوس أهل الإسكندرية واعتبروا بناءها هدية كبيرة من وإليهم ابن السلار من واجبهم أن يشكروه عليها، فانبرى شعراؤهم يمدحونه ويثنون عليه، ويعبرون له عما في نفوسهم من الغبطة والابتهاج [1223].

وقد تولى الحافظ "السَّلفي" الإشراف على هذه المدرسة، فجعل منها مركز إشعاع لإعادة أهل مصر لعقيدة أهل السنة، ومنتدى لأهل الفكر والثقافة، فكان يلتقي فيها علماء الحديث وطلابه، ورجال الفقه والقراءات والأدباء والشعراء ورجال التاريخ وأصحاب الحكايات فنمت وازدهرت وكثر روادها والمتأثرون بما يلقى من دروس، وما يعقد فيها من لقاءات وندوات ومحاضرات، وقد تجلى تأثيرها واضحاً في أهل الإسكندرية بالذات من موقفين واضحين : أولهما يوم خرجوا مع واليهم ابن السلار للاستيلاء على الوزارة في القاهرة، وثانيهما يوم وقفوا يحاربون مع صلاح الدين ويناصرونه ضد الوزير الفاطمي (شاور) وحلفائه الصليبيين فلم يخذلوه أو يتخلوا عنه رغم الحصار الشديد الذي فرض عليهم ثلاثة شهور، بل حاربوا معه جنباً إلى جنب

[1219] تاريخ الدولة الفاطمية في مصر ص 183.

[1220] الحركة الفكرية في مصر ص 158.

[1221] الكامل لابن الأثير نقلاً عن الحافظ أبو طاهر السَّلفي ص 106.

[1222] تاريخ الدولة الفاطمية ص 184.

[1223] الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 106.

وبذلوا له كل ما يملكون من قوة ومال ورجال، إلى أن فك شاور والصليبيون الحصار [1224] ، وقد احتفظ صلاح الدين الأيوبي لأهل الإسكندرية بهذا الجميل، فلما أزال الدولة الفاطمية وأقام على أنقاضها دولته الأيوبية، أولى الإسكندرية اهتمامً خاصاً ورعاية كبيرة وذلك لأهمية موقعها الاستراتيجي في الدفاع عن مصر من ناحية ولما كان لأهل الإسكندرية من مكانة طيبة عنده لما ساندوه في وقفتهم البطولية حين حاصره "شاور" في مدينتهم سنة 562هـ، فوقفوا يذودون عنه ويقدمون له كل ما يملكون من رجال ومال وسلاح، ولهذا ليس بمستغرب أن نرى صلاح الدين يأمر منذ اللحظة الأولى لتوليه سلطنة مصر بإصلاح سور الإسكندرية وتحصين أبراجها وقلاعها وإدخال بعض المنشآت فيها. وليس هذا فحسب بل نراه يسافر بنفسه في سنة 572هـ إلى الإسكندرية ليشاهدها ويرتب قواعدها، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها [1225] ، في هذه الزيارة تفقد صلاح الدين الأسطول الحربي، ورأى ما آل إليه من خراب وإهمال فأمر بتجديده وتعميره، وبناء سفن جديدة تضاف إليه، وأفرد له ميزانية خاصة، وأنشأ له ديواناً خاصاً، وعين له قائد سماه "صاحب الأسطول" [1226] ، وظلت الإسكندرية محل رعاية صلاح الدين وعنايته، يوصي بالإنشاءات فيها ويتفقد أحوالها ويتابع الاهتمام بها إلى أن وافته الفرصة لزيارتها مرة ثانية في سنة 577هـ، فزارها ووقف بنفسه على ما تم فيها من إصلاحات وتفقد المنشآت التي أمر ببنائها، وأمر بسرعة إنجازه، يقول العماد الأصفهاني في وصف هذه الزيارة : وتوجه السلطان بعد شهر رمضان سنة 577هـ إلى الإسكندرية على طريق البحيرة، وخيم عند السواري، وشاهد الأسوار التي جددها والعمارات التي مهدها وأمر بالإتمام والاهتمام [1227]. وفي هذه الزيارة حظيت الإسكندرية من صلاح الدين بتأسيس كثير من المنشآت العمرانية والمرافق العامة، فأنشأ فيها مدرسة كبيرة للطلاب الغرباء، يتعلمون فيها مختلف العلوم والآداب، وبنى لهم دار يقيمون فيها وحمامات يستحمون فيها، ومارستاناً يعالجون فيه بالمجان ويشرف عليه أطباء متفرغون [1228]، ثم تتابع بناء المدارس في الإسكندرية في عهد صلاح الدين تتابعاً سريعاً، وفقاً لسياسته العامة في الإكثار من تشييد المدارس كوسيلة فكرية للقضاء على الفكر الفاطمي الشيعي، وقد كثر عدد المدارس في سنوات قليلة، كثرة لفتت أنظار المؤرخين الذين زاروا الإسكندرية وكتبوا عنها يقول ابن خزيمة الذي زار الإسكندرية سنة 561هـ - 1164م

[1224] المصدر نفسه ص 107.

[1225] مفرج الكروب (56/1).

[1226] الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 60.

[1227] كتاب الروضتين نقلاً عن الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 61.

[1228] الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 61.

وأقام فيها وكتب وصفاً لها: وبها مائة وثمانون مدرسة لطلب العلم بها [1229] ، وأمر صلاح الدين في هذه الزيارة الثانية بإنشاء مسجده الجامع الكبير ونقل الخطبة إليه، بعد أن كانت تقام في عهد الفاطميين في مسجد العطارين أكبر مسجد في المدينة [1230] ، ثم تبع ذلك بناء عدد كبير من المساجد بالإضافة إلى ما كان فيها من مساجد من قبل. وقد بلغ عدد المساجد في هذه الفترة رقماً عالياً لفت أنظار المؤرخين الذين زاروا المدينة فأخذوا يقدرونها تقديرات مختلفة يصلون فيها أحياناً إلى حد المبالغة [1231] ، وقد وصف ابن الجبير الذي زار الإسكندرية في سنة 578هـ - أي في زمن صلاح الدين – فيصف كثرة المساجد بها فيقول: وهي أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم المكثر والمقل، فالمكثر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد، والمقل دون ذلك لا ينضبط فمنهم من يقول ثمانية آلاف، ومنهم من يقول غير ذلك وبالجملة فهي كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة في موضع واحد، وربما كانت مركبة، وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان [1232] . وظلت عناية الأيوبيين بتعمير الإسكندرية مستمرة بعد صلاح الدين على نفس السياسة حتى نهاية القرن السادس الهجري [1233] .

4- مميزات شخصية أبي الطاهر السلفي:

أ- جديته في الحياة: كرّس الحافظ السلفي حياته كلها للتدريس والمطالعة والكتابة وإلقاء المحاضرات دون أن يؤثر عنه ملل أو سأم وكانت حياته كلها جادة صارمة كما وصفها تلميذه الحافظ عبدالقادر الرهاوي بقوله: وبلغني أن مدة مقامة بالإسكندرية ما خرج منها إلى بستان ولا فرجة سوى مرة واحدة بل كان لازماً مدرسته، وما كانا ندخل عليه إلا ونراه مطالعاً في شيء ... وأنه ما رأى منارة الإسكندرية إلا من طاقة كانت في داره [1234] ، ووصفه ابن العماد أيضاً بقوله: واستوطن "السلفي" الإسكندرية بضعاً وستين سنة مكباً على الإشتغال بالعلم والمطالعة وتحصيل الكتب [1235] .

[1229] الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 62.

[1230] تاريخ المساجد الأثرية ص 67، حسن عبدالوهاب.

[1231] الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 62.

[1232] رحلة ابن جبير ص 43.

[1233] الحافظ أبو الطاهر السلفي ص 63.

[1234] الحافظ أبو الطاهر السَّلفي ص 114.

[1235] شذرات الذهب (255/4).

ب- احترامه لمجلسه: كان – رحمه الله – حليماً متواضعاً، موطّأ الأكناف يألف الناس ويألفونه، ويتحمل الإساءة، ويصبر على جفوة الغرباء، يحب رواده، ويقبل على الجميع منهم بكل وجهه ومشاعره، لا يدخر وسعاً في إفادتهم والتلطف معهم والإخلاص لهم، وصفه خليل الصفدي بقوله: وكان لا يكاد تبدو منه جفوة في حق أحد، وإن بدأته بادرها حتى لا ينفصل عنه أحد إلا طيب القلب، ومع ذلك كله فلم يكن يسمح أثناء الدرس الواحد من الحاضرين أن يلهو أو يعبث أو يتحدث مع جاره أو يشغل غيره عن الأصغاء والمتابعة مهما كان شأنه ومكانته، حتى إذا ما انتهى من عبارته أو فكرته التي يتحدث فيها أتاح للحاضرين الاستفسار والتعليق. روى الحافظ الذهبي أن السلطان صلاح الدين وأخاه حضرا يوماً عنده لسماع الحديث وأنهما تحدثا معاً بصوت منخفض، فالتفت إليهما وزيرهما وأظهر لهما عدم الرضا، وقال: أيش هذا ؟ نحن نقرأ حديث النبي صلى الله عليه وسلم – وأنتما تتحدثا ؟ فأصغيا عند ذلك [1236].

ج- حبه للمطالعة وجمع الكتب : وكان – رحمه الله –كثير المطالعة، واسع المعرفة، مجداً في التحصيل، كثير البحث عما يشكل، لم يكن يشغله بعد الفراغ من التدريس إلا القراءة في كتاب أو النسخ من كتب الآخرين أو التحقيق والتعليق عليها. وقد وصفه تلميذه الحافظ عبد القادر الرهاوي فقال: ما نكاد ندخل عليه إلا ونراه مطالعاً في شيء . وكان يحب الكتب حباً جماً ويحرص حرصاً شديداً على جمعها وتملكها، حتى لقد تجمع لديه منها مجموعات كثيرة منوعة لم يسعفه الوقت للنظر فيها، فلما مات وجدوا معظمها قد عفنت ولصق بعضها ببعض، نتيجة لرطوبة جو الإسكندرية مما أدى إلى تلف الكثير منها [1237] ، وما كان يصل إليه من المال كان يخرجه.

5- علاقته مع المثقفين: كانت حلقات الدرس في المسجد أولاً ثم في المدرسة بعد ذلك هي همزة الوصل بينه وبين كافة فئات المثقفين من الناس وقد استطاع من خلال تلك الحلقات أن يكون له صلات واسعة مع عدد كبير جداً من من علماْ الحديث وطلابه، ومع رجال الفكر والأدب، كالكتاب والأدباء والشعراء، ومع كبار موظفي الدولة كالولاة والقضاة وغيرهم ومع أرباب المهن والحرف المختلفة كالأطباء والمهندسين والتجار والورّاقين ومجلدي الكتب وأئمة المساجد والوعاظ والنسّاخ والمؤذنين، ومع كثير من حجاج المغرب والأندلس الذين كانوا يفدون إلى الإسكندرية في طريقهم إلى الحج، وأما علاقته مع الشعراء،

[1236] الحافظ أبو الطاهر ص 118

[1237] المصدر نفسه ص 119.

فقد كانت طيبة متميزة يسودها الود والتعاطف فقد كان يأنس بهم ويحب مجالستهم والاستماع إليهم ويقارضهم القصيد أحياناً، فقد كان شاعراً مثلهم، يقول الشعر ويتذوقه وينقده، وصفه الحافظ الذهبي بقوله: وكان يستحسن الشعر وينظمه ويثيب من امتداحه[1238].

6- علاقته مع العوام: كانت طيبة للغاية، فهم قد أنزلوه من نفوسهم منزلة عالية، وكان يحضرون عنده في بعض الأوقات ليتبركوا به لتقواه وصلاحه، بل لقد كانوا يبالغون في تقديرهم واحترامهم له وأخذوا يعتقدون فيه البركه [1239] ، ومن لطيف ما رواه الحافظ الذهبي في هذا المقام أن العامة من أهل الإسكندرية كانوا يهرعون إليه — إذا تعسرت إمرأة في ميلادها ليكتب لهم بعض الأدعية في ورقة وكان يكتب لهم ولا يمنع وكان نص ما يكتب : اللهم إنهم قد أحسنوا ظنهم بي، فلا تخيب ظنهم فيّ [1240].

7- علاقته مع الدولة الفاطمية: تجنب السلفي الاصطدام بالدولة الفاطمية ما أمكنه حتى لا يؤذوه كما آذوا غيره من علماء الإسكندرية أو يمنعوه من التحديث كما فعلوا من قبل مع المحدث أبي إسحاق الحبال المصري [1241] ، فتجنب نقدهم والإساءة إليهم بشكل يثير حفيظتهم عليه، فابتعدوا عنه وتركوه وشأنه، بل إن بعضهم كان يذهب إلى حلقة درسه ويستمع إليه ومما ساعد الحافظ السَّلفي في نجاحه في تأدية رسالته أن الدولة الفاطمية في تلك الفترة في 511هـ - 567هـ قد أخذ نجمها ينحدر نحو الأفول والزوال، وأن الخلفاء أنفسهم كانوا ضعافاً مسلوبي الإرادة والإدارة، يتحكم في أمورهم ومصائرهم الوزراء المتصارعون على كرسي الحكم ومركز القوة والسلطان، وأن أولئك الوزراء لم يكونوا حريصين على رعاية المذهب الفاطمي والمحافظة عليه بقدر ما كانوا حريصين على السيطرة والبقاء في سدنة الحكم، بل كان بينهم وزراء سنيون [1242] ، وهؤلاء الوزراء جميعاً على اختلاف مذاهبهم لم يكن يهمهم أمر المذهب الفاطمي في كثير أو قليل [1243] ، وكانت صلته بولاة الإسكندرية السنيين الذين لم يتمذهبوا بالمذهب الفاطمي حسنة طيبة، فهم كانوا يحبونه ويجلونه، ويعرفون له قدره، ويحضرون دروسه، ويقرأون عليه، فالوالي قسطة الآمري

[1238] سير أعلام النبلاء نقلاً عن الحافظ أبو الطاهر السَّلفي ص 128.

[1239] الحافظ أبو الطاهر السَّلفي ص 130.

[1240] المصدر نفسه ص 130.

[1241] المصدر نفسه ص 132.

[1242] الحافظ أبو الطاره السَّلفي ص 134.

[1243] المصدر نفسه ص 135.

كانت بينه وبين "السلفي" مودة ومكاتبة. قال عنه في معجم السفر: وقسطة هذا من عقلاء الأمراء المائلين إلى العدل، المثابرين على مطالعة الكتب، وأكثر ميله إلى التواريخ وسير المتقدمين، وكانت بيني وبينه مودة ومكاتبة [1244] ، وأما نائب والي الإسكندرية أبو الرضا عبدالله بن الفضل بن دُليل الحضرمي فقد قال في ترجمته: .. وكان يلازمني ويراجعني في المسائل التي يتشكك فيها، وقرأ عليّ "البخاري لابن بطال" قراءة دراية لا رواية [1245] . وأما والي الإسكندرية العادل بن السلار، فقد أكرمه، ووضعه في مكانة عالية تليق به، وبنى له المدرسة "العادلية" وعهد إليه إدارتها والتدريس فيها، وكفاه الإنفاق عليها بأن وقف لها أوقافاً تدر عليها وتسد نفقاتها واحتياجاتها. هذه أمثلة لصلة الحافظ السلفّي برجال الدولة الفاطمية الرسميين، وهي كما تبدو علاقة طيبة، واضح فيها التقدير والاحترام رغم أنه لم يزر واحداً منهم في بيته أو مقر عمله [1246].

8- علاقته مع رجال الدولة الأيوبية : فرح الحافظ السَّلفي فرحاً عظيماً لزوال الدولة الفاطمية الشيعية، وقيام الدولة الأيوبية السنية على أنقاضها، الذين شرعوا منذ اللحظة الأولى من قيام دولتهم يدعون إلى إعادة اعتناق عقيدة أهل السنة، وإلى إزالة كل مظهر من مظاهر الاعتقاد الفاطمي وإلى تخويف كل من يحاول إعادة المذهب الفاطمي أو الدعوة إليه. ومع هذا فإن الحافظ السَّلفي لم يقرع باب أحد من السلاطين الأيوبيين أو أمرائهم لا مهنئاً ولا شاكراً، تماماً، كما كان يفعل مع حكام الفاطميين وأمرائهم من قبل وأكبر سلاطين بني أيوب وأمراؤهم في السَّلفي هذا السلوك وأخذو يسعون هم إليه ويحضرون حلقات دروسه، فيستمعون إليه كما يستمع غيرهم، بكل تقدير وإجلال وإكبار، فالسلطان صلاح الدين على مهابته وجلال قدره وعلو مكانته كحاكم لمصر كلها، ذهب بنفسه من القاهرة إلى الإسكندرية – يصحبه ولداه الأفضل "علي" والعزيز "عثمان" وأخوه "العادل" وسكرتيره "العماد الأصفهاني" وكبار رجال دولته لزيارته ويسمع الحديث منه [1247]، يقول القاضي ابن شداد في وصف تلك الزيارة أثناء حديثه عن أخلاق السلطان صلاح الدين وعن حبه لسماع الحديث الشريف: وكان السلطان شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين، ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع منه ... وقد تردد إلى

[1244] المصدر نفسه ص 136.

[1245] المصدر نفسه ص 136.

[1246] المصدر نفسه ص 136.

[1247] السلوك للمقريزي نقلاً عن الحافظ أبو الطاهر ص 137.

الحافظ "السَّلفي" بالإسكندرية، وروى عنه أحاديث كثيرة [1248] وقد نقل أبو شامة صاحب كتاب الروضتين عن العماد الأصفهاني، وصفاً تفصيليا لتلك الزيارة، فقال: ثم خرج السلطان من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واصطحب معه ولديه الأفضل "علياً" والعزيز "عثمان" ... ثم وصلنا إلى ثغر الإسكندرية، وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السَّلفي وداومنا الحضور عنده واجتلينا من وجهه نور الإيمان وسعده وسمعنا عليه ثلاثة أيام : الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان واغتنمنا فرصة الزمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العمر [1249] . ومن ألطف ما حدث في تلك الزيارة أن الملك العادل، كان يجلس في أحد تلك الأيام الثلاثة بجوار أخيه السلطان، فمال عليه، وهمس في أذنه بكلام غير مسموع، فلما رآهما الحافظ " السَّلفي " زبرهما، وأظهر لهما عدم الرضا، فأصغيا [1250] .

9- السَّلفي الشاعر وعلاقته بالشعراء : كان الحافظ السلفي – رحمه الله – شاعراً، ينظم الشعر ويتذوقه وينقده عن دُربة ودراية وكان يحب الاستماع للشعراء والمنشدين، ويجزل العطاء لمن يمدحه[1251] ، وكان يحب حفظ الشعر وروايته والاستشهاد به في مجالسه، وترديد ما كان يعجبه على مسامع جلاسه، فهو كثيراً ما كان يردد قول الشاعر:

قـــــالوا نفـــــوس الـــــدار ســـــكانها
وأنـــــتم عنـــــدي نفـــــوس النفـــــوس

وقال الشاعر:

نحـــــن نخشـــــى الإلـــــه في كـــــل كـــــرب
ثم ننســـــاه عنـــــد كشـــــف الكـــــروب

[1248] النوادر السلطانية ص 7 الحافظ أبو الطاهر ص 138.

[1249] الحافظ أبو الطاهر ص 138.

[1250] المصدر نفسه ص 139.

[1251] المصدر نفسه ص 170.

كيـــــف نرجـــــو اســـــتجابة لـــــدعاء

قـــــد ســـــددنا طريقَـــــهْ بالـــــذنوب

وقول الشاعر في المشيب:

حـــــل المشـــــيب بعارضـــــي ومفـــــارقي

بـــــئس القـــــرين أراه غـــــير مفـــــارقي

رحـــــل الشـــــباب فقلـــــت : قـــــف لي ســـــاعة

حـــــتى أودع. قـــــال : إنـــــك لا حقـــــي

وقال الشاعر في عزة النفس:

منـــــزلي منـــــزل الكـــــرام ونفســـــي

نفـــــس حـُّــــر تـــــرى المذلـــــة كفـــــراً

وإذا مـــــا قنعـــــت بالقـــــوت دهـــــري

فلمـــــا أزور زيـــــداً وعمـــــراً [1252]

وكان يعجبه قول أبي إسحاق الشيرازي في الصديق الوفي:

ســـــألت النـــــاس عـــــن خـــــلّ وفيّ

فقـــــالوا مـــــا إلى هـــــذا ســـــبيل

تمســـــك إن ظفـــــرت بـــــودّ حُـــــرّ

فـــــإن الحُـــــرّ في الـــــدنيا قليـــــل [1253]

[1252] المصدر نفسه ص 173.

[1253] الحافظ أبو الطاهر السَّلفي ص 173.

وقد حفظت لنا بعض الكتب حكايات، حدثت له مع بعض الشعراء، نروي منها هذه الحكاية، لما كان لها من أثر في تحريك عواطفه وإثارة مكامن الشوق والحنين لأهله وبلده أصبهان .. يقول أبو أحمد أبو محمد عبد الله بن محمد التجيبي الأندلسي المعروف بابن المليح : إن أبا الحجاج ابن الشيخ أنشد أبا الطاهر "السَّلفي" هذه الأبيات:

أيا مـــــن حـــــلّ نـــــور عيــــني
ويا مـــــن حـــــاز كـــــلّ عُـــــلاً وزيْـــــنِ
أنا مُـــــذْ صـــــرت عبـــــدك زدت فخـــــراً
وزال بملككـــــم نقصـــــي وشَـــــيْني
أتيـــــتكم لأقـــــرأ أو لأروي
فعـــــدت لمنـــــزلي صِـــــفر اليَـــــدَين
قـــــريح القلـــــب لم أضـــــفر بشـــــيء
كـــــأني لم أكـــــن أهـــــلاً لـــــذينِ
يـــــروح النـــــاسُ عنـــــك بكـــــل خـــــير
وأرجـــــع لابســـــاً خفّـــــيْ حُنَـــــيْنِ
ومـــــا ذنـــــبي ســـــوى أني غريـــــب
وقـــــومي حيـــــل بيـــــنهُمُ وبَيْـــــني

يقول أبو محمد ابن المليح : قال لي أبو الحجاج : لما وقف الشيخ أبو طاهر على هذه الأبيات وبلغ قولي:

ومـــــا ذنـــــبي ســـــوى أني غريـــــب
وقـــــومي حيـــــل بيـــــنهم وبـــــين

تواجد وبكى، وصاح بأعلى صوته: وقومي حيل بينهُمُ وبيني حنيناً إلى وطنه أصبهان، وشوقا إلى ما خلف من القرابة والإخوان وغش عليه، فجعل طلبته يلومونني ويقولون لي : ما هذا الذي جنيت علينا اليوم ؟ وأدخل الشيخ داره فلم يخرج إلا بعد أربعة أيام [1254].

وكان يقرض الشعر ومما قاله:

إن علـــــم الحـــــديث علـــــم رجـــــال
تركـــــــوا الابتـــــــداع للاتبـــــــاع

فـــــإذا جـــــنّ لـــــيلهم كتبـــــوه
وإذا أصـــــبحوا غـــــدوا للســـــماع [1255]

وقال معتزاً بما أكرمه الله به من معرفة بعلم الحديث

إذا ذُكـــــرت بحـــــار العلـــــم يومـــــا
فقـــــول المصـــــطفى لا غـــــيُر بحـــــري

هـــــو البحـــــر المحـــــيط ومـــــا عـــــداه
فأنهـــــار صـــــغار منـــــه تجـــــري [1256]

ومدح الإمام الشافعي في قصيدة طويلة جاء فيها:

فعليـــــك يا مـــــن رام ديـــــن محمـــــد
بالشـــــافعي ومـــــا أتاه وقـــــالا

أعـــــني محمـــــد بـــــن إدريـــــس الـــــذي
فـــــاق البريـــــة رتبـــــة وكمـــــالا

1254 المصدر نفسه ص 173.

1255 سير أعلام النبلاء (36/21).

1256 الحافظ أبو الطاهر السَّلفي ص 180.

وعـــــلا علـــــى النظـــــراء طّـــــراً واغتـــــدى
شمـــــس الهـــــدى والغـــــير كـــــان هـــــلالا
وأبحـــــث كـــــذا عـــــن صـــــحبه وأحـــــبهم
وأجلهـــــــــــم لله جـــــــــــل جـــــــــــلالا
وتجملـــــــن بهـــــم وكـــــن مـــــن حـــــزبهم
فهُـــــمُ الجَمَـــــال لـــــئن أردْت جمـــــالا

ورد في هذه القصيدة على أصحاب التجسيم والمعطلة وتناول فيها مشاهير المذهب الشافيع واحداً إلى أن وصل إلى قوله:

وأعلـــــــــم بأن أعـــــــــزهم وأجلهـــــــــم
شـــــــــيخ الأنام ســـــــــجية وفعـــــــــالا
مـــــــن لم يخـــــــف في الله لومـــــــة لائـــــــم
وبمـــــــا رآه مـــــــن الأذى مـــــــا بالا
ذاك ابـــــــن حنبـــــــل الإمـــــــام المقتـــــــدى
مـــــن فـــــاق بـــــين العـــــالمين خصـــــالاً[1257]

10- وفاتـه: في صباح يوم الجمعة – وقيل ليلة الجمعة – الخامس من ربيع الثاني سنة 576هـ غربت شمس حياة السلفي من الوجود وأفل نجمه من سماء الإسكندرية إلى الأبد فانتهت بذلك حياة طويلة عامرة، دامت قرناً من الزمن، قضاها صاحبها في رحاب العلم والتدريس، والمطالعة والكتابة والتحصيل والإفادة، لم يتوقف عن ذلك يوماً من الأيام ولم يمنعه مانع، وإنما ظل يتابع ويفيد حتى آخر أمسية من أمسيات حياته [1258] ، وصلى عليه صاحبه أبو طاهر بن عوف، فقيه الإسكندرية المالكي بعد ظهر الجمعة بجامع عبدالله

[1257] المصدر نفسه ص 183 ، 184.

[1258] الحافظ أبو الطاهر السَّلفي ص 254.

بن عمرو بن العاص، ودفن في مقبرة "وعلة" التي ذكرها ابن خلكان بقوله: وهي مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر [1259] ، فيها جماعة من الصالحين كالطرطوشي وغيره [1260] .

وقد زار قبره من المؤرخين المشهورين أبو شامة صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين. وذكر ذلك في أحداث سنة 576هـ فقال: وفيها توفي الحافظ السَّلفي، وقد زرت قبره داخل الباب الأخضر [1261] .

إن الحافظ أبا الطاهر السَّلفي من علماء الأمة الكبار وقد أكسب الإسكندرية بوجوده بها شهر عالمية في علم الحديث والقراءات طول القرن السادس الهجري وعلى أهل الإسكندرية أن يفتخروا بهذا العالم الجليل ويردوا له الجميل فيعّرفوا الأجيال بمكانته أو يعيدوا للأذهان اسمه بإطلاقه عليٍ أحد المعاهد أو المدارس، أو أن ينشروا تراثه [1262] .

ثالثاً : أبو طاهر بن عوف الإسكندراني: الشيخ الإمام، صدر الإسلام، شيخ المالكية، إسماعيل مكي ابن إسماعيل بن عيسى بن عوف بن يعقوب بن محمد بن عيسى بن عبد الملك ابن حميد ابن صاحب النبي صلى الله عليه وسلم، القرشي الزهري، العوفي الإسكندريُّ المالكي، من ذرية عبدالرحمان بن عوف رضي الله عنه [1263] ، ولد سنة خمس وثمانين وأربع مئة وتفقَّه على الأستاذ أبي بكر الطرطوشي وبرع، وفاق الأقران وتخَّرج به الأصحاب. وروى عن الطرطوشيّ "الموطَّأ" وعن أبي عبد الله الرازيَّ. وكان إمام عصره، وفريد دهره في الفقه، وعليه مدار الفتوى مع الورع والزهاده وكثرة العبادة [1264] ، والتواضع التام، ونزاهة النفس [1265] وقد شهد أبو الطاهر بن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية وقيام الدولة الأيوبية، وقد زار صلاح الدين الإسكندرية في سنة 577هـ، وحرص في هذه الزيارة أن يحضر هو وأولاده وكبار دولته دروس أبي الطاهر بن عوف، وسمعوا عليه جميعاً "موطأ مالك" بروايته عن أستاذه الطرطوشي، روى خبر هذه الزيارة وهذا السماع

[1259] أحد أبواب الإسكندرية القديمة، كان يقع في الناحية الغربية.

[1260] وفيات الأعيان (221/1).

[1261] كتاب الروضتين نقلاً عن الحافظ أبو الطاهر السَّلفي ص 255.

[1262] الحافظ أبو الطاهر السَّلفي ص 255.

[1263] سير أعلام النبلاء (122/21).

[1264] المصدر نفسه (123/21).

[1265] الديباج المذهب ابن فرحون ص 95

العماد الأصفهاني، فقد كان مصاحباً لصلاح الدين فيهما، قال: وتوجه السلطان بعد شهر رمضان (577هـ) إلى الإسكندرية على طريق البحيرة وخيم عند السواري وشاهد الأسوار التي جددها والعمارات التي مهَّدها وأمر بالأتمام والاهتمام، وقال السلطان : نغتنم حياة الشيخ أبي طاهر بن عوف. فحضرنا عنده، وسمعنا عليه موطأ مالك رضي الله عنه – بروايته عن الطرطوشي في العشر الأخيرة من شوال، وتَّم له ولأولاده ولنا به السماع [1266] واعتقد الجميع أن صلاح الدين قد حصَّل خيراً كثيراً بتتلمذه عن ابن عوف وسماعه منه، فقد أرسل القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني رسالة جميلة بليغة إلى صلاح الدين يهنئه فيها بهذا السماع ويقارن فيها بين رحلة صلاح الدين مع ولديه لسماع الموطأ على ابن عوف ورحلة هارون الرشيد مع ولديه لسماع نفس الكتاب على مؤلفه الإمام مالك، وفيما يلي نص الرسالة : أدام الله دولة المولى الملك الناصر، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين محي دولة أمير المؤمنين، وأسعد برحلته للعلم وأثابه عليها، وأوصل ذخائر الخير إليه، وأوزع الخلق شكراً لنعمته فيه فإنها نعمه لا توصل إلى شكرها إلا بإيزاعه، وأودع قلبه نور اليقين فإنه مستقر لا يودع فيه إلا ما كان مستنداً إلى إيداعه، ولله في الله رحلتاه، وفي سبيل الله يوماه، وما منهما إلا أغر محجل.

والحمد لله الذي جعله ذا يومين: يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه، ويوم يسفك دم الكافر تحت عَلَمَه، ففي الأول يطلب حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم – فيجعل أثره عيناً لا تستر وفي الثاني يحفل لنصرة شريعة هداه على الضلال فيجعل عينه أثراً لا يظهر وقد استغرق الناس همم العلماء في رحلتهم لنقل الحديث وسماعه والموالاة في طلب ثقته وانتجاعه، وصنفوا في ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه، والرفع من أقدار أهله والتنويه، فقالوا: رحل فلان لسماع مسند فلان وسار زيد إلى عمرو على بُعد المكان، هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره، ووقف عليه فكره، فلا يتجاذب عنان همته الكبائر فما القول في ملك خواطره كأبوابه مطروقة وأمور خلق الله كأمور دينه به معذوقة، إذ هاجر إلى بقية الخير في أضيق أوقاته، وترك للعلم أشد ضروراته، ووهب له أياماً مع أنه في الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته وما يحسب الملوك أن كاتب اليمين كتب لملك رحلة في طلب العلم إلا للرشيد هارون – رحمة الله عليه – على أنه خلط زيارة نبوية بطلب، ورحل بولديه إلى مالك – رحمة الله عليه – لسماع هذا الموطأ، الذي، اتفقت الرشيدية والناصرية على الرغبة في سماعه، والرحلة لا نتجاعه، وقد كان الرشيد سام مالكاً رحمه الله أن يجعل له ولولديه: الأمين والمأمون مجلساً خاصّاً لإسماع مصنفه، فقال له ما معناه: إنها سنة ابن عمك

[1266] كتاب الروضتين (24/2).

– صلى الله عليه وسلم – وغيُرك من سترها، ومثلُك من نشرها، فهذه رحلة ثانية في الزمان، وأولى في الإيمان، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين، ويقوم فيها مقام الرشيد، ويقوم عليُّه وعثمانه (1267) ، مقام ولديه المأمون والأمين، وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك رحمة الله عليه في خزانة الكتب المصرية، فإن كان قد حصل بالخزانة فهو بركة عظيمة، ومنقبة كريمة، وذخيرة قديمة وإلا فليلتمس وكذلك خطُّ موسى بن جعفر في فتيا المأمون – رحمهما الله كان أيضاً فيها، وكلاهما يتبرك بمثله، ويعلم به فضل العلم، لا خلا المولى – أبقاه الله – من فضله، وقف المملوك على ما بشر من صنع المولى وتوفيقه، وصحة مزاجه في طريقه، وانقطاع ما كان من دم، واسترواح القلب من كل هم، وقد استفتحت هذا الطريق بكل قال، مباركة الكبر والفال، مأثورة عن سيد البشر، فمن ذلك صحة جسمه، فلتهنه الصحة، وفسحة قلبه دامت له الفسحة، وانقطاع الدم، وطريقه إلى الشام ينقطع به الدم، ويتصل النصر له وينتظم السلم، وأخرى أنه رحل إلى الموطأ رحم الله مالكه، ويرحل فيما يطلب من الشام إلى الموطأ أسعد الله بن ممالكه، والله تعالى يحقق الخير، ويصرف الضير، ويبارك لمولانا في المقام والسير إن شاء الله (1268) . وأصبحت لابن عوف عند صلاح الدين منذ ذلك الحين مكانه كبيرة، يجعله ويحترمه، ويقدره، ويوقره، وإذا اعترضته مشكلة الدين أو الدولة، أرسل إليه يسأله الرأى والفتوى ويؤكد هذا قول ابن فرحون : وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعظِّم ابن عوف ويراسله ويستفتيه (1269) ، وقد روى الصفدي في كتابه "نكت الهميان" قصة مراسلة من هذه المراسلات عن ترجمته للقاضي شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون، فقد أضَّر هذا القاضي آخر عمره أثناء توليه القضاء وثار الجدل حول جواز بقائه في منصبه بعد إصابته بالعمى، وكان ابن أبي عصرون نفسه حريصاً على أن يظل قاضياً، فألف رسالة أيَّد فيها جواز أن يكون القاضي أعمى، وهو رأى تقول به القلة من الفقهاء وترفضه الكثرة، ويبدو أن صلاح الدينن كان حريصاً على إرضاء ابن أبي عصرون وعدم المساس بشعوره في شيخوخته ، فأرسل يستفتي ابن عوف في الأمر، قال الصفدي: وكتب السلطان صلاح الدين بخطه إلى القاضي الفاضل يقول فيه: إن القاضي قال: إن قضاء الأعمى جائز، فتجتمع بالشيخ أبي الطاهر ابن عوف الإسكندري وتسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى (1270) . وكان صلاح الدين يستجيب لراي ابن عوف ومشورته، فقد أسرع بتلبية رغبته عندما أشار عليه بإعادة ضريبة الصادر، وهي

1267يقصد ولدي صلاح الدين : الأفضل علي والعزيز عثمان.

1268كتاب الروضتين (24/2 – 25).

1269أعلام الإسكندرية ص 119.

1270الوفيات (256/2) نكتب الهيمان ص 185.

ضريبة كانت تفرض على تجارة الفرنج الصادرة من الإسكندرية وتوزع حصيلتها على فقهاء الثغر [1271]، وقد أشارت المراجع إلى أن نشاط ابن عوف لم يكن مقصوراً على التدريس وحسب، بل كان له نشاط مماثل في ميدان التأليف، فقد قال السيوطي: وله مؤلفات [1272]، وللشيخ أبي الطاهر تذكرة التذكرة في أصول الدين وغير ذلك في التأليف [1273]. وفي سنة 581هـ توفي ابن عوف ودفن في الإسكندرية وله ست وتسعون سنة [1274].

إن ما قام به أبو الطاهر السَّلفي وأبو الطاهر بن عوف من طلب العلم ونشره بين الناس والعمل على أحياء المذهب السني من أعظم الجهاد، فإن الإشتغال بطلب العلم وتعليمه من أعظم الجهاد لمن صحت نيتُه ولا يوازنه عمل من الأعمال لما فيه من إحياء العلم والدين، وإرشاد الجاهلين، والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر والخير الكثير الذي لا يستغني العباد عنه [1275].

فالعلم عبادة تجمع عدة قربات التقرب إلى الله بالإشتغال به، فإن أكثر الأئمة نصوا على تفضيله على أمهات العبادات، وذلك في أوقاته الزاهرة بالعلم، فكيف بهذه الأوقات التي تلاشى بها وكاد أن يضمحل، والاستكثار من ميراث النبي صلى الله عليه وسلم وأن من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، ونفعه واصل لصاحبه، ومتعَّد إلى غيره، ونافع لصاحبه حياً وميتاً، وإذا انقطعت الأعمال بالموت، وطويت صحيفة العبد، فأهل العلم حسناتهم تتزايد كلما انْتفُع بإرشادهم واهتُدِي بأقوالهم، فحقيق بالعاقل الموفق أن ينفق فيه نفائس أوقاته، وجوهر عمره، وأن يعده ليوم فقره، وفاقته [1276].

رابعاً: عبد الله بن أبي عصرون : الشيخ الإمام العلامة، الفقيه البارع، المقرئُ الأوْحَدُ، شيخ الشافعية، قاضي القضاة شرف الدين، عالم أهل الشام، أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله ابن المطَهَّر بن

[1271] أعلام الإسكندرية ص 120.

[1272] المصدر نفسه ص 120.

[1273] المصدر نفسه ص 121.

[1274] سير أعلام النبلاء (122/21) السنة النبوية في القرس السادس ص 677.

[1275] الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب.

[1276] المصدر ص 74.

علي بن أبي عصرون بن أبي السَّريّ، التَّميميُّ الحديثيُّ الأصل، الموصليُّ، الشافعي [1277]، وقد تولى ابن أبي عصرون في عهد نور الدين قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه [1278]، فقد ولد بالموصل سنة 492هـ أو 493هـ وتفقه على جماعة من العلماء وانتقل إلى حلب سنة 545هـ- 1150م، ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين إليها عام 549هـ - 1154م ودرس في جامع إلى حلب وأقام بها، وصنف كتباً كثيرة في الفقه والمذاهب ودرس على يديه عدد كبير من التلاميد وانتفعوا به وكان فقيهاً من طراز أول، ووصف بأنه من أفقه أهل عصره وأنه أمام أصحاب الشافعي يومذاك وكان متوحداً في العلم والعمل وسرعان ما تقدم عند نور الدين فكلفه بالإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وبعلبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه صلاحيات واسعة [1279]، كما اعتمده عام 566هـ - 1170م رسولاً إلى الخليفة المستضيء في بغداد[1280].

1- عبد الله بن أبي عصرون وصلاح الدين الأيوبي : كان صلاح الدين على معرفة تامة بعبد الله بن أبي عصرون منذ أيام نور الدين محمود زنكي فكلاهما نشأ في ظله وتحت رعايته خاصة صلاح الدين وكان الاثنان من رجاله الأكفاء إحدهما يشتغل بالقضاء والحكم والفتيا والتعليم والعلم والآخر يشتغل بالأمور العسكرية ويوليها اهتماماً زائداً وتدل مجريات الحوادث منذ أيام نور الدين محمود زنكي على أن العلاقات بين الرجلين كانت سليمة تسيرها روح الود والمحبة والتقدير، فقد عرف كل منهما الآخر حق المعرفة وبادله الاحترام بمثله، والدليل على ذلك الرسالة التي بعثها صلاح الدين من مصر للشام إلى ابن عصرون ولعل اختياره بالذات تفضيل له على غيره واعتراف بقدرته على التأثير في الأحداث، لذا كانت رسالته تحمل في طياتها نوعاً من العتب عليه وأملاً في أن يعمل بجد لإفشال تلك الاتفاقية الغادرة وكان عبدالله بن أبي عصرون لا يحبذ تلك الاتفاقية ولم يوافق عليها مع من وافق ولعله كان يعاني الألم النفسي لما حل بالمسلمين من الضعف بل كان يحبذ مجيء صلاح الدين من مصر ليعملا سوياً وبانسجام تام لتحطيم مثل هذه الاتفاقية، والانطلاق إلى تحقيق الهدف المعلن، وهو طرد المحتل الصليبي الجاثم فوق الأرض الإسلامية في بلاد

[1277] سير أعلام النبلاء (126/21).

[1278] عصر الدولة الزنكية للصَّلاَّبي ص 241.

[1279] عصر الدولة الزنكية ص 242 وفيات الأعيان ص 242.

[1280] مرآة الزمان (283/8) عصر الدولة الزنكية ص 243.

الشام [1281] ، ويبدو أن ابن أبي عصرون كان يحبذ قدوم صلاح الدين من مصر إلى الشام – بعد وفاة نور الدين واختلاف الأمراء من بعده – ويؤيد هذا القول أنه لم يوقع أولاً على الاتفاقية شأنه في ذلك شأن إمراء الشام وقضاته خاصة، وأنه كان من الشخصيات الكبيرة في المجتمع وثانياً أنه وقف ضد الأمراء الذين طلبوا الاستمرار في معاداة صلاح الدين الأيوبي والعمل ضد قدومه إلى بلاد الشام الأمر الذي جعل صلاح الدين يوليه قضاء مصر [1282] ، ومع ذلك ذهب عبدالله بن أبي عصرون من دمشق إلى حلب مع الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود زنكي قبل قدوم صلاح الدين إلى دمشق، ولم يمكث طويلاً بل عاد إلى دمشق ثانية وكان بها صلاح الدين الأيوبي عام 572هـ، وذلك عندما أشرف كمال الدين الشهرزوي قاضي الشام أيام صلاح الدين على الموت، بل كان من الذين غسلوه وكفنوه وسار على رأس المشيعين بجنازته بعد الموت [1283] .

2- تعيين ابن أبي عصرون على القضاء : عندما شعر كمال الدين الشهرزوري بدنو أجله فّوض القضاء في بلاد الشام إلى ابن أخيه، أبي الفضائل القاسم بن يحي بن عبد الله الملقب ضياء الدين ولم يسع صلاح الدين سوى الموافقة على هذا التفويض لأن ضياء الدين أهل للقضاء ليس إلاَّ، ولأن القضاء من الرتب العليا التي لا ينفع فيها توريث [1284] وقد كانت لكمال الدين الشهرزوري جهود في تهيئة الأمور بدمشق لاستقبال صلاح الدين لأنه اعتقد أنه أكفأ من باقي الأمراء لمنازلة العدو الصليبي وهذا العمل من الأعمال المجيدة التي تحسب لكمال الدين الشهرزوري، حيث وضع المصلحة العامة للمسلمين فوق كل اعتبار وفضّل صلاح الدين على باقي مجموع الأمراء في بلاد الشام الذين أمضوا الصلح مع العدو الصليبي [1285] وسيأتي بيان ذلك مفصلاً في حينه بإذن الله تعالى.

إلا أن صلاح الدين بعد وفاة كمال الدين الشهرزوري كان ميله لتعيين ابن أبي عصرون على القضاء للأسباب التالية :

[1281] المدارس العصرونية في بلاد الشام، د. صادق أحمد ص 29.

[1282] السلوك للمقريزي نقلاً عن المدارس العصرونية ص 29.

[1283] مفرج الكروب (50/2) المدارس العصرونية ص 29.

[1284] المدارس العصرونية في بلاد الشام ص 31.

[1285] المصدر نفسه ص 34.

1. قوة شخصية عبدالله بن أبي عصرون العلمية والأدبية، ومكانته كشيخ للمذهب الشافعي في زمنه، وقد شهد له معظم المعاصرين بهذا [1286] .
2. حب صلاح الدين الأيوبي لأتباع مذهب الشافعي وتقديرهم سيما وإنه كان شافعياً إلى درجة التعصب أحياناً وأنه أراد أن يوِّحد الدولة على أساس المذهب الشافعي.
3. احتضان صلاح الدين لعبد الله بن أبي عصرون عندما قدم إليه إلى دمشق لا بل تفويض قضاء مصر له كما روى المقريزي عام 570هـ ، وتوجيه كتاب له يحضه على إبطال مفعول معاهدة دمشق مع الصليبيين في نفس العام [1287] ، لدليل على أن صلاح الدين يكن له الحب والتقدير ويتمنى أن يكون قاضيه، بل تعتبر الرسالة تمهيداً لاختياره في المستقبل.
4. ثم إن علاقات صلاح الدين وابن أبي عصرون كانت على درجة كبيرة من المتانة وكان ابن أبي عصرون هو الذي تولى الإشراف على تزويج صلاح الدين بالخاتون عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أنر وزوجة السلطان نور الدين – قبل وفاته – التي كانت تقيم بقلعة دمشق عام 572هـ [1288] .
5. وجود شخصيات هامة في دولة صلاح الدين الأيوبي تحبذ أن يسند قضاء قضاة الشام إلى عبدالله بن أبي عصرون أمثال القاضي الفاضل الذي كانت علاقاته به متميزة وكان ابن أبي عصرون كثيراً ما يخاطبه في مراسلاته بمجير الدين القاضي الفاضل دليلاً على احترامه وعلو شأنه [1289] ، وكذلك الفقيه عيسى الهكاري أحد أمراء صلاح الدين والذي تتلمذ على يدي عبد الله بن أبي عصرون والذي كان يميل إلى استاذه ويتمنى أن يراه قاضياً لقضاة الشام [1290] ولشك في أن لهاتين الشخصيتين أثراً كبيراً في جعل صلاح الدين يميل إلى عبدالله بن أبي عصرون ويسند إليه القضاء، فالناس فيما يذهبون ويهوون مشارب ومذاهب [1291] .

[1286] مفرج الكروب (50/2) المدارس العصرونية ص 34.
[1287] كتاب الروضتين (231/1) المدارس العصرونية ص 35.
[1288] كتاب الروضتين (231/1) المدارس العصرونية ص 35.
[1289] كتاب الروضتين (231/1) المدارس العصرونية ص 35.
[1290] وفيات الأعيان (163/3) المدارس العصرونية ص 36.
[1291] المدارس العصرونية ص 36.

6. خطة عبدالله بن أبي عصرون وأعوانه الذين بدأوا يذيعون أن ضياء الدين سيعزل وربما يناله المكروه فتحّرج موقف الرجل ودفعه هذا العمل إلى تفضيل السّلامة وقدم استقالته من القضاء والتي قبلت بسرعة [1292] ، ودون تردد مما يفسر لنا أن صلاح الدين يميل إلى عبدالله بن أبي عصرون مع أنه لا يريد الإحراج لضياء الدين وإقالته [1293]، ومهما قيل فإن مجمل هذه الأسباب مجتمعة هيأت الظروف لأن يتولى شرف الدين بن أبي عصرون قضاء القضاة في جميع ممالك بلاد الشام الخاضعة لصلاح الدين الأيوبي عام 573هـ [1294] ، وكان شرط صلاح الدين على هذا التعيين أن يكون محي الدين أبو المعالي محمد بن زكي الدين والأوحد داود نائب كمال الدين الشهرزوري في الحكم والقضاء قاضيان يحكمان وهما عن منابته يوردان ويصدران وتوليتهما بتوقيع من السلطان نفسه [1295].

3- إنتاج ابن أبي عصرون العلمي: كان ابن أبي عصرون شخصية متميزة لها سماتها الفريدة فقد وصفه صاحب النجوم الزاهرة بأنه كان : أماماً فاضلاً مصنفاً [1296] ووصفه السبكي، صاحب طبقات الشافعية بقوله : نزيل دمشق وقاضي القضاة بها وعالمها ورئيسها [1297] وقال عنه موفق الدين ابن قدامه المقدسي: كان إمام أصحاب الشافعي في عصره ونعته ابن الصلاح بأنه أفقه أهل عصره وإليه المنتهى في الفتاوى والأحكام [1298] ووصفه العماد الأصفهاني بقوله: حجة الإسلام مفتي العراق والشام شيخ العلم العلامة وبفتياه توطدت للشرع الدعامة وله الفخار والفخامة، وليس في عصرنا من أتقن مذهب الشافعي عنه مثله وقد أشرق في الآفاق فضله وصنف في المذهب تصانيف مفيدة قواعدها في العلم مهيدة [1299] ، ومما صنفه ابن أبي عصرون؛ صفوة المذهب في نهاية المطلب وهو سبع مجلدات "الانتصار" في أربع مجلدات

[1292] المدارس العصرونية ص 37.

[1293] مفرج الكروب (50/2) المدارس العصرونية ص 37.

[1294] سنا البرق الشامي ص 113 المدارس العصرونية ص 38.

[1295] سنا البرق الشامي نقلاً عن المدارس العصرونية ص 39.

[1296] النحوم الزاهرة (109/6) المدارس العصرونية ص 122.

[1297] طبقات الشافعية (132/7) المدارس العصرونية ص 122.

[1298] المدارس العصرونية ص 122.

[1299] خريدة القصر، شعراء الشام (351/2) المدارس العصرونية ص 122.

"المرشد" في مجلدين "الذريعة في معرفة الشريعة" مجلد "التيسير" في الخلاف في أربعة مجلدات، "مآخذ النظر" و "مختصر الفرائض" و " الإرشاد المغرب في نصرة المذهب" ولم يكمله وذهب فيما ذهب له بحلب [1300] ، وله مؤلفات أخرى منها "التنبيه في معرفة الأحكام" " فوائد المهذب" في مجلدين [1301] . "والموافق والمخالف" [1302] ، و "فوائد المنذري" في مجلدين. وجمع جزءاً في جواز قضاء الأعمى [1303] .
وأضاف البغدادي في هداية العارفين [1304] ، فتاوى ومسلسلات في الحديث [1305] .

4- إنتاج شرف الدين الأدبي: اشتهر شرف الدين الدين في علوم الفقه والأصول والخلاف والفتاوى والقضاء وكذلك بالجانب الأدبي، فقد كان شاعراً أديباً أورد له العماد الأصفهاني وغيره مقطوعات شعرية كثيرة تنم عن إحساس متدفق وخيال خصب واسع ونفس مجربة عركتها الحياة [1306] ومن أشعاره :

كـــــل جمـــــع إلى الشـــــتات يصـــــير
أي صـــــفو مـــــا شـــــابه تكـــــدير
أنـــــت في اللهـــــو والأمـــــاني مقـــــيم
والمنـــــايا في كـــــل وقـــــت تســـــير
والـــــذي غّـــــره بلـــــوغ الأمـــــاني
بســـــرابٍ وخُلَّـــــب مغـــــرور
ويـــــك يا نفســـــي أخلصـــــي إن ربي
بالـــــذي أحقـــــت الصـــــدور بصـــــير[1307]

[1300] المدارس العصرونية ص 123.
[1301] المصدر نفسه ص 123.
[1302] المصدر نفسه ص 123.
[1303] المصدر نفسه ص 124.
[1304] المصدر نفسه ص 124.
[1305] المصدر نفسه ص 124.
[1306] المدارس العصرونية ص 124.
[1307] المصدر نفسه ص 126 النجوم الزاهرة (110/6).

ومن شعره :

أمســـــــــتخبري عـــــــن حَنِيـــــــني إليــــــه
وعـــــــن زَفَـــــــراتي وفـــــــرط اشـــــــتياقي
لــــــك الخــــــير إنَّ بقلـــــبي إليــــك
ظمـــــــــاً لا يُرَوِّيْـــــــــهِ إلا التلاقـــــــــي

وقال أيضاً:

يا ســــائلي كيـــــف حــــالي بعـــد فُرْقَتـــهِ
وحاشـــــاك ممَّــــا بقلـــــبي مــــن تَنَائيكــــا
قـــد أقســـم الـــدّمعُ لا يجفُـــو الجُفُـــون أســـىً
والنـــــوم لازارهــــا حــــتى ألاّ قيكــــا[1308]

هذه شخصية ابن أبي عصرون المتميزة فهي متكاملة الجوانب لها أثرها في مجال القضاء والفتيا والسياسة والإدارة، والدبلوماسية والسفارة تمتعت بقدر كافٍ من العلم والأدب أهَّلها إلى أن تتسلم أرقى المناصب وأرفعها وهي قضاء القضاة والسفارة ومشيخة الشافعية في عصرها [1309] .

5- حمله البشارة إلى الخلافة العباسية: من المهام الجليلة التي قام بها القاضي شرف الدين بن أبي عصرون هي حمل البشارة إلى الخلافة العباسية سنة 567هـ/1171م، بقطع صلاح الدين الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء بالله وكتب معه نسخة لهذه البشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها، فسار إلى بغداد ولم يترك مدينة إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذكر حتى وصل إلى بغداد الموكب إلى تلقيه وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده معظمين لجليل مورده، ونثرت عليه دنانير الأنعام وحبى بكل إحسان وإكرام، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح

[1308] سير أعلام النبلاء (128/21 ، 129).

[1309] المدارس العصرونية ص 128.

الدين [1310]، واستمر القاضي شرف الدين بن أبي عصرون مشاركاً في الحياة السياسية بعلمه وآرائه، وسفيراً لصلاح الدين إلى الخلافة العباسية ببغداد حتى كانت موقعة حطين سنة 583هـ/1187م. وأكد المؤرخون مشاركته لصلاح الدين في هذه الموقعة العظيمة التي فتح الله بها معظم مدن الساحل الشامي وبيت المقدس [1311].

6- عبدالله بن أبي عصرون يصاب بالعمى: ظل شرف الدين بن أبي عصرون قاضياً يحكم بالشرع حتى عام 577هـ، حيث أصيب آنذاك بالعمى وفقد بصره فتكلم الناس في عدم أهليته للقضاء وطعنوا بها [1312] ، وهنا وقع صلاح الدين في حرج شديد ورطة فقهية، فهو لا يريد أن يمس مشاعر صاحبه الذي فقد بصره ويعزله عن منصب القضاء وهو في نفس الوقت يتعرض لأقوال الفقهاء التي تطعن في بقاء ابن أبي عصرون في منصبه لعدم أهليته وقد تصدى شرف الدين بن أبي عصرون لهذه المشكلة بنفسه وإصدر كتاباً في جواز قضاء الأعمى مخالفاً في هذا مجموع الفقهاء، وكان سند ابن أبي عصرون فيما ذهب إليه من جواز قضاء الأعمى وجه ورد في جمع الجوامع للروياني اختاره شرف الدين بن أبي عصرون وصنف فيه جزءاً في جواز قضاء الأعمى وظل هو قاضياً لما أصيب بالعمى، وكانت حجة الجمهور أن الأعمى لا يعرف الخصوم، ولا الشهود، فكيف يحسن قضاؤه فيما يعرض عليه، وحجة من جوّز هذا أن شعيباً نبي الله كان أعمى فما دام هذا نبي مرسل فالقاضي بطريق أولى أن يكون قاضياً لأن النبي أشرف من القاضي لتفضيل الله له على غيره، وقيل أن شعيباً لم يثبت عماه، فلو سلمنا بعمى شعيب فإن الذين آمنوا به كانوا قلة فربما إنهم لم يحتاجوا إلى من يحكم بينهم، ولو فرضنا إنهم أحتاجوا فإن الوحي ينزل على النبي شعيب يزوده بالحكم الفاصل ولا يتسنى هذا للقاضي إذ لا وحي ينزل عليه [1313] ، وإمام هذه المشكلة التي يقف فيها شرف الدين بن أبي عصرون لوحده في جانب وجميع الفقهاء في الجانب الآخر بالشام، انتابت صلاح الدين الحيرة فماذا عساه صانع ؟ فالتفت صلاح الدين إلى القاضي الفاضل وكان في مصر آنذاك فأرسل إليه يستعين به على حل هذه المشكلة بأنه يتوجب عليه أن يتصل بالشيخ أبي طاهر بن عوف الإسكندري ويسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى [1314] ، علّه يجد له حلاً لما استعصى عليه، ثم لم تلبث أن وردت إجابات

1310 السلوك (64،65/1).

1311 دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى ص 135.

1312 وفيات الأعيان (54/3) المدارس العصرونية ص 39.

1313 مفرج الكروب (51/2) نكت الهيمان ص 60.

1314 وفيات الأعيان (54/3) المدارس العصرونية ص 41.

القاضي الفاضل إلى صلاح الدين الأيوبي وجاء فيها : لن يخلو الأمر عن قسمين، والله يختار للمولى خيرة الأقسام ولاينسى له هذا التخريج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام : إما إبقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشورته وفتياه وبركته ويتولى ولده النيابة ويشترط عليه المجازاة لأول زلة وترك الإقالة لأقل عثرة، فطالما بعث حب المناقشة الراجحة على اكتساب الأخلاق الصالحة، وإما أن يفوض الأمر إلى الإمام قطب الدين فهو بقية المشايخ وصدر الأصحاب ولا يجوز أن يتقدم عليه في بلد إلا من هو أرفع طبقة في العلم منه [1315] . وفي هذا الجواب وجد صلاح الدين المخرج بلا حرج فأبقى شرف الدين على رأس القضاء وفّوض الأمر إلى والده محي الدين أبي حامد محمد بن شرف الدين على أن يكون والده هو الحاكم الحقيقي، ويظهر للناس على أنه نائب عن أبيه بحيث لا يظهر للناس صرفه عن القضاء، وهكذا بقي شرف الدين بن أبي عصرون يمارس قضاء القضاة في بلاد الشام وولده نائب عنه، بفضل دفاعه عن نفسه والغوص في أعماق الفقه واستخلاص ما يجيز قضاء الأعمى، ثم تضامن صلاح الدين معه ومساندة صاحبه القاضي الفاضل له بالحق [1316] .

7- وفاة ابن أبي عصرون : توفي القاضي ابن أبي عصرون في حادي عشر رمضان سنة خمس وثمانين وخمس مئة [1317] ولما بلغ الخبر القاضي الفاضل بمصر كتب رسالة بهذه المناسبة يعَزي بشرف الدين ويرد على الرسالة التي وردته بالخبر من الشام: وصل كتاب الذات الكريمة جمع الله شملها وسر بها أهلها ويسر إلى الخيرات سبلها وجعل في ابتغاء رضوانه قولها وفعلها، وفيه زيادة هي نقص الإسلام وثلم في البرية يتجاوز رتبة الانثلام إلى الانهدام وذلك ما قضاه الله تعالى وقّدره من وفاة الإمام شرف الدين بن أبي عصرون رحمه الله تعالى، وما حصل بموته من نقص الأرض من أطرافها ومن مساءة أهل الملة ومسرة أهل خلافهما فلقد كان علما للعلم منصوباً وبقية من بقايا السلف الصالح محسوباً، والعلم بالشام زرعه وكل من انتفع فعليه كان واليه ينسب نفعه رضي الله عنه وأرضاه ونفع بماء الرحمة مثواه، وما مات من أبقى تلك التصانيف التي هي المعنى المغني بل ما مات من ولده المحيي فإنه والله لآثاره ولعلمه والحضرة تنوب عني في تعزيته والقيام بحق تسليته وقد ساءتني الغيبة عن مشهده، وتغيير القيام وراء سريره والتوسل إلى الله في ساعة مقدمه ولقد علم الله اغتمامي لفقد حضرته واستيحاشي لخلو الدنيا من بركته واهتمامي بما عدمت من النصيب الموفر (كان)

[1315] مفرج الكروب (67/2 – 68) المدارس العصرونية ص 41.

[1316] المدارس العصرونية ص 41.

[1317] سير أعلام النبلاء (129/21).

من أدعيته. وما مات بحمد الله حتى أحرز غيبته بأولاد كرام بررة وأنشأ طلبة للعلم نقله وللمدارس عمره وحتى بنى لله المدارس والمساجد واحيا نهاره وليله بين راكع وساجد فهو حي لمجده وإنما نحن الموتى بفقده [1318] وتعذر عليه

خامساً : الفقيه عيسى الهكاري: هو الفقيه ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري، أحد أمراء الدولة الصلاحية معولاً عليه في الآراء والمشورات، وقام بتدريس الفقه في المدرسة الزجاجية بمدينة حلب، واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين وصار إمامه يصلي به الفرائض الخمس، ولما توجه أسد الدين إلى الديار المصرية، وتولى الوزارة كان عيسى في صحبته، وكان صلاح الدين يستشيره ويتبع نصحه، وكان كثير الإدلال عليه يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام وكان واسطة بين صلاح الدين والناس بما ينفعهم [1319].

- **اسناده لصلاح الدين في وزارته :** بعد أن تولى صلاح الدين الوزارة بتقليد من الخليفة العاضد، اعترض بعض الأمراء النورية الذين طمعوا في الوزارة لأنفسهم على هذا الوضع ورفضوا طاعة صلاح الدين وخدمته [1320] ، وكادت تحدث فتنة بين قوات نور الدين في مصر لولا الدور الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري – وهو من الأكراد – فقد أخذ يسعى جاهداً بين هؤلاء الأمراء إلى أن جمعهم حوله بأنواع من الترغيب والترهيب، إلا أن عين الدولة الياروقي فضل العودة إلى الشام لخدمة نور الدين محمود على أن يظل تابعاً لصلاح الدين [1321] ، وهكذا يتضح الدور العظيم الذي قام به الفقيه عيسى الهكاري في دعم صلاح الدين في وزارته، فقد استطاع بقوة شخصيته وذكائه أن يوطد الأمور لصلاح الدين في بداية توليه حتى يتيح له الفرصة للتفرغ لما هو أهم من هذه الصراعات، ونعني بذلك الجهاد الأعظم ضد الصليبيين [1322].
- **إصلاح الموقف بين صلاح الدين ونور الدين:** كان الفضل للشيخ عيسى الهكاري في إصلاح الموقف بين صلاح الدين والسلطان نور الدين محمود عندما اعتذر صلاح الدين عن الزحف إلى

[1318] المدارس العصرونية ص 192.

[1319] وفيات الأعين (497/3) طبقات الشافعية (255/7).

[1320] دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 123.

[1321] الباهر ص 142.

[1322] دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 124.

حصن الكرك، كما طلب نور الدين الذي قبل وساطة الهكاري وحمّله رسالة إلى صلاح الدين مفادها أن حفظ مصر أهم عندنا من غيره (1323) . وكان صلاح الدين يعتمد عليه في كثير من الأمور حتى أصبح الفقيه عيسى واحداً من كبار الأمراء الصلاحية، وكان صلاح الدين يحترم علمه وعقله وآراءه، ويستشيره كثيراً في أمور الحكم ولم يكن يخرج عن رأيه (1324) .

- **مساهمته في الصلح مع أهل الموصل:** وتتوالى الأحداث والمواقف بعد ذلك لتؤكد أهمية ومكانة هذا الفقيه في دولة صلاح الدين الأيوبي، وذلك يتضح عندما أراد صلاح الدين في عام 578هـ/1182م أن يحاصر الموصل ويستعيدها من صاحبها الأتابك عز الدين مسعود ويضمها إلى الجبهة الإسلامية ويضمن وقوفها معه ضد الصليبيين في معركته الفاصلة معهم، ولكن بعد مناوشات عديدة بين الطرفين تدخل الخليفة العباسي في الأمر وأرسل صدر الدين شيخ الشيوخ مندوباً عنه للتوسط في الصلح بين الطرفين (1325) ، فأرسل صدر الدين إلى صلاح الدين يطلب منه إنفاذ بعض ثقاته لحضور مباحثات الصلح بين الطرفين، فتقدم السلطان إلى الأجل القاضي الفاضل، وإلى الفقيه عيسى أن يحضرا وأن ينهيا إليه ما يسمعانه منه، فمضيا وحضر عند شيخ الشيوخ، وقام كل من القاضي الفاضل والفقيه عيسى بالتباحث في الأمر نيابة عن صلاح الدين حتى استقر الصلح بين الطرفين، ورحل صلاح الدين عن الموصل وحقنت بذلك دماء المسلمين (1326).
- **التفاوض مع وزير خلاط:** قام الفقيه عيسى الهكاري في سنة 581هـ/1185م بمهمة دبلوماسية أخرى أوفده بها السلطان صلاح الدين الأيوبي للتفاوض مع وزير خلاط كنائب عنه، لأنه بعد وفاة شاة أرمن سكمان صاحب خلاط تولى مملوكه سيف الدين بكتمر البلاد، فسار نحوه البهلوان أتابك شمس الدين محمد بن ايلدكز صاحب العجم لأخذ خلاط منه، وطمع وزير خلاط أيضاً في الاستيلاء عليها وهو مجد الدين بن الموفق بن رشيق الذي أرسل إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي طالباً منه التدخل لحسم تلك الأطماع فبعث السلطان الفقيه عيسى الهكاري في هذه المهمة الدبلوماسية ليمهد الطريق ويناقش الأطراف، وتحدث وزير خلاط مع الفقيه عيسى طالباً استعجال السلطان في الوصول قبل وصول البهلوان، وكان السلطان بالفعل قد غادر الموصل في طريقه إلى خلاط، ولما علم البهلوان بتلك التطورات وذلك الموقف الحاسم الذي وقفه الفقيه عيسى في مساندة وزير خلاط، ورسالته العاجلة إلى

[1323] دور العلماء في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية ص 62.

[1324] دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 124.

[1325] كتاب الروضتين نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص 126.

[1326] دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 127.

السلطان، ودخل البهلوان الخوف وطلب الصلح مع وزير خلاط والعودة إلى بلاده فتم الصلح انقضى الخلاف، وذلك بحكمة الفقيه عيسى الهكاري الذي نجح في هذه المهمة وفتح أبواب الاستعطاف والاستمالة بين الفئتين(1327) .

- **رجل المهمات الخاصة:** في سنة 582هـ/1186م قام السلطان صلاح الدين بعدة تعديلات في مصر والشام خاصة بنوابه في البلاد لرغبته في الأطمئنان على مستقبل البلاد بعد وفاته من ناحية، وعدم حدوث خلاف بين أبنائه بالإضافة إلى تدريبهم على سياسة الملك في حياته وصيانة البلاد من الانشقاق من ناحية أخرى، لاسيما وأنه كان يعد نفسه للدخول في معركة فاصلة من معارك جهاده ضد الصليبيين، فلما وصلته الأخبار بأن ابن أخيه تقي الدين عمر – نائبه في مصر مع ولده الملك الأفضل – قد صدرت عنه تصرفات أثناء مرض صلاح الدين بحران تدل على رغبته في الاستبداد بالحكم في مصر، أرسل الفقيه عيسى الهكاري وكان كبير القدر عنده مطاعاً في الجند إلى مصر، وأمره بإخراج تقي الدين منها والمقام بمصر (1328) ، فأسرع الفقيه عيسى بتلبية الأمر وتوجه إلى مصر ونفذ ما أمر به وظل بها حتى يصل العادل أخو صلاح الدين إليها وبصحبته ولده العزيز عثمان بن صلاح الدين، وهذا يدل على الثقة الكبيرة التي أولاها صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري وأطمئنانه إليه خاصة وأنه يعلم مدى تأثير الهكاري في جند مصر (1329) .

- **شجاعته في الحروب ضد الصليبيين:** بعد أن استتب الأمر لصلاح الدين وبدأ جهاده في جبهة الشام يشاركه الكثير من المتطوعين من الفقهاء والعلماء، وفي مقدمتهم الفقيه عيسى الهكاري الذي يشاركه في جهاده ضد الصليبيين مشاركة فعلية وحمل السلاح وقاتل في المعارك مجاهداً في سبيل الله، وكان يلبس زي الأجناد بعمائم الفقهاء فيجمع بين اللباسين (1330) ، وقد أثبتت المصادر الإسلامية هذه المشاركة الفعلية التي قاما بها هذا الفقيه في الجهاد، فعندما خرج مع صلاح الدين في سنة 573هـ/1177م لمحاربة الصليبيين في عسقلان، قام بالإغارة عليها فقتل الكثير من الصليبيين وأسر الكثير وأحرق ما حولها، ثم واصل صلاح الدين بمن معه إلى الرملة فسبى وغنم ولكن لما تشاغل الجيش بالغنائم وتفرقوا في القرى والمناطق التي حولها وبقي صلاح الدين في طائفة قليلة من جنده، قام الصليبيون فجأة بالهجوم عليهم فأرتبك المسلمون وأخذوا يقاتلون الصليبيين ولكن حلت بهم الهزيمة وقتل

1327مفرج الكروب (168،169/2).

1328دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص 128.

1329المصدر نفسه ص 129.

1330وفيات الأعيان (498/3).

منهم أعداداً كثيرة وأسر الكثير منهم وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري وأخيه ظهير الدين ممن وقعوا في الأسر، ويذكر ابن الأثير في هذا المجال أن الفقيه عيسى الهكاري : كان أشد الناس قتالاً ذلك اليوم [1331] ، ومما يدل على المكانة العظيمة التي كانت للفقيه عيسى الهكاري عند صلاح الدين الأيوبي، هو ما ذكره المؤرخون من أن صلاح الدين افتداه من الأسر بعد سنتين بمبلغ ستين ألف دينار [1332] ، ويضيف المؤرخون بأن صلاح الدين لم يقتصر في فك أسر الفقيه الهكاري على فدائه بالأموال، فقط بل أطلق كثيراً من أفراد جماعة الداوية [1333] ، ممن كانوا عنده في الأسر، وهذا يدل على عظم وقدر الفقيه الهكاري لدى صلاح الدين الأيوبي [1334] . هذا وقد توفي الفقيه عيسى سنة 585هـ [1335] .

سادساً: زين الدين علي بن نجا: ومن المواقف الجديرة بالذكر التي قام بها بعض الفقهاء والعلماء في بداية قيام الدولة الأيوبية ما بدر منهم من حرص شديد سنة 569هـ/1174م على سلامة وأمن الدولة وعدم تفككها حتى لا يطمع فيها أعداء الإسلام والمسلمين، وكان ذلك عندما قامت جماعة من الشيعة في مصر بمؤامرة تهدف إلى إعادة الخلافة الفاطمية بمصر بعد أن أسقطها صلاح الدين سنة 567هـ/1171م، وكانت خطتهم في ذلك أن يستدعوا الصليبيين من صقلية وبلاد الشام إلى مصر لمساعدتهم مقابل أن يمنحوهم شيئاً من المال والبلاد وكانت خطتهم أنه في الوقت الذي تصل فيه القوات الصليبية ويخرج صلاح الدين بقواته للقائهم يقوم المتآمرون بإشعال نيران الثورة في الداخل فيقع السلطان بين نارين نار ثورة بالداخل ونار وجود الصليبيين خارج البلاد الأمر الذي يعمل على تشتيت قواته ويساعد على هزيمته أمام الصليبيين خارج البلاد، الأمر الذي يعمل على تشتيت قواته ويساعد على هزيمته أما الصليبيين من ناحية وسيطرة المتآمرين على مقاليد الحكم من ناحية أخرى وكان على رأس هؤلاء المتآمرين من الشيعة الفقيه الشاعر عمارة بن أبي الحسن اليمني [1336] ، وعبد الصمد الكاتب والقاضي هبة الله ابن عبدالله العويرس، وغيرهم من جند

[1331] مفرج الكروب (59،60/2).

[1332] كتاب الروضتين نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص 125.

[1333] جماعة دينية مسيحية حربية وهم من أصل فرنسي.

[1334] دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص 125.

[1335] وفيات الأعيان (497/3).

[1336] وفيات الأعيان (431/3 – 436).

المصريين ورجالاتهم السودان وحاشية القصر ومعهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده [1337] ولا شك أن هذا المخطط خيانة صريحة من قبل جماعة من الشيعة الذين استعانوا بالصليبيين لقتال المسلمين من أجل تحقيق المصالح الشخصية، ومن أجل تحطيم دولة صلاح الدين الإسلامية السنية التي تجاهد ضد أعداء الدين، بل لقد بلغت هذه الخيانة حداً كبيراً لدرجة أنهم يغرون الصليبيين بالأموال للقدوم إلى مصر بدلاً من صدهم ومحاربتهم [1338] .

وقد أراد الله أن يكشف خيوط المؤامرة على يد أحد رجال الدين من الفقهاء المخلصين الواعين والمقدرين للمصلحة الإسلامية الغيورين على تماسك وحدة الجبهة الإسلامية وهو زين الدين علي. ويذكر ابن الأثير : وكان من لطف الله بالمسلمين أن الجماعة المصرية أدخلوا معهم زين الدين علي بن نجا، الواعظ والقاضي المعروف بابن نجية [1339] ، ورتبوا الخليفة والوزير والداعي والقضاة [1340] ، فلما ضموا إليهم القاضي ابن نجا وشعر بخطورة ما يدعون إليه، قام بإخبار صلاح الدين بكل تفاصيل المؤامرة فطلب منه أن يظهر تعاطفه معهم وتواطئه على مايريدون فعله، وإخباره بما يتجدد من أخبار، ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه [1341] . وبناء على ذلك استطاع صلاح الدين الوقوف على تفاصيل المؤامرة، وفي تلك الأثناء وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة وهو في الظاهر إليه (أي صلاح الدين) والباطن إلى أولئك الجماعة وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق إليه من النصارى، وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته [1342] . وعندئذ تأكد صلاح الدين من حقيقة الأخبار التي وصلته من القاضي ابن نجا وتدارك الأمر قبل وقوع الكارثة، فأمر بالقبض على هؤلاء المتآمرين جميعاً وقضى عليهم وسكنت الفتنة [1343] . ثم قرب السلطان إليه زين الدين علي بن نجا وأحسن إليه بالأعطيات والإقطاعات، وأجمل وأعطاه وأجزل، وأتم له مراده وأكمل وكان السلطان يستشيره ويروفه تدبيره ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سجيته [1344] ، وكان

[1337] مفرج الكروب (243/1 -244).

[1338] دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 130.

[1339] وفيات الأعيان (530/2).

[1340] السلوك (74/1 ، 75) دور الفقهاء والعلماء ص 130

[1341] مفرج الكروب (244/1 ، 245).

[1342] الكامل في التاريخ نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص 131.

[1343] كتاب الروضتين (219/1 – 224).

[1344] دور الفقهاء والعلماء ص 131.

صلاح الدين يسمي ابن نجا عمرو بن العاص ويعمل برأيه لسداد رأيه وسعة حيلته، وأن كثيراً من أرباب الدولة وأهل السنة في مصر كانوا لا يخرجون عما يراه لهم زين الدين ابن نجا وأن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين قال له : إذا رأيت مصلحة في شيء فأكتب إليّ بها، فأنا ما أعمل إلا برأيك [1345]، ويذكر سبط بن الجوزي أن ابن نجا نشط في الوعظ والتحديث وأن صلاح الدين وأولاده كان يحضرون مجلسه ويسمعون مواعظه، وكان له الجاه العظيم والحرمة الزائدة [1346]، وعندما خرج صلاح الدين لمحاربة الصليبيين في بلاد الشام كان يكاتب زين الدين بن نجا بوقائعه [1347] ، من ذلك أنه عندما فتح قلعة حمص عام 570هـ-1174م كتب إليه يصف القلعة برسالة مطّولة [1348] . وعندما قرّر رأي صلاح الدين على الاستقرار في بلاد الشام كتب له ابن نجا عام 580هـ/1184م كتاباً يشّوقه إلى مصر ونيلها وخيراتها ومساجدها ومشاهدها ثم ذكر فضيلة مصر واستدل عليه بالآيات والأخبار والآداب والآثار، فردّ عليه صلاح الدين في رسالة – أوردها كل من سبط ابن الجوزي وأبو شامة – يخبره بأن سكنِ الشام أفضل ومناخها أجود وأن الله أقسم بها في القرآن، ويعاتبه على عدم حنينه إلى وطنه دمشق ويدعوه للانتقال إليها إلى أن ختمها بقوله: وزين الدين وفقه الله قد تعرض للشام فلم يرضى أن يكون المساوي حتى شرع في ذكر المساوي، ولعله يرجع إلى الحق ويعيد سعد أسعاده ورفاقه إلى الوفق إن شاء الله [1349] . ومهما يكن الأمر، فقد استمر ابن نجا يعمل مع صلاح الدين حتى دخل معه بيت المقدس فاتحاً وألقى في المسجد الأقصى أول مجلس [1350] للوعظ كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى وقد توفي أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الحنبلي الملقب بزين الدين عام 599هـ [1351].

سابعاً: العماد الأصفهاني: القاضي الإمام، العلاّمة المفتي، المنشيءُ، والوزير، عماد الدين، أبو عبد الله محمد بن حامد بن محمد بن عبدالله بن علي بن محمود بن هبة الأصبهاني الكاتب يعرف بابن أخي العزيز، قدم بغداد، فنزل بالنظامية، وبرع في الفقه على أبي منصور سعيد ابن الرّزاز واتقن العربية والخلاف، وساد في

[1345] الطبقات لابن رجب (437/1 ، 438).
[1346] مرآة الزمان نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 282.
[1347] كتاب الروضتين نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 283.
[1348] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 283.
[1349] كتاب الروضتين نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 284.
[1350] هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 284
[1351] وفيات الأعيان (530/2).

علم الترسل، وصنف التصانيف واشتهر ذكره [1352] ، واتَّصل بابن هبيرة، ثم تحَّول إلى دمشق سنة اثنتين وستَّين، واتَّصل بالدولة، وخدم بالإنشاء الملك نور الدَّين، وكان يُنشئُ بالفارسي أيضاً فنَّفذه نور الدين رسولا إلى المستنجد، وولاه تدريس العمادية سنة سبع وستين، ثم رتبَّه في إشراف الديوان، فلما توفي نور الدين أُهمِل، فقصد الموصل، ومرض، ثم عاد إلى حلب، وصلاح الدين محاصر لها سنة سبعين، فمدحه، ولزم ركابه، فاستكتبه، وقرَّبه، فكان القاضي الفاضل ينقطع بمصر لمهمَّات فيسدُّ العماد في الخدمة مَسَدَّة [1353] ، وصار العماد معاون القاضي الفاضل في كل الأمور واستعاد مقامه القديم وصار كاتب سر صلاح الدين [1354] ، واستكتبه صلاح الدين ووثق به وقرّبه إليه وصار من خاصته يصرف الأمور ويقسم الأموال التي سلمها إليه السلطان ويوقع على ما يوقع عليه دون مراجعة ويقضي حاجات من يلجأ إليه من الناس ويزاحم الوزراء وأعيان الدولة وإن لم يصل إلى نفس المكانة العالية التي كانت للفاضل في نفس صلاح الدين وقد لزم العماد صلاح الدين بعد هذا أكثر من القاضي الفاضل الذي كان يتخلف عن السلطان كثيراً ويقيم في القاهرة ودمشق ليشتغل بالأعمال السلطانية ... وأنشأ في عهد صلاح الدين الرسائل والمناشير والتبشيرات الكثيرة ودخل مجالس المشورة [1355] .

ولما مات السلطان صلاح الدين سنة 589هـ أفل نجم العماد فاختلت أحواله وساءت أموره ولم يعامله أولاد صلاح الدين معاملة أبيهم له وأقصوه عن مركزه وفي ذلك يقول العماد في مقدمة البرق الشامي: ولما نقله الله الكريم إلى جناب جنانه اقتسم أولاده ممالكه، وقلت : سلكوا مسالكه ونسكوا مناسكه وإنهم يعرفون مقداري، ويرفعون مناري ويشرحون صدري ولا يضعون قدري، فأخلف الظن حتى قطعوا رسومي ومنعوا مرسومي، وغوروا منابعي وكدّروا مشارعي [1356] وبعد موت صلاح الدين لا يذكر المؤلفون الذين ترجموا للعماد شيئاً من أخباره فيقول ياقوت : إنه لزم بيته وأقبل على التصنيف والإفادة [1357] ، كما يذكر ابن خلكان أنه : لزم بيته وأقبل على الاشتغال والتصانيف [1358] ، ويبدو أن العماد عاد بعد هذه الفترة إلى

[1352] سير أعلام النبلاء (345/21).

[1353] المصدر نفسه (346/21).

[1354] العماد الأصفهاني ، د. حسين عاصي ص 21.

[1355] المصدر نفسه ص 21 ، 22.

[1356] سنا البرق الشامي ص 52 العماد الأصفهاني للعاصي ص 24.

[1357] إرشاد الأديب (85/7).

[1358] وفيات الأعيان (152/5).

الدرس والتأليف ويتضح ذلك من رسالة بعث له بها القاضي الفاضل من مصر سنة 595هـ يشكو فيها حياة العزلة في مصر ويعد مقدرة العماد على الانكباب على الدرس والتأليف نعمة يتعين شكرها فيقول : وأنا على ما يعلمه المولى من العزلة إلا إنها بلا سكون وفي الزاوية المسنونة لأهل العافية في الزمان المجنون، ونحن على انتظار البرق الشامي أن يمطر وحاشا ذمة الوعد به أن تخفر واشتغال سيدنا في هذا الوقت بالدرس والتدريس والتصوير والتكييف، والتصانيف التي تصرف فيها بالبلاغة أحسن التصاريف نعمة يتعين شكرها على العلماء، ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء [1359] ومما قاله من شعر:

وللنـــــاس بالملـــــك الناصـــــر الصّـــــلاح
صـــــــلاح ونصـــــــر كبـــــــير
هـــــو الشـــــمسُ وأفلاكُـــــهُ في الـــــبلاد
ومطلُعُـــــــه سَـــــــرْجُهُ والســـــــرير
إذا مـــــا سَـــــطَا أو حبـــــا واحتـــــبى
فمـــا الليـــث؟ مـــن حـــاتم ؟ مـــا ثَبِـــيْر [1360] ؟

وارتحل في موكب فقال في القاضي الفاضل

أمَّـــــــا الـــــــغُ◌َارُ فإنَّـــــــه
مِمَّـــــــا أَثَارَتـــــــه السَّـــــــنَابِك
فـــــــالجوُّ منـــــــه مُظلِـــــــمٌ
لكـــــــن تباشـــــــير السَّـــــــنابك
يا دهـــــــــرُ لي عبـــــــــدالرحيم
فلســـــتُ أخشـــــى مَـــــسَّ نابـــــك [1361]

[1359] كتاب الروضتين نقلاً عن العماد الأصفهاني ص 26.
[1360] سير أعلام النبلاء (249/21).
[1361] سير أعلام النبلاء (350/21).

وقد توفي العماد في الاثنين مستهل شهر رمضان سنة 597هـ/5 حزيران 1121، ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر [1362] .

ثامناً: الخَبُوشاني: الفقيه الكبير، الزاهد، نجم الدين أبو البركات محمد بن موفَّق بن سعيد الخُبُوشاني، الشافعي الصوفي، تفقه على محمد بن يحي وبرع [1363] ، وكان يستحضر كتابه المحيط وهو ستة عشر مجلداً، وأصله من نيسابور وكان السلطان صلاح الدين يُقرِّبُهُ ويعتقد فيه وقد اشتهر بالفضل والديانة وسلامة الباطن، وكان متقشفاً في العيش، صلباً في الدين وكان يقول – قبل نزوله إلى مصر – أصعد إلى مصر، وأزيل ملك بني عُبيد اليهودي، فنزل بالقاهرة، وصّرح بثلب أهل القصر، وجعل سَبَّهم تسبيَحهُ، فحاروا فيه فنفذوا إليه بمال عظيم قيل: أربعة الآدف دينار، فقال للرسول: ويلك ما هذه البدعة ؟ فأعجله، فرمى الذَّهب بين يديه، فضربه وصارت عمامته حِلقَاً وأنزله من السلم [1364] وعندما نزل مصر عام خمس وستين وخمسمائة، نزل ببعض مساجدها، فأتَّفق أن الخليفة العاضد لدين الله رأى في منامه أنه بمدينة مصر وقد خرج إليه عقرب من مسجد معروف بها فلدغه، فانتبه مذعوراً، واستدعى عابر الرؤيا وقصّ عليه ما رأى، فقال ينال أمير المؤمنين مكروه من شخص مقيم بهذا المسجد فألزم الوالي بإحضار من في المسجد، فمضى إليه وأحضر منه رجلاً صوفياً : فسأله العاضد من أين هو، ومتى قدم مصر وفي أي شيء جاء، فأجابه عن ذلك، ولم يظهر للعاضد ما يريبه، بل تبيّن منه ضعف الحال مع الصدق، فدفع إليه مالاً. وقال له: يا شيخ أدع لنا، وخلاّه لسبيله فعاد إلى مسجده ولم يزل به حتّى قدم شيركوه من دمشق، وقام في وزارة العاضد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وشرع في إزالة الدولة، فاستفتى فقهاء مصر، فكان أشَّدهم مبالغة في الفُتيا، وعدّد مساوئ القوم، وسلب عنهم الإيمان، وأطال القول في الحطَّ عليهم [1365] .

وكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، فقد جاءه حاجب نائب مصر المظفر الدين عمر، وقال له : تقُّي الدين يُسلَّمُ عليك. فقال الخبُوشاني قل : بل شَقيُّ الدين لا سَلمَّ الله عليه قال : إنه يعتذر، ويقول: ليس له موضعٌ لبيع المِزْرِ [1366] . قال : يكذب. قال : إن كان ثّم مكان، فأرناه قال: إدنُ. فدنا، فأمسك

[1362] العماد الأصفهاني ص 27.

[1363] سير أعلام النبلاء (204/21).

[1364] طبقات السبكي (15/7) سير أعلام (205/21).

[1365] الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (427/25 ، 428).

[1366] المزر : بكسر الميم : نبيذ يتخذ من الذرة وقيل من الشعير أو الحنطة.

بشعره، وجعل يلطم على رأسه ويقول: لستُ مزّاراً، فأعرف مواضع المِزْر، فخلصَّوه منه[1367] . وعاش عمره لم يأخذ درهماً لِمَلَكٍ ولا من وقْفٍ ودفن في الكساء الذي صحبه من بلده، وكان يأكل من تاخر صَحِبَهُ من بلده [1368] . هذا وقد مات الخَبُوشانيُّ في ذي القعد سنة سبع وثمانين وخمس مئة [1369].

فهذه التراجم لسير بعض العلماء في عهد صلاح الدين وكانت مكانة هؤلاء العلماء والفقهاء عند صلاح الدين بالغة الرفعة ونالوا حظاً وافراً عنده، فكان مجلسه حافلاً بأهل العلم والفضل ويذكر العماد في هذا الشأن أنه كان : يؤثر سماع الحديث بالأسانيد، وتكلم العلماء عنده بالعلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية [1370] .

كما يذكر ابن شداد عنه: ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان ممن يحضره عنده استحضره وسمع عليه، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده، ومماليكه المختصين به ... وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم، يسعى إليه، وسمع عليه [1371] ، وقد كانت علاقة صلاح الدين بالإمام قطب الدين النيسابوري علاقة وطيدة، لأنه كان دائم المناقشة والبحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء فيما يحتاج إلى تفهمه [1372] ، وخلاصة القول أن العلماء والفقهاء كانوا يحتلون مكانة عظيمة وحظوة كبيرة عند صلاح الدين ونالوا منه كل عطف ورعاية واحترام وتقدير من الناحيتين المادية والمعنوية، وكانت آراؤهم موضع اعتبار وتقدير من هؤلاء الملوك، واستشارتهم واجبة في كل الأمور الشرعية التي تمس كل نواحي الحياة في الدولة، بل أصبح لهؤلاء العلماء والفقهاء السيطرة الروحية على أذهان الناس وبلغت مكانتهم حداً كبيراً من الرفعة لدرجة أنهم أثروا تأثيراً بالغاً في الشعوب

[1367] سير أعلام النبلاء (207/21).

[1368] المصدر نفسه (207/21).

[1369] المصدر نفسه (207/21).

[1370] دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 138.

[1371] النوادر السلطانية ص 7 دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 138.

[1372] دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 138.

والحكومات، ولا أدل على ذلك من أن الحكومات قد أسلمت زمام الدفاع والقتال لرجال العلم والفقه أمثال الفقيه عيسى الهكاري الذي أجاد وبرع في الناحيتين الدينينة والحربية في عصر صلاح الدين [1373] .

[1373] المصدر نفسه ص 139.